المثقّفون II

المثقفون II

تأليف / سيمون دو بوفوار

الطبعة الأولى: ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

جميع الحقوق محفوظة لدى كلمة www.kalima.ae

ص.ب. ٢٣٨٠ أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة هاتف ٦٣١٤٤٦٨ ٢ ٩٧١+

فاكس ٦٣١٤٤٦٢ ٢ ٩٧١+

دار الآداب للنشر والتوزيع بيروت - لبنان، ساقية الجنزير - بناية بيهم ص. ب. ٤١٢٣ - ١١

هاتف: ٨٦١٦٣٣ ١ ٩٦١+ ٧٩٥١٣٥ ١ ٩٦١+ فاكس ٨٦١٦٣٣ ١ ٩٦١ +

e-mail:d_aladab@cyberia.net.lb

ISBN: **978-9953-89-099-9**

هذه الترجمة العربية لكتاب: Les Mandarins II

© Editions Gallimard 1954 - Simone de Beauvoir - Les Mandarins II

إن هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبّر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبّر بالضرورة عن آراء الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لكلمة.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

الفصل السادس

كنت في نشوة من الفرح والفضول في المساء الذي حطّت بي الطائرة في لاغوارديا. أمضيت الأسبوع التالي وأنا أكظم غيظي. نعم، كان عليَّ أن أعرف كل شيء عن الاكتشافات الأخيرة التي توصّل إليها التحليل النفسيّ في أميركا. اتّسمت جلسات المؤتمر بطابعها التعليميّ وكذلك الأحاديث التي تداولها زملائي. كنت راغبة أيضًا في التعرّف على مدينة نيويورك إلاّ أنّهم فعلوا كل ما وسعهم للحؤول دون تحقيق رغبتي، واعترتني حال من الأسف والمرارة.

احتُجزت في فنادق مرتفعة الحرارة وفي مطاعم مكيّفة الهواء ومكاتب مهيبة وشقق فخمة. ولم يكن سهلاً الإفلات من زملائي. عندما عدت برفقتهم إلى الفندق بعد العشاء، رحتُ أحثّ الخطى لاجتياز قاعة الفندق والخروج من الباب الآخر. ثم كنت أنهض عند الفجر وأذهب للتنزّه قبل المباشرة بجلسة الصباح. لكنّي لم أجن فائدة تُذكر من لحظات الحريّة هذه المقتنصة على عجل، وأدركت أنَّ الوحدة في أميركا غير مجدية. شعرت بالقلق لدى مغادرة نيويورك. ومن بعدها كانت جولة في شيكاغو، سان لويس، نيو أورليانز، فيلادلفيا، نيويورك من جديد، بوسطن، مونريال. جولة جميلة فعلاً لو توفّرت لي الوسائل للإفادة منها. كان زملائي قد أرشدوني إلى عناوين بعض أصدقائهم من سكّان البلاد الأصليّين الذين سيسهّلون لي التعرّف على مدينتهم لكنّها فقط عناوين أطبّاء وأساتذة وكتّاب، وكان هذا يجعلني أحترس. بالنسبة لشيكاغو، لن

يتسنّى لي الوقت لأنّه لم يتبقَّ لي إلاّ يومان. انتظرتني سيّدتان متقدّمتان في السنّ في المطار واصطحبتاني لتناول الغداء مع سيّدات عجائز أخريات لم يتركنني طيلة النهار. بعد إلقائي محاضرات تناولت الطعام وهو كناية عن سرطان البحر برفقة سيّدتين ترتديان ثيابًا منشّاة. أنهكني الضجر، إلى درجة أنّني فور عودتي إلى الفندق خلدت للنوم توًّا.

كان الغضب هو الذي أيقظني صباحًا، اتخذت قراري: «لا يمكن لهذا أن يدوم». رفعت سمّاعة الهاتف: «آسفة، أعتذر للغياب. لكنَّ زكامًا ألمَّ بي واضطرّني إلى ملازمة الفراش». ثم قفزت من السرير ببهجة. لكن، عندما أصبحت في الشارع، تلاشت أوهامي. كان البرد قارسًا. وبين سكك الترامواي والمترو المعلّق في الهواء، شعرتني ضائعة تمامًا. غير مجدٍ السير لساعات: لن أصل إلى أيّ مكان. فتحت مفكّرتي: لويس بروغان، كاتب. ربَّما كان الاتّصال به أفضل من لا شيء. قلت لبروغان هذا إنّني صديقة لآل بنسون. لا بدَّ أنّهم بعثوا إليه برسالة يبلغونه فيها عن قدومي. حسنًا، سيصل إلى قاعة الفندق في الساعة الثانية بعد الظهر. فقلت له: «أنا من سأمرّ لاصطحابك»، وأقفلت السمّاعة. أمقت الفندق حيث نزلت ورائحة المطهّرات فيه، والدولارات. راودتني فكرة أن أستقلَّ سيّارة تاكسي للذهاب إلى مكان محدّد ورؤية أحد ما.

اجتازت سيّارة التاكسي الجسور والسكك والمستودعات، سالكة أيضًا طرقًا توزّعت على جوانبها محالّ إيطاليّة. ثم توقفت عند زاوية ممرّ تتصاعد منه رائحة الورق المحترق والأرض المبللة

والفقر. دلّني السائق إلى جدار من القرميد اتّصلت به شرفة من خشب: «العنوان هنا». سرت بمحاذاة سياج من القصب. إلى يساري، كانت هناك حانة مزيّنة بلافتة حمراء ضوؤها مطفأ: SCHILTZ. إلى اليمين ملصق كبير يمثّل العائلة الأميركيّة المثاليّة تشتمّ بشهيّة طبقًا من حساء الشعير. عند أسفل السلّم الخشبيّ سلّة نفايات يتصاعد منها الدخان. صعدت الدرج. على الشرفة وجدت بابًا زجاجيًّا يحجبه ستار أصفر: لا بدَّ أنّ هذا هو المكان. لكنّي فجأة شعرتني خجلة. للغنى طابع علني، دومًا. أمّا حياة الفقر فحميمة. بدا لي تطفّلاً منّي أن أقرع على هذا الزجاج. نظرت بحيرة إلى جدران القرميد المتّصلة برتابة بأدراج وشرفات أخرى مكفهرّة. من خلف السطوح، لمحت مضخّة هائلة حمراء وبيضاء: إنّها مخزن للغاز. وعند أسفل قدميّ، وسط مربّع ترابيّ أجرد، شجرة تزداد قتامة، وطاحونة صغيرة ذات مراوح زرقاء. في البعيد، مرّ قطار واهتزّت الشرفة لمروره. قرعت الباب فأطلّ منه رجل في مقتبل العمر، طويل القامة، يرتدي سترة جلديّة تضفي على جذعه مظهرًا متصلّبًا. تفرّس بي بدهشة:

ــ هل اهتديت إلى المنزل؟

ــ هذا ما يبدو لي.

كان الموقد الأسود يهدر وسط مطبخ أصفر. مُشمّع الأرضيّة مكسوّ بأوراق صحف قديمة. ولاحظت أنّه لم يكن هناك برّاد. أشار بروغان إلى الأوراق بحركة غامضة: «كنت أرتّبها قليلاً».

ــ آمل ألاّ أكون قد أزعجتك.

ـ لكن لا. بقي منتصبًا أمامي وقد بدا عليه الإحراج: « لماذا لم توافقي على أن أمرّ لاصطحابك من الفندق حيث تنزلين؟».

ـ إنّه مكان مريع.

ارتسمت أخيرًا على فم بروغان ابتسامة: «إنّه أجمل فنادق شيكاغو».

ـ بالضبط لأنّه كذلك. سجّاد كثير، أزهار كثيرة، أناس كثيرون، موسيقى كثيرة، كل شيء كثير.

غضّنت ابتسامة وجهه وصولاً حتى عينيه.

ـ تفضّلي إذًا من هنا.

رأيت بادئ الأمر الغطاء المكسيكي ولوحة فان غوغ بكرسيّها الأصفر، والكتب والبيك أب والآلة الكاتبة. لا بدَّ أنّ العيش رغيد هنا في هذه الغرفة التي ليست استوديو فنّان يتذوّق الجمال، ولا نموذجًا عن البيت الأميركي المثاليّ. قلت بحماسة: «ظريف بيتك».

ـ أحقًّا؟ أجال بروغان نظره على الجدران وأضاف: «شقة غير واسعة الأرجاء». خيّم الصمت من جديد: «ألا تريدين أن تخلعي معطفك؟ ما رأيك بفنجان قهوة؟ لديَّ أسطوانات فرنسيّة، فهل تحبّين سماعها؟ أسطوانات لشارل ترينيه؟».

أكان ذلك بسبب الموقد الكبير الذي يهدر وسط الغرفة، أم لأنَّ ظلّ الشجرة القاتمة ارتعش على الستار الذي ذهّبته شمس شباط الباردة، خطر لي حالاً: «لطيف إمضاء النهار بالجلوس على

الغطاء المكسيكيّ». لكنّي اتّصلت ببروغان لكي يجول بي في شيكاغو ويعرّفني عليها. قلت بحزم:

ــ أودّ رؤية شيكاغو: أنا مسافرة غدًا صباحًا.

ــ شيكاغو مدينة كبيرة.

ــ عرّفني على بقعة منها.

لمس سترته الجلديّة وقال بصوت يشوبه القلق: « هل عليّ ارتداء ثياب لائقة؟».

ــ ماذا دهاك! أكره القبّات المنشّاة!

فبادرني مستنكرًا:

ــ لم أرتدِ قبّة منشّاة طيلة حياتي...

للمرّة الأولى، تبادلنا الابتسامة. لكنّه لم يبدُ عليه أنّه كان مطمئنًّا تمامًا:

ــ ألستِ مصمّمة على رؤية المسالخ؟

ــ لا. لنجلْ في الشوارع.

شوارع كثيرة وجميعها متشابهة، تحفّ بها شاليهات قديمة وأراضٍ بور تحاول أن تحاكي جنائن الضواحي. سلكنا جادّات مستقيمة وكئيبة. وفي كل مكان واجهنا البرد القارس، لمس بروغان أذنيه قلقًا: «إنّهما متجمّدتان تمامًا، ستتقصف كل واحدة منهما إلى نصفين».

أشفقت عليه: «تعال ننشُد الدفء في أحد البارات».

دخلنا إلى البار. طلب بروغان جنجر آل[1]، وأنا طلبت كأسًا من الويسكي. وعندما خرجنا، كان الطقس باردًا فدخلنا إلى بار آخر. رحنا نتحدّث. كان بروغان قد أمضى بعد الإنزال بضعة أشهر في مخيّم في الأردين[2].

طرح عليّ جملة أسئلة عن فرنسا والحرب والاحتلال وباريس، وحذوت حذوه. كان يبدو سعيدًا لأنَّ أحدًا يصغي إليه، ومرتبكًا حين يتكلّم عن نفسه. كان يتلعثم في مستهلّ كلامه ثم لا يلبث أن يندفع بأسلوبه السلس فأشعر برغبة جامحة في الاستماع إليه وكأنّني أتلقى هديّة. وُلد في جنوب شيكاغو. والده سمّان صغير من أصل فنلنديّ وأمّه يهوديّة مجريّة. كان في العشرين حين عصفت بالبلاد الأزمة الاقتصاديّة الكبيرة. جال في أرجاء أميركا على غير هدى مختبئًا في مقطورات الشاحنات المحمّلة بالبضائع، وعمل مداورة بائعًا جوّالاً وغطّاسًا ونادلاً ومدلّكًا وحفّارًا وبنّاءً وبائعًا، وعند لزوم الحال سارق منازل. وفي أحد مرابط الأريزونا غسل الأقداح وكتب قصّة قصيرة نشرتها مجلة يساريّة وعندئذٍ كتب قصصًا قصيرةً أخرى. ومذ نجحت روايته الأولى، خصّص له صاحب دار النشر مرتّبًا شهريًّا يكفيه لسدّ حاجاته.

قلت:

---

(١) جنجر آل: ginger ale: مشروب غير كحولي مطيّب بالزنجبيل (وقد يخالطه كحول).

(٢) الأردين Ardennes: منطقة هضاب رمليّة واسعة بين بلجيكا وفرنسا ولوكسبمورغ غربي حوض الرّين.

ـ أودّ فعلاً أن أقرأ هذا الكتاب.

ـ الكتاب التالي سيكون أفضل.

ـ لكنّ هذا الكتاب صدر ونُشر ووُزّع.

تفرّس في وجهي بحيرة:

ـ هل تودّين فعلاً قراءته؟

ـ نعم، فعلاً.

نهض ومشى باتّجاه الهاتف في عمق الغرفة، عاد بعد ثلاث دقائق: «سيصلك الكتاب إلى الفندق محلّ إقامتك قبل موعد العشاء».

قلت بحرارة:

ـ أشكرك فعلاً!

لقد تركت بادرته المندفعة صدىً إيجابيًّا في نفسي. وعفويّته جعلته ودودًا في عيني من أول نظرة. لم يكن يتقن الجمل الجاهزة وطقوس التهذيب. أمّا مجاملاته فمرتجلة وتشبه إبداعات الحنان. بداية، استمتعت بلقاء هذا النموذج الأميركيّ الكلاسيكيّ بشحمه ولحمه: كاتب يساريّ صنع نفسه بنفسه. فيما كنت مهتمّة الآن ببروغان. شعرت عبر ما رواه لي أنّه لم يتمتّع بشيء من مباهج هذه الحياة وتحدوه في الوقت ذاته رغبة عارمة في العيش. أعجبني لديه هذا المزيج من التواضع والنهم.

سألته:

ـــ كيف راودتك فكرة الكتابة؟

ـــ كانت أوراق الطباعة تستهويني على الدوام. عندما كنت طفلاً، اخترعت جريدة من خلال إلصاق قصاصات الصحف فوق الدفاتر.

ـــ لا بدَّ أنَّ هنالك أسبابًا أخرى.

قال بعد تفكير:

ـــ تعرّفت على الكثير من البشر المختلفي المشارب والأهواء. أرغب في أن أظهر لكلّ واحد حقيقة الآخرين. نروي أكاذيب كثيرة. صمت للحظة ثم أضاف: «في سنّ العشرين، أدركت أنَّ الجميع كانوا يكذبون عليَّ وجعلني هذا في حال من النقمة العارمة. أظنّ أنّ هذا هو السبب الذي دفعني إلى الكتابة. وها أنذا أتابع ما بدأت...».

ـــ ألا تزال ناقمًا؟

فأجاب بابتسامة صغيرة متردّدة:

ـــ تقريبًا.

سألته:

ـــ ألا تعمل في السياسة؟

ـــ أقوم بأشياء صغيرة.

إجمالاً كان وضعه مشابهًا لوضع روبير وهنري، لكنّه بخلافهما يتكيّف مع الأوضاع الطارئة بهدوء إكزوتيكيّ. كان ينشط من خلال

الكتابة والأحاديث عبر الإذاعة والمؤتمرات أحيانًا عاملاً على فضح بعض التجاوزات ويشعر إزاء ذلك برضًى تامّ. سبق وقيل لي إنّ المثقّفين في أميركا يعيشون بأمان لأنّهم يدركون سلفًا أنّهم عاجزون عن القيام بأيّ دور.

ــ هل لديك أصدقاء من معشر الكتّاب؟

أجاب منفعلاً:

ــ آه! لا! ثم ابتسم: «لديّ أصدقاء شرعوا في الكتابة عندما رأوني أكسب مالاً لا لشيء إلاّ لأنّني جالس أمام آلتي الكاتبة. ولكنّهم لم يصبحوا أدباء».

ــ هل جنوا مالاً؟

بدأ يضحك صراحة: «كتب أحدهم خمسمائة صفحة في غضون شهر. لا بدَّ أنّه دفع مالاً كثيرًا لطباعتها ونشرها في كتاب، لكنّ زوجته منعته من إعادة الكرّة. وعندئذٍ عاد إلى عمله كنشّال جيوب».

سألته:

ــ وهل هذه مهنة جيّدة؟

ــ هذا رهن الظروف. في شيكاغو، تشهد هذه المهنة مزاحمة شديدة بين متداوليها.

ــ هل تعرف الكثير من النشّالين؟

نظر إليَّ ساخرًا وقال:

ـ نصف دزينة.

ـ ورجال عصابات؟

ظهرت على وجه بروغان علامات الوقار وقال:

ـ جميع رجال العصابات أوغاد!

وبدأ يتحدّث إليّ بذرابة لسان عن الدور الذي لعبه رجال العصابات في السنوات الأخيرة، واستخدامهم لصدّ تحرّكات المحتجّين. ثم روى لي قصصًا كثيرة عن علاقتهم بالشرطة والسياسة والأعمال. كان يتحدّث بسرعة، وشقّ عليّ قليلاً أن أواكبه رغم أنّ حديثه كان شيّقًا مثل أفلام إدوارد روبنسون[1]. ثم توقف عن الكلام فجأة:

ـ ألست جائعة؟

ـ بلى. لا سيّما في هذه اللحظة وقد جعلتني أفكّر بالموضوع. أنا جائعة كثيرًا. ثم أضفت ببشاشة: «تعرف أخبارًا مذهلة».

قال:

ـ حتى لو لم يكن لديّ أخبار لاخترعتها فقط لأوفّر لك متعة السماع.

---

(١) إدوارد روبنسون Edward Robinson: ممثّل أميركي من أصل روماني (بوخاريست ١٨٩٣ ـ كاليفورنيا ١٩٧٢) اشتهر خصوصًا بدور رجل العصابات. نال عام ١٩٧٢ أوسكارًا عن مجمل أعماله لكنّه توفّي قبل استلام الجائزة.

جاوزت الساعة الثامنة، ومرَّ الوقت بسرعة. اصطحبني بروغان للعشاء في مطعم إيطالي. تساءلت وأنا ألتهم قطعة بيتزا لماذا يراودني هذا الشعور الكبير بالارتياح بالقرب منه. لم أكن أعرف شيئًا عنه، مع ذلك لم يبدُ لي غريبًا إطلاقًا. ربّما كان ذلك بسبب فقره اللامبالي. الثياب المنشّاة والأنيقة والتصرّفات اللبقة تخلق مسافات بين الناس. عندما كان بروغان يفتح سترته كاشفة عن كنزة حال لونها وعندما يغلقها، أحسستني في حضرة جسد واثق يشعر بالحرّ أو بالبرد، جسد حيّ. لمّع حذاءه بنفسه، ولكنْ، ما إن ننظر إلى حذائه حتى نلتحم بوجوده الحميم. عندما خرجنا من مطعم البيتزا، أخذ بيدي ليساعدني على السير على الأرض المتجلّدة، فبدت لي حرارته أليفة للتوّ.

قال لي:

ـ تعالي! سأريك بعض الأماكن في شيكاغو.

جلسنا في نادٍ ليلي لنتفرّج على نساء يتعرّين على إيقاع الموسيقى. استمعنا إلى موسيقى جاز في مرقص للسود. وشربنا في بار شبيه بملجأ ليليّ. كان بروغان يعرف الجميع: عازف البيانو في النادي الليلي بمعصميه الموشومين، عازف البوق الأسود في المرقص، المتشرّدين، الزنوج، العاهرات المسنّات في البار. وكان يدعوهم جميعًا إلى طاولتنا ويحثّهم على الكلام ناظرًا إليَّ بهيئة سعيدة لأنّه رآني مستمتعة. عندما أصبحنا في الشارع قلت بحماسة: «أدين لك بأفضل سهرة لي في أميركا».

قال بروغان:

ـ ثمّة أشياء أخرى كثيرة أريد أن أريك إيّاها.

انجلى الليل وبدأ الفجر يطلع واختفت شيكاغو إلى الأبد. لكن فولاذ المترو الأثيريّ حجب عنّا البقعة المجذومة التي بدأت تلتهم السماء. أمسكني بروغان من ذراعي. أمامنا ووراءنا كانت عقود الجسر السوداء تتوالى إلى ما لا نهاية. شعرنا وكأنّها طوّقت الأرض وأنّنا سنسير على هذا المنوال إلى الأبد. قلت:

ـ يوم واحد فقط أستمتع به في هذه الديار! فترة قصيرة جدًّا. يجب أن أعود.

قال بروغان بصوت متلهّف:

ـ عودي، لا أريد أن أفكّر أنّني لن أراك ثانية.

واصلنا السير بصمت حتى محطّة التاكسيات، وعندما قرّب وجهه من وجهي لم أستطع الامتناع عن إشاحة وجهي، لكنّي أحسست بنفسه على فمي.

في القطار، بعد مضيّ ساعات، وفيما كنت منصرفة إلى قراءة رواية بروغان، وبّخت نفسي قائلة: «هذا مضحك في مثل سنّي!»، لكن فمي بقي منفعلاً كفم فتاة مراهقة. لم أقبّل إلاّ الرجال الذين ضاجعتهم. حين استرجعت طيف القبلة هذا، بدا لي كأنّني أنبش في خفايا ذاكرتي ذكريات حبّ حارقة.

اتّخذت قراري: «سأعود». ومن ثم عدلت: «لكن، ما جدوى ذلك؟ سنفترق من جديد وهذه المرّة لن تكون لديّ القوّة لأقول في نفسي: سأعود. لا، من الأفضل أن أوقف الأمور عند هذا الحدّ».

لم أندم على زيارة شيكاغو، سرعان ما أدركت أنّ ما حصل لي يشكل جزءًا من ملذّات السفر والصداقات العابرة، والأحزان الطفيفة التي تثيرها مشاهد الوداع. تعمّدت تفادي الناس المضجرين، ولم أعاشر إلاّ هؤلاء الذين هيّأوا لي أجواء التسلية. أمضينا فترات بعد الظهر في التنزّه والليالي في الشّرب والتحدّث. ومن ثم افترقنا لكي لا نلتقي مجدّدًا ولا أحد شعر بالندم. ما أسهل الحياة! لا يعقبها ندم، ولا يترتّب عليها واجب. لا أتحرّج من القيام بأيّ حركة، ولا أحد يطلب مشورتي ولا أخضع لقوانين بل أتصرّف وفقًا لما يُمليه عليَّ مزاجي. في نيو ــ أورليانز، إثر خروجي من صحن الدار، وكنت سكرى من كؤوس الديكيري[1]، استقللت فجأة طائرة إلى فلوريدا. في لينخبرغ، استأجرت سيّارة ورحت أجول فيها لمدّة ثمانية أيّام عبر أراضي فيرجينيا الحمراء. خلال زيارتي الثانية إلى نيويورك، لم يغمض لي جفن تقريبًا. التقيت عن طريق الصدفة بعدّة أشخاص وتسكّعت في كلّ مكان. اقترح عليَّ آل دايفس اصطحابي إلى هارتفورد؛ وما انقضت ساعتان حتى ركبت السيّارة برفقتهم: الإقامة لبضعة أيّام في الريف الأميركي، إنّها حقًّا متعة! كان منزلاً جميلاً من الخشب المطليّ باللون الأبيض المصقول، تزيّنه نوافذ صغيرة في كل مكان. انصرفت ميريام إلى النّحت، وأخذت الابنة دروسًا في الرقص، وراح الابن يكتب قصائد مستغلقة على الفهم. كان في الثلاثين من

---

(١) الديكيري daiquiri: مشروب مسكر خليط من الرّوم الأبيض والسكّر، انتشر أوّلاً في كوبا.

العمر، له بشرة ناعمة كبشرة الأطفال وعينان واسعتان مأساويّتان وأنف ساحر. في المساء الأول، راحت نانسي تروي لي هواجسها العاطفيّة وهي تُلبسني ثوبًا مكسيكيًّا فضفاضًا. وأسدلتْ شعري فوق كتفي. قال لي فيليب: «لماذا لا تسرّحين شعرك دومًا بهذه الطريقة؟ لكأنّك تتعمّدين هذه التسريحة التي تُبديك أكبر سنًّا». راقصني في وقت متأخّر من الليل، ولكي أحلو في عينيه، لبستُ في الأيّام التالية ثيابًا تجعلني أظهر بمظهر امرأة شابّة. أدركت تمامًا لماذا كان يتغزّل بي، لأنّني آتية من باريس، ولأنّني في سنّ ميريام عندما كان في فترة المراهقة. أثّرت فيَّ تصرّفاته نحوي. نظّم على شرفي حفلات راقصة، وتفنّن في تحضير أصناف الكوكتيل لي، وغنّى لي وهو يعزف على غيتاره أغاني جميلة من أغاني رعاة البقر. كما جال بي في القرى القديمة المتزمّتة. قبيل مغادرتي بقينا في غرفة الجلوس بعد أن غادر الآخرون واستمعنا إلى الأسطوانات ونحن نشرب الويسكي. قال لي بصوت مفعم بالأسف:

ــ ليتني عرفتك في نيويورك! أعبد الخروج في نيويورك برفقتك!

قلت:

ــ ما أسهل حصول هذا الأمر. سأعود إلى نيويورك بعد عشرة أيّام ربّما ستكون هناك.

قال ناظرًا إليَّ نظرات جدّيّة:

ــ على أيّ حال، أستطيع الحضور للقائك. اتّصلي بي.

واصلنا الاستماع إلى بعض الأسطوانات، ورافقني عبر القاعة حتى باب غرفتي. مددت له يدي لكنّه سألني بصوت خفيض: «ألا تريدين تقبيلي؟».

أخذني بين ذراعيه. لوهلة ظللنا جامدين وخدّانا متلاصقان والرغبة تهدّ جسدينا. ثم سمعنا خطوات خافتة فتباعدنا بسرعة. نظرت إلينا ميريام بابتسامة غريبة وقالت بصوتها الناعم:

ـ ستغادر آن في ساعة مبكرة. لا تدعها تطيل السهر.

قلت:

ـ كنت ذاهبة للنوم.

لم أنم. ظللت لفترة واقفة أمام النافذة المفتوحة أتنشّق نسيم الليل، ولم تكن له رائحة. لكأنَّ القمر جمّد عطر الأزهار. ميريام نائمة أو سهرانة في الغرفة المجاورة، وأعرف أنَّ فيليب لن يأتي. لوهلة، خلتني أسمع وقع خطوات لكنّها الريح تسري بين أغصان الشجر.

لم تكن رحلتي إلى كندا ظريفة. غمرتني السعادة عندما حطّت بي الطائرة من جديد في نيويورك. فكّرت للتوّ: «سأتّصل بفيليب». كنت مدعوّة في اليوم نفسه إلى حفلة كوكتيل، وهناك سألتقي بأصدقائي. من نافذتي، لمحت منظرًا هائلاً لناطحة سحاب: لكنّ هذا لم يعد يكفيني. نزلت إلى البار في الفندق حيث أقيم. في النور الأزرق المائل إلى الأسود، عازف بيانو يعزف بصوت خافت نغمات حزينة، وكوبلات يتهامسون وفتيان يمشون على رؤوس أصابعهم. طلبت كأس مارتيني وأشعلت سيجارة. أخذ قلبي يخفق

خفقات خفيفة. بعد ثمانية أيّام أمضيتها برفقة فيليب، لن يكون باستطاعتي أن أفارقه من غير كآبة مبهمة في النفس. لكن بئس الأمر! لا شكّ أنّني أرغب في رؤيته. أمّا الكآبة المبهمة فهي تلازمني في جميع الأحوال. إنّها شعور نشأ منذ الصغر. كوينز ــ بريدج، سنترال بارك، واشنطن سكوير، إيست ريفر. بعد ثمانية أيّام لن أعود إلى رؤيتها مجدّدًا. عمومًا، من الأجدى التحسّر على وداع شخص، فهذا يبدو لي أقلّ إيلامًا. احتسيت جرعة مارتيني. لا يزال أمامي أسبوع: فترة وجيزة جدًّا لأستطيع القيام باكتشافات جديدة. وجيزة جدًّا للتمتّع بملذّات نودّعها إلى غير رجعة. لم أعد أريد التسكّع في نيويورك بصفتي سائحة. لعلّه من الأجدر بي أن أعيش فعلاً في هذه المدينة وأترك فيها بعضًا من ذاتي. الأجدر بي أن أسير في الطرقات متأبّطة ذراع رجل عابر. للمرّة الأولى، خلال هذه الرحلة، أمسك رجل بذراعي. كان الطقس شتاءً، أمسكني لأنّي تعثّرت على الأرض المتجلّدة. لكنّي، بالقرب منه، أحسست بالدفء. قال لي: «عودي. لا أريد التفكير بأنّني لن أراك مجدّدًا». ولم أعد. ستلتصق ذراعي بذراع أخرى. ولوهلةٍ شعرتني مذنبة جرّاء خيانتي له. لكنْ لا مجال للتفكير. فيليب هو من اشتهيته لليلةٍ كاملة، ولا زلت أشتهيه، وهو ينتظر مخابرتي. نهضت. دخلت إلى حجرة الهاتف وطلبت هارتفورد.

ــ السيّد فيليب دايفس.

ــ سأصلك به.

وفجأة، بدأ قلبي يخفق بسرعة كبيرة. منذ وقت قصير، كنت أتحكّم بفيليب على هواي: أدعوه إلى نيويورك، أجرّه إلى سريري. لكنّه الآن يحضر بالأصالة عن نفسه وأنا من كنت أتبعه كظلّه، وحيدة، عزلاء، في هذا المخبأ الضيّق.

ـ آلو؟

ـ فيليب؟ هذه آن.

ـ آن. ما أجمل سماع صوتك!

كان يتكلّم الفرنسيّة بإتقان بطيء. بدا كلامه فجأة قاسيًا على مسمعي.

ـ أتّصل من نيويورك.

ـ أعرف. عزيزتي آن. هارتفورد مملّة جدًّا مذ رحلت عنّا. هل استمتعت برحلاتك؟

كم بدا صوته قريبًا. يكاد يلامس وجهي. وكم بدا هو بعيدًا، بعيدًا جدًّا. تعرّقت يدي لصق أبونيت[١] السمّاعة الأسود. تلقّطت بهذه الكلمات بلا تبصّر: «أودّ أن أحدّثك عنها. طلبت منّي أن أتّصل بك، هل يمكنك المجيء إلى نيويورك قبل رحيلي؟».

ـ متى سترحلين؟

ـ السبت.

ـ آه، آه، أبكرت للغاية!

---

(١) الأبونيت: مطّاط قاس يستعمل لخواصّه العازلة.

خيّم صمتٌ. ثم قال:

ـ هذا الأسبوع، عليَّ الذهاب إلى كاب كود لزيارة بعض الأصدقاء، وقد وعدتهم.

ـ يا للأسف!

ـ نعم، يا للأسف! ألا يمكنك إرجاء موعد رحيلك.

ـ لا أستطيع. أيمكنك إرجاء هذه الرحلة؟

قال بصوت مذعور:

ـ لا! هذا مستحيل!

قلت بصوت واجم:

ـ حسنًا، سنلتقي هذا الصيف في باريس. بات الصيف قريبًا.

ـ أنا آسف.

ـ أنا أيضًا آسفة. إلى اللقاء فيليب. إلى الصيف المقبل.

ـ إلى اللقاء عزيزتي آن. تذكّريني على الدوام.

أعدت السمّاعة إلى مكانها كانت رطبة بسبب العرق الذي تصبّب منّي نتيجة الحوار. هدأ قلبي، وأخلى هذا الهدوء في داخلي فراغًا تحت الضلوع. ذهبت لزيارة آل ويلسون: المكان مزدحم بالمدعوّين. قدّموا لي كأسًا من الشراب. ابتسموا لي ونادوني باسمي وأمسكوني من ذراعي وكتفي وخاطبوني باسمي من كلّ جانب. سجّلت المواعيد على مفكّرتي، ولا يزال هذا الفراغ قابعًا في صدري. ما أسهل الخيبة التي تصيب الجسد، لكنّ هذا الفراغ

يصعب عليَّ تحمّله. ابتسموا لي وتحدّثت وابتسمت طيلة أسبوع كامل. وسنتحدّث ونبتسم أيضًا وأيضًا، ومن ثم لن يعود أحد منّا يفكّر بالآخر أو يتذكّره أو يتحدّث عنه. هذه البلاد حقيقيّة فعلاً وأنا حيّة تُرزق، وسأرحل دون أن أترك أثرًا خلفي ودون أن أحمل شيئًا معي. وبين فاصل ابتسامتيْن، قلت في نفسي فجأةً: «ماذا لو ذهبت إلى شيكاغو؟» أستطيع الاتّصال ببروغان والقول له: «أنا آتية». وإذا لم تكن لديه رغبة في رؤيتي فسيفصح عن ذلك، وما همّني! إنّ مواجهة بالرفض لمرّتين لن تكون أسوأ من مرّة واحدة. ومجدّدًا، بين فاصل ابتسامتين، نظرت إلى نفسي مرتاعة وقلت: لم أحصل على فيليب وها أنذا أفكّر في الارتماء في أحضان بروغان! ما هذه العادات التي أبدو معها وكأنّني أنثى تطلب السفد؟ في الواقع، لا تعني لي كثيرًا فكرة مضاجعة بروغان. تخيّلته أخرق في المجامعة، وما كنت واثقة أنّني راغبة في رؤيته من جديد. لم أمض برفقته إلاّ بعد ظهر وحيدًا، وأجازف بالتسبّب لنفسي بأسوأ الخيبات. ما من شكّ، ما أحمق هذا المشروع الذي أسعى إليه! كلّ ما في الأمر أنّني أرغب في القيام بأيّ مبادرة تنتشلني من خيبة الأمل التي أعاني منها. ولا يمكن أن نجني من هذا التصرّف إلاّ الحماقات. قرّرت البقاء في نيويورك وتابعت تدوين المواعيد: مواعيد المعارض والحفلات والعشاءات والسهرات الراقصة. هكذا سيمرّ الأسبوع سريعًا. عندما أصبحت في الشارع، دقّت الساعة الضخمة في غرامرسي سكوير مشيرة إلى منتصف الليل. علي أيّ حال، تأخّر الوقت جدًّا على الاتّصال. لا، لم يتأخّر الوقت إلى هذا

الحدّ. في شيكاغو لا تزال الساعة التاسعة، وبروغان يقرأ في غرفته أو يكتب. توقفت أمام الواجهة المضاءة لأحد المراكز التجاريّة: «لا أريد التفكير بأنّني لن أراك أبدًا». دخلت إلى المحلّ واستبدلت من الصندوق قطعة نقديّة بقطع من فئات صغيرة، ثم طلبت شيكاغو.

ــ لويس بروغان؟ معك آن دوبروي.

لم يجب.

ــ هذه آن دوبروي، هل تسمعني؟

ــ أسمعك جيّدًا.

ثم أضاف بفرنسيّة مشوّهة، متلقّطًا بكلّ مقطع بصوت فرح متلجلج:

ــ صباح الخير، آن، كيف الحال؟

كان صوته أقلّ حضورًا من صوت فيليب. ومع ذلك بدا حضوره أقلّ بعدًا.

ــ بإمكاني إمضاء ثلاثة أو أربعة أيّام في شيكاغو هذا الأسبوع. ما رأيك؟

ــ الطقس جميل جدًّا في شيكاغو هذه الفترة.

ــ لكنّي إذا أتيت فهذا لكي أراك. هل لديك وقت؟

قال بلهجة ضاحكة:

ــ لديَّ متّسع من الوقت، ولا شيء يشغلني.

تردّدت للحظة. بدا لي الأمر سهلاً جدًّا. أحدهما يعتذر، والآخر يرحّب، باللامبالاة ذاتها. فات الأوان على التراجع. قلت: «إذًا سأصل غدًا صباحًا في أوّل طائرة. احجز لي غرفة في فندق لا يكون الأفضل بين فنادق شيكاغو. أين سنلتقي؟».

ـ سأذهب لاصطحابك من المطار.

ـ حسنًا. إلى الغد.

تخلّل الحديث برهة من الصمت. استعدت الصوت الذي قال لي قبل ثلاثة أشهر: «عودي». كان الصوت يقول:

ـ آن! أنا سعيد جدًّا برؤيتك مجدّدًا.

ـ وأنا أيضًا. إلى الغد.

ـ إلى الغد.

أجل، هذا صوته، وهو نفسه كما أتذكّره ولم ينسني. قربه، سأشعر بالدفء كما في ذلك الشتاء. وفجأة غمرني شعور بالسرور لأنّ فيليب قال لا. كلّ شيء سيكون بسيطًا، سنتحدّث لآونةٍ في أحد البارات في الضوء الخفيف، وسيقول لي: «تعالي نسترح عندي». نجلس جنبًا إلى جنب فوق الغطاء المكسيكي وأستمع منصاعة إلى شارل ترينيه. سيأخذني بروغان بين ذراعيه... لن تكون ليلة خارقة. لكنّه سيُسرّ لها، أنا موقنة. وهذا كافٍ لإسعادي. خلدت للنوم والانفعال يغمرني لأنّ رجلاً ينتظرني لكي يضمّني إلى صدره.

لم يكن في انتظاري، ما من أحد في القاعة. خطر لي وأنا أجلس في الكنبة: «بداية سيّئة!». شعرت بحيرة عميقة وبقلقٍ فخطر لي أنّه عليّ أن أتوخّى الحذر. «هل أتّصل ببروغان أم لا؟». قمت من طرف واحد بهذه المبادرة. وها إنّي قد أقحمت نفسي في مغامرة يتوقّف نجاحها عليّ وحدي. كل ما أستطيع فعله أن أراقب حركة عقارب الساعة التي تتحرّك ببطء. أخافني هذا الاستسلام وأنا بحاجة إلى طمأنة نفسي. على أيّ حال، إذا جرت الرياح على غير ما أشتهي فبإمكاني عندئذٍ أن أجد ذريعة للعودة إلى نيويورك صباح يوم غد. وما هي إلاّ ثمانية أيّام حتى يسدل الستار على القصّة برمّتها. هناك، في ملجأ حياتي الآمن، سأبتسم ابتسامة تسامح لكل ذكرياتي سواء المؤثّرة أم المضحكة. هدأ روعي. عندما فتحت حقيبتي لكي أبحث في مفكّرتي عن رقم هاتف بروغان، راجعت في مخيّلتي كلّ مخارج النجاة وضمنت لنفسي مواجهة كل طارئ يحدث. حين رفعت رأسي، رأيته واقفًا أمامي. غمر وجودي كلّه بابتسامته المتحفّظة. ذُهلت كما لو أنّني التقيت شبحه في الطرف الآخر من العالم. قال لي في لكنةٍ فرنسيّة مرعبة: «كيف الحال؟» بدت لي صورته أرقّ وعيناه أكثر حياةً. أجبته: «ماشي الحال».

ومن دون أن تفارقه ابتسامته، قرّب فمه من شفتيّ. أربكتني هذه القبلة العلنيّة وتركتْ على ذقن بروغان بقعة حمراء: «انظر، لطّخت وجهك». مسحت البقعة بمنديلي وأردفت: «وصلت في الساعة التاسعة».

قال بلهجة معاتبة بدت وكأنّها تتوجّه بالكلام إليّ:

ـ آه لو تعرفين! قالوا لي عبر الهاتف إنّ أوّل طائرة تصل في العاشرة.

ـ أخطأوا.

ـ لا يخطئون أبدًا.

ـ وأخيرًا! أنا هنا.

فأجاب موافقًا:

ـ أجل، أنت هنا.

جلس فجلست معه. إنّها التاسعة وعشرون دقيقة. أي أنّه وصل عشرين دقيقة متأخّرًا على موعد وصولي، وأربعين دقيقة أبكر من الموعد الذي حُدّد له. كان يرتدي بذلة جميلة من القطن وقميصًا لا تشوبه شائبة. تخيّلته واقفًا أمام مرآته، منشغل البال لكي يستقبلني وفق الأصول. ما أبعده عن الاهتمام بمظهره الخارجيّ وهو يسائل نفسه في المرآة بإعجاب وحيرة في آن، مراقبًا الساعة بقلق فيما كنت أنتظره مغتاظة. ابتسمت له:

ـ لا يمكننا البقاء هنا طيلة الصبيحة!!

قال:

ـ لا.

فكّر ثم أضاف:

ـ هل تريدين الذهاب إلى حديقة الحيوانات؟

ـ حديقة الحيوانات؟

ـ إنّها قريبة من هنا.

ـ وماذا سنفعل هناك؟

ـ سننظر إلى الحيوانات وستنظر الحيوانات إلينا.

ـ لم آت إلى هنا لأستمتع برؤية حيواناتك. ثم أضفت: «لنذهب بالأحرى إلى مكان هادئ حيث نتناول القهوة وسندويشات، عندئذٍ سينظر واحدنا إلى الآخر».

فنهض هو أيضًا: «فكرة حسنة».

كنّا وحدنا في الليموزين التي أقلّتنا إلى وسط المدينة. وضع بروغان حقيبة سفري بين قدميه واستغرق في الصمت. شعرت بالقلق: «أربعة أيّام برفقة هذا المجهول هي فترة طويلة، وأربعة أيّام للتعرّف إليه هي فترة قصيرة». قلت: «يجب أن نمرّ أوّلاً بالفندق لنضع الحقيبة». ابتسم بروغان مربكًا.

ـ هل حجزت لي غرفة؟

ظلّ محافظًا على ابتسامته التي يشوبها الذّنب وأجابني ونبرة استفزاز في صوته: «لا!».

ـ كيف ذلك! طلبت أن تحجز لي غرفة عبر الهاتف!

قال بذرابة لسان:

ـ لم أسمع النصف الثاني ممّا قلته لي. إنكليزيّتك أسوأ من هذا الشتاء. انهالت كلماتك كرشق رشّاش. ثم أضاف عندما نزلنا من السيّارة أمام مكتب الطيران: «لكن ليس لهذا أهمّيّة. سنضع الحقيبة في المستودع. انتظريني هنا». دفع بابًا دوّارًا وتبعته بنظرات

مرتابة. هل كان هذا النسيان إهمالاً أم حيلة؟ لا شكّ أنّ الأمر واضح لي كما بالنسبة له: سأمضي هذه الليلة في سريره. لكنّي ارتعبت لفكرة أنّنا هذا المساء لن تكون لدينا رغبة في هذا الأمر. عاهدت نفسي على عدم ارتكاب الخطأ مجدّدًا والدخول إلى سرير رجل دون رغبة. عندما عاد بروغان قلت بعصبيّة:

ـ يجب الاتّصال بالفندق. لم أنم طيلة الليل. أودّ أن آخذ قيلولة وأستحمّ.

ـ من الصعب جدًّا العثور على غرفة في شيكاغو.

ـ هذا يعزّز السعي لإيجاد غرفة في الحال.

كان يتوجّب عليه أن يقول لي: «تعالي نسترح عندي». لكنّه لم يقل شيئًا. والكافيتيريا التي اصطحبني إليها لا تشبه إطلاقًا البار الحميم والدافئ الذي تخيّلته. لكأنّها بوفيه في محطّة. والبار الذي دخلت إليه فيما بعد أشبه بغرفة انتظار. هل سنمضي نهاراتنا في الانتظار. ماذا كنّا ننتظر؟

ـ ويسكي؟

ـ بكل سرور.

ـ سيجارة؟

ـ شكرًا.

ـ سأستمع إلى أسطوانة مختارة.

ليت بإمكاننا التحدّث بهدوء كما في السابق! لكن سفينة بروغان لا ترسو في ميناء آمن. ذهب إلى طاولة الشرب ليأتي بقنّينة كوكا

كولا ثم دسّ قطعة نيكل في علبة الأسطوانات ثم أخرى واشترى سجائر. وعندما أقنعته أخيرًا بالاتّصال، غاب لفترة طويلة جدًّا خلته اختفى إلى الأبد. لا بدّ أنّني أخطأت بشأن توقّعاتي. لكأنّه يتعمّد إحباطها. يكاد ألاّ يشبه الرجل الذي رسخت صورته في ذاكرتي. لقد أذاب فصل الربيع طبقة الجليد التي غمره بها فصل الشتاء. بالطبع لم يصبح ظريفًا ولا مرنًا. لكنّ قامته تحاكي الأناقة، وشعره أشقر بشكل جليّ، وعيناه الرماديّتان يمازجهما الاخضرار بشكل واضح جدًّا. وفي هذا الوجه الذي بدا لي محايدًا، لمحت فمًا حسّاسًا ومنخرين متوحّشين ورهافة أربكتني.

عندما جلس بروغان من جديد قربي قال:

ــ لم أعثر على غرفة. وسأسعى جاهدًا إلى الاتّصال بجمعيّة الفنادق. عليّ الاتّصال بها في وقت لاحق.

ــ شكرًا.

ــ والآن، ماذا تريدين أن تفعلي؟

ــ ليتنا نستطيع البقاء في هذا المكان والجوّ هادئ كما ترى!

ــ إذًا، هل تريدين كأس ويسكي أخرى؟

ــ ليكن.

ــ سيجارة؟

ــ شكرًا.

ــ هل تريدين الاستماع إلى أسطوانة أخرى؟

ـ لا، من فضلك.

خيّم صمت. ثمّ بدأت هجومي:

ـ رأيت أصدقاءك في نيويورك.

ـ ليس لديّ أصدقاء.

ـ لكن بلى. آل بنسون الذين عرّفوني بك.

ـ آه! ليسوا أصدقاء.

ـ إذًا، لماذا وافقت على رؤيتي منذ شهرين؟

ـ لأنّك فرنسيّة ولأنّ اسمك يعجبني: «آن».

أطلق ابتسامته العذبة ثم استردّها في الحال. قمت بجهد آخر وقلت:

ـ ماذا صار بحالك؟

ـ تقدّمت بي السنُّ يومًا بعد يوم.

ـ لكنّي أجدك أكثر شبابًا.

ـ هذا لأنّني أرتدي سترة صيفيّة.

عاد الصمت ليخيّم من جديد. فبدا عليّ الوجوم وقلت:

ـ حسنًا. لنذهب إلى أيّ مكان. لكن إلى أين؟

قال بعجلة:

ـ في الشتاء، كنت ترغبين في رؤية مباراة في البايسبول. ثمّة مباراة تجري اليوم.

ـ حسنًا، لنذهب.

لطف منه أن يتذكّر رغباتي القديمة. أمَا كان بوسعه أن يرتاب بأنّي لست مهتمّة إطلاقًا بلعبة البايسبول هذه. لا يهمّ. أفضل شيء نفعله قتل الوقت في الانتظار... انتظار ماذا؟ تابعت بنظرات مشدوهة الرجال الذين يرتدون الخوذات ويتراكضون فوق المرجة بأخضرها الصارخ. ردّدت في نفسي: قتل الوقت! فيما ليست لدينا ساعة واحدة نضيّعها. أربعة أيّام، فترة وجيزة جدًّا. علينا الإسراع: متى سيكون بإمكاننا أن نلتقي أخيرًا؟

قال لويس:

ـ هل تشعرين بالضجر؟

ـ أشعر بالبرد قليلاً.

ـ لنذهب إلى مكان آخر.

اصطحبني إلى البولنغ حيث شربنا الجعة ونظرنا إلى الأوتاد تتساقط. ثم إلى حانة حيث عزفت خمس بيانوات بصخب موسيقى قديمة، وإلى أكواريوم حيث الأسماك تظهر تكشيراتها الخبيثة. واستقللنا الترامواي والمترو إلى ما لا نهاية. راق لي المترو. أسند جبيني إلى زجاج المقطورة الأولى، ونغرق في أنفاق مدوّخة مزيّنة بحبابات كهربائيّة من الأزرق الشاحب. كانت ذراع بروغان تطوّق خصري وصمتنا أشبه بالصمت الذي يخيّم فوق عاشقين أليفين. لكن، في الشوارع، مشينا متباعدين، وشعرت بالخيبة أمام الصمت المخيّم علينا، إذ ليس لدينا ما نقوله. عند منتصف بعد الظهر،

توجّب عليَّ الاعتراف لنفسي بأنّ ثمّة خطأ في حساباتي. أمامي أسبوع فقط، وغدًا سيكون هذا النهار من الماضي وسأكتشف أنّ محاولاتي في الإفادة من الوقت قد ضاعت هباء، لكن، بداية عليّ أن أعيشه ساعة بساعة. وطيلة هذه الساعات، كان هناك مجهول يتصرّف بقدري حسب ما يحلو له. شعرت بتعب شديد وبخيبة حارقة لدرجة أنّ رغبة عارمة حدثتني للاختلاء بنفسي.

قلت له:

ـ من فضلك. اتّصل مرّة أخرى: أرغب في النوم قليلاً.

قال بروغان وهو يدفع باب أحد المراكز التجاريّة:

ـ سأتّصل برابطة الفنادق.

بقيت واقفة أنظر بعينٍ شاردة إلى الكتب ذات الأغلفة المصقولة. وما هي إلاّ برهة قصيرة حتى خرج بروغان من حجرة الهاتف وابتسامة راضية ترتسم فوق شفتيه:

ـ هناك غرفة شاغرة تنتظرنا على مسافة مبنيين من هنا.

ـ آه شكرًا!

مشينا بصمتٍ حتى الفندق. لماذا لم يكذب؟ كان يُفترض به أن يقول لي:«تعالي واستريحي عندي». تُرى ألم يكن واثقًا هو أيضًا من رغباته؟ اعتمدت على دفئه وجرأته لكي ينتشلني من وحدتي لكنّه تركني أسيرة الوحدة، ألم يكن بإمكانه فعل شيء لأجلنا. اقترب لويس من المكتب:

ـ حجزت غرفة لتوّي.

ألقى الموظّف نظرة على السجلّ:

ـ غرفة لشخصين؟

قلت:

ـ بل لشخص واحد. ودوّنت اسمي في السجلّ. حقيبتي في المستودع.

قال لويس:

ـ سأذهب للإتيان بها. متى تريدينها؟

ـ اتّصل بي بعد ساعتين.

هل أنا واهمة؟ أم رأيته يتبادل نظرة غريبة مع الموظّف؟ هل احتجز غرفة لشخصين؟ أما كان يجدر به والحالة هذه أن يجد ذريعة للصعود معي؟ لكنت اقترحت عليه عشرين ذريعة. شعرت بالغيظ أمام ذرائعه الواهية بقدر ما تمنّيت الاستسلام لها. جعلت الماء ينساب في المغطس ودخلت في الماء الفاتر وأنا أقول إنّ انطلاقتنا كانت سيّئة. هل الذنب ذنبي؟ لا شكَّ أنّ هناك نساء يستطعن القول في الحال: «لنذهب إلى بيتك». نادين كانت لتقول هذا. رقدت فوق غطاء السرير المحيّك من الساتان وأغمضت عينيّ. منذ الآن وأنا أهاب اللحظة التي سأجدني واقفة فيها في منتصف الغرفة حيث لا شيء أليفًا في استقبالي، ولا حتى فرشاة الأسنان. غرف كثيرة مختلفة ومتشابهة في آن. حقائب كثيرة مفتوحة، مغلقة، وصول، إقلاع، استيقاظ، انتظار، جولات، تهرّب... تعبت وأنا أكرّ لمدّة ثلاثة أشهر سبّحة الأيّام هذه التي لا

غد لها. تعبت لأنّه يتوجّب عليَّ خلق حياتي كلّ صباح، وكلّ مساء، وكلّ ساعة. تمنّيت من كلّ قلبي أن تصعقني قوّة غريبة فوق هذا السرير إلى الأبد. ليصعدْ، ليقرع على بابي، ليدخل. رحت أترصّد خطواته في الرواق بنفاد صبر ولهفة حارقة تحاكي الرغبة. لا شيء إلاّ الصمت. ثم استسلمت لنوم عميق.

عندما التقيت بروغان في القاعة، كان روعي قد هدأ. عمّا قريب سينجلي مصير هذه المغامرة. من الآن وحتى بضع ساعات سأخلد إلى النوم بعد كل حساب. بدت لي أجواء المطعم الألمانيّ القديم الذي تناولنا فيه العشاء مرحّبة. واستغرقت في ثرثرة متهاونة. وكان البار الذي جلسنا فيه بعدئذٍ غارقًا في ضباب بنفسجّي. شعرت بالراحة. كان بروغان يتحدّث إليّ بصوته السابق. قال لي:

ـ اختطفتك سيّارة التاكسي، ولم أكن أعرف شيئًا عنك. وحين عدت، وجدت «النيويوركر» تحت بابي. وفي أحد المقالات عن مؤتمر أجري للطبّ النفسي، أقع على اسمك. لكأنّك عدت عند منتصف الليل لتقولي لي من أنت.

ـ ألم يبلغك آل بنسون؟

ـ آه لم أقرأ رسائلهم قط. وأضاف بصوت لاهٍ: «في المقالة تحدّثوا عنك بوصفك طبيبة لامعة».

ـ وهل فاجأك هذا؟

نظر إليّ مبتسمًا ولم يجب. وحين يبتسم لي بهذه الطريقة، أشعر وكأنّ نَفسه فوق فمي.

ــ اعتقدت أنّ لديهم أطبّاء غريبي الأطوار في فرنسا.

ــ وأنا، حين عدت، وجدت كتابك في الفندق. حاولت أن أقرأه لكنّي شعرت وقتئذٍ بنعاس شديد. قرأته في اليوم التالي في القطار. ثم أضفت وأنا أتفرّس في وجه بروغان: «بيرتي شبهك إلى حدّ بعيد، أليس كذلك؟».

فأجاب بروغان بلهجة ساخرة:

ــ آه، لكن أنا لم أضرم النار قطّ في مزرعة. أخاف كثيرًا من النار ومن الشرطة. ثم نهض فجأة وقال: «هيّا نلعب بالنّرد».

ناولتنا الشقراء، ذات العينين الكئيبتين الجالسة خلف طاولة اللعب، جامَ النّرد. اختار بروغان الرقم «ستة» وراهن على نصف دولار. نظرت بخيبة إلى عظم النّرد وهو يتدحرج على السجّادة الخضراء بأرقامه الستّة. تُرى لماذا تهرّب بالضبط في اللحظة التي بدأنا نهتدي فيها إلى نفسينا؟ هل كنت أثير المخاوف في نفسه؟ بدا لي وجهه في منتهى القسوة والهشاشة في آن. وتشوّقت إلى أن أحلّ ألغازه. قال بنبرة سعيدة: «ربحت» مدَّ لي الجام فحرّكته بعنف. أخذت قرارًا بلمحة بصر: «إنّها ليلتنا التي أراهن عليها» اخترت الرقم «خمسة». فمي أخرس وراحتاي رطبتان. ظهر الرقم خمسة سبع مرّات خلال الضربات الثلاث عشرة الأولى، ثم احتجب ثلاث مرّات أيضًا: لقد خسرت!

قلت وأنا أعود للجلوس:

ـ لعبة سخيفة.

ـ هل تحبّين مواصلة اللعب؟

ـ أكره الخسارة.

قال بروغان بكآبة:

ـ أعشق البوكر وأخسر دومًا. يبدو أنّه يسهل على اللاعبين قراءة مشاعري على وجهي.

قلت له وأنا أوجّه إليه نظرة تحدٍّ.

ـ لا أجد ذلك صحيحًا.

بدا محرجًا، لكنّي لم أشح بنظري. راهنت على ليلتنا وخسرتها. رفض بروغان مساعدتي والنّرد حكمَ عليَّ بالفشل. تمرّدت على هزيمتي هذه بعنفٍ وما لبث العنف أن تحوّل فجأة إلى جسارة:

ـ منذ الصباح وأنا أتساءل عمّا إذا كنت سعيدًا بقدومي، ولم أهتدِ إلى جواب.

قال بصوت مفعم بالجدّيّة، ما جعلني أخجل من نبرتي العدائيّة:

ـ بطبيعة الحال أنا سعيد.

قلت:

ـ أودّ ذلك لأنّني أنا أيضًا سعيدة للقياك. هذا الصباح خفت من أن تخونني ذاكرتي. لكن لا، هذا أنت فعلاً من أتذكّره.

قال:

ـ أمّا أنا فكنت واثقًا من أنّ ذاكرتي لن تخونني.

من جديد، بدا صوته دافئًا كلهاثه. أخذت يده، وقلت العبارة التي تتفوّهها جميع النساء عندما يسعين إلى التقرّب من الرجل:

ـ ما أعذب ملامسة يديك!

ـ وأنا أيضًا أحبّ ملامسة يديك. هل بيديك هاتين تمسكين رؤوس المرضى المساكين الذين لا دفاع لهم؟

ـ اعهد لي برأسك. أعتقد أنّه بحاجة إلى...

ـ آه! إنّه لا يجنح إلاّ من جهة واحدة.

بقيت أيدينا مشتبكة. نظرت بانفعال إلى هذا الجسر الهشّ المنتصب بين حياتينا. ثم تساءلت وفمي جافّ: «هاتان اليدان، هل سأعرفهما أم لا؟». دام الصمت طويلاً واقترح بروغان:

ـ هل تريدين العودة والاستماع إلى بيغ بيللي؟

ـ أودّ فعلاً.

في الشارع أمسك بيدي. كنت أدرك أنّه بين الفينة والأخرى، سيجذبني إليه، وسأضع عن كاهلي عبء هذا النهار الثقيل. ها أنا أسعى أخيرًا نحو السلام والفرح. فجأة أفلت ذراعي وأشرق وجهه بابتسامة عريضة لم أرَها من قبل: «تيدي!».

توقف الرجل ومعه المرأتان، وأشرقت وجوههم أيضًا بابتسامة. وما هي إلاّ لحظات حتى وجدنا أنفسنا جالسين أمام الطاولة في كافيتيريا كئيبة. راحوا يتحدّثون جميعهم بسرعة كبيرة، ولم أفقه كلمة واحدة ممّا يقولونه. استغرق بروغان في ضحكات متواصلة

وعادت الحيويّة إلى نظرته. بدا عليه الارتياح لأنّه تفلّت من هذه المواجهة الطويلة بيني وبينه. كان تصرّفه طبيعيًّا.هؤلاء الناس أصدقاؤه ولديهم الكثير من القصص والأخبار يتبادلونها فيما بينهم. أمّا بيني وبينه فما القاسم المشترك. المرأتان الجالستان قربه كانتا شابتين وجميلتين. هل تعجبانه؟ لا بدَّ أنّ هناك نساء شابّات وجميلات في حياته. لكن، أنّى لي أن أشعر بهذا العذاب فيما لم نتبادل قبلة حقيقيّة واحدة: كنت أتعذّب. بعيدًا، بعيدًا جدًّا، في عمق النفق لمحت عند الصباح خشبة خلاص لاحت لي في منتهى الأمان. لكنّي كنت موهنة لدرجة لا أستطيع معها الوصول إليها والتشبّث بها، ولو زحفت على ركبتيّ. حاولت أن أتمتم: «ما أكثر الذرائع التي نختلقها لنحول دون تبادل القبلات!». لكنّ هذا التخابث لا يؤدّي إلى أيّ نتيجة. أن يكون الأمر مثيرًا للسخرية بعض الشيء. أن يستحقّ استحساني أم ملامتي، لم يعد لهذا أهمِّيَّة. لا تدور هذه القصّة بيني وبين نفسي. لقد وضعت نفسي كليًّا تحت رحمة رجل، وأيّ جنون هذا! حتّى إنّني لم أعد أفهم عمّا جئت أبحث هنا. لا شكّ أنّني فقدت رشدي حتى حين تخيّلت أنّ رجلاً لا قيمة له في نظري قادرٌ على إسعادي. فكّرت بحزم عندما أخذ بروغان ذراعي من جديد: «سأعود للنوم فورًا».

قال:

ـ أنا سعيد لأنّني عرّفتك بتيدي. إنّه الأديب النشّال الذي حدّثتك عنه، فهل تتذكّرين؟

ـ أتذكّر. والمرأتان من هما؟

ـ لا أعرفهما.

توقف بروغان وسط الشارع: «إذا لم يأتِ الترامواي فسنستقل سيّارة تاكسي».

فكّرت: «سيّارة التاكسي آخر فرصة لنا. إذا جاء الترامواي فسأتخلى عن سعيي وأعود إلى الفندق». لبرهةٍ بدت لي لامتناهية، ترصّدت قرقعة السكك المخيفة. أشار بروغان إلى إحدى سيّارات التاكسي:

ـ اصعدي.

لم يتسنَّ لي الوقت لأقول: «الآن أو أبدًا». شدّني إليه، وطوّقني بذراعيه وأطبق بشفتيه المكتنزتين بقوّة على شفتيّ وأدخل لسانه في فمي فأحسست بأنّ جسدي الميت يستعيد حياته من جديد. ثم دخلت إلى البار مترنّحة كما ترنّح أليعازر حين بُعث من بين الأموات. كان العازفون يرتاحون، ثم جاء بيغ بيللي وجلس أمام طاولتنا. بدأ بروغان يمازحه وعيناه تلتمعان. وددت لو أشاطره فرحته لكنّي كنت مربكة بجسدي الذي استعاد حيويّته من جديد. شعرت به هائل الحجم، حارقًا بلوعته. عادت الأوركسترا إلى عزف الموسيقى، ونظرت بحيرة إلى الرجل القائم على ساق واحدة، بشعره المجعّد، يؤدّي رقصة الكلاكيت. ارتجفت يدي وأنا أرفع إلى فمي كأس الويسكي. ماذا سيفعل بروغان؟ ماذا سيقول؟ عجزت عن القيام بأيّ حركة، عن التفوّه بأيّ كلمة. وأخيرًا، بعد أن بدا لي الوقت لا متناهيًا، سألني بصوت منفعل:

ـ هل تريدين الذهاب؟

ـ نعم.

ـ هل تريدين العودة؟

قلت جاهدة متمتمة كلماتٍ شعرتها تمزّق حلقي: «لا أريد أن أفارقك».

قال مبتسمًا:

ـ ولا أنا أيضًا.

في سيّارة التاكسي، تبادلنا القبلات من جديد، ثم سألني:

ـ هل تريدين قضاء الليلة عندي؟

ـ بالتأكيد.

أوَكان يظنّ أنّ باستطاعتي رمي هذا الجسد الذي استعاد حيويّته للتوّ في سلّة المهملات؟ أسندت رأسي على كتفه فطوّقني بذراعيه.

في المطبخ الأصفر، لم يعد الموقد يهدر. هناك، شدّني إليه بعنف. «آن! آن! هل هذا حلم! ما كان أتعسني طيلة النهار!».

ـ تعيس؟ أنت من عذّبتني. لم تشأ قطّ تقبيلي.

ـ قبّلتك ومسحت ذقني بمنديلك: ظننت أنّني ضللت الطريق.

ـ لا يجدر بك تقبيلي في قاعة عامّة! يجب اصطحابي إلى هنا.

ـ لكنّك طالبت بغرفة! فيما كنت نظّمت كل شيء. اشتريت جزورًا من لحم عجل كبيرة للعشاء، ظنًّا منّي بأنّ فرصة إيجاد أمكنة شاغرة في الفنادق بعد الساعة العاشرة ستكون ضئيلة.

ـ فهمت جيّدًا قصدك، لكنّي حاذرت. لنفترض أنّنا لم نلتقِ.

ـ لكن، لا بدّ أن نلتقي لأنّنا لم نفترق أبدًا.

تكلّمنا وشفاهنا متقاربة. أحسست بلهاثه يداعب شفتي. تمتمت قائلة: «خفت أن يمرّ التراموواي».

ضحك بكبرياء: «كنت اتّخذت قراري باستقلال سيّارة تاكسي». راح يقبّل جبيني وأجفاني وخدّي وشعرت بالأرض تميد تحت قدميّ.

قال: «أنت منهكة من التعب، عليك الخلود للنوم». ثم أضاف بلهجة مستاءة: «حقيبتك!».

ـ لست بحاجة إليها.

ظلَّ في المطبخ فيما رحت أخلع ملابسي.اندسست في الفراش تحت الغطاء المكسيكيّ. سمعته يرود من حولي، يفتح الخزائن ويغلقها لترتيب الأغراض، وكأنّنا زوجان من عهد بعيد. بعد كلّ هذه الليالي التي أمضيتها في غرف الفنادق وفي غرف الأصدقاء، شعرت بالارتياح وكأنّني في بيتي، في هذا السرير الغريب. الرجل الذي اخترته واختارني سيشاطرني الفراش.

قال بروغان:

ـ هاكِ لقد أويتِ إلى الفراش! كان يحمل بين ذراعيه شراشف ناصعة البياض. نظر إليَّ بحيرة: «كنت أريد تغيير الشراشف». أجبته: «لا لزوم لذلك». بقي عند عتبة الباب مرتبكًا بحمله الكبير.

قلت وأنا أجتذب حتى ذقني الغطاء الذي استخدمه الليلة الفائتة: «أنا في أحسن حال». ابتعد ثم عاد:

ـ آن!

انهال عليَّ بكلّ قامته وقد هزَّت نبرة صوته أعماقي. للمرّة الأولى هتفت باسمه: «لويس!».

ـ آن! أنا سعيد جدًّا.

كان عاريًا وكنت عارية ولم أشعر بأيّ انزعاج. لم تجرحني نظراته الحادّة، ليست فيها إدانة ولا تترك أثرًا مريبًا في النفس. من رأسي حتى أخمص قدميّ، راحت يداه تتهجآنني عن ظهر قلب ومن جديد قلت: «أحبّ يديك».

ـ تحبّينهما؟

ـ طيلة السهرة، كنت أتساءل هل سأشعر بهما تتحسّسان جسدي؟

قال:

ـ ستشعرين بهما طيلة الليل.

وفجأة لم يعد مرتبكًا ولا متواضعًا. رغبته غيّرتني وجعلتني أكثر تجليًا، أنا التي منذ وقت طويل لم يعد لديَّ طعم ولا شكل. ها إنّي أملك من جديد نهدين وسرّة وعضوًا وجسدًا. كنت مغذّية كالخبز وعطرة كالأرض. عجيب كيف لم أفكّر بأن أقيس وقتي أو لذّتي. أعرف فقط أنّنا سمعنا زقزقة الفجر الخافتة عندما خلدنا للنوم.

أيقظتني رائحة القهوة، فتحت عينيّ وابتسمت لدى رؤيتي فوق الكرسيّ المجاور ثوبي الصوفيّ الأزرق تعانقه ذراعا سترة رماديّة. أوراق الشجرة القاتمة ارتسم ظلّها مزغللاً على الستار الأصفر الفاقع. ناولني لويس كوبًا وشربت دفعة واحدة عصير البرتقال الذي كان له هذا الصباح طعم النقاهة. لكأنّ اللذّة كانت اعتلالاً، لكأنّ حياتي علّة مزمنة وكنت أشفى منها.

إنّه يوم الأحد، وللمرّة الأولى، هذه السنة، تسطع الشمس فوق سماء شيكاغو. ذهبنا للجلوس على مرجة عند ضفّة البحيرة. كان هناك أطفال يلهون بلعبة السيو(١) في الجنبات الصغيرة. عشّاق كثيرون يمسكون بأيدي بعضهم البعض. اليخوت تنزلق على الماء الباذخة. الطائرات المنمنمة الحمراء والصفراء، الملمّعة وكأنّها ألعاب، حامت فوق رؤوسنا. انتزع لويس ورقة من جيبه:

ـ منذ شهرين كتبت قصيدة لك...

ـ أرني إيّاها.

شعرت بغصّة صغيرة في القلب. جالسًا قرب النافذة، تحت صورة عن لوحة فان غوغ، كتب هذه الأبيات للمتعففة المجهولة التي تمنّعت عن تقبيل شفتيه. لمدّة شهرين فكّر بها بحنان. ولم أعد شبيهة بتلك المرأة. لا بدَّ أنّه لمح ظلاً على وجهي لأنّه قال لي بنبرة يشوبها القلق:

ـ لم يكن يجدر بي أن أريك إيّاها.

---

(١) السيو: اسم شعب من الهنود الحمر.

ـ لكن بلى. أحببتها كثيرًا. ابتسمت بمشقة: «لكن الآن، هاتان الشفتان لك».

قال:

ـ الآن، وأخيرًا.

طمأنني دفء صوته. في الشتاء الماضي، أثّر فيه تحفّظي بالطبع، وهو الآن أكثر سرورًا. لا جدوى من تعذيب نفسي، داعب شعري وقال لي كلمات بسيطة رقيقة، وأدخل في إصبعي خاتمًا نحاسيًّا قديمًا. نظرت إلى الخاتم وأصغيت إلى الكلمات الغريبة. تحت خدّي، ترصّدت الخفقات الأليفة لقلب مجهول. لا شيء يُطلب منّي. يكفي فقط أن أكون ما كنته لكي تحوّلني شهوة رجل إلى امرأة فائقة القدرة. غمرني شعور جارف من الارتياح بحيث لو أنّ الشمس توقّفت في كبد السماء لتركت الأبديّة تنساب دون أن أكترث للأمر.

لكنّ الشمس اقتربت من الأرض وأصبح العشب نديًّا. الجنبات صمتت، اليخوت هجعت.

قال لويس: «ستصابين بالبرد. هيّا نمش قليلاً».

ها أنا واقفة على ساقيّ، تدفعني حرارتي بالذات، جسدي يعرف كيف يتحرّك ويشغل حيّزًا خاصًّا به: بدا لي الأمر غريبًا. طيلة النهار، لم يكن جسدي إلاّ غيابًا وخضوعًا: ينتظر الليل ولمسات لويس.

قال:

ـ أين تريدين تناول العشاء؟ يمكننا العودة أو الذهاب إلى مكان ما.

ـ لنذهب إلى مكانٍ ما.

كان ذلك اليوم شديد الزرقة، شديد العذوبة حتّى أحسستني أذوب رقة. لم يكن ماضينا ستًّا وثلاثين ساعة. كان أفقنا يختصره وجه، ومستقبلنا سريرنا، نشعر بالاختناق في هذا الجو المحتبس.

ـ ما رأيك لو نذهب إلى النادي الأسود الذي حدّثنا عنه بيغ بيللي البارحة.

قال لويس:

ـ إنّه بعيد.

ـ لا بأس، لعلّنا ننعم بالقيام بنزهة قبل بلوغه.

كنت بحاجة إلى شيء من التسلية والترفيه؛ فهذه الساعات المشحونة أتعبتني. في الترامواي، غفوت قليلاً على كتف لويس. لم أحاول استكشاف هذه المدينة. لم أظنّ أنّها تحتوي كالمدن الأخرى على شوارع رئيسيّة معلومة ووسائل نقل محدّدة. ينبغي عليَّ الاستجابة لبعض المقترحات التي يبديها لويس لكي تنبثق الأماكن من العدم. وانبثق نادي«ديليز» من العدم مكلّلاً بهالة بنفسجيّة. إلى جانب الباب مرآة كبيرة عكست صورتينا فابتسمنا معًا لها. رأسي يصل بالضبط حتى مستوى كتفه. بدونا سعيدين وفتيّين. هتفت بفرح: «ما أجمل هذا الثنائي!» وللحال انقبض قلبي: لا، لسنا ثنائيًّا ولن نكون أبدًا. بإمكاننا أن يُحبّ أحدنا الآخر، لا أشكّ في ذلك

إطلاقا لكن: في أيّ بقعة من العالم، في أيّ زمن؟ ولا في أيّ مكان على الأرض، ولا في أيّ حيّز من المستقبل.

قال لويس:

ـ نريد تناول العشاء.

كان رئيس الخدم قاتم البشرة شديدها وأشبه ببطل مصارعة. أجلسنا في مقصورة بالقرب من الحلبة. وُضعت على طاولتنا سلال ملأى بالدجاج المقلي. لم يصل الموسيقيّون بعد، لكنّ القاعة غصّت بالروّاد: بعض البيض والكثير من السود الذين يعتمرون قلنسوات.

ـ ما هذه الشاشيّات؟

قال لويس:

ـ يعتمرها أعضاء إحدى الرابطات، وهناك الكثير منها. صادف مرورنا وهم يعقدون مؤتمرًا لهم.

ـ لكنّ هذا سيكون مضجرًا.

ـ أخشى ذلك.

أجابني بصوت متجهّم. لا بدَّ أنّه تعب هو أيضًا من جرّاء السعادة الطويلة التي مررنا بها. منذ البارحة ونحن في تواصل مستمرّ وعناق طويل. نمنا قليلاً بعد أن هدّتنا حمّى جسدينا وأعقب ذلك سقام طويل. فيما كنّا نتناول طعامنا بصمت، صعد أحد الزنوج، وكان ضخم الجثّة، على الحلبة وراح يتكلّم بلهجة مفخّمة.

ـ ماذا يقول؟

ـ يتحدّث عن الرابطة.

ـ ألا يتضمّن البرنامج بعض المنوّعات؟

ـ بلى.

ـ متى؟

ـ لا أعرف.

أجابني بطرف شفتيه. إنّ عناءنا المشترك لا يقرّب بيننا. وفجأة، لم أعد أشعر إلاّ بمياه رماديّة تجري في عروقي بدل الدماء، ربَّما أخطأت حين رغبت في الهرب من مخبئنا: الهواء فيه ثقيل ومشحون. لكن، خارج مخبئنا، الأرض خالية والبرد قارس. تلقّط الخطيب بأحد الأسماء بصوت متهلل. فنهضت امرأة تعتمر قلنسوة حمراء. فدوّت القاعة بالتصفيق. ثم علا وجه آخر الحشد ووجه بعده. هل سيقدّمون جميع أعضاء الرابطة الواحد تلو الآخر؟ استدرت ناحية لويس. رأيته يحدّق في الفراغ بنظرة جامدة. كان فكّه الأسفل مرتخيًا وبدا أشبه بالأسماك الشرّيرة في الأكواريوم.

قلت:

ـ إذا كان الحفل سيستغرق وقتًا طويلاً، فمن الأفضل أن نذهب.

ـ لكنّنا لم نقطع كل هذه المسافة لكي نغادر بهذه السرعة. بدا لي صوته جافًّا وتبيّنت فيه شيئًا من عدائيّة لا تبرّرها حال التعب التي يعاني منها. ربّما كان يرغب، عندما تركنا ضفّة البحيرة، بالعودة إلى غرفتنا. ربَّما آلمته لأنّني لم أعرب عن رغبتي الفوريّة

في العودة إلى سريرنا: أربكتني هذه الفكرة. حاولت التقرّب منه عبر الكلام:

ـ هل أنت متعب؟

ـ لا.

ـ هل أنت ضجر؟

ـ أنتظر.

ـ لن ننتظر هكذا لمدّة ساعتين.

ـ ولم لا؟

أسند رأسه إلى الحاجز الخشبيّ. وجهه متجهّم وغريب كوجه القمر. بدا على أهبة الاستسلام إلى غفوة لساعتين دون أن ينبس بكلمة. طلبت كأسًا مزدوجة من الويسكي، لكنّها لم تستطع إنعاشي. فوق الحلبة، نساء عجائز سوداوات معتمرات قلنسوات حمراء، يتبادلن التحيّة ويحيّين الجمهور وسط التصفيق.

ـ لويس، لنعد.

ـ لا، هذا محال.

ـ إذًا، تحدَّث إليَّ.

ـ ليس لديّ ما أقوله.

ـ لم أعد أتحمّل البقاء هنا.

ـ لكنّك أنت من رغب في المجيء.

ـ ليست هذه حجّة مقنعة.

استسلم من جديد لخدره. حاولت أن أسترجع أحداث هذا اليوم: «لا بدّ أنّني نائمة، وأنّ ما أراه كابوس وسأستيقظ منه». لكن لا، بعد الظهر هذا الشديد الزرقة هو الذي كان حلمًا، والآن نستيقظ منه. على ضفّة البحيرة تحدّث إليّ لويس وكأنّني لن أفارقه. وضع في إصبعي خاتمًا. وفي غضون ثلاثة أيّام، سأذهب إلى غير رجعة وهو يدرك هذا الأمر جيّدًا. فكّرت:

«ربَّما كان يُضمر حقدًا تجاهي، وهو على صواب. لماذا جئت ما دمت لا أستطيع البقاء؟ إنّه حاقدٌ عليَّ وضغينته ستفرّق بيننا إلى الأبد». قليلاً ونفترق إلى الأبد. على أيّ حال، كان القليل من الوقت كافيًا البارحة لكي يفرّقنا إلى الأبد! اغرورقت عيناي بالدموع.

ـ هل أنت غاضب؟

ـ لا، لا!

ـ ما الأمر إذًا؟

ـ لا شيء.

عبثًا بحثت عن نظرته. لو أنّني أستطيع أن أسحق عظامي وأحطّم جمجمتي على هذا الجدار المسدود، لما استطعت تحريكه. اصطفّت فتيات يرتدين ثياب توزيع الجوائز على الحلبة. اقتربت فتاة هزيلة قصيرة القامة ذات سمرة فاتحة من الميكروفون وأخذت تغنّي وهي تصطنع الظرف والدلال. تمتمت يائسة: «أنا، سأرحل!».

لم يحرّك لويس ساكنًا. تساءلت وعيناي لا تصدّقان ما أراه: «أيعقل أن يكون كلّ شيء قد انتهى؟ هل فقدته بهذه السرعة؟». جهدت لأستنجد بحسّي السليم: لم أفقده ولم أحظ به قطّ وليس لديَّ الحقّ في الشكوى لأنّني لم أفعل شيئًا سوى أنّني استسلمت له. ما همَّ. لا أشتكي من هذا الأمر. لكنّني أتعذّب. تحسّست الخاتم النحاسيّ. ليست هناك سوى وسيلة واحدة للكفّ عن هذا العذاب ألا وهي التنكّر لكلّ شيء. وسأعيد له الخاتم، وغدًا صباحًا، سأستقلُّ الطائرة إلى نيويورك، ولن يعود ذلك النهار إلاّ ذكرى سيتكفّل الزمن بمحوها. انزلق الخاتم من إصبعي ورأيت من جديد السماء الزرقاء، وابتسامة لويس وهو يداعب شعري ويناديني: «آن»! تداعيت على كتفه قائلة: «لويس!».

طوّقني بذراعه، وانبجست دموعي.

ــ هل كنت شرّيرًا فعلاً؟

قلت:

ــ أخفتني! أخفتني كثيرًا!

ــ أخفتك؟ هل أخافك الألمان في باريس؟

ــ لا!

ــ أمّا أنا فأخفتك؟ هذا مدعاة فخر لي...

ــ بل عليك أن تخجل.

ــ قبّل شعري بخفّة وداعبت يده ذراعي. تمتمت: «أردت أن أعيد لك خاتمك».

قال بصوت خفيض:

ــ رأيت ذلك. فكّرت أنّني أفسد كل شيء ولكنّي لم أستطع التفوّه بكلمة واحدة.

ــ لماذا؟ ما الذي حدث؟

ــ لا شيء إطلاقًا.

لم أصرّ. لكنّي سألته:

ــ هل ترغب في العودة الآن؟

ــ بكلّ تأكيد.

في التاكسي قال فجأة: «ألا تنتابك أبدًا الرغبة في قتل الجميع وقتل نفسك مع الجميع؟».

ــ لا، خصوصًا عندما أكون معك.

ابتسم. جذب رأسي باتّجاه كتفه، استشعرت من جديد حرارة جسده ونَفَسه، لكنّه صمت وفكّرت: «لم أخطئ. لم تنفجر هذه الأزمة بلا داعٍ. ظنَّ أنّ قصّتنا عبثيّة ولا يزال يظنّ ذلك!». عندما اضطجعنا في السرير، أطفأ النور في الحال. أخذني في الظلمة، بصمت، دون أن يلفظ اسمي، دون أن يبتسم لي. ثم انفصل عنّي دون أن ينبس بكلمة. قلت في نفسي وقد أخذني الرعب: « أجل، إنّه حاقد عليّ، سأفقده».

قلت بلهجة متوسّلة:

ــ لويس! قل لي.. ألديك شعور بالصداقة حيالي؟

فأجابني بلهجة عنيفة:

ـ الصداقة؟ لكنّي أحبّك!

استدار ناحية الجدار، ورحت أبكي طويلاً. لم أعرف ما إذا كان السبب حبّه لي أم أنّني لن أستطيع أن أحبّه لأنّ الأيّام ستفرّق بيننا.

عندما فتحت عينيّ عند الصباح اتّخذت قراري: «يجب أن أتحدّث إليه». الآن وقد تلفّظ كلمة حبّ، عليَّ أن أشرح للويس لماذا أرفض استخدام هذه الكلمة. لكنّه جذبني ناحيته: «كم أنت متورّدة! ودافئة!». فخانتني الشجاعة. ولم يعد أيّ شيء يعني لي إلاّ السعادة التي أشعر بها عندما يغمرني بين ذراعيه، دافئة كما أنا ومتورّدة الخدين. انطلقنا نجول عبر المدينة. سرنا متعانقين في الشوارع المحفوفة بالأكواخ الحقيرة المتداعية التي تتوقّف أمامها سيّارات فخمة. وفي بعض الأماكن، كانت المنازل المبنيّة في مستوى أدنى تنفصل عن الطريق المعبّدة وتوجب القفز فوق الحفر التي تباعد بينها بدرج. شعرنا وكأنّنا نمشي فوق أحد السدود. واكتشفت تحت أرصفة جادّة ميشيغان مدينة لا تصلها الشمس، مضاءة طيلة النهار بلافتات النيون. تنزّهنا في القارب على البحيرة. احتسينا كؤوس مارتيني على قمّة أحد الأبراج ومن هناك لمحنا بحيرة لامتناهية وضواحي شاسعة أشبه ببحيرة. كان لويس يحبّ مدينته. روى لي قصّتها: البراري، الهنود الحمر، الأكواخ الأولى، الأزقّة حيث تهمهم الخنازير، الحريق الكبير، ناطحات السحاب الأولى: حتّى ليخيّل لسامعه أنّه كان شاهدًا على كلّ شيء.

سألني:

ـ أين تودّين تناول العشاء؟

ـ حيثما تشاء.

ـ فكّرت أنّه بإمكاننا تناول العشاء في البيت؟

قلت:

ـ نعم، فلنتناول العشاء في المنزل.

انقبض قلبي. قال: «في البيت». كما لو أنّنا زوج وزوجة: تبقى لنا يومان لنعيشهما سويّة. فكّرت: «يجب أن أتحدّث إليه». عليَّ أن أقول له إنّه كان بوسعي أن أحبّه وإنّني لا أقدر على ذلك: هل سيتفهّمني أم سيكرهني؟

اشترينا جامبون وسلامي وزجاجة كيانتي[١] وبسكويت بالرّوم. التففنا حول زاوية الشارع حيث توهّجت لافتة Schiltz. عند أسفل الدرج، على مقربة من سلال النفايات، ضمّني إليه: «آن، هل تعرفين لماذا أحبّك إلى هذا الحدّ؟ لأنّني أجعلك سعيدة!». وقرّبت شفتيَّ لأتجرّع لهاثه عن مسافة أقرب، لكنه ابتعد عنّي.

قال:

ـ هناك أحدٌ على الشرفة!

صعد أمامي الدرج بخطى مسرعة وسمعته يهتف بفرح:

ـ ماريّا! يا للمفاجأة السارّة: ادخلي.

ابتسم لي: «آن: ماريّا صديقة قديمة».

---

(١) كيانتي chianti: نبيذ كيانتي المنسوب إلى موضع صنعه في إيطاليا.

قالت ماريّا:

ــ لا أريد أن أزعجكما.

ــ لا يزعجنا وجودك.

دخلت المرأة الشابّة، وكانت ممتلئة القامة قليلاً. كان بإمكانها أن تكون جميلة لو أنّها تبرّجت قليلاً أو سرّحت شعرها بعناية أكبر. كان مريولها الأزرق يكشف عن ذراعين بيضاوين إحداهما مبقّعة بالكدمات الكبيرة. لا بدَّ أنّها جاءت بوصفها جارته فلم تتكلّف عناء ارتداء ملابسها: «صديقة قديمة»، ماذا أراد أن يقول بالضبط؟

جلست ثم قالت بصوت أجشّ قليلاً:

ــ لويس، كنت بحاجة إلى أن أكلّمك.

استشعرت بطعم الملوحة يتسرّب إلى حلقي. لويس تلقّطت هذا الاسم كما لو أنّه كان أليفًا جدًّا بالنسبة لها. نظرت إلى لويس بحنان ملحّ فيما كان يفتح سدّادة الزجاجة.

سألها:

ــ هل طال انتظارك؟

قالت بصوت غير آبه:

ــ ساعتين أو ثلاثًا. كان الناس في الأسفل في غاية اللطف. قدَّموا لي القهوة. تحدّثوا عنك بشكل رائع. جرعت دفعة واحدة كأس الكيانتي وأضافت: «لديَّ أشياء في غاية الأهمّيّة وأريد أن أحدّثك عنها». ثم حدجتني بنظرتها: «أشياء خاصّة»؟

قال لويس:

ـ باستطاعتك التحدّث في حضور آن. آن فرنسيّة. إنّها قادمة من باريس.

قالت ماريّا:

ـ باريس! ثم هزّت كتفيها غير آبهة: «اسكب لي أيضًا القليل من الخمر».

ملأ لويس كأسها فأفرغتها بسرعة ثم قالت: «عليك أن تساعدني، لا أحد يستطيع سواك...».

ـ سأحاول.

تردّدت ثم قالت:

ـ حسنًا، هل أستطيع أن أوضح لك الأمر؟

وبدوري، سكبت القليل من النبيذ وأنا أتساءل بقلق. «هل ستبقى هنا طيلة الليل؟» نهضَتْ واستندت إلى الموقد وراحت تسترسل في أمور الزواج والطلاق والموهبة التي توضع العراقيل في دربها. قالت بصوت فيه احتجاج: «أنت، أنت نجحت. أمّا بالنسبة لامرأة فالأمر لا يخلو من صعوبات. عليَّ أن أنجز هذا الكتاب، لكن في المكان الذي أنا فيه لا أستطيع مواصلة الكتابة».

لم أعر كلامها أيّ اهتمام واعتراني شعور من الغضب. بحثت عن وسيلة يمكن للويس أن يكتشفها للتخلّص منها. وكان ردّد على مسمعي أنّه يحبّني وهو يعرف جيّدًا أنّ ساعاتنا معدودة. فماذا ينتظر ليصرفها؟

لكنّه سألها بلهجة مهذّبة:

ـ وعائلتك؟

ـ لماذا تسألني عن عائلتي؟

وبحركة عصبيّة، لملمت ماريا الأوراق المبعثرة على الطاولة، ودعكتها ككرة ثم رمتها بعنف في سلّة المهملات: «أكره الماضي!» ثم قالت وهي تحدّق في لويس: «لا، لا أستطيع الاعتماد إلا عليك».

نهض وقد بدا عليه الارتباك:

ـ ألست جائعة؟ كنّا على وشك أن نبدأ بإعداد العشاء.

قالت:

ـ شكرًا. أكلت سندويشات جبنة. ثم أضافت بنبرة فيها شيء من الاستفزاز الغامض: «جبنة أميركيّة».

سألها:

ـ أين ستمضين ليلتك؟

فانفجرت ضاحكة:

ـ لن أنام. احتسيت عشرة فناجين قهوة.

ـ لكن أين ستمضين ليلتك؟

ـ لكنك دعوتني، أليس كذلك؟

ثم تصفّحت وجهي وأضافت: «بطبيعة الحال، لكي أوافق على البقاء معك، يجب أن يكون البيت خاليًا من أيّ امرأة».

قال لويس:

ــ لكنّ المشكلة هي في وجود امرأة أخرى.

قالت ماريّا:

ــ اطردها.

قال لويس ببشاشة:

ــ أمر صعب.

بدايةً، شعرت برغبة في الضحك: ماريّا فرّت من مستشفى المجانين. كان يجدر بي أن أكون على بيّنة من الأمر ما إن فتحت فاها لتتكلّم. ثم ارتعبت لعمى بصيرتي: هل بلغت بي السذاجة إلى حدّ الانجراح من هذه المجنونة واعتبارها غريمتي! كلّ ذلك وأنا ساغادر بعد يومين تاركة لويس بين رهط من النساء المتهافتات على كسب ودّه وتمضية لياليهنّ معه دون حرج.

قالت ماريّا بلهجة آمرة:

ــ منذ عشر سنوات لم أرَه. اتركيه لي هذه الليلة وبإمكانك البقاء إلى جانبه طيلة الحياة. هذا منصف أليس كذلك؟

لم أحر جوابًا. ثم التفتت إلى لويس:

ــ إذا رحلت من هنا فلن أعود. وإذا رحلْتُ غدًا فسأتزوّج برجلٍ آخر.

قال لويس:

ــ آن هنا في بيتها. نحن متزوّجان.

ـ آه!

تجمّدت نظرات ماريّا. ثم أضافت: «اعذراني. لم أكن أعرف». أمسكت قنّينة الكيانتي من عنق الزجاجة ونهلت منها جرعات متتالية.

قالت:

ـ أعطني آلة حلاقة.

تبادلنا أنا ولويس نظرات قلقة. ثم قال لويس:

ـ لا يوجد عندي.

ـ هيّا، أعطني!

نهضت ومشت في اتّجاه المجلى. ثم سألتني بلهجة ساخرة وهي تجلس مفرجة قليلاً بين ساقيها: «هذه الشفرة ستقوم بالمهمّة». ثم سألتني بلهجة ساخرة: «هل تسمحين؟». وراحت تحلق ساقيها بدأب محموم: «هكذا أفضل، أفضل بكثير». ومن جديد نهضت وانتصبت أمام المرآة وأخذت تحلق إبطيها، الواحد تلو الآخر. ثم قالت وهي تتمطّى أمام المرآة وقد علت وجهها ابتسامة شبقة: «ها قد اختلف الأمر كليًّا. حسنًا! غدًا سأتزوّج بذلك الطبيب. ولمَ لا أتزوّج زنجيًّا ما دمت أعمل كما يعمل الزنوج؟».

قال لويس:

ـ ماريّا، تأخّر الوقت، سآخذك إلى فندق حيث بإمكانك أن تخلدي للراحة.

ـ لا أريد أن أرتاح.

نظرت إليه بغضب: «لماذا استدعيتني بإلحاح إلى الدخول إلى منزلك؟ لا أحبّ أن يَهزأ بي أحد». شهرت قبضتها وقرّبتها قيد أنملة من وجه لويس: «لا بل هذه أخبث حيلة تعرّضت لها في حياتي». ثم أضافت وهي تشير إلى الكدمات على ذراعها: «ما أقسى الآلام التي تحمّلتها من أجلك».

ردّد لويس بلهجة هادئة:

ــ هيّا، تأخّر الوقت.

توقفت نظرات ماريّا عند المجلى:

ــ حسنًا، سآتي، لكن بداية سخّن الماء. سأغسل الصحن، لا يمكنني تحمّل القذارة.

قال لويس بنبرة خاضعة:

ــ يوجد مياه ساخنة.

أمسكت الغلاّية، وراحت تغسل الصحون بعجلة وصمت. عندما أنهت عملها، جفّفت يديها بمريولها وقالت:

ــ حسنًا، سأتركك مع زوجتك.

قال لويس:

ــ سأرافقك.

أشار لي بحركة خفيفة فيما مشت هي باتّجاه الباب دون أن تلتفت ناحيتي. وضعْتُ غطاء الطاولة وأشعلْتُ سيجارة. الآن، لم يعد هناك من مجال للمماطلة والإرجاء مع وقف التنفيذ، سيعود

لويس بعد هنيهة، سأتحدّث بصراحة إليه. لكنّ الكلمات التي رحت أستحضرها منذ الصباح لم تعد صالحة لاستخدامها في هذا الوقت. روبير، نادين، عملي، باريس: كل هذا صحيح مع ذلك. ولم يكن النهار الواحد كافيًا لقلب الأمور رأسًا على عقب.

عاد لويس إلى المطبخ، وأقفل الباب بعناية.

قال:

ـ أودعتها سيّارة تاكسي، قالَتْ لي: «في أيّ حال، من الأفضل ان أعود للنوم بالقرب من المجانين». «فرّت من المستشفى عند نهاية بعد الظهر، وأتت إلى هنا مباشرةً».

ـ لم أفهم في الحال.

ـ لاحظت ذلك. منذ أربع سنوات وهي محتبسة في مأوى المجانين. كتبت لي السنة الماضية وسألتني أن أرسل إليها كتابي فأرسلته مرفقًا بكلمة إهداء صغيرة، بالكاد كنت أعرفها. نظر من حوله وقال مبتسمًا: «مذ سكنْتُ هنا وأشياء غريبة تحدث لي. السبب هو هذا المكان. لأنّه يجتذب الهررة والمجانين والمدمنين». طوّقني بين ذراعيه ثم أضاف: «والمساكين بالروح!».

توجّه نحو البيك أب لإسماعي بعض الأغنيات، ثم عاد ليجلس أمام الطاولة. بقي القليل من الكيانتي التي سكبتها في كأسينا. من الفونوغراف، انطلقت موسيقى راقصة إيرلنديّة فيما رحنا نتناول طعامنا بصمت جنبًا إلى جنب. كان السرير المغطّى بغطاء مكسيكيّ في انتظارنا. خِلتُها سهرة عاديّة ستتبعها ألف سهرة

مشابهة. عبَّر لويس عمّا يجول في خاطري بصوت عالٍ: «قد يتبادر إليك الاعتقاد أنّني لم أكذب على ماريّا». وفجأة ساءلتني نظراته «من يدري؟» لكنّي دارية! أشحت برأسي، لم يعد بإمكاني الانتظار طويلاً، تمتمت:

ــ لويس، لم أحدّثك عنّي بما يكفي. عليَّ أن أشرح لك...

ــ ما الأمر؟

رأيتُ جزعًا في نظرته. فكّرْتُ: «كل شيء انتهى!». مرّة أخرى نظرت إلى الموقد والجدران والنافذة وهذا الديكور الذي لن يمضي وقت قصير حتى أصبح غريبة عنه. ومن ثم تلمّست طريقي ورحت أردّد بعض التعابير عشوائيًّا. ذات يوم، عندما كنت أتنزّه في الجبل، انهار ركام من السفوح عليّ فتدحرجت معه، ظننت حينئذٍ أنّني في مواجهة الموت لكن لم يعترني في داخلي إلاّ شعور باللامبالاة. سبق لي أن أحسست بمثل هذا الاستسلام للقدر المحتوم. وددت فقط لو أستطيع أن أغمض عينيّ.

قال لويس:

ــ لم أكن أعرف أنّ هذا الزواج لا يزال على هذا القدر من الأهمّيّة بالنسبة لك.

ــ إنّه لكذلك.

صمت لبرهة طويلة. تمتمت:

ــ هل تفهمني؟

ـ طوّق كتفي بذراعه: «أنت أغلى في نظري من ذي قبل لأنك صارحتني. إنّ انشغالي بك يزداد يومًا بعد يوم». أسندت خدّي إلى خدّه، وكل الكلمات التي امتنعت عن قولها ملأت قلبي تعاسة.

وأخيرًا قال لي:

ـ عليك بالذهاب للنوم. سأرتّب المكان قليلاً ثم أعود إليك.

لوقت طويل، سمعت ضجّة الصحون والأواني. ثم لم أعد أسمع شيئًا. غفوت. عندما فتحت عينيّ، كان راقدًا إلى جانبي. لماذا لم يوقظني؟ بماذا فكّر. ماذا سيفكّر غدًا؟ ماذا سيفكّر عند رحيلي؟ خرجت من السرير محاذرة أن أوقظه. فتحت باب المطبخ واتّكأت إلى درابزين الشرفة. ارتعشت الشجرة في الأسفل. بين السماء والأرض التمع إكليل من الحبابات الحمراء: إنّه خزّان الغاز. الطقس بارد، ارتعشت أنا أيضًا. لا، لا أريد الرحيل، ليس بعد غد. ليس بهذه السرعة. سأبرق إلى باريس. بإمكاني أن أبقى عشرة أيّام إضافيّة، أو خمسة عشر يومًا... عليَّ الرحيل في الحال والدليل على ذلك أنّ هذه العلاقة تبدو لي باهظة الثمن منذ الآن. لا يقتصر الأمر على مغامرة من المغامرات التي تعترض أسفارنا: إذا أرجأت عودتي ستؤول بنا العلاقة إلى قصّة حبّ حقيقيّة، حبّ مستحيل وسيتسبّب لي بعذاب أليم، لا أريد أن أتعذّب. رأيت بول تتعذّب عن كثب. عالجت فوق الديوان في عيادتي الكثير من النساء المعذّبات اللواتي لم يستطعن الشفاء. فكّرت: «إذا رحلت فسأنسى وسأرغم على النسيان. النسيان أمرٌ حاصل لا محالة. كل شيء يُنسى، يُنسى بسرعة: وأربعة أيّام، يسهل نسيانها». حاولت أن أفكّر

بلويس كمن يفكّر في شخص منسيّ: تخيّلته يجول في أرجاء المنزل وقد تناساني. أجل، هو أيضًا سوف ينسى. اليوم، هذه الغرفة غرفتي والشرفة شرفتي، وهذا السرير سريري، وهذا القلب مفعم بحبّي، أمّا غدًا فلن يكون لي وجود. أغلقت الباب وأنا أفكّر بلوعة: «لن أكون سببًا في خسارة هذا الحبّ ولن أضحّي به جرّاء خطأ أرتكبه».

قال لويس:

ـ هل أنت مستيقظة؟

ـ نعم. جلستُ على حافة السرير بالقرب من جسده الدافئ. «لويس، إذا قرّرت تمديد إقامتي لأسبوع أو أسبوعين، فهل هذا ممكن؟».

ـ ظننت أنّهم ينتظرون قدومك في باريس.

ـ أستطيع الإبراق إلى باريس. هل بإمكانك استقبالي لفترة قليلة بعد؟

ـ لو كان لي الخيار لأبقيتك إلى جانبي العمر كلّه!

تلفّظ بهذه الكلمات بنبرة هي من العنف بحيث تهاويت بين ذارعيه. قبّلت عينيه، شفتيه، انحدر فمي على طول صدره، لامس السرّة الطفوليّة والفروة الحيوانية حتى بلغ عضوه فأحسست هناك بقلب يخفق خفقات خفيفة؛ رائحته ودفؤه بعثا فيّ على الدوار. شعرت أنّ حياتي فارقتني. حياتي القديمة وهمومها وأتعابها وذكرياتها المبتذلة. لقد ضمّ لويس إلى صدره امرأة جديدة تمامًا.

تأوّهت ليس فقط من اللذّة بل من السعادة. اللذّة، فيما مضى، قدّرتها حقّ قدرها لكنّي لم أكن أدرك أنّ ممارسة الحبّ تُشيع في النفس مثل هذا الاضطراب. الماضي، والمستقبل، وكلّ ما يفرّق بيننا تلاشى عند أسفل سريرنا: ما من شيء يفرّق بيننا. يا لهذا الظفر! كان لويس بكلّيته بين ذراعيّ وكنت بكلّيتي بين ذراعيه. ولا من رغبة أخرى. فزنا بالسعادة الأبديّة ولم نعد نسعى إلى الحصول على المزيد. ومعًا قلنا: «أيّ سعادة هذه؟». وحين قال لويس «أحبّك» ردّدت معه «أحبّك».

مكثت خمسة عشر يومًا في شيكاغو. عشنا مدة خمسة عشر يومًا دون أن نلوي على شيء، ودون أن يطرح أحدنا سؤالاً على الآخر. اخترعنا من ماضينا قصصًا وتراويناها معًا. كان لويس أوّل من أتته حميّة الكلام خصوصًا: راح يتكلّم بسرعة ملحوظة وبانفعال كما لو أنّه يريد التعويض عن الصمت الذي غرق فيه طويلاً. أحببت الطريقة التي تدافعت فيها الكلمات حين تكلّم. أحببت ما يقول وأحببت طريقته في السرد. باستمرار، كنت أكتشف ذرائع جديدة لأحبّه. ربّما لأنّ كل ما اكتشفته فيه يشكّل ذريعة جديدة لتعلقي بحبّه. كان الطقس جميلاً وتنزّهنا أغلب الأحيان. عندما نتعب، نعود إلى الغرفة ساعة تمّحي ظلال الشجرة على الستار الأصفر. يضع لويس على البيك أب كدسة «من الأسطوانات المختارة». يرتدي برنسه الأبيض وأنام بقميصي الداخليّ على ركبتيه، وننتظر أوان الرغبة. أنا التي كنت أتساءل دومًا وبارتياب عن المشاعر التي أوحيها إلى الآخر لم أتساءل قطّ عن مشاعر لويس نحوي. كنت

موقنة من أنّه يحبّني دون أن يتوقف عند التفاصيل.. لا يعرف بلادي ولا لغتي، لا أصدقائي ولا همومي. لا شيء إلاّ صوتي وعينيّ وجسدي. وأنا أيضًا، لا أملك حقيقة أخرى إلاّ هذا الجسد وهذا الصوت وهاتين العينين.

في الليلة التي سبقت رحيلي، ذهبنا لتناول العشاء في المطعم الألمانيّ القديم. نزلنا إلى ضفّة البحيرة. كانت المياه سوداء ومن فوقها السماء بلونها الرمادي المائل إلى البياض. الطقس حارّ. صبية وفتيات نصف عراة. مبتلّون كليًّا، يجفّفون أجسادهم متحلّقين حول نار مخيّم. على مسافةٍ أبعد، نصب صيّادو السمك صنانيرهم، ووضعوا على رصيف الضفّة أكياس النوم وترامس، ثم شيئًا فشيئًا أقفر الرصيف، ولذنا بالصمت.

البحيرة تلهث برقّة عند أقدامنا. بدت متوحّشة كما كانت أيّام خيّم الهنود الحمر على ضفافها السبخيّة، كما كانت قبل أن يرتادها الهنود. إلى اليسار، فوق رؤوسنا، تتاهت إلينا ضوضاء المدينة الصاخبة. مصابيح السيّارات تضيء الجادّة فتلتمع المباني العالية. بدت الأرض قديمة العهد وجديدة وكأنّها ولدت لتوّها.

قلت:

ـ ما أجمل هذه الليلة!

قال لويس:

ـ نعم، إنّها ليلة جميلة. ثم أشار إلى أحد المقاعد: «هل تريدين الجلوس هناك؟».

ـ إذا شئت.

قال لويس ببشاشة:

ـ ما ألطفها المرأة التي تجيب دومًا بعبارة: «إذا شئت»! جلس بجانبي وطوّقني بذراعه. ثم أضاف بحنان: «غريب كم نحن متفاهمان. بحياتي لم أستطع التفاهم مع أحد».

قلت:

ـ لست المسؤول بكلّ تأكيد.

ـ لا بل المسؤوليّة تقع على عاتقي. عشرتي ليست أمرًا سهلاً.

ـ لكنّي أجدها سهلة.

ـ أيّتها الغالية الصغيرة المسكينة: لست متطلّبة بل أنت حلوة المعشر.

أسندت رأسي إلى صدر لويس مصغية إلى خفقان قلبه. ماذا عليَّ أن أطلب أكثر؟ ما دمت في رحاب هذا القلب القويّ والصبور الذي يخفق تحت خدّي، في هذه الليلة الرماديّة اللؤلؤيّة التي تخيّم علينا كأنّها وُجدت لإسعادي. يستحيل عليَّ التصوّر أنّه كان بإمكاني ألاّ أعيشها. «ومع ذلك، قلت في نفسي، لو أنَّ فيليب أتى إلى نيويورك لما كنت هنا». لن أغرم بفيليب، أنا واثقة من ذلك: لكنّي لو لم أرَ لويس ثانية لما كان هذا الحبّ، وشعرت بحيرة كمن يحاول أن يتخيّل أنّه لم يولد أو أنّه شخص آخر.

تمتمت:

ـ حين أتخيّل أنّه كان من الممكن ألاّ أتّصل بك هاتفيًّا أو أنّ عندك شغلاً يشغلك عنّي أو ألاّ تحبّني!

قال لويس:

ـ آه! لقائي بك محتّم!

لمست في صوته يقينًا جعلني أشعر بأنّ أنفاسي تقطّعت. وضعت شفتيّ على موضع خفقان القلب وعاهدت نفسي: «لن أجعله أبدًا يندم على هذا اللقاء!». سأرحل بعد يومين، سيولد المستقبل من جديد ونستعيد معه السعادة المنشودة.

رفعت رأسي:

ـ لويس، إذا شئت، بإمكاني العودة لمدّة شهرين أو ثلاثة في الربيع.

ـ مع عودتك يعود الربيع.

بقينا لوقت طويل متعانقين نراقب النجوم، عبرت نجمة السماء. قلت:

ـ تمنَّ أمنية!

ابتسم لويس:

ـ سبق وتمنّيت!

شعرت بانقباض في حلقي. أعرف أمنيته ولن تتحقّق. هناك، في باريس، حياتي المألوفة في انتظاري، حياتي التي بنيتها على

مدى عشرين عامًا ولم يعد من سؤال يُطرح بشأنها. سأعود في الربيع لكنّ عودتي سيعقبها الرحيل مجدّدًا.

أمضيت النهار في اليوم التالي أقوم بمشترياتي. تذكّرت باريس، واجهاتها الحزينة، نساءها اللواتي أهملن مظهرهنّ، وتسوّقت من جميع الأشياء وبكمّيّات وفيرة للجميع. تناولنا العشاء في الخارج. وعندما صعدت الدرج الخشبيّ مستندة إلى ذراع لويس، فكّرت: «هذه هي المرّة الأخيرة!». كانت يواقيت خزّان الغاز تلتمع بين السماء والأرض للمرّة الأخيرة. دخلت إلى الغرفة. بدت وكأنّ لصًّا دخل مخدع امرأة فقتلها وعبث بخزائنها. حقيبتاي مفتوحتان، وعلى السرير والكراسي وعلى أرض الغرفة تناثرت ألبسة داخليّة من النيلون وجوارب وأصباغ وأقمشة وأحذية ومناديل. فاحت رائحة الحبّ والموت والكارثة. قاعة جنائزيّة. وكل هذه الأشياء ذخائر ميْتةٍ، إنّها الزاد الأخير الذي سيرحل معها إلى العالم الآخر. بقيت متسمّرة في مكاني. اقترب لويس من الخزانة وفتح درجًا أخرج منه علبة كرتون بنفسجيّة قدّمها لي والخجل بادٍ على وجهه وتمتم قائلاً:

ـ اشتريتها لك.

تحت الورقة الحريريّة زهرة كبيرة بيضاء، رائحتها تبعث النشوة. أخذت الوردة وسحقتها بفمي ثم ارتميت على السرير ورحت أبكي.

قال لويس:

ـ لا يجب عليك أن تأكليها. هل يأكلون الأزهار في فرنسا؟

أجل، توقيَ أحدهم. توقّيت امرأة سعيدة كانت تستيقظ كل صباح متورّدة الخدّينِ ودافئة وضاحكة. عضضت الوردة، أردت أن أتلاشى في عطرها وأفنى فيه تمامًا. لكنّي نمت وأنا لا أزال حيّة. وعند الصباح، قادني لويس إلى ركن في أركان الجادّة الفسيحة. قرّرنا أن نفترق هنا. أشار إلى سيّارة تاكسي. صعدت. أغلقت الباب خلفي، انعطفت سيّارة التاكسي عند زاوية الطريق. توارى لويس.

ـ سألني السائق:

ـ هل هو زوجك؟

ـ لا.

ـ كان يبدو حزينًا.

ـ ليس زوجي.

لقد كان حزينًا حقًا. وما عساي أن أقول عن الحزن الذي اعتصر فؤادي! لكن منذ اللحظة لم يعد حزننا مشتركًا. كان كلّ منّا حزينًا، وحده. عاد لويس وحيدًا إلى الغرفة الفارغة. وصعدت وحدي إلى الطائرة.

ثماني عشرة ساعة وقت قصير لأنتقل من عالم إلى آخر، ومن جسد إلى آخر. كنت لا أزال في شيكاغو، أسحق بفمي الملتهب الوردة. عندما ابتسم لي روبير فجأة، ابتسمت أنا أيضًا. أمسكت ذراعه وبدأت أتكلم. كنت قد أخبرته عن طريق المراسلة أمورًا

شئ. ومع ذلك، عندما فتحت فمي، شعرت أنّني أتسبّب بنكبة فظيعة: كل هذه الأيّام المفعمة بالحيويّة التي عشتها للتوّ تجمّدت فجأة. لم يتبقَّ خلفي إلاّ كتلة من ماضٍ متجمّد. وتجمّدت ابتسامة لويس هي أيضًا لتصبح أشبه بإيماءة تمثال من البرونز، وأنا هنا أتجوّل في شوارع لم أفارقها ملتصقة بروبير الذي لم أفارقه قطّ، وأسدل الستار على حكاية لم تحدث لأحد. شهر أيّار هذا يشارف على نهايته. نهاية زرقاء صارخة. كانوا يبيعون الزنبق عند كل المفارق. وفوق الغشاية الخضراء للعربات المتجوّلة تتكدّس باقات من الهليون المربوطة حتى وسطها بأوراق حمراء: الزنبق والهليون على هذه القارّة بالذات هي من الكنوز النفيسة! ارتدت النساء تنانير قطنيّة زاهية الألوان. لكن، كم بدت لي بشراتهنّ وشعورهنّ كامدة! السيّارات الموزّعة فوق الطرقات الضيّقة قديمة العهد وصغيرة الحجم ومشوّهة. ما أحقر هذه البضائع المعروضة فوق مخمل الواجهات الذابل! لا يمكنني أن أخطئ: هذا الزهد مؤشّر إلى عودتي وتأقلمي من جديد مع واقعي المعهود. لم تمرّ لحظات قليلة إلاّ وتحسّست من جديد هذا الطعم في فمي، طعم لا يمكن التنكّر له، طعم الهمّ. لم يتحدّث روبير إلاّ عنّي تفاديًا لأسئلتي. لا شكّ أنّ الأمور لم تجرِ وفق ما يشتهي: فقر وقلق: أنا في دياري، ما من شكّ في ذلك.

غادرنا إلى سان ـــ مارتان في اليوم التالي. كان الطقس دافئًا. جلسنا في الحديقة. طفق روبير يتحدّث إليّ فأدركت أنّني لم أخطئ في ظنّي: ثمّة أمور كثيرة أثقلت كاهله في فترة غيابي. شنّ

الشيوعيّون ضدّه الحملة التي كان يخشاها منذ سنة. ونشروا في مجلة *L'Enclume* مقالة تعرّضت له وأصابته في الصميم، وجرحتني أنا أيضًا؛ وصفوا روبير بأنّه مثاليّ عجوز، غير قادر على التكيّف مع مستجدّات هذا العصر المتسارعة. فيما كنت أرى أنّه قدّم بالأحرى تنازلات كثيرة للشيوعيّين وتخلّى عن قناعات كثيرة كان يتشبّث بها في ماضي أيّامه.

قلت:

ـ إنّ الاتّهامات الباطلة التي يسوقونها ضدّك تنبع من نواياهم السيّئة تجاهك. لا أحد يصدّق ذلك عنك، ولا كاتب المقالة نفسه.

ـ آه لا أعرف. هزّ كتفيه: «أحيانًا أفكّر أنّني عجوز جدًّا في الحقيقة».

ـ لست عجوزًا. لم تكن كذلك حين رحلتُ. ووعدتني بألاّ تتغيّر.

ابتسم:

ـ لنقل إنّي شابّ أنتمي إلى حقبة منصرمة.

ـ ألم تردّ عليهم؟

ـ لا. هنالك أشياء كثيرة تُقال للردّ عليهم. لكنّ أوانها لم يَحِنْ بعد.

منذ الخامس من أيّار استغلّت مجموعة تزعم أنّها من المناصرين، إخفاق الشيوعيّين ليعاملوهم باحتقار. الحركة

الجمهوريّة الشعبيّة[١] تنتصر، ديغول في حال من البلبلة، الموالون للسياسة الأميركيّة بانتظار أن تسنح الفرصة... كان يجدر باليسار أن يتكاتف أكثر من أيّ وقت مضى. وبانتظار الاستفتاء الذي سيُجرى في تشرين الأوّل والانتخابات التي ستسبقه، كان أفضل شيء تقوم به الـــ *S.R.L* هو تعليق نشاطها. لكنّ روبير لم يتّخذ هذا القرار عن طيب خاطر. إذا كان اليسار لا يستطيع إيجاد تكتّل دون الإساءة إلى الشيوعيّين، فهذا ما يتحمّل مسؤوليّته الشيوعيّون أنفسهم. وإذا امتنع عن توجيه الملامة إليهم علنًا فإنّه لم يوقّرهم في أحاديثه الخاصّة. لا بل احتدم غضبه حيالهم في هذين اليومين. لا شكَّ أنّه كان يموّه عن نفسه حين يتحدّث إليَّ. فكّرت أنّه ربّما لم يكن بحاجة إليّ أنا بالتحديد. لكن ما من شكّ أنّ الدور الذي كنت أضطلع به إلى جانبه مفيد وسأظلّ هنا إلى جانبه. إنّه مكاني الحقيقيّ على هذه البسيطة.

لكن، والحالة هذه، ما دام هذا مكاني، لمَ لا أركن إليه بسلام؟ لماذا هذه الدموع؟ أتجوّل في الغابة، الربيع بديع، صحّتي جيّدة، لا شيء ينقصني. وأحيانًا، أتوقّف عن المسير وتأخذني رغبة في النحيب وكأنّني فقدت كلّ شيء. أنادي برقّة: «لويس» فلا يجيبني إلاّ الصمت! من الغسق وحتى الفجر ومن الفجر حتى الليل أشعر بلهاثه وأسمع صوته وأرى ابتسامته. ولا إشارة منه: أما يزال حيًّا؟ أصغي: ما من همسة. أنظر: ما من أثر. ما عدت أفهم. فكّرت:

---

(١) الحركة الجمهوريّة الشعبيّة: حزب قديم في فرنسا. أُنشئ عام ١٩٤٤ مستلهمًا مبادئ الديموقراطيّة المسيحيّة، ولعب دورًا جوهريًّا في ظلّ الجمهوريّة الرابعة.

«أبكي. ولكنّي لا أزال هنا. ألم أحبّ لويس حبًّا كافيًا إذًا؟». يعجبني الناس الذين يختصرون حياتهم في عبارات حاسمة. كأن يقولوا «الحبّ الجسديّ ليس مهمًّا» أو «إن لم يكن الحبّ جسديًّا، فليس بشيء». لكنّي وقد التقيت بلويس، لم يخفّ تعلقي بروبير. وحضور روبير، مهما يكن هائلاً، لم يملأ غياب لويس.

السبت، بعد الظهر، جاءت نادين برفقة لامبير، وللحال سألتني بهيئة مرتابة: «لا بدَّ أنّك استمتعت بإقامتك هناك لأنّك أرجأت موعد سفرك لمدّة طويلة. على الرّغم من أنّك لا تعيدين النظر في قراراتك!».

ــ كما رأيت عند لزوم الحال، أعيد النظر فيها.

ــ غريب كيف بقيت في شيكاغو كل هذه المدّة. يُقال إنّها مرعبة.

ــ مخطئون.

أجرت نادين عدةّ تحقيقات بمعيّة لامبير خلال هذه الأشهر الثلاثة. أقامت عنده. كانت تتحدّث إليه بحنان ساخر لكن ملحاح. باتت راضية بحياتها وراحت تتحرّى عن حياتي بسوء نيّة وارتباك حائر. هدّأت من روعها قدر المستطاع، فأخذتُ أروي لها الأسفار التي قمت بها. بدا لامبير لي أقلّ توتّرًا وأكثر بهجة من ذي قبل. أمضيا عطلة نهاية الأسبوع في المقصورة. هيّأت لهما فيها مطبخًا ووصلت خطّ الهاتف لكي تشعر نادين أنّها مستقلّة دون أن تكون

منقطعة عن المنزل. سُرّت جدًّا بالإقامة وأعلمتني مساء الأحد أنّهما سيمضيان أيّام العطلة كلّها في سان ــ مارتان من الآن فصاعدًا.

سألتها:

ــ هل أنت واثقة من أنّ هذا التدبير يروق للامبير؟ لا يحبّ اباك ولا أمّك.

أجابتني بنبرة حاسمة:

ــ أوّلا، إنّه يحبّكما كثيرًا. وإذا خفت أن نثقل عليك فاطمئنّي، سنلازم بيتنا.

ــ تعرفين جيّدًا أنّني سعيدة بوجودك هنا. خشيت فقط أن تكون هذه الإقامة مفتقرة إلى الحميميّة. أحذّرك، من غرفتي يمكن سماع كل ما يقال في الحديقة.

ــ وماذا بعد؟ ما همّي. لست متكتّمة ولا أحيط نفسي بالأسرار.

ما تقوله صحيح. نادين ضنينة جدًّا باستقلاليّتها وتبدي استياءً حيال أيّ نقد أو ضجّة. إلاّ أنّها مع ذلك لا تخفي شيئًا من حياتها وإنّما تكشفه أمام الجميع. كانت تلك طريقتها. ولا شكّ في إظهار تفوّقها.

سألت وهي تمتطي صهوة الدرّاجة.

ــ تقول أمّي إنّك منزعج من تمضية عطلة الأسبوع هنا. هل هذا صحيح؟

ــ لا، إطلاقًا.

قالت بلهجة ظافرة:

ــ أرأيت؟ أنتِ تعقّدين كلّ شيء دومًا. أوّلاً، لامبير سعيد عندما ينفّذ أمرًا أطلبه منه. إنّه فتى صغير طيّب.

قالت ذلك وهي تفتل خصلات شعره. ثم طوّقت خصره بذراعيها مُسندة ذقنها بدلال إلى كتفه فيما انطلقت الدرّاجة بسرعة الريح.

بعد أربعة أيّام، علمنا لدى قراءتنا مقالة صغيرة في «*L'Espoir*» أنّ والد لامبير توفي إثر سقطة من باب القطار. اتّصلت نادين وقالت بصوت حزين إنّ لامبير غادر إلى ليل، وإنّها لن تأتي في عطلة نهاية الأسبوع. لم أطرح عليها الأسئلة. ومع ذلك جعلنا موت العجوز في حيرة من أمرنا. هل انتحر؟ هل توفّي جرّاء المحاكمة أم أنّ أحدًا قتله. لبضعة أيّام، تجاذبتنا تكهّنات عدّة. ومن ثم انشغلنا بأمور أخرى أكثر أهمّيّة. كان سكرياسين قد دبَّر لقاءً آخر بين روبير ومسؤول سوفييتي نجح في عبور الستار الحديدي لكي يفضح مساوئ ستالين. عشيّة المقابلة، جاء سكرياسين وفي حوزته وثائق. أراد أن يطّلع عليها روبير قبل يوم من اللقاء، وأصرّ على تسليمه إيّاها يدًا بيد. لم نعد نراه إلاّ فيما ندر، وحين نلتقي به تدور بيننا نقاشات حادّة. لكنّه في ذلك الصباح، تفادى بعناية كل المسائل الشائكة ولاذ بالفرار سريعًا. وافترقنا على وئام. فور ذهابه، بادر روبير إلى فكّ رزمة الأوراق الثقيلة التي أحضرها سكرياسين. بعضها كُتب بالفرنسيّة وبعضها بالألمانيّة وأغلبها بالإنكليزيّة.

قال لي:

ـ لنطلع عليها سويّة.

جلست إلى جانبه تحت شجرة الزيزفون وأخذنا نقرأ بصمت. تضمّنت الوثائق كلّ شي. تقارير ومكاتبات وإحصاءات ومقتطفات من القانون السوفييتيّ وتعليقات. صعب عليَّ تلمّس الطريق وسط هذا الركام من الكلام. ومع ذلك، طالعتني نصوص واضحة للغاية: شهادات الرجال والنساء الذين سجنهم الروس في معسكرات اعتقال شبيهة، إلى حدّ مأساويّ، بالمعتقلات النازيّة. والبيانات التي يصف بها أميركيّون هذه المعتقلات وكانوا اجتازوا مسافات شاسعة من الاتّحاد السوفييتيّ بوصفهم حلفاء. الاستنتاجات التي خلص إليها سكرياسين تظهر أنّ هنالك بين خمسة عشر إلى عشرين مليون إنسان تزدحم بهم السجون في ظلّ ظروف مأساويّة فظيعة. وتشكّل المعتقلات إحدى القواعد الأساسيّة لما يسمّى بـ«الاشتراكيّة».

نظرت إلى روبير ثم سألته:

ـ ما الصحيح في هذه المعلومات كلّها؟

قال لي بلهجة آمرة:

ـ أشياء كثيرة ولا شكّ.

لغاية الآن، لم يول أهمّيّة كبيرة للاجتماع المقرّر غدًا. كان سيحضره فقط كي لا يُتّهم بالتهرّب. كان واضحًا أنّ الحقائق التي أدلى بها المسؤول الروسيّ لن تؤثّر به، نظرًا لأنّه كان ينوي عدم الانخداع فيما يتعلّق بمسألة الاتّحاد السوفييتي. حسنًا، يتبادر إلى

الاعتقاد أنّه انخدع لأنّه بدا فجأة مُحرجًا. لم يغرّر في الثلاثينيّات حين كان أصدقاؤه الشيوعيّون يمتدحون أمامه نظام السجون في الاتّحاد السوفييتي. كانوا يدّعون أنّ السوفييت، بدلاً من أن يعمدوا إلى سجن المجرمين، يعملون على إعادة تأهيلهم من خلال توظيفهم في أعمال مفيدة، وأنَّ النقابات تحميهم وتسهر على أن تُدفع أجورهم وفق التعرفة النقابيّة. قال لي روبير إنّ تلك كانت وسيلة لقمع ثورة المزارعين والإفادة في الوقت نفسه من اليد العاملة المجّانيّة. معظم الأحكام الصادرة هناك كانت مقترنة بالأعمال الشاقة. ولكن الآن وقد اندمج المزارعون بالنظام وانتصر الروس في الحرب، يمكن الظنّ بأنّ الأمور تغيّرت. لكنْ، ها إنّها تزداد سوءًا كما يتبيّن. ناقشت مع روبير مطوّلا كلّ واقعة وكلّ رقم وكلّ شهادة وكلّ فرضيّة. وحتّى حين افترضنا أنّ هنالك مبالغة وكذبًا في عرض الوقائع، فرضت الحقيقة نفسها مع ذلك وكانت دامغة لا ريب فيها. أضحت المعتقلات مؤسّسات تهدف إلى تكوين جذريّ لطبقة عمّاليّة مستغلّة. لا يُعاقب مرتكبو الجرائم من خلال العمل الإجباريّ بل يُعامل العمّال بوصفهم مجرمين لكي يشرّع استغلالهم.

سألته عندما غادرنا الحديقة باتّجاه المطبخ لتناول بعض الطعام:

ــ ماذا ستفعلون إذًا؟

قال روبير:

ــ لا أعرف.

بالطبع، كان سكرياسين يأمل بأن يساعده روبير على نشر هذه الوقائع. بدا لي أنّه لا يحقّ له السكوت عنها. قلت بشيء من الملامة:

ــ لا تعرف.

ــ لا.

ــ عندما يتعلّق الأمر بك أو بـــ الـــ *S.R.L*، أفهم أن تتغاضى عن أشياء كثيرة دون تذمّر. لكنّ الأمر مختلف الآن. إذا لم نفعل كلّ ما في وسعنا للتنديد بهذه المعتقلات فنحن شركاء في الجريمة!

قال روبير:

ــ لا يمكنني اتّخاذ قرار اعتباطيّ على هذا النحو بين ليلة وضحاها. أحتاج إلى معلومات إضافيّة.

قلت:

ــ وإذا أكّدت هذه المعلومات ما عرفناه للتوّ، فماذا ستفعل؟

لم يجب، تفرّست فيه بقلق. صمته يعني أنّه مستعدّ لتقديم بعض التنازلات للشيوعيّين والتراجع عن كلّ ما أنجزه منذ التحرير، أي الـــ *S.R.L* ومقالاته وكتبه.

قلت:

ــ أردت أن تكون مثقفًا وثوريًّا. بوصفك مفكّرًا، لا شكّ أنك التزمت بأمور عدّة ومن ضمنها المجاهرة بالحقيقة.

أجابني بشيء من نفاد الصبر:

ـ اتركي لي الوقت لأفكّر.

تناولنا طعامنا بصمت. عادةً، يهوى أن يطرح التساؤلات في حضوري. لا بدَّ أنّ اضطرابًا كبيرًا يعتمل في كيانه لكي يستغرق في أفكاره على هذا النحو دون أن ينطق بكلمة. أنا أيضًا كنت مضطربة: بين معسكرات العمّال ومعتقلات الموت، ثمّة فوارق دون شكّ. لكنَّ المعتقل يظلّ معتقلاً، وكلّ هؤلاء المعتقلين طالعتني لديهم جباههم المحدّبة نفسها، والعيون المخبولة نفسها التي تسم معتقلي السجون النازيّة. وكل هذا يحدث في الاتّحاد السوفييتي!

قال روبير:

ـ لا رغبة لي في العمل. أرغب في القيام بنزهة.

اجتزنا القرية، وواصلنا سيرنا باتّجاه النجد المكسوّ بالسنابل اليانعة، وأشجار التفاح المزهرة. الطقس حارّ قليلاً. بعض الغيوم تتدحرج كراتٍ في السماء. تأمّلنا القرية وسطوحها الشبيهة بلون الخبز الشهي وجدرانها التي لوّحتها الشمس وجرسها الطفوليّ. بدت الأرض وكأنّها زُيّنت خصّيصًا للإنسان، والسعادة في متناول الجميع. لكأنّ روبير حدس أفكاري فقال فجأة:

ـ ما أسهل نسيان قساوة هذا العالم!

قلت بأسى:

ـ نعم ما أسهل ذلك!

وددت أن أنعم أنا أيضًا بهذه السهولة. لماذا أتى سكرياسين ليقلق راحتنا؟ إلاّ أنّ روبير حصر كل تفكيره في المعتقلات.

ـ قلتِ لي إنّي إذا بقيت صامتًا عمّا يجري في المعتقلات فإنّي بمثابة المشارك أو المتواطئ. لكن، إذا تكلّمت فسأصبح متواطئًا مع أعداء الاتّحاد السوفييتي، أي كل هؤلاء الذين يريدون أن يبقى العالم على حاله. صحيح أنّ هذه المعتقلات مريعة، لكن علينا ألاّ ننسى أنّ الفظاعة منتشرة في كل مكان.

وفجأة طفق روبير يتكلّم بذرابة لسان. لا شأن له في المصنّفات التاريخيّة الشاملة، أو في المشاهد الاجتماعيّة البانوراميّة. ومع ذلك، في بعد ظهر ذلك اليوم، حين بدأت الكلمات تتدافع خارجة من فمه، جاءت كل تعاسة العالم لتنهال على القرية المشمسة. التعب والفقر وإحباط البروليتاريا الفرنسيّة والبؤس في إسبانيا وإيطاليا والاضطهاد الممارس على الشعوب الخاضعة للاستعمار، والمجاعات والأوبئة في أقاصي الصين والهند. حولنا، كان البشر يموتون بالملايين دون أن يتسنّى لهم أن يعيشوا حياتهم. ملأت حشرجات احتضارهم السماء فأقتمت. وتساءلنا إذ ذاك كيف يمكننا أن نجرؤ على التنفّس ونواصل حياتنا المعتادة.

قال روبير:

ـ كما رأيت، إنّ دوري كمثقّف وكصحافي أمين على نقل الحقيقة العارية إلى القرّاء هو كلام فارغ. إنّ المسألة التي تشغل بالي الآن هي معرفة ما إذا كان تنديدنا بالمعتقلات سيصبّ في مصلحة الناس أم لا.

قلت:

ـ ليكن. لكن ما الذي يدفعك للاعتقاد أنّ قضيّة الاتّحاد السوفييتي تتداخل مع قضيّة البشريّة جمعاء؟ يبدو لي أنّ وجود المعتقلات يرغمنا على وضع الاتّحاد السوفييتي برمّته على بساط البحث.

قال روبير:

ـ إلاّ أنّه يتوجّب علينا معرفة الكثير من الأشياء! هل المعتقلات مؤسّسة ضروريّة للنظام السوفييتي أم أنّها متّصلة بسياسة معيّنة يمكن التعديل فيها؟ هل لنا أن نأمل بأن تُحلّ هذه المعضلة حين يبلغ الاتّحاد السوفييتي الذروة في رحلة بناء نفسه؟ يجب أن أستعلم عن كلّ هذا قبل أن أبادر إلى اتّخاذ قراري.

لم أصرّ. باسم مَنْ أحتجّ؟ لست جديرة بذلك إطلاقًا. عدنا إلى المنزل وأمضينا السهرة نتظاهر بانهماكنا بالعمل. كنت أتيت من أميركا بوثائق كثيرة وملاحظات وكتب متعلقة بعلم التحليل النفسيّ. لا زالت في أدراجها.

استقلَّ روبير الباص في العاشرة صباحًا. وبقيت في الحديقة أتحيّن وصول ساعي البريد: لا رسالة من لويس. أخطرني أنّه لن يكتب لي قبل انقضاء ثمانية أيّام. والرسائل من شيكاغو لا تصل بسرعة. لم ينسني، أنا أكيدة. لكنّه كان بعيدًا إلى ما لا نهاية، ومن غير المجدي البحث عن منفذ نجاة من هذه الناحية. نجاة؟ ممَّ؟ دخلت إلى المكتب ووضعت أسطوانة على البيك أب. راودني شعور لا يطاق: كنت أشكّ بروبير. «فيما مضى لم يكن يسكت عن ضيم». قديمًا كان يتكلّم بصراحة ولا يتغاضى عن كشف كل زلّة

يرتكبها النظام في الاتّحاد سوالفييتي أو الحزب الشيوعيّ. إنّ أحد أسباب وجود الـــ *S.R.L* هو أنّها تتيح له القيام بانتقادات بنّاءة. وفجأة اختار أن يصمت، لماذا؟ تمَّ التعامل معه بوصفه مثاليًّا وقد آلمه هذا الأمر. فحاول أن يظهر بمظهر الرجل الذي يتعاطى بواقعيّة مع تطوّرات هذا الزمن القاسي. لكنَّ التكيّف ليس بهذه السهولة. أنا أيضًا أتكيّف ولست فخورة بذلك. أصرف النظر دومًا، وأتقبّل دومًا وهذا يعني في النهاية الخيانة. أتقبّل الغياب وأخون حبّي. أتقبّل العيش بعد الموتى وأنساهم وأخونهم. لكن ما دام الأمر يتعلّق بالموتى وبي فليس هناك من ضحايا جديّين، أمّا خيانة الأحياء فأمر خطير.

«سيّان إن صَمَتُّ أو تكلمت لأنّي سأخون أحد الطرفين». هكذا سيجيبني روبير. وسيردّدون من بعده القول المأثور إنّه ليس بالإمكان صنع عجّة دون أن نكسر بيضًا. لكن، في النهاية من سيأكل كلّ هذه العجّة؟ سيتعفّن البيض المكسور وسيعيث في الأرض فسادًا. «لكنّ الأرض فاسدة في الأصل». صحيح، ثمّة أشياء كثيرة صحيحة. أكاد أفقد صوابي، إزاء هذه الحقائق التي تتصارع فيما بينها. وأتساءل كيف لا تختلط الأمور على الآخرين؟ أنا لا أعرف كيف أجمع بين أربعمئة ملايين صينيّ وخمسة عشر مليون محكوم بالأشغال الشاقة. على أيّ حال ربَّما كان ما يفترض القيام به هو الطرح وليس الجمع. وكيفما قلّبنا الأمر، هذه الحسابات مغلوطة. إنسان وإنسان لا يساويان إنسانين بل يساويان دومًا إنسانًا وإنسانًا. حسنًا، أخطأت إذ لجأت إلى الحساب. الأجدى أن ألجأ إلى

الجدليّة لكي أعيد إلى هذه الفوضى القليل من النظام. عليّ أن أتخطّى المحكومين بالأشغال الشاقة وأتجاوزهم إلى الصينيّين. ليكن، لنتجاوز الأمر. كل شيء ينكسر، كل شيء يُستهلك وكل شيء يتجاوز ذاته، سيتمّ تجاوز أمر المعتقلات ووجودي بالذات. غريب أمر هذه الحياة القصيرة التي نعير فيها بعض المسائل أهمّيّة أكثر ممّا تستحقّ، كأن نقلق من وجود المعتقلات التي سيتكفّل المستقبل بمعالجة شأنها. التاريخ يُعنى بنفسه وبكلّ واحد منّا بالرّغم من كلّ شيء. لنبحث عن الطمأنينة الذاتيّة ويقبع كلٌّ منّا في جحره. لكن لماذا يشغلون بالهم بأمور لا تعنيهم مباشرة؟ هذا هو السؤال الذي طرحته على روبير منذ أكثر من عشرين عامًا حين كنت طالبة جامعيّة. آنذاك، هزئ منّي. لكنّي لست واثقة اليوم أنّه استطاع إقناعي بشكل كامل. يتظاهرون بأنّهم يؤمنون بالبشريّة، شخصًا واحدًا خالدًا، وأنّ الناس سيجنون ثمار نضالهم وتضحياتهم، وأنّني أنا نفسي سأحظى بمكافأتي. لكنّي لا أجاريهم في ما يعتقدونه: الموت يلتهم كلّ شيء؛ والأجيال المضحّى بها لن تخرج من قبرها وتشارك في الوليمة السماويّة. وما يعزّي في كل ذلك أنّ الجميع بمن فيهم المختارون سيلحقون بمن هم تحت التراب عاجلاً أم آجلاً. بين السعادة والتعاسة ربَّما ليست هناك فروق كبيرة كما نتصوّر.

أوقفت الفونوغراف. تمدّدت على الديوان وأغمضت عينيّ محاولة الانعتاق من كل شيء. ما أعدل الموت وما أرأفه بالبشر! أصبح لويس وروبير ونادين بخفّة الظلال، ولم يعد قلبي يرزح

تحت ثقلهم: كان بوسعي أن أتحمّل ثقل خمسة عشر مليون ظلّ أو أربعمائة مليون ظلّ. بعد هنيهات قليلة، تناولت من مكتبتي إحدى الروايات البوليسيّة ورحت أتصفّحها. يجب قتل الوقت لكنّ الوقت سيقتلني هو أيضًا: إنّها الحقيقة الساطعة المشيعة للانسجام التي يمكن استخلاصها من هذا الوجود سلفًا. عندما عاد روبير عند المساء، بدا لي وكأنّني أراه من مكان بعيد جدًّا، عبر أحد المناظير، صورة غير متجسّدة ومن حوله الفراغ، كما رأيت دييغو عند نوافذ درانسي، دييغو الذي لم يعد من هذا العالم. أخذ روبير يتحدّث وكنت أصغي لكنّ كل شيء فقد معناه. قال روبير:

ـ تلومينني لأنّني طالبت بمهلة للتفكير؟

ـ ألومك؟ لا إطلاقًا.

ـ إذًا ما الأمر؟ إذا ظننت أنّ أمر هذه المعتقلات لا يهمّني فأنت مخطئة فعلاً.

قلت:

ـ العكس هو الصحيح. خطر لي اليوم أنّنا مخطئون فعلاً لأنّنا نتعذّب جرّاء كل هذه الأمور. ليس للأشياء أهميّة. تتغيّر وتنتهي وفي آخر المطاف، يموت الجميع فيستوي بذلك كل شيء.

ـ إنّها وسيلة فعّالة للهروب من المشاكل.

قاطعته:

ـ إلاّ إذا كانت المشاكل طريقة للهروب من الحقيقة. بالطبع، حين تتّخذ قرارك بأنَّ الحياة هي الحقيقة، تبدو لك فكرة الموت هربًا. لكن حين تفكّر العكس...

هزَّ روبير رأسه:

ـ هناك فرق، نثبت إيماننا بالحياة من خلال عيشها. لكن إذا كنّا نظنّ صادقين أنّ الموت وحده هو الحقيقي فيتوجّب علينا والحالة هذه الانتحار، والانتحار نفسه لا يحمل هذا المعنى في الواقع.

ـ ربَّما كنّا نحيا حياتنا بدافع من تهوّرنا وجبننا. إنّها الوسيلة الأسهل. لكنَّ هذه الحياة لا تكشف لنا الكثير عن حقيقة أمرنا.

ـ بداية، أن يكون الانتحار صعبًا فهذا أمر متّسم بالأهمّيّة بحدّ ذاته. ثم إنّ مواصلة الحياة لا تعني فقط الاستمرار في التنفّس. لا يستطيع المرء أن يغمض عينيه عمّا يدور حوله. تحبّين أشياء وتكرهين أخرى، تستنكرين أمورًا، وتعجبين بأخرى. كلّ هذه المشاعر تعني إقرارًا بقيم الحياة. ابتسم: «أنا مطمئنّ. لم ننه كلّ نقاشنا فيما يتعلّق بالمعسكرات، وغيرها من الانتهاكات. تشعرين أنّك عاجزة مثلي ومثل الجميع حيال بعض الأمور التي تشغل بالنا وتقضّ مضاجعنا، فلتجئين إلى التشكيك بكلّ شيء: إنّه أسلوب غير جائز».

لم أعلّق على كلامه. بالطبع، غدًا سأتناقش معه في جملة أمور، لكن هل هذا يثبت أنّ هذه الأمور ليست سخيفة في نظري؟ وإذا

كان الأمر عكس ذلك، فهذا يعني أنّني سأعود إلى خداع نفسي من جديد.

عادت نادين مع لامبير إلى سان – مارتان في السبت التالي: لا يبدو أنّ الأمور تسير بينهما على ما يرام. لم تنبس نادين بكلمة طيلة العشاء. توجّب على لامبير الرحيل في غضون يومين إلى ألمانيا بهدف الاستعلام عن المعتقلات في المنطقة الواقعة تحت سيطرة السوفييت. وباتفاق مشترك، تفادى روبير ولامبير مقاربة المسألة في عمقها، لكنّهما ناقشا بحيويّة وسائل التحقيق العمليّة.

أثناء تناول القهوة، انفجرت نادين:

ـ كل هذه القصّة حماقة تثير الشفقة! هذه المعتقلات موجودة بالطبع. إنّها شيء مشين وضروريّ في آن. هكذا هو المجتمع! وهل تظنّون أنّكم قادرون على إحداث تغيير في مجرى الأحداث!

قال لامبير وهو يوجّه إليها نظرات ملامة:

ـ ما أسهل أن تنحازي لموقف ما! إنّك حقًّا بارعة في التخلّص من الأشياء التي تزعجك.

قالت نادين بصوت عدائي:

ـ وأنت، ألا تنحاز لمواقفك! كفى كذبًا! تبدي انشراحًا عظيمًا لأنّك قادرعلى الظنّ سوءًا بالاتّحاد السوفييتي! ذاك سبب لتتنزّه وتحيط نفسك بالأهمّيّة. هذا كل ما تسعى إليه من مغنم.

هزّ كتفيه دون أن يجيب. لا بدّ أنّهما تشاجرا طيلة الليل في المقصورة. في اليوم التالي، أمضت نادين النهار وحيدة في غرفة

الجلوس وفي يدها كتاب لم تقرأ منه حرفًا. من غير المجدي التحدّث إليها لأنّها كانت تجيبني بكلمات أحاديّة المقطع. عند المساء، ناداها لامبير من الحديقة. وبما أنّها لم تبادر بحركة، دخل إلى الغرفة وقال:

ـــ نادين، حان وقت الرحيل.

قالت:

ـــ لن أرحل. حسبي أن أتواجد في *Vigilance* غدًا صباحًا عند الساعة العاشرة.

ـــ لكن سبق وقلت لك إنّه عليَّ العودة إلى باريس هذا المساء للقاء بعض الناس.

ـــ اذهب لرؤيتهم. لست بحاجة إليَّ حين تسعى إلى لقاء الآخرين.

قال بنفاد صبر:

ـــ نادين، لا تكوني غبيّة. لن أبقى برفقتهم إلاّ ساعة واحدة. اتّفقنا أن نذهب سويّة إلى مطعم صينيّ.

ـــ غيّرت رأيي. انت أيضًا يحدث لك أن تغيّر رأيك. سأبقى هنا.

ـــ هذه سهرتنا الأخيرة قبل سفري.

ـــ أنت صاحب القرار في هذ الشأن.

قال بنبرة متعجرفة:

ـ حسنًا، إلى الغد.

ـ غدًا أنا مشغولة. إلى حين عودتك.

قال بصوت غاضب:

ـ أوه! ضقت ذرعًا! وداعًا إلى الأبد إذا شئت.

وأغلق الباب وراءه. نظرت إليَّ نادين وراحت تصرخ هي أيضًا: «لكن، وخصوصًا، لا تقولي لي إنّي مخطئة. لا تقولي لي شيئًا. أعرف كلّ ما بإمكانك أن تقوليه لي وهذا لا يهمّني».

ـ لم أفتح فمي.

ـ ليرحل، لا أبالي! لكن عليه أن يأخذ برأيي قبل أن يتّخذ قرارًا ما. ثم أكره أن يكذب أحد عليَّ. ليس التحقيق بهذا الإلحاح. كان أجدى به أن يقول لي صراحة: أنا بحاجة للوحدة. هذا هو جوهر الموضوع: يريد أن يكون وحده ليبكي والده العجوز الطيّب.

قلت:

ـ لكن هذا أمر طبيعيّ.

ـ طبيعيّ؟ كان أبوه مجرّد نذل عجوز. أوّلا، لم يكن يجدر به أن يتصالح معه. والآن ها هو يبكيه مثل طفل صغير. ذرف دموعًا حقيقيّة. ثم أضافت بنبرة ظافرة: «رأيته بأمّ عيني».

ـ وإن يكن؟ ليس في ذلك ما يخجل.

ـ إنّ أيًّا من الرجال الذين أعرفهم لم يكن ليبكي. والأدهى من ذلك أنّه، لكي يزيد المأساة تأزّمًا، راح يدّعي أنّهم قتلوا العجوز عمدًا.

قلت:

ـ ليس هذا بالأمر المستحيل.

علا الاحمرار وجهها.

ـ هيّا! لكن ليس والد لامبير! هذا مضحك!

ذهبت بعد العشاء مباشرة لكي تتجوّل في الريف. لم نَرها من جديد إلاّ في موعد تناول الإفطار. عندئذٍ ناولتني وعلى وجهها علامات العتاب واللهفة في آن أوّل رسالة من لويس.

ـ هاك رسالة من أميركا. ثم أضافت وهي تتحرّى وجهي بإلحاح: «من شيكاغو».

ـ شكرًا.

ـ ألن تفتحيها؟

ـ ليس ذلك ملحًّا.

وضعت الرسالة قربي. حاولت أن أحتسي الشاي دون أن ترتجف يدي. حاولت بمشقّة بالغة أن أجمع شتات جسدي. شاقني الأمر كما حين ضمّني لويس بين ذراعيه للمرّة الأولى. أتى روبير لنجدتي. أخذ يطرح على نادين أسئلة عن *Vigilance*، إلى أن وجدت ذريعة للذهاب إلى غرفتي. كانت أصابعي متشنّجة بحيث مزّقت، وأنا أنتزع الرسالة من الظرف، الورقة الصفراء التي

سيطلّ من خلالها وجه لويس الذي يهزّ كياني. كانت الرسالة مطبوعة على الآلة الكاتبة، بهجة، ولطيفة، وعديمة الأهميّة. ولبرهة طويلة تأمّلت بذهول التوقيع الذي يختتمها قاسيًا كحجر الضريح. عبثًا أعدت قراءة هذه الصفحة. أعدتها مئة مرّة لأتداوى من عذاب قلبي، ولم أستطع الخروج منها بأيّ كلمة جديدة، أيّ ابتسامة، أيّ قبلة. بوسعي أن أعاود الانتظار من جديد، لن أحظى في نهاية انتظاري إلاّ بورقة أخرى. بقي لويس في شيكاغو متابعًا حياته، من دوني. اقتربت من النافذة. نظرت إلى سماء الصيف والأشجار المغبوطة وأدركت بداية العذاب. الصمت نفسه: لم يعد هناك من أمل، سيكون دومًا هذا الصمت. ما دام جسدانا لا يتلامسان، ما دامت نظراتنا لا تتلاقى، فأيّ شيء سيجمعنا إذًا؟ لا صلة تربط بين ماضيّ وماضيه، ولن يجتمع شملنا في المستقبل المنظور. لا يتحدّثون من حولنا اللغة نفسها والساعات تهزأ بنا. هنا الصباح يلتمع، وهناك في غرفة شيكاغو، يحلّ الليل وليس بإمكاننا حتى أن نتواعد في السماء. لا حلقة وصل يمكن أن تجمعنا إلاّ هذه الشهقات في صدري التي كنت أكبحها على الدوام.

لحسن حظّي، اتّصلت بي بول في ذلك اليوم عبر الهاتف، وتوسّلت إليّ أن آتي لرؤيتها. ربّما إذا شاطرتها أحزانها، أنجح في نسيان أحزاني: جلست في الأوتوكار إلى جانب نادين التي كانت تكتم غيظها، وتضمر في نفسها شرًّا. تساءلت: «هل يؤول بنا الأمر إلى الاعتياد على الفراق؟ هل سأعتاد ذلك؟».

في شوارع باريس، التقيت بمئات لا بل بآلاف الرجال الذين لكلّ منهم ذراعان وساقان مثل لويس، لكن ليس لأيٍّ منهم وجهه. ما أكثر الناس على وجه هذه البسيطة لكنّهم ليسوا لويس! كم من الطرقات التي لا تفضي إلى ذراعيه ومن كلمات الحبّ التي لا تجد سبيلها إلى قلبي! أمر غير معقول! في كل مكان، آمال معسولة ووعود السعادة تلامسني، لكن هذه الرقة الربيعيّة لن تنفذ إلى جلدي. سلكت الأرصفة على مهل. بذلت بول جهدًا هائلاً بعد عودتي بأيّام قليلة وتكبّدت مشقة الطريق لتزورني في بيتي. استلمت بفرح الهدايا التي أتيتها بها من أميركا. لكنّها استمعت إلى أخباري وأجابت على أسئلتي بلامبالاة ملحوظة. إنّها المرّة الأولى بعد سفري آتي إلى رؤيتها في مسكنها. استعدت، بشيء من الدهشة، الشارع الأليف الذي لا يشبه إلاّ نفسه. لا شيء تغيّر في غيابي: لم يحدث شيء. اللافتات لا زالت نفسها كما في السابق: «اختصاصيّ في الطيور النادرة والساكسونيّة». لا زال القرد الصغير مقيّدًا إلى درابزين النافذة يفتضّ حبوب الفستق. على درجات السلّم متشرّد يدخّن سيجارًا وهو يراقب بقجة من الثياب المستعملة. وكالعادة، اصطدم باب المدخل حين دفعته بسلّة النفايات. لا زالت كل ثقوب السجّادة في مكانها. سُمع رنين الهاتف الملحّ.

كانت بول متدثّرة بمبذل حريريّ مدعوك قليلاً.

ــ ما ألطفك! آسفة لإزعاجك. لكنّي لن أجرؤ أبدًا على الدخول بمفردي إلى قفص الأسود ذاك.

ــ هل أنت واثقة من أنّني مدعوّة.

ـ لكن لأجلك اتّصلت لوسي بي ثلاث مرّات متوسّلة إليّ لكي أصطحبك. الآن، بات هنري ملكها، لذا عينها على دوبروي.

صعدت الدرج الذي يؤدّي إلى غرفتها، وتبعتها.

قلت:

ـ لا يسعك أن تتخيّلي كم هو جميل المنزل في سان – مارتان. يجب أن تزورينا.

تنهّدت:

ـ إنّه بعيد جدًّا. ثم فتحت خزانتها على مصراعيها: «ماذا يتوجّب عليّ أن أرتدي؟ منذ زمن طويل، لم أخرج».

ـ فستانك الأسود.

ـ لكنّه قديم جدًّا.

ـ فستانك الأخضر.

ـ لست واثقة أنّ الأخضر يليق بي. انتزعت التعليقة التي عُلّق فيها ثوبها الأسود. «لا أريد أن أبدو وكأنّ العثّ أكلني. ستغتبط لوسي لذلك».

ـ لكن لماذا تذهبين إليها؟ أنت التي لا تخرجين أبدًا!

قالت بول:

ـ تكرهني. فيما مضى، كنت أكثر شبابًا وجمالاً منها. حظيت بالعديد من عشّاقها. إذا رفضت تلبية دعوتها فستظنّ أنّني عاجزة عن مواجهتها. وهذا سيفرحها. اقتربت من المرآة ورسمت بإصبعها

انحناءة حاجبيها الكثيفين: «كان يفترض بي أن أنتزع شعر حاجبيّ. عليَّ أن أتّبع الموضة. سيهزأن بي».

قلت:

ــ لا تخافي منهنّ. ستكونين الأجمل دومًا.

ــ قالت:

ــ آه، لم أعد الأجمل! ليس بعد اليوم!

نظرت إلى نفسها بعدائيّة. وفجأة ومنذ سنوات، أراها أنا أيضًا بعينين غريبتين. بدت تعبة. اكتسى خدّاها بلون مائل إلى البنفسجيّ وسمن ذقنها. الأخدودان الغائران اللذان أحاطا بفمها أضفيا على قسماتها بعضًا من رجولة. قديمًا، كانت سحنة بول القشديّة ونظرتها المخمليّة وشعرها الأسود البرّاق تضفي على وجهها رقّة وعذوبة. لقد فقد وجهها هذا السحر بالذات، وأصبح غريبًا؛ كانت ملامح وجهها مصاغة على هيئة لا تسمح بأيّ تردّد في استدارة خدّ أو أيّ تبدّل في لون البشرة. لم تعبث به الأيّام تدريجيًّا بل وسمت بعلاماتها القاسية هذا القناع النبيل والباروكيّ الذي لا يزال يثير الإعجاب؛ لكنّ مكانه المناسب بات الآن في المتحف أكثر منه في صالون.

ارتدت بول فستانها الأسود، وسرّحت أهدابها الطويلة.

ــ هل أزيد في طول أهدابي أم لا؟

ــ لا أعرف.

كنت أرى عيوبها بشكل واضح لكنّي لا أملك القدرة على اقتراح علاج ما، ولم أكن متأكّدة أصلاً من أنَّ العلاج موجود.

ـ حسبي أن أعثر على جوربين لائقين! فتّشت في الأدراج بعصبيّة: «أترين أنّ هذين الجوربين متطابقا اللون؟».

ـ لا، هذا لونه أفتح من الآخر.

ـ وهذا؟

ـ إنّه منسّل من أعلى إلى أسفل.

استغرق الأمر عشر دقائق للعثور على جوربين مناسبين سليمين.

سألت بول بقلق:

ـ هل أنت أكيدة أنّهما متطابقان؟

أدخلت السرد الشفّاف في يدي وباعدت بين أصابعي. ثم اقتربت من النافذة لأراه في الضوء.

ـ لا أجد أيّ فرق.

ـ لكنّهنّ يتحرّين كل شيء كما تعرفين.

عقدت بول حول ساقيها شرائط صندلها ذي الكعب العالي ثم سألتني:

ـ «هل أضع عقدي»؟

كان عقدًا ثقيلاً من النحاس والعنبر والعظم، عقدًا إكزوتيكيًّا، لا قيمة ماليّة له، لكنّه جدير بأن يدفع النساء المشنشلات بالألماس إلى الهزء بها.

ـ لا. لا تضعيه.

تردّدت. في جميع الأحوال، كانت بول، بقرطيها وثوبها الذي لا عمر له وقناعها وكوثرنها[1] مختلفة عن غريماتها. وربّما كان من الأجدى أن تشدّد على تميّزها هذا. «انتظري! نعم، من الأفضل أن تضعيه». ثم أضفت بنفاد صبر: «آه، لا أعرف. وبعد كل حساب، لن يلتهمنك».

قالت دون ابتسامة:

ـ أوه! بلى، سيلتهمنني!

مشينا إلى محطّة الباصات. في الشارع، فقدت بول كلّ جلالها. كانت تسير خلسة بمحاذاة الجدران. قالت بنبرة معتذرة: «أكره أن أخرج متأنّقة في هذا الحيّ. في الصباح، أتسكّع وأنا أرتدي البابوج. هذا مختلف. أمّا في هذه الساعة بالذات وبهذا الهندام فأبدو وكأنّني أوجّه الإهانة إلى من هم حولي».

حاولت أن أصرفها عمّا تفكّر به فقلت:

ـ كيف حال هنري؟

تردّدت ثم أجابت:

---

(١) كوثرن: خفّ مسرحي عالي النّعل كان يحتذيه الممثّلون قديمًا عند الإغريق.

ـ إنّه معقد جدًّا.

ردّدت ببلاهة:

ـ معقّد؟

ـ نعم، أمرغريب. الآن فقط بدأت أفهمه: بعد عشر سنوات. صمتت ثم استأنفت: «فعل شيئًا غريبًا أثناء غيابك. أطلعني فجأة على فصل في روايته حيث البطل يشرح لإحدى النساء بأنّها تنغّص عليه عيشه ثم سألني: ما رأيك؟».

قلت وأنا أحاول أن أضفي على صوتي نبرة من الفكاهة:

ـ وماذا كان يتوقع منك أن تجيبي؟

ـ سألته ما إذا كان يفكّر بي أثناء كتابة هذا المقطع. فارتبك واحمرّ خجلاً. لكنّي أحسست لوهلة أنّه كان يودّ أن أظنّ ذلك.

قلت:

ـ آه! تفاجئينني!

قالت بهيئة شاردة:

ـ هنري حالة خاصّة. ثم أضافت: «يتردّد كثيرًا على ابنة لوسي بلوم. لذا أحرص على الذهاب إلى عند لوسي: لكي لا تتصوّرا أنّني أعلّق أهمّيّة على هذه النزوة».

ـ نعم، رأيت صورتها...

ـ صورتها مع هنري في Les Iles Borromées! هزّت كتفيها: «هذا أمر محزن وهو ليس فخورًا بما فعله كما تعرفين. والأغرب من ذلك أنّه سألني ألاّ نعود لممارسة الجنس».

ثم ختمت كلامها ببطء قائلة: «لكأنّه يشعر أنّه لم يعد جديرًا بي».

رغبت في أن أقول لها: «لا تستمرّي في الكذب على نفسك!» لكن، بأيّ حقّ أقول لها ذلك؟ لا سيّما أنّني كنت معجبة بعنادها.

عندما أصبحنا على درج منزل لوسي بلوم، أمسكت بمعصمي وسألتني: «قولي لي الحقيقة: هل أبدو منهزمة؟».

ـ أنت؟ بل لك مظهر الأميرات! لكن، عندما فتح الخادم الباب، شعرت أنّ ذعر بول غلبني أنا أيضًا، سمعنا خشخشة أصوات. وانبعثت من الهواء رائحة العطر والنوايا السيّئة. أنا أيضًا سيقطّعونني إربًا وهذا تصوّر غير ممتع البتّة. استعادت بول رباطة جأشها. دخلت إلى الصالون بهيئة أميرة وقورة. فيما أنا، فجأة، لم أعد واثقة كثيرًا من أنّ فردتي جوربيها متطابقتا اللون.

الأثاث قديم جدًّا، البسط العجميّة بشكل مبهم، اللّوحات المصقولة، الكتب المجلّدة بالورق الشمعيّ، الكريستال، المخمل، الساتان،.. نشعر أنّ لوسي تتأرجح بين انتمائها البورجوازيّ ومطامحها الثقافيّة، أمّا ذوقها، ذوقها بالذات، بالرغم من كل ما يقال عن حسنه، فكان مبتذلاً.

ـ كم أنا سعيدة برؤيتكما هنا!

كانت متأنّقة بطريقة تجعل دوقة وندسور تشعر بعقدة نقص إزاءها. لا نلاحظ إلاّ بعد حين بشاعة فمها والقلق المنبعث من عينيها، الممزوج بنيّة الإيذاء. لا يُعقل أن يوجد مجمّل وجوه قادر على تصويب نظرتها. كانت تبتسم وهي تتفحّصني بدقّة. التفتت ناحية بول وقالت: «يا عزيزتي بول المسكينة! منذ اثنتي عشرة سنة، ولم نلتق! لو رأت إحدانا الأخرى صدفة لما عرفتها!». لوهلة أمسكت بيد بول وتفحّصتها بوقاحة، ثم اجتذبتني قائلة: «هيّا أعرّفك على الحضور».

كانت النساء أكثر شبابًا وجمالاً منهنّ في صالون كلودي. ما من صدمة عاطفيّة شوّهت وجوههنّ المزيّنة بلباقة. بينهنّ الكثيرات من عارضات الأزياء المتعطّشات لأن يصبحن نجيمات هاويات، ونجيمات مبتدئات يتلهّفن ليصبحن نجمات محترفات. كن يرتدين جميعًا فساتين سوداء وشعورهنّ بلون الذهب ونعالهنّ عالية جدًّا ورموشهنّ طويلة. لكلّ منهنّ شخصيّتها المختلفة عن الأخرى، وإن صُنعن جميعًا في المحترف نفسه. لو كنت رجلاً لاستحال عليَّ أن أختار واحدة من بينهنّ ولبحثت عن ضالّتي في مكان آخر. في الواقع، بدا الشباب الذين قبّلوا يدي وكأنّهم مهتّمون بعضهم بالبعض الآخر. بين الحشد هنا وهنالك بعض الناضجين ذوي الهيئات الذكوريّة ولكن بدوا جميعًا وكأنّهم ممثّلون ثانويّون صامتون مأجورون. وهناك العشيق الرسميّ للوسي بلوم الذي كان الجميع يدعونه دودول، يتحدّث إلى سمراء طويلة القامة ذات شعر أشقر رمادي.

قال لي:

ـ يبدو أنّك عدت من نيويورك؟ أيّ بلاد عجيبة، أليس كذلك؟ لكأنّها حلم هائل حلمه طفل مدلل. هذه القرون العملاقة من البوظة التي يلحسونها، أرى فيها رمز أميركا المتجسّد.

قالت المستشقرة:

ـ لم تعجبني أميركا إطلاقًا. كلّ شيء هناك من النظافة والكمال بحيث تراودك الرغبة في النهاية في أن تلتقي برجل يرتدي قميصًا وسخًا وذي لحية نابتة لم تُحلق منذ يومين!

لم أعترض. تركتهما يسترسلان في عباراتهما المستهلكة عن هذه البلاد التي عدت منها لتويّ: «أطفال كبار»، «جنّة المرأة»، « عشّاق كريهون»، «حياة صاخبة وذات إيقاع سريع». دودول وصف ناطحات السحاب بكلمة جريئة قائلاً عنها إنّها قضيب منتصب. قلت في نفسي وأنا أستمع إليهم إنّه لا يحقّ لنا أن ننسب إلى المثقّفين حساسيّة متكلّفة. كان هؤلاء الناس بالذات – ناس المجتمع الراقي المتماهون مع أدوارهم – هم الذين ينظرون إلى الوجود بعيون تعميها الكليشهات الرديئة وبقلوب ممتلئة بالأفكار المبتذلة. روبير وهنري يستسلمان بحبّ متهاون لما يحبّانه ويضجران ممّا يضجرهما. لو أنّ ملكًا تنزّه عاريًا أمامهما لما لفت نظرهما بالحاشية التي تزيّن معطفه. يدركان جيّدًا أنّهما يخلقان بنفسيهما الموديلات التي يحاكيها بورع هؤلاء المتنقّجون الذين يصطنعون ردّات فعل مميّزة. كبرياء هنري وروبير تتيح لهما كل أنواع التصرّفات الساذجة. فيما لا يظهر دودول ولا لوسي ولا

النساء النحيفات والملمّعات من حولها لحظة صدق واحدة. شعرت نحوهنّ بشفقة مرعبة. لا نصيب لهنّ من هذه الحياة إلاّ طموحات عقيمة ومشاعر غيرة حارقة وانتصارات وهزائم مبهمة. فيما هناك أشياء كثيرة على هذه الأرض يمكن أن نحبّها بشغف ونكرهها بمقت شديد! فكّرت بلمحة بصر: «روبير على صواب. اللامبالاة لا وجود لها». حتى في هذا المكان بالذات حيث لا شيء يستحقّ العناء، وجدتني فورًا في ذروة الاستنكار والقرف والاشمئزاز. أؤكّد أنّ هناك أشياء كثيرة في العالم تستحقّ أن تُحبّ أو تُكره، وأدرك جيّدًا أن لا أحد يستطيع انتزاع هذا اليقين منّي. كنت لبلاهتي ظننت العكس بسبب التعب والكسل وخجلي من جهلي.

سألت لوسي وهي تعرض لبول إحدى ابتساماتها الأكثر تقتيرًا:

ـ ألم تلتقي بابنتي؟

ـ لا.

ـ سترينها. إنّها جميلة جدًّا. من ذاك الجمال الذي كنت تملكينه فيما مضى.

ارتسمت ابتسامة جديدة فوق شفتي لوسي وما لبثت أن امّحت: «لديكما أشياء كثيرة مشتركة».

قرّرت أن أكون فظّة مثلها:

ـ نعم. لكأنّ ابنتك لا تشبهك أبدًا. تفحّصتني لوسي بنظرات مرتابة يشوبها الإصرار. ثمّة فضول قلق في هذه النظرات وكأنّها تتساءل: «أهناك طريقة غير طريقتي في أن تكون المرأة أنثى؟

وهل لي أن أفيد منها؟ هل فاتني شيء ما؟». التفتت إلى بول من جديد: «يجب أن تأتي لرؤيتي في أحد الأيّام عند أماريليس. سأغيّر من ملابسك قليلاً. تشعر المرأة أنها تغيّرت عندما ترتدي ثيابًا لائقة».

قلت:

ــ إنّه لأمر مؤسف أن تتغيّر بول. النساء اللواتي هنّ على الموضة، منتشرات في كل مكان فيما لا يوجد إلاّ بول واحدة.

بدت لوسي وكأنّها حائرة قليلاً. ثم أردفت: «في أيّ حال، عندما تقلعين عن كره الموضة، ستكونين على الرحب والسعة في صالوناتي». ثم أضافت وهي تستدير على عقبي نعليها العاليين: «وأعرف مزيّنًا يجترح المعجزات».

قلت لبول:

ــ كان من الأولى بك أن تسأليها لماذا لم تستفد من خدماته!

قالت بول:

ــ لم أعرف قطّ كيف أردّ على هذا القوم.

كان خدّاها بنفسجيّين ومنخراها منتفخين: تلك كانت طريقتها في الشحوب.

ــ هل تودّين الذهاب؟

ــ سيبدو الأمر وكأنّه هزيمة.

هرعت إلينا كلودي بعينين ثرثارتين تقدحان شررًا: «تلك الصهباء الصغيرة التي دخلت للتوّ هي ابنة بلوم!».

استدارت بول وأنا أيضًا. لم تكن جوزيت صغيرة. كانت صهباء من الصنف النادر، من هاتيك اللواتي بشراتهنّ شقراء قشديّة وتكلل رؤوسهنّ شعور متوحّشة. فمها شهيّ ومتأسّف وعيناها واسعتان؛ يشعر الناظر إليها وكأنّها مرتاعة من جمالها بالذات، ندرك حينئذٍ لماذا يشعر الرجل بالرغبة في إثارة الانفعال في وجه كهذا. حدجتُ بول بنظرة قلقة. بدت جامدة ونظرتها شاخصة وكأنّها تصغي إلى أصوات، أصوات شرّيرة.

انتفضتُ: أيّ جريمة ارتكبت بول لتكفّر عنها. لماذا تغرق في تعاستها فيما من حولنا كل هاتيك النساء يبتسمن؟ رغم استعدادي للاعتراف بأنّها صنعت تعاستها بنفسها، فهي لم تسعَ إلى فهم هنري، وراحت تجترّ الأوهام واختارت الكسل والعبوديّة. لكنّي على يقين أنّها في النهاية لم تُسِئ إلى أحد في حياتها ولا تستحقّ أن تعامل بهذه الوحشيّة. ندفع دومًا ثمن الأخطاء التي ارتكبناها، إلاّ أنّ ثمّة أبوابًا لا يقرعها الدائنون أبدًا وأبوابًا أخرى تُغتصب عنوة، وهذا مجحف. كانت بول في جهة سيّئي الحظّ، ولا أرضى بأن أرى هذه الدموع تنهمر من عينيها دون أن تلاحظ ذلك هي نفسها. أيقظتها من غفلتها عنوة وقلت وأنا أمسك بذراعها: «لنرحل من هنا».

ـــ نعم.

لم نكد نطلق تحيّة الوداع قبل الأوان حتى ألفينا نفسينا في الشارع. نظرت إليّ بول نظرة متجهّمة وقالت:

ــ لماذا لم تتبّهيني؟

ــ أنبّهك بخصوص ماذا؟

ــ بأنّني أسلك الدرب الخطأ.

ــ لكنّي لم أفكّر بذلك.

ــ غريب أنّك لم تفكّري بذلك.

ــ هل تقصدين القول إنّك عشت دومًا منغلقة جدًّا على نفسك؟

هزّت كتفيها: «لم أقل كلمتي الأخيرة بعد. أعرف أنّني بلهاء قليلاً. لكنّي لن أغيّر أبدًا من قناعاتي».

عندما نزلت بول من الباص، كشفت عن ابتسامة وقالت: « شكرًا لأنّك رافقتني. أدّيت لي خدمة جليلة لن أنساها».

مكثت نادين في باريس طيلة الأسبوع. عندما ظهرت من جديد في سان – مارتان، سألتها عن أخبار لامبير، فقالت إنّه بعث لها برسالة وإنّه عائد في غضون أسبوع. ثم أضافت بصوت مبتهج: «سيتعكّر الجوّ بيننا. رأيت جولي من جديد ومارسنا الجنس مجدّدًا. هل تتخيّلين وجه لامبير عندما سأحدّثه عن الأمر؟».

ــ نادين، لا تخبريه.

نظرت إليَّ بهيئة مضطربة:

ـ ردّدت على مسامعي ألف مرّة أنّ الناس المؤدّبين لا يتكاذبون. الصراحة قبل كل شيء!

ـ لا، قلت لك إنّه يجب أن تسعي لبناء علاقات لا مكان للكذب فيها. لكنّ الوضع مختلف مع لامبير. ثم أضفت: «أنت لا تريدين أن تسرّي إليه بدافع الصدق، عن حادثة فعليّة حصلت معك في حياتك، كلّ ما في الأمر أنّك اختلقت عمدًا هذه القصّة لكي تسببّي له جرحًا إذ ترويتها له».

ضحكت نادين ضحكة حائرة:

ـ آه ما أبرعك، عندما تبدئين في التذاكي!

ـ هل أنا مخطئة؟

ـ بالطبع، لقد أردت أن أعاقبه فهو يستحقّ ذلك فعلاً.

ـ اعترفت بنفسك أنّه ينفّذ كلّ ما تطلبينه منه. لمرّة واحدة لم يوافق، فأظهرت أنّك تستفزّينه بأعصاب باردة.

ـ إنّه يفعل ما أريد لأنّ لعب دور الصبيّ الصغير يروق له، هذه مجرّد خدعة. لكن حين تُطرح الأمور بطريقة جادّة هناك أولويّات عديدة تتقدّم عليّ: هنري، الجريدة، والده، التحقيق...

ـ أنت عمياء البصيرة، لامبير متعلّق بك أكثر من أيّ شيء.

ـ أنت التي تقولين ذلك. هو لم يقل شيئًا من هذا القبيل!

ـ كان يجدر بك أن تشجّعيه.

ـ لن أستجدي منه تعابير الحبّ.

نظرت إليها بشيء من الفضول:

ــ هل حدث لك أن عبّرت عن مشاعرك؟

قالت بهيئة مصدومة:

ــ ليست هذه الأمور ممّا يُباح بها: ماذا تتصوّرين؟

ــ تكلّمي فهذا يساعد على فهم الآخر.

ــ لكنّي أفهم جيّدًا كلّ شيء.

ــ إذًا يجدر بك أن تفهمي أنّ لامبير لن يتحمّل أبدًا أن تخونيه. سوف تتسبّبين له بعذاب فظيع وتفسدين الأمور برمّتها بشكل لا رجوع عنه.

ــ لكن من المضحك أنّك أنت من ينصحني بالكذب. أخذت تضحك وبان عليها الارتياح: «لا بأس، لن أقول له شيئًا».

وصل لامبير بعد ذلك بيومين. تحدّث قليلاً عن سفره، وقال إنّه ينوي السفر مجدّدًا في أيلول بهدف جمع معلومات أدقّ. بدت نادين متصالحة معه. كانا يأخذان حمّامات شمس طويلة في الحديقة، جنبًا إلى جنب. ويتنزّهان ويقرآن ويتناقشان ويخطّطان لمشاريع مستقبليّة. كان لامبير يستسلم لنادين كي تدلّله وينصاع عن طيب خاطر لكلّ نزواتها. لكن أحيانًا يشعر بالحاجة ليثبت استقلاليّته فيمتطي درّاجته ويقودها بسرعة ترعبه هو نفسه على ما يبدو. لكن نادين تكره دومًا وحدة الآخرين؛ يخالج غيرتها شعور بالحسد. معارضة لامبير ورفضي الشكليّ جعلاها تعدل عن قيادة الدرّاجة. فحاولت، تعويضًا عن ذلك، أن تتبنّاها. طلت رفارفها بالأحمر

القاني وعلّقت تيمات إلى المقود. وبالرغم من هذه الجهود، ظلّت الدرّاجة في نظرها رمزًا لكلّ الملذّات الذكوريّة التي لم تكن هي تستطيع أن تتمتّع بها أو أن تثني الآخرين عن ممارستها. شكّل هذا الأمر ذريعة متواصلة وسببًا لخلافها مع لامبير لكنّه خلاف لا خطورة فيه.

ذات مساء وفيما كنت في غرفتي أتهيّأ للنوم، أتيا للجلوس في الحديقة.

قال لامبير:

ـ إذًا، برأيك لن أكون قادرًا على إدارة مجلّة بمفردي؟

ـ لم أقل هذا. ما قصدته هو أنّه إذا كان فولانج سيجعل منك أداة في يده فلن يكون بإمكانك إدارة أيّ شيء.

ـ وبرأيك أيضًا لا يثق بي بما فيه الكفاية ومن غير المعقول أن يقترح عليَّ مثل هذا المنصب دون خلفيّة تُذكر!

ـ أنت ساذج. فولانج لا يزال متورّطًا جدًّا ولن يجرؤ على إعلان اسمه. لذا ينوي استغلال موقعك من خلف الكواليس.

ـ آه، أنت تظنّين أنّك قويّة وتستخفّين بقدرة الآخرين. لكن اعلمي أنّ النيّة في الإيذاء تُعمي البصيرة أيضًا. فولانج شخص مهمّ.

أجابت بهدوء:

ـ إنّه نذل.

قال لامبير بفظاظة:

ـ أخطأ في الماضي. وإن يكن. أفضّل الناس الذين يتخلّون عن أخطائهم على هؤلاء الذين لا زالت أخطاؤهم تنتظرهم.

ـ تقصد هنري؟ لم أصنع منه بطلاً يومًا. لكنّه شخص نزيه.

ـ كان كذلك، أمّا الآن فلا شغل له إلاّ السياسة وشخصه العامّ.

قالت نادين بنبرة محايدة:

ـ أعتبره ناجحًا. هذه المسرحيّة التي كتبها حديثًا هي أفضل ما أنجز.

قال لامبير:

ـ آه لا! إنّها بغيضة. لا بل تنمّ عن خبث. الموتى ماتوا فلندعهم يرقدون بسلام. لا يستحقّ الأمر عناء تأجيج الأحقاد بين الفرنسيّين...

قالت نادين:

ـ على العكس! ما أحوج الناس بشدّة لإنعاش ذاكرتهم.

قال لامبير:

ـ لن تفيدنا العودة إلى الوراء في شيء.

ـ لا أوافقك الرأي على نسيان الماضي. ثم أضافت بلهجة جافّة: «ولا أفهم كيف نسامح المسيء».

ـ ومن أنت وماذا فعلتِ لتكوني بهذه القسوة؟

أجابت نادين:

ـ لو كنت رجلاً لكنت تصرّفت مثلك!

ـ ولكنت تردّدت عشر مرّات، فلا أسمح لنفسي بإطلاق التّهم على الآخرين من دون جدوى.

ـ لا بأس. لن نتّفق أبدًا على هذه النقطة. الأفضل أن نذهب للنوم.

خيَّم صمت لفترة قصيرة ثم قال لامبير بلهجة حاسمة:

ـ أنا موقن أنّ فولانج سيقوم بأشياء مهمّة.

ـ أشكّ بذلك. على أيّ حال، لا أعرف أيّ دور بالتحديد سيلعبه في هذه القضيّة كلّها. إدارة جريدة غير واضحة الاتّجاه لن تكون فعلاً مديرها، لا شيء يدعو إلى الاعتزاز.

سألها بنبرة ممازحة قليلاً: «هل أنت على يقين أنّني سأقوم بشيء عظيم يومًا؟».

قالت:

ـ لا أعرف ولا أبالي. ثم لماذا على الإنسان أن يؤمن بالأشياء العظيمة؟

ـ يجدر بي أن أكون فقط فتًى صغيرًا طيّبًا رهن إرادتك ورغباتك، ألا تتوقّعين منّي شيئًا آخر؟

ـ لكنّي لا أتوقع شيئًا. أرضى بك كما أنت.

كانت نبرتها وديّة لكنّها تعني بوضوح أنّها ترفض قول الكلمات التي يتمنّى لامبير سماعها. لكنّه أصرّ بما يشبه الهوس: «وماذا أساوي بنظرك؟ ما هي القدرات التي تعترفين لي بها؟».

قالت ببشاشة:

ـ تعرف كيف تصنع مايونيز وتقود درّاجة.

فقال مطلقًا ضحكة صغيرة:

ـ وشيئًا آخر لن أقوله.

ـ أكرهك عندما تكون مبتذلاً.

تثاءبت محدثة صوتًا عاليًا: «سأذهب للنوم». أحدث الحصى صريرًا تحت أقدامهما. ومن ثم لم يعد يُسمع في الحديقة إلاّ صرير الجنادب. أصغيت إلى غنائها طويلاً: ما أجملها ليلة! ما من نجمة غائبة عن السماء، ما من شيء ناقص ولا في مكان. ومع ذلك، في داخلي هذا الفراغ اللامتناهي. كتب لي لويس رسالتين أخريين وأخبرني فيهما أخبارًا لم يذكرها في الرسالة الأولى... لكن كلّما أحسسته حيًّا، ملموسًا، كلّما ازداد حزنه وطأة. كنت حزينة أنا أيضًا وهذا الحزن لا يجمعنا. همست: «لماذا أنت بعيد هكذا؟». وردّد شيء كالصدى: «لماذا أنت بعيدة هكذا؟». كان صوته مفعمًا بالعتب لأنّنا افترقنا، لأنّ كلّ شيء يفرّق بيننا ولأنّ مساعينا للقاء باءت بالفشل.

أمّا لامبير ونادين فبإمكانهما أن يبلغا السعادة في حبّهما. كانت رعونتهما تغيظني. في ذلك اليوم، قرّرا الذهاب لقضاء النهار والليل في باريس. في بداية بعد الظهر، خرج لامبير من المقصورة مرتديًا بذلته الأنيقة القطنيّة وربطة عنق فاخرة. كانت نادين ممدّدة على العشب وترتدي تنّورة مزدانة بالأزهار، موشّاة بالبقع الكثيرة

وصندالاً ضخمًا. صرخ بها لامبير متبرّمًا: «هيّا أسرعي واذهبي لتهيّئي نفسك. سيفوتنا الباص».

ـ قلت لك إنّي أريد الذهاب على متن الدرّاجة؛ هذا أكثر متعة.

ـ لكنّنا عندئذٍ سنصل والأوساخ على أثوابنا كالقطن المندوف. نبدو مضحكين على الدرّاجة حين نتوخّى الأناقة.

قالت بنبرة حاسمة.

ـ لا أريد ارتداء ملابس أنيقة.

ـ لكن لا يمكنك الذهاب إلى باريس بهذا الثوب؟

لم تجب. قال بصوت متأسّف وهو يطلب شهادتي: «يا للأسف! بإمكانها أن تكون مميّزة لو أنّها ترضى التخلّي عن هذا المظهر الفوضويّ». ثم تفحّصها بعين ناقدة: «لا سيّما أنّ هذا الزيّ المبتذل لا يليق بك إطلاقًا!».

كانت نادين على قناعة بأنّها قبيحة وتمتنع عن إظهار أنوثتها على سبيل النكاية. إهمالها الفظّ يظهر بشكل جليّ مدى حساسيّتها حيال مظهرها الخارجي. تغيّرت ملامح وجهها وقالت: «إذا كنت تريد امرأة تُعنى بجسدها من الصباح حتى المساء، فابحث عنها في مكان آخر».

قال لامبير:

ـ لن يأخذ من وقتك الثمين طويلاً أن ترتدي فستانًا نظيفًا. لا أستطيع اصطحابك إلى أيّ مكان إذا ظللت لا تأبهين لمظهرك الخارجيّ.

ـ لكنّي لا أحتاج إلى الخروج مع أحد للنزهة، هل تتصوّر أنّني أتحرّق شوقًا للتبختر معك وأنا متأبّطة ذراعك حيث رؤساء الخدم، والنساء اللواتي يرتدين أثوابًا مكشوفة الصدر؟ بئس ما تسعى إليه وبئس ما تضمره. إذا كنت حريصًا على لعب دور الدون جوان، فاستأجر عارضة أزياء لمرافقتك.

ـ لا أرى ما الذي يثير الغضب في أن نذهب للرقص في حانة لائقة يمكننا فيها سماع الجاز؟ ثم سألني: «أرأيت بعينك؟».

قلت بحذر:

ـ أظنّ أنّ نادين لا تحبّ الرقص.

ـ ترقص جيّدًا لو أرادت.

قالت:

ـ لكن بالضبط لا أريد أن أقوم بحركات كالقرود وسط الحلبة، هذا لا يسلّيني!

قال لامبير:

ـ غير صحيح. هذا يسلّيك كما يسلّي أيّ امرأة أخرى. احمرّ وجهه قليلاً. ثم أضاف: «ويسلّيك أيضًا أن ترتدي ثيابك وتخرجي للتنزّه. هذا فقط لو كنت صادقة، نقول: هذا لا يسلّينا لكنّنا نكذب. نحن جميعًا مكبوتون وخبثاء. أتساءل أيّ جريمة اقترفنا إذا كنّا نحبّ الأثاث الجميل والملابس الجميلة والترف والترفيه؟ الجميع يحبّ ذلك إذا أردتم قول الحقيقة».

قالت نادين:

ـ أقسم إنّني لا أبالي بكل ذلك.

ـ كلام فارغ! ثم أضاف بحماسة جعلتني أضطرب: «أمر مضحك، يجب التصنّع دومًا والتنكّر للذات دومًا. يجب ألاّ نضحك وألاّ نبكي عندما نرغب في ذلك وألاّ نفعل ما نحبّه وألاّ نفكّر في ما نفكّر به».

سألته:

ـ ومن الذي يمنعك من ذلك؟

ـ لا أعرف، وهنا تكمن المشكلة فعلاً. نخدع بعضنا بعضًا ونجهل السبب في ذلك. لنقل إنّنا نقدّم أنفسنا ضحايا على ذبيحة النقاء. لكن أين هو هذا النقاء؟ ليظهر لي أحدكم النقاء وباسمه نرفض كلّ شيء ولا نفعل شيئًا ولا نتوصّل لشيء.

قالت نادين بلهجة ساخرة:

ـ إلى أين تريد الوصول؟

ـ أنت تضحكين هازئة. لكنّ هذا أيضًا خبث. أنت حسّاسة تجاه النجاح أكثر ممّا تدّعين بكثير. ذهبت مع بيرون في رحلة لأنّه شهير. وكنت ستكلّمينني بنبرة مختلفة لو كنت شخصًا مهمًّا. الكلّ يحبّ النجاح والكلّ يسعى وراء المال.

قالت نادين:

ـ تكلّم وحدك. لن أردّ عليك.

قال لامبير:

ـ ولمَ لا نتعلّق بالمال؟ ما دامت الدنيا على هذه الحال، فالأفضل أن نكون في جهة الذين يملكون المال. كفى تنكّرًا للحقيقة، كنت فخورة جدًّا بمعطف الفرو السنة الفائتة، وتتشوّقين للقيام برحلات طويلة. ستغمرك السعادة إذا استيقظت يومًا ووجدت أنّك أصبحتِ مليونيرة. إلاّ أنّك لن تعترفي بذلك، تخافين أن تكشفي حقيقة أمرك.

قالت بلهجة لئيمة:

ـ أعرف من أنا. وهذا يلائمني بشكل ممتاز. أنت الذي يخشى أن يظهر على حقيقته. مثقّف صغير بورجوازيّ. المغامرات الكبرى، تعرف أنّك لم تُخلق لأجلها. لذا تراهن الآن على النجاح الاجتماعيّ والمال وما تفرّع عنه. أقصى أمانيك أن تصبح متنفّجًا وصوليًّا قذرًا. هذا كل شيء.

قال لامبير وهو يستدير للانصراف:

ـ ثمّة لحظات تستحقّين فيها أن أوّجه لك صفعة قويّة.

ـ حاول أن تفعل! أقسم لك بأنّني سأردّ الصاع صاعين.

شيّعت لامبير بنظراتي. تساءلت عن سبب غضبه: ما الذي يكتمه في صدره على مضض؟ ميل للسهولة؟ طموح غير معترف به؟ هل يرغب مثلاً في أن يوافق على اقتراح فولانج دون أن يضطرّ للاصطدام بملامة أصدقائه؟ أم أنّه اقتنع أنّ المحظورات التي أحاط نفسه بها تحول دون طموحه؟ أم أنّه ببساطة يرغب في أن يكون رجلاً مغمورًا خليّ البال؟

قلت:

ـ أتساءل ماذا يدور في رأسه؟

أجابتني نادين باحتقار.

ـ أوه، ينسج من خياله أحلامًا صغيرة على مقاسه ويطلب منّي أن أشاركه في السعي إلى تحقيقها. ليدعني وشأني!

ـ يجدر بي القول إنّك لا تشجّعينه كثيرًا.

ـ لا. أمر مضحك: عندما أشعر أنّه يرغب في أن أقول له شيئًا محدّدًا، أقول له العكس على الفور. ألم تفهمي هذا؟

ـ قليلاً.

لكنّي أفهم ذلك تمامًا. أعرف هذا النوع من التصلّب الذي تبديه نادين.

ـ يطلب من الآخرين تبريرات لسلوكه على الدوام. فما عليه إذًا إلاّ أن يحصل عليها.

قلت:

ـ هذا لا يمنع أن تُظهري نحوه القليل من التفهّم. لا تقدّمين له أيّ تنازل. كوني مطيعة حين يسألك طلبًا على سبيل الصدفة.

ـ آه! يطلب أكثر ممّا تتصوّرين. هزّت كتفيها بطريقة وكأنّها تضيق ذرعًا به: «بداية، كل مساء يطلب منّي أن أضاجعه. وهذا ينهكني».

ـ بإمكانك الرفض..

ـ ألا تعرفين، لو رفضت لتسبّب رفضي في مأساة. ثم أضافت بلهجة غاضبة: «وعلاوة على ذلك، لو لم أتّخذ جميع الاحتياطات اللازمة، لضاقت الأرض بنسلنا».

استرقت النظر إليَّ: تعرف جيّدًا أنّني أمقت هذا النوع من الاعترافات.

ـ حذّريه من العواقب.

ـ شكرًا على النصيحة! أمّا أن تتحوّل المضاجعة إلى جلسات من التمارين العمليّة فهذا رائع فعلاً! أفضّل أن آخذ حذري بنفسي. لكن ليس ممتعًا أن تستخدمي في كل مرّة تمارسين فيها الجنس جهازًا وقائيًا ضدّ الحمل. لا سيّما أنّني كسرت «فرشاة الأسنان».

ـ فرشاة الأسنان؟

ـ ألم تري منها في أميركا؟ إنّ امرأة أميركيّة قدّمت لي هذه الهديّة. شيء ناعم تامّ الشكل وكأنّه قبّعة مستديرة منمنمة الحجم. لكن، لكي تضعيه بشكل لائق تحتاجين لأداة من زجاج: سميّتَها فرشاة أسنان. لكنّي كسرتها. نظرت إليّ بمكر: «أصدمك بكلامي، أليس كذلك؟».

ـ أتساءل لماذا تصرّين على ممارسة الجنس إذا كنت تعتبرين أنّه عمل مرهق.

ـ وكيف تريدين أن أنشئ علاقات حميمة مع الرجال إذا لم أمارس الجنس معهم. النساء يزعجنني ولا أتسلّى إلاّ مع الفتيان. لكن، إذا أردت الخروج برفقتهم فعليَّ أن أضاجعهم. ليس لديَّ

الخيار. إلاّ أنّ هنالك رجالاً يمارسون الجنس أغلب الأحيان تقريبًا، وآخرين لفترة طويلة. أمّا لامبير فيمارس الجنس طيلة الوقت وبلا حدود. أخذت تضحك: «أظنّ أنّه حين يقلع عن استخدام عضوه، يفقد ثقته بأنّه يملك واحدًا!».

من إحدى المفارقات لدى نادين أنّها أقامت علاقات جنسيّة مع العديد من الرجال وكانت تفصح، دون أن يرفّ لها جفن، عن أشياء ماجنة إلى حدّ لا يوصف. لكنّها فيما يتعلّق بحياتها الجنسيّة الخاصّة كانت شديدة الحساسيّة وإلى أبعد الحدود. وحين يسمح لامبير لنفسه، كما يفعل في أغلب الأحيان أن يلمّح إلى علاقتهما الحميمة، تنتفض غاضبة ثائرة.

قلت:

ـ ثمّة حقائق تتنكّرين لها وهي أنّ لامبير يحبّك.

هزّت كتفيها وقالت بنبرة رصينة:

ـ لا تريدين أن تفهمي! لامبير أحبّ امرأة واحدة في حياته: روزا. من بعدها أراد أن يتعزّى، فتشبّث بأوّل فتاة صادفها وهذه الفتاة كانت أنا. في البداية، لم يكن راغبًا في مضاجعتي. لم تخطر له الفكرة إلاّ عندما علم أنّني أقمت علاقة مع هنري. لكنّي لست من الصنف الذي يلائمه. يحبّ أن تكون لديه امرأة يطمئنّ إلى وجودها بقربه، فهذا الأمر يرضي ذكورته أكثر من ممارسة الفسق. وأكثر راحة أيضًا. ولست المرأة التي تلائم مزاجه.

كانت تتفنّن في مزجها المرهف بين الخطأ والصواب بحيث استلزم عدم مشاطرتها الرأي استنفارًا لجهد عجزت عنه؛ قلت بنبرة خافتة:

ــ تفسّرين كلّ الأمور بطريقة خاطئة!

قالت:

ــ لا، أدرك ما أعنيه.

انتهى بها الأمر إلى ارتداء ثوب نظيف، وذهبا كلاهما إلى باريس. لكنّهما عادا أكثر تجهّمًا من أيّ وقت مضى. ومن ثم انفجر الشجار بينهما من جديد. في ذلك الصباح، كنت منصرفة إلى العمل في الحديقة. وكانت السماء العاصفة تثقل كاهلي فأرزح تحت وطأتها حتى ألامس الأرض. إلى جانبي لامبير يقرأ ونادين تحيك الصوف. قالت لي البارحة: «إذا توخّينا قول الحقيقة، العطلات متعبة جدًّا. ترغمك على أن تحسني كلّ يوم توزيع وقتك». بدا واضحًا أنّها سئمة. لوهلة، تسمّرت نظرتها على رقبة لامبير وكأنّها تريد أن ترغمه على الاستدارة فقط بقوّة نظرتها. ثم قالت:

ــ ألم تنتهِ بعد من سبنغلر[1] هذا؟

ــ لا.

ــ عندما تنتهي منه، أعرني إيّاه.

---

(١) سبنغلر: أوزوالد سبنغلر Oswald Spengler (١٨٨٠ ــ ١٩٣٦) فيلسوف ألماني. نظرته التشاؤميّة للحضارات وأفولها المحتّم استخدمتها الإيديولوجيا النازيّة. من مؤلّفاته «أفول الغرب».

ـ نعم.

لا تستطيع نادين رؤية كتاب بين يدي أحد دون أن تعرف محتواه. تأخذه إلى غرفتها فيضاف عبئًا إلى كومة المؤلّفات المرجأة قراءتها إلى المستقبل. كانت تقرأ ببطء شديد وبشيء من العدائيّة. لا تكاد تنتهي من مطالعة بعض الصفحات حتى تشعر بالتعب. أردفت وهي تضحك ضحكة خفيفة:

ـ يبدو أنّه سخيف بشكل فظيع!

هذه المرّة، رفع لامبير رأسه:

ـ ومن قال لك هذا؟ أصدقاؤك الشيوعيّون؟

قالت واثقة من نفسها:

ـ الجميع يعرفون أنّ سبنغلر فيلسوف تافه. ثم تمطّت وهي ممدّدة أرضًا وهمهمت: «تحسن صنيعًا لو اصطحبتني في رحلة على الدرّاجة».

قال لامبير بجفاف:

ـ أوه! لا أرغب إطلاقًا في ذلك.

ـ نتناول الغداء في «مينيل» ونتنزّه في الغابة.

ـ وتنهال علينا العاصفة فتغرقنا! انظري إلى السماء.

ـ لن تهبَّ العاصفة. قل بالأحرى إنّه يزعجك أن تذهب لتنزّهني.

قال بنفاد صبر:

ـ يزعجني الذهاب لأتنزّه، نعم. قلت لك ذلك لتوّي.

نهضت:

ـ حسنًا. يزعجني أن أمضي طيلة النهار في بستان الملفوف هذا. سآخذ الدرّاجة وأقوم بجولة بمفردي. أعطني مفتاح قفل الأمان.

ـ أنت مجنونة! لا يمكنك قيادتها.

ـ سبق لي وقدتها. ليس ذلك بالأمر الصعب. والدليل أنّك أنت تستطيع القيام به.

ـ ولدى أوّل منعطف تحطّمين رأسك. لا تحاولي. لن أعطيك المفتاح.

ـ أنت لا تبالي إن هشّمت رأسي أم لا! أنت خائف من أن أهشّم لعبتك. هذا كل ما في الأمر. أيّها الأناني القذر. أعطني هذا المفتاح!

لم يجب لامبير. بقيت نادين جامدة لوهلة ونظراتها فارغة. ثم نهضت، أمسكت القفّة الكبيرة التي كانت بمثابة حقيبتها وقالت لي:

ـ أموت ضجرًا. سأمضي النهار في باريس.

ـ استمتعي بوقتك.

اختارت بلباقة توقيت انتقامها. سيتعذّب لامبير بالتأكيد عندما يفكّر أنّ نادين في باريس تمضي وقتها برفقة أصدقاء يكرههم. شيّعها بنظراته عند خروجها من الحديقة. ثم استدار ناحيتي وقال بلهجة يشوبها الأسى:

ـ لا أفهم لماذا تتفاقم خصوماتنا بهذه السرعة القياسيّة. هل بإمكانك أن تفسّري لي؟

كانت هذه المرّة الأولى التي يفتح معي حوارًا حميمًا. تردّدت في الإجابة. لكن، بما أنّه كان مستعدًّا لسماعي، فمن الأفضل دون شكّ أن أحاول التحدّث إليه.

قلت:

ـ ما حدث خطأ، ونادين تتحمّل الجزء الأكبر من المسؤوليّة. تغتاظ لأدنى شيء. وحينئذٍ تصبح ظالمة وعدائيّة. لكن لنقل إنّها جارحة لأنّها تنجرح بسهولة.

قال بشيء من الضغينة:

ـ لكنّها، والحالة هذه، يجب أن تفهم أنّ الآخرين أيضًا ينجرحون بسهولة أحيانًا وألاّ تتخلّى عن أبسط قواعد اللياقة.

بدا أعزل، وفتيًّا جدًّا بسحنته النضرة وأنفه الأقنى قليلاً، وفمه النهم. وجه شهوانيّ حائر تتجاذبه أحلام فائقة العذوبة وتعليمات شديدة القسوة.

قلت بحزم:

ـ أتعرف. إذا أردت أن تفهم نادين كما يجب فعليك أن تعود إلى عهد طفولتها.

كل ما اجتررته في داخلي ألف مرّة قلته للامبير، على أفضل وجه ممكن. أصغى إليّ متأثّرًا. وعندما تلفظت باسم دييغو، قاطعني قائلاً وقد بدا على وجهه الفضول:

ـ هل صحيح أنّه كان ذكيًّا بشكل خارق؟

ـ صحيح.

ـ هل كانت قصائده جيّدة؟ هل كانت لديه الموهبة؟

ـ أظنّ ذلك.

ـ ولم يكن إلاّ في السابعة عشرة من العمر! هل كانت نادين معجبة به؟

ـ نادين لا تُعجب بأحد. لا، الشيء الذي جعلها تتعلّق به هو أنّه كان ينتمي إليها بكليّته.

قال بحزن:

ـ لكنّي أنا أيضًا أحبّها!

قلت:

ـ ليست واثقة من حبّك، وتخشى دومًا من أن تقارنها بامرأة أخرى.

تمتم:

ـ أنا متعلّق بنادين أكثر ممّا كنت متعلقا برورزا.

فاجأني هذا التصريح. وبالرغم من ذلك، تبنّيت وجهة نظر نادين:

ـ هل قلت لها ذلك؟

ـ ليست هذه أشياء تقال.

ـ لكن، ما أحوجها إلى سماعها.

هزّ كتفيه: «لكنّها تدرك جيّدًا أنّني منذ أكثر من سنة لا أعيش إلاّ لأجلها».

ـ ومع ذلك فهي مقتنعة أنّ علاقتكما نوع من الصداقة. كيف لي أن أشرح ذلك؛ إنّها امرأة تتنكّر لأنوثتها وتحتاج لأن تشعر بأنّها محبوبة بصفتها امرأة.

تردّد لامبير:

ـ وعلى هذا المستوى بالذات تبدو مستحيلة. لم يكن يجدر بي أن أقول لك هذا. لم أعد أفهم شيئًا وبتّ ضائعًا. إذا مرَّ مساء ولم يحدث اتّصال بيننا، تشعر أنّ الأمر غير طبيعيّ. لكنّ كلّ المبادرات العاطفيّة تروّعها تقريبًا. عندئذٍ وبطبيعة الحال، تعلن حالة الاستنفار وتحقد عليَّ.

تذكّرت اعترافات نادين الفظّة.

ـ أنت واثق من أنّها هي التي ترغب في ممارسة الجنس كلّ مساء.

قال بهيئة متجهّمة:

ـ واثق بشكل مطلق.

لم أفاجأ من هذا التناقض الذي يسم علاقتهما. صادفت نماذج كثيرة منه. وهذا يعني دومًا أنّ أحد الطرفين ليس راضيًا عن شريكه.

قلت:

ـ تشعر نادين أنّها مشوّهة حين تتقبّل أنوثتها وأيضًا حين ترفضها. هذا ما يجعل العلاقة بها مستعصية إلى حدّ بعيد، لكن لو تحلّيتَ بالصبر فإنّ الأمور ستسوّى بينكما.

ـ آه، لديَّ ما يكفي من الصبر! فقط لو كنت واثقًا من أنّها لا تكرهني.

ـ كيف تفكّر على هذا الشكل؟ إنّها متعلقة بك إلى أبعد الحدود.

ـ أعتقد أنّ ظنّك في غير محلّه.

ـ غالبًا ما أفكّر بأنّها تحتقرني لأنّي، حسب قولها، مثقّف صغير، مثقّف لا يملك مواهب خلاّقة حتّى. ثم أضاف بمرارة: «ولم يعقد عزمه على الطيران بأجنحته».

قلت:

ـ ليس بإمكان نادين الاهتمام إلاّ بمثقّف. إنّها مولعة بالنقاش والتعبير عن رأيها. يحلو لها أن تصيغ حياتها كلماتٍ. لا، صدّقني، لا تلومك حقًّا إلاّ على أنّك لا تحبّها كفاية.

قال وقد أشرقت قسماته:

ـ سأقنعها، وحين أكتشف أنّها تحبّني ولو بمقدار قليل فكل أمر آخر يهون.

ـ تحبّك كثيرًا. لن أقول ذلك لو لم أكن مقتنعة بكلامي.

عاد لقراءة كتابه وعدت لعملي. السماء تكفهرّ بين الحين والآخر، واسودّت تمامًا بعد الظهر عندما صعدت إلى غرفتي محاولة أن أكتب للويس. هو يتقن التحدّث إليّ. يلائمه ذلك أكثر

منّي. الناس والأشياء التي يصفها لي أعرفها. استعدت عبر الأوراق الصفراء الآلة الكاتبة والغطاء المكسيكيّ، والنافذة المشرّعة على حديقة صغيرة من الأشجار، والسيّارات الفخمة التي تسير على طول الطرق المتشققة. لكنّ هذه القرية وعملي ونادين ولامبير، لم يكونوا شيئًا بالنسبة له. ثم كيف بالإمكان أن أروي عن روبير، كيف بالإمكان أن أغفل ذكره؟ الأشياء التي يهمس بها لويس بين السطور، أشياء يسهل قولها: «أنتظرك، عودي، أنا لك». لكن كيف السبيل إلى أن أقول له: أنا بعيدة. لن أعود قبل انقضاء وقت طويل، أنا أنتمي إلى حياة أخرى؟ كيف بوسعي قول ذلك إذا أردت أن أضمّنه: «أحبّك»! كان يناديني، وأنا لا أستطيع مناداته. ليس لديَّ ما أعطيه إيّاه ما دمت أرفض أن أعطيه حضوري. أعدت قراءة رسالتي بخجل. ما أبعدها عن التعبير عن مشاعر قلبي المفعم بحبّه. وما أتفه الوعود التي أطلقها: سأعود، لكن سأعود بعد وقت طويل، لكي أرحل من جديد. تجمّدت يدي وأنا ألمس الظرف الذي ستلمسه يداه بعد أيّام قليلة. يدان من لحم ودم لامستا كل أنحاء جسدي. كان حقيقيًّا إذًا. أحيانًا، يبدو لي أنّه مخلوق اخترعته من شدّة ولوعي. أتصرّف به بسهولة تامّة. أجلسه قرب النافذة، أنير وجهه، أوقظ ابتسامته دون أن يمانع. هل سألتقي مجدّدًا بالرجل الذي فاجأني وروى غليل جسدي؟ تركت رسالتي على الطاولة واتّكأت إلى النافذة. هبط الغسق وهبّت العاصفة. شوهدت جيوش من الفرسان تعدو على أحصنتها ممتشقة الرماح في أيديها وسط الغيوم، فيما الرّيح تهذي في الأشجار. نزلت إلى غرفة الجلوس.

أشعلت نارًا قويّة من الأحطاب ودعوت لامبير إلى العشاء عبر الهاتف. حين لا تكون نادين موجودة وتؤجّج الخلافات، يتفادى روبير ولامبير طوعًا الخوض في الأسئلة الشائكة. بعد العشاء، ذهب روبير إلى مكتبه. وفيما كان لامبير يساعدني في تنظيف الطاولة، جاءت نادين. كان شعرها مبلّلاً بالمطر تمامًا. ابتسم لامبير بلطف:

ـ تبدين أشبه بحوريّة البحر. هل تريدين تناول الطعام؟

ـ لا، تناولت العشاء مع فنسان وسيزيناك. أخذت عن الطاولة منشفة صغيرة، وراحت تجفّف شعرها. «تحدّثنا عن المعتقلات الروسيّة. فنسان من رأيي. يقول إنّها شيء مستنكر. لكن إذا شُنّت حملة ضدّها فسيبعث ذلك السرور في قلوب البورجوازيّين».

قال لامبير:

ـ يا لها من حجج مهمّة يمكن الذهاب فيها بعيدًا. هزّ كتفيه وقد بدا عليه الاستياء: «سيحاول إقناع بيرون بالعدول عن الكلام».

قالت نادين:

ـ بالطبع!

قال لامبير:

ـ آمل ألاّ يفلح في ذلك. حذّرت بيرون: إذا تكتّم عن القضيّة فسأترك «*L'Espoir*».

قالت نادين هازئة:

ـ حجّة مقنعة فعلاً ويجدر بنا أن نتوقّف عندها.

قال لامبير ببشاشة:

ـ آه! لا تتبجّحي! أنتِ لا تضمرين لي من السوء على قدر ما تظهرين.

أجابت دون رقة:

ـ لكن ربَّما من الخير أقلّ ممّا تتصوّر.

ـ لست لطيفة!

ـ وأنت هل كنت لطيفًا حين تركتني أذهب وحدي إلى باريس؟

قال لامبير:

ـ لم تبدي رغبة في أن أرافقك.

ـ لم أقل إنّني كنت راغبة. أقصد أنّه كان بإمكانك أن تقترح عليَّ ذلك. سِرت باتجاه الباب وغادرت الغرفة. سمعت لامبير يقول:

ـ هيّا، لنلقع عن الشجار!

ـ لا أتشاجر معك.

ـ تكهّنت بأنّهما سيتشاجران طيلة السهرة.

في صباح اليوم التالي، نزلت باكرًا إلى الحديقة. تحت السماء الزرقاء التي أنعشتها أمطار الليل، ظلّ الرّيف معذّبًا؛ الطرق محفّرة وموحلة، المرجة مفروشة بالأغصان اليابسة. وضعت أوراقي على الطاولة المبللة. ثم سمعت قرقعة الدرّاجة الناريّة. رأيت نادين تنطلق على الطريق المليئة بالحفر، شعرها يتطاير في الريح

وتنّورتها منحسرة عن فخذيها العاريتين. خرج لامبير من المقصورة وهرع حتى البوّابة وهو يصرخ: «نادين» ثم عاد نحوي والحيرة بادية على وجهه.

قال بصوت مضطرب:

ــ لا تحسن القيادة، ومع العاصفة التي هبّت، تحطّمت الأغصان والأشجار معترضة الطرقات. ستحلّ بنا مصيبة، لا مفرّ.

قلت محاولة طمأنته.

ــ نادين حذرة على طريقتها.

شعرت بالقلق أنا أيضًا. كانت حريصة على حياتها لكنّها ليست لبقة.

ــ أخذت مفتاح قفل الأمان فيما كنت نائمًا. إنّها عنيدة جدًّا. نظر إليَّ بعتب: «تقولين لي إنّها تحبّني، فما أغرب طريقتها في الحبّ! مساء البارحة كنت أطمح من خلال حديثي معها إلى أن يسود السلام فيما بيننا كما رأيت. ولم يؤدِّ هذا المسعى إلى نتيجة تذكر»!

قلت:

ــ آه! ليس سهلاً الوصول إلى التفاهم. اصبر قليلاً.

ــ معها، يجب أن أصبر كثيرًا!

ابتعد وفكّرتُ بأسى «يا للورطة!». نادين تسير بسرعة على الطرقات، يداها متمسّكتان بقوّة بالمقود وتشكو للرّيح همومها: «لامبير لا يحبّني. لا أحد يحبّني إلاّ دييغو وقد مات». وأثناء ذلك،

يذرع لامبير الغرفة جيئة وذهابًا والهواجس تقضّ مضجعه. من الصعب أن يصبح الإنسان رجلاً في زمنٍ تكتسب فيه هذه الكلمة مدلولات شتّى ثقيلة ومبهمة: إخوة بكر كثرٌ ماتوا وعُذّبوا وكُرّموا بالأوسمة الرفيعة وشكّلوا قدوة لهذا الفتى الذي بلغ الخامسة والعشرين من عمره ولا يزال يحلم بحنان الأمّ وحماية الأب. فكّرت في هذه القبائل التي تدرّب فيها الذكور الصغار، منذ سنّ الخامسة، على أن يخوضوا في الأشواك المسمومة وهم عراة. وفي مجتمعاتنا أيضًا، على الذكر، لكي يلتحق سريعًا بركب الناضجين، أن يعرف كيف يقتل ويعذّب الآخرين ويعذّب نفسه. ترزح الفتيات تحت وطأة المحرّمات ويرزح الصبيان تحت وطأة توفير الحاجات الملحّة. ما أبغض هذين المفهومين! إنّهما سواء في الشؤم. لو كان في نيّة لامبير ونادين أن يتساعدا لاستطاعا ربَّما أن يتوصّلا إلى تقبّل عمرهما وجنسهما ومكانهما الحقيقيّ على هذه الأرض. فهل سيتّخذان مثل هذا القرار؟

تناول لامبيرالغداء معنا وهو متردّد بين الخوف والغضب. قال مغتاظًا:

ــ ما فعلته تخطّى حدود المزاح. لا يحقّ لنا أن نتسبّب بقلق مماثل للآخرين. إنّه تصرّف خبيث. تستحقّ فعلاً صفعتين قويّتين!

قلت:

ــ نادين لا تظنّ أنّك قلق على هذا النحو. وأنت تعرف أنّه لا يفترض بك ذلك. لا بدَّ أنّها مستغرقة في النوم في أحد الحقول أو تأخذ حمّامًا شمسيًّا.

قال:

ـ أخشى أن تكون سقطت في إحدى الحفر وهشّمت رأسها. إنّها مجنونة! مجنونة!

بدا قلقًا للغاية. أفهمه. ولم أكن بالاطمئنان الذي أدّعيه. قال لي روبير: «لو حصل شيء ما لكانوا أبلغونا عنه». لكن من يدري، ربَّما في هذه اللحظة بالذات انحرفت الدرّاجة واصطدمت نادين بشجرة فهشّمت رأسها. حاول روبير أن يموّه عنّي. لكن، عند هبوط المساء، لم يعد يكتم انشغال باله. أراد الاتّصال برجال الدرك في الجوار. عندئذ سمعنا فرقعة في الخارج. هرع لامبير ووصل إلى الطريق قبلي. كانت الدرّاجة ملطّخة بالوحل ونادين أيضًا. ما كادت تضع قدميها على الأرض حتى بادرها لامبير بصفعتين متتاليتين.

ـ ماما!

انقضّت نادين عليه وصفعته بدورها صارخة بصوت حادّ: «ماما!» أمسك بمعصميها. عندما دنوت منهما كان لامبير شاحبًا لدرجة أنّني خشيت من أنّه سيُغمى عليه. كانت نادين تنزف من أنفها. لكنّي أعرف أنّها تتقصّد ذلك، وأنّها خدعة كانت تلجأ إليها منذ طفولتها حين تتعارك مع الصبية حول نوافير اللوكسمبورغ.

قلت وأنا أفصل بينهما وكأنّني أفرّق بين طفلين:

ـ ألا تخجلان!

قالت نادين بصوت هستيريّ:

ـ ضربني!

طوّقتها بذراعيّ وجققت أنفها: «اهدئي».

ـ ضربني لأنّي أخذت درّاجته القذرة. سأحطّمها إربًا، إربًا.

كرّرت:

ـ اهدئي.

ـ سأحطّمها.

قلت:

ـ اسمعي. ارتكب لامبير خطأ فادحًا حين صفعك. لكن، من الطبيعي أن يخرج عن طوره. جميعنا انتابنا خوف فظيع من أن يصيبك مكروه.

ـ حتى لو أصابني مكروه لا يكترث بي. لا يفكّر إلاّ بدرّاجته. خاف أن تتعرّض درّاجته للضرر.

قال لامبير بلهجة أليمة:

ـ أعتذر، نادين. لم يكن يجدر بي أن أفعل ذلك. لكنّي كنت مضطربًا.

ـ أيّها الخبيث، أنت لا تهتمّ. أعرف ذلك. حتى لو لقيت حتفي فهذا لا يعني لك شيئًا. دفنت امرأة من قبلي!

ـ نادين!

تبدّل الشحوب في وجهه إلى الاحمرار من شدّة الغضب. لم يَعد هناك ملامح صبيانيّة في وجهه.

صرخت قائلة:

ـ دُفنت ونُسيت على وجه السرعة.

ـ كيف تجرئين! أنت خنت دييغو مع الجيش الأميركي كلّه!

ـ اخرس!

ـ خنته.

انهمرت دموع الغضب على خدّي نادين: «ربّما خنته ميتًا. لكن أنت سمحت لأبيك أن يشي بروزا وهي حيّة».

بقي لبرهة صامتًا ثم قال:

ـ لم أعد أريد رؤيتك. أبدًا. أبدًا.

امتطى درّاجته، ولم أجد كلمات لكي أردعه. أخذت نادين تشهق بالبكاء.

ـ تعالي لترتاحي. تعالي.

دفعتني جانبًا وارتمت فوق العشب وراحت تصرخ:

ـ أبوه وشى باليهود وأنا أضاجعه! وصفعني فوق ذلك! أستحقّ ما فعل بي! أستحقّه. واصلت صراخها ولم يكن بيدي حيلة فتركتها تسترسل في صراخها.

الفصل السابع

أمضت بول الصيف عند كلودي دوبلزنس. ذهبت جوزيت إلى كان برفقة والدتها لتكسب لونًا برونزيًا. انطلق هنري إلى إيطاليا في سيّارة صغيرة مستعملة. كان يعشق هذا البلد وقد أنسته الرحلة *«L'Espoir»* والـ *S.R.L* والمشاكل جميعها. عندما عاد إلى باريس، وجد في بريده تحقيقًا أرسله لامبير من ألمانيا ورزمة من الوثائق التي جمعها سكرياسين. أمضى ليلته في قراءتها. ما أطلّ الصباح حتى أصبحت إيطاليا بعيدة جدًّا. يمكن الارتياب بالوثائق التي عُثر عليها في أرشيفات الرايخ والتي تكشف عن وجود تسعة ملايين وثمانمئة ألف معتقل. كما يمكن الاشتباه بالتقارير التي قدّمها المساجين البولونيّون الذين جرى تحريرهم في ١٩٤١. لكن، أن نتجاوز جذريًّا جميع شهادات الرجال والنساء الناجين من المعتقلات، فهذا يعني أنّنا اتّخذنا قرارًا بسدّ أعيننا وصمّ آذاننا. ثم، بالإضافة إلى المواد المتعلّقة بالقانون السوفييتي التي كان هنري يعرفها، هناك ذاك التقرير الصادر في موسكو عام ١٩٣٥ والذي يعدّد الأعمال الهائلة التي نفذتها المعسكرات التابعة لـOguépéou[1] وأيضًا

(١) - Oguépéou أو Guépéou أوG. P. U. (١٩٢٢ – ١٩٣٤): الشرطة السريّة التي أوكل إليها أمن الدولة السوفييتية وهي اسم من بين الأسماء الكثيرة التي حملها جهاز الأمن السوفييتي. منذ أنشأته الحكومة البولشفيّة. (هناك الـ N.K.V.D (١٩٣٤ ــ ١٩٤١) التي أدّت إلى نشوء الـN.K.G.B. دمج هذان القسمان

الخطّة الخمسيّة[1] لعام ١٩٤١ التي أوكلت إلى الـ M.V.D ١٤%[2] من مشاريع البناء. في مناجم الذهب، في كوليما[3]، ومناجم الفحم في نوريليسك[4]، وفوركوتا، وفي ستاروبلسك حيث الحديد، ومصايد كومي[5]: كيف كانوا يعيشون تحديدًا؟ كم كان يبلغ عدد الذين حُكم عليهم بالأشغال الشاقة؟ في هذه النقطة بالذات، هامش من الشكّ الملحوظ. لكنّ الشيء الأكيد هو أنّ هذه المعسكرات موجودة، على نطاق واسع، وقائمة على شكل مؤسّسات. فكّر هنري: «يجب الاعتراف بذلك وإلاّ سأكون متواطئًا، متواطئًا ومذنبًا حيال قرّائي لأنّني أسأت الأمانة». ارتمى

K. G. B. في ١٩٥٤). اضطلعت الـ G. P. U. بدور مزدوج بوليسيّ وقضائيّ. إذ تولّت الإشراف على عمليّات التطهير وتصفية كبار المزارعين ورجال الدين والأنتليجنسيا القديمة ونفي عدد كبير من الأشخاص إلى معسكرات العمل الإجباري أي الغولاغ (Goulag). استعمل الغولاغ (القسم في جهاز الأمن الذي كان يتولّى إدارة معسكرات العمل الإصلاحيّة) العمل الإجباري في نشاطات عدّة مثل استغلال الأحراج والتعدين وإنشاء القنوات والسكك الحديديّة والطرقات.

(١) الخطّة الخمسيّة: الخطّة الحكوميّة للتنمية الاقتصاديّة الممتدّة على خمس سنوات والتي اتّبعها ستالين بدءًا من ١٩٢٨ إذ اتّخذ سلسلة من ثلاث خطط مماثلة اهتمّت بتحقيق التصنيع السريع وجماعة الزراعة.

(٢) الـ M.V.D.: وزارة الشؤون الداخليّة التي اضطلعت بمهام الشرطة السرّيّة. راجع الهامش رقم (١) المتعلّق بالـ Guépéou.

(٣) كوليما: نهر في سيبيريا يصبّ في المتجمّد الشمالي.

(٤) نوريليسك: مدينة في سيبيريا.

(٥) كومي: إحدى جمهوريّات روسيا السوفييتية، شمالي الأورال من مدنها فوركوتا.

فوق سريره وهو لا يزال يرتدي كامل ملابسه: «سيكون الأمر بحاجة إلى إعادة نظر!». سوف يتخاصم مع الشيوعيّين. عندئذٍ، لن يكون وضع«*L'Espoir*» سهلاً. تنهّد. سُرّ هذا الصباح عندما رأى عمّالاً يشترون«*L'Espoir*» في الكشك عند الزاوية. لن يشتروها بعد اليوم، ومع ذلك كيف بالإمكان السكوت على ما يدور حولنا؟ بإمكانه الدفاع عن هذا الموقف والتذرّع قائلاً إنّه لا يملك المعلومات الكافية التي تؤهّله للكلام عمّا يجري، أو أنّ النظام برمّته هو المسؤول عن تبرير وجود هذه المعسكرات الحقيقيّة. والتحرّي عن هذا الموضوع دونه صعاب كثيرة! لكن، حتّى لو كانت معرفته بما يجري مجتزأة فهذه ليست حجّة لالتزام الصمت. جهل الحقيقة كاملة لا يبرّر السكوت عن بعض وجوهها. وقد أدرك هذا الأمر منذ زمن طويل. وعد قرّاءه بأن ينقل إليهم الحقيقة وعليه أن يفي بوعده ويقول لهم ما يعرفه، ولو ساورته بعض الشكوك. ولكي يقتنع بضرورة إخفاء ما يعرفه، يُفترض به أن تكون هناك أسباب موجبة. أمّا خوفه من التصادم مع الشيوعيّين فلا يُعتبر حجّة لأنّه يعنيه وحده.

لحسن الحظّ، سمحت له الظروف بهدنة موقتة. لا دوبري ولا لامبير ولا سكرياسين كانوا في باريس. وسامازيل، لم يُشر إلى المسألة إلاّ ببعض التلميحات المبهمة. جهد هنري لكي يتجنّب الخوض في المسألة كثيرًا. على أيّ حال، ثمّة أشياء كثيرة يجب أن يوليها الآن اهتمامه. أشياء تافهة. لكن ملحّة. شهدت التجارب الأولى لمسرحيّته قبل عرضها جدالاً عاصفًا. كان ساليف سلافيًّا أكثر من اللازم. وانتقاداته المتكرّرة لم تجعلها أقلّ خطورة.

وجوزيت تخضع لنزواته دامعة العينين. أخذ فيرنون يهتاب الفضيحة فاقترح حذف بعض المشاهد واقترح بعض التعديلات غير المقبولة؛ عهد إلى دار أماريليس تصميم الملابس وتنفيذها، ورفضت لوسي بلوم الاقتناع أنّ على جوزيت أن تخرج من كنيسةٍ تحترق وليس من صالون خياطة. ما اضطرّ هنري لملازمة المسرح لساعات.

قال في نفسه ذات صباح: «أيًّا يكن، عليّ الاتّصال ببول». لم يحصل منها إلاّ على بعض التعليمات الغامضة. عادت إلى باريس منذ بضعة أيّام ولم تتّصل به. لكنّها. بالطبع، تترقب بقلقٍ رنين الهاتف. ليس تحفظها إلاّ مناورة، واستغلاله أمر في غاية القساوة. حين اتّصل بها، حدّدت له موعدًا بنبرة هادئة جدًّا، من الهدوء بحيث أمّل نفسه قليلاً وهو يصعد الدرج إليها: لعلّها استطاعت تقبّل الانفصال عنه بطريقة جدّيّة. فتحت له الباب مبتسمة: «ما الذي حصل لها؟» تساءل مذعورًا. كان شعرها مرفوعًا إلى الأعلى يكشف عن عنق ممتلئ. حاجباها مزجّجتان وتايورها يضيق بها. بدت مبتذلة قليلاً. قالت والابتسامة لم تفارق شفتيها:

ــ لماذا تنظر إليّ هكذا؟

ابتسم هو أيضًا بجهد وقال:

ــ «ترتدين ثيابًا غريبة...».

ـ فاجأتكَ؟ انتزعت من حقيبتها مبسِمًا[1] طويلاً ووضعته في فمها. ثم أردفت: «آمل أن أفاجئك». نظرت إليه بعينين تلمعان فرحًا: «بداية، يجب أن أخطرك خبرًا عظيمًا: أكتب!».

ـ تكتبين! ماذا تكتبين؟

ـ ذات يوم ستعرف.

أخذت تعضّ مبسمها بهيئة غامضة. مشى باتّجاه النافذة. تهوى بول لعب الأدوار المأساويّة لكنّ هذا النوع من المهازل لا يليق بها. لو لم يكن يخشى التبعات المعقدة المترتّبة على تصرّفها لكان انتزع المبسم من فمها وخرّب شعرها بعنف. التفت إليها:

ـ هل كانت عطلتك جيّدة؟

ـ ممتازة. ثم سألته بنوع من التساهل: وأنت؟ ماذا صار بحالك؟

ـ آه، أنا؟ أمضي نهاراتي في المسرح. والآن نراوح مكاننا. ساليف مخرج جيّد لكنّه يغضب بسرعة.

سألت بول:

ـ هل ستكون الصغيرة مناسبة للدور؟

ـ أعتقد أنّها ستكون ممتازة.

مجّت بول دخان سيجارتها. كادت تختنق وراحت تسعل:

ـ أما تزالان على علاقة؟

---

(١) مبسم: فم السيجارة.

ـ نعم.

تفرّست به بنظرات مغوية:

ـ هذا الأمر يثير الفضول!

ـ لماذا؟ تردّد ثم أضاف بحزم: «ليست نزوة. أنا مغرم بها».

ابتسمت بول:

ـ هل تظنّ ذلك حقًّا؟

أجابها بنبرة حازمة:

ـ أنا واثق. أحبّ جوزيت.

قالت متفاجئة:

ـ لماذا تقولها بهذه النبرة؟

ـ أيّ نبرة؟

ـ بنبرة غريبة.

قام بحركة نافدة الصبر:

ـ أخبريني عن عطلتك. كتبت لي القليل.

ـ كنت منشغلة جدًّا.

ـ هل المكان جميل؟

قالت بول:

ـ أعجبني.

مرهق أن يطرح عليها أسئلة، فهي لا تجيبه إلاّ بجمل مختصرة، ثقيلة، مشحونة بالتضمينات الغامضة. ما حمل هنري على الاغتياظ فغادر بعد عشر دقائق. لم تحاول استبقاءه ولم تسأله عن موعد جديد.

أتى لامبير من ألمانيا قبل ثمانية أيّام من العرض الأوّل للمسرحيّة. تغيَّرت تصرّفاته منذ وفاة والده. أصبح حرونا ومغلقا. أخذ يستفيض في الكلام عن التحقيق الذي أجراه، وعن الشهادات التي جمعها. نظر إلى هنري نظرة مرتابة.

ـ هل اقتنعت أم لا؟

ـ بالنسبة للجوهريّ، نعم!

قال لامبير:

ـ هذا هو المطلوب. ودوبروي؟ ماذا يقول؟

ـ لم أره من جديد. لا يتحرّك من سان مارتان ولا أجد الوقت للذهاب إليه.

ـ لكن يجب المبادرة للتحرّك بأقصى سرعة نظرًا لأهمّيّة الموضوع. قطّب حاجبيه: «آمل أن يتحلّى بالنوايا الحسنة كي يعترف هذه المرّة أنّ الوقائع دامغة».

قال هنري:

ـ بالطبع.

ومن جديد تفحّص لامبير هنري بارتياب:

ـ شخصيًّا، أما تزال مصممًا على الكلام؟

ـ شخصيًّا، نعم.

ـ وإذا اعترض العجوز؟

ـ نركن لقرار اللجنة.

تجهّم وجه لامبير وأضاف هنري:

ـ اسمع. امنحني فرصة ثمانية أيّام. في الوقت الحالي، أنا منشغل تمامًا ومضطرب. لكنّي، بعد عرض المسرحيّة الأوّل، سأذهب إليه وأناقش الموضوع معه. ونسوّي المسألة. ثم أضاف بلهجة وديّة: «أنا ذاهب إلى المسرح، هلاّ أتيت برفقتي؟».

ـ قرأت مسرحيّتك، لم تعجبني.

قال هنري ببشاشة:

ـ لك الحقّ في إبداء رأيك. لكن ربّما استمتعت بمشاهدة التمرينات!

ـ لديَّ عمل: يجب أن أنظّم ملاحظاتي.

خيَّم صمت مربك. ثم قرّر لامبير أن يتكلّم وقال بلهجة محايدة: «رأيت فولانج خلال شهر آب. إنّه منكبّ على إنشاء مجلّة أسبوعيّة أدبيّة كبيرة ويقترح عليَّ أن أشغل فيها منصب رئيس التحرير».

قال هنري:

ـ سمعتهم يتحدّثون عن المشروع *Les Beaux Jours*، هذا هو اسمها أليس كذلك؟ أعتقد أنّه لا يجرؤ على الاضطلاع علانيّة بإدارة التحرير.

ـ تقصد أنّه يريد استخدامي لأجل مصالحه؟ في الواقع، تمنّى عليَّ أن ندير المجلّة سويّة. هذا لا يقلل من أهمّيّة اقتراحه.

قال هنري بجفاف:

ـ لكن، لا يمكنك العمل في «*L'Espoir*» وفي مجلّة يمينيّة الاتّجاه في آن معًا!

ـ لكنّ الأمر متعلق بمجلّة أدبيّة بحتة.

ـ هذا ما يقال دومًا. لكنّ الأشخاص الذين يدّعون أنّهم غير مسّيسين رجعيّون حتمًا. هزَّ هنري كتفيه: «وأخيرًا كيف تتوقّع أن توفّق بين أفكارنا وأفكار فولانج؟».

ـ لا أجد نفسي بعيدًا عنه. وغالبًا ما قلت لك إنّي أشاطره ترفّعه عن الشؤون السياسيّة.

ـ ألا تفهم أنّ هذا الاحتقار هو بالنسبة لفولانج موقف سياسيّ أيضًا؟ الموقف السياسيّ الوحيد الذي يقدر على اتّخاذه حاليًّا.

توقّف هنري عن الكلام. بدا لامبير وكأنّه متصلب في موقفه. لا شكّ أنّ فولانج عرف كيف يمتدحه أو كيف يدفعه إلى المزج بين الخير والشرّ بطريقة يستطيع معها تبرئة والده والتنعّم بثروته الطائلة أيضًا. فكّر هنري: «يجب أن أنظّم وقتي بشكل يتيح لي أن

أراه غالبًا وأتحدّث إليه». لا يملك الوقت حاليًا. قال للامبير وهو يشدّ على يده: «سنتكلّم عن الموضوع بالتفصيل لاحقًا».

آلمه بعض الشيء أن يتحدّث لامبير بجفاف عن مسرحيّته. لا شكّ أنَّ لامبير كان منزعجًا من العودة إلى الماضي بسبب وفاة والده. لكن لماذا هذه العدائيّة؟ «يا للأسف». كان بودّه أن يشاهد أحدٌ من خارج إحدى التجارب الأخيرة للمسرحيّة ويقول له رأيه فيها. شعر بنفسه تائهًا. ساليف وجوزيت لا يتوقّفان عن النحيب. ولوسي بلوم تأبى أن يتمزّق ثوب جوزيت، وفيرنون يُصرّ على تقديم عشاء بعد العرض الأوّل. عبثًا حاول هنري الاعتراض والتململ. لا أحد يصغي لكلمة ممّا يقوله. تولّد لديه الانطباع بأنّه في مواجهة كارثة: «لكن، وبعد كل حساب، المسرحيّة إمّا ستنجح وإمّا ستفشل. ليس الأمر بالخطير»، هكذا حاول أن يقنع نفسه، لكن، لو أنّ باستطاعته تقبّل مثل هذا الإخفاق! فجوزيت تحتاج إلى إحراز بعض النجاح. قرَّر الاتّصال بآن ودوبروي اللذين وصلا للتوّ إلى باريس: تُرى هل بإمكانهما الحضور غدًا إلى المسرح؟ سيجري عرض المسرحيّة بالكامل خلال هذا التمرين وكان قلقًا. أراد معرفة رأيهما.

قالت آن:

ـ بالطبع سنحضر لأنّنا معنيّون بالأمر إلى حدّ بعيد. وهذا يرغم روبير على أن يستريح قليلاً: فهو يعمل كالمجنون.

خشي هنري أن يتطرّق دوبروي إلى قضيّة المعتقلات. لكن قد لا يكون متسرّعًا لاتّخاذ قرارات: لأنّه لم ينبس بكلمة. عندما بدأ

التمرين، شعر هنري بالتهيّب على أيّ حال، يزعجه أصلاً أن يباغت أحد القرّاء منصرفًا إلى قراءة إحدى رواياته. والآن، جالسًا بالقرب من آن وروبير وهما يشاهدان مسرحيّته، شعر بأنّ في الموقف فجورًا. بدت آن متأثّرة وبدا دوبروي مهتمًّا: لكن، أيّ شيء لا يثير اهتمامه؟ لم يجرؤ هنري على مساءلته بشأن ما يشاهده. رنّت الجملة الأخيرة من المسرحيّة وسط صمت جليديّ. عندئذٍ التفت دوبروي ناحية هنري وقال بحرارة:

ــ بإمكانك أن تطمئنّ! المسرحيّة معروضة أجمل منها مقروءةً. سبق وقلت لك: إنّها أفضل ما كتبته.

قالت آن باندفاع:

ــ نعم! بالطبع!

وواصلا مديحهما المتحمّس. قالا بالضبط الكلمات التي كان هنري راغبًا في سماعها. أمتعه هذا وأخافه بعض الشيء. خلال هذه الأسابيع الثلاثة فعل كل ما بوسعه لكي تتوفّر للمسرحيّة كل حظوظ النجاح. لكنّه لم يشأ التساؤل عن قيمتها وعن نجاحها متجنّبًا الإفصاح عن مشاعر الأمل والخوف معًا. الآن، أحسّ أنّ حذره يتلاشى. «أفضل ما كتبه»... هل المسرحيّة جيّدة فعلاً؟ هل سيجدها الجمهور كذلك؟ راح قلبه يخفق بسرعة كبيرة عشيّة العرض الأوّل، فيما كان يراقب القاعة محتجبًا خلف إحدى الدعامات. سمع اللغط الصاخب الآتي من الصالة غير المرئيّة. كلّ هذا بطلان وسراب: ها إنّه لسنوات وهو يأنف من الزيف الاجتماعيّ. لكنّه لم ينسَ أحلام الشباب بالمجد. لقد آمن به وعاهد

نفسه على أن يضمّه إلى صدره، كمن يعانق محبوبته. من الصعب القبض على المجد، فهو لا يملك وجهًا. فكّر: «لكن، على الأقلّ تسمع دمدمته». ذات مرّة، سمعها. صعد إلى المنصّة، ونزل عنها وهو يتأبّط مجموعة من الكتب واسمه يتردّد على الألسنة وسط الهتاف والتصفيق. ربَّما سيتذوّق من جديد طعم هذا التألّق الطفولي. لا يمكننا أن نكون متواضعين دومًا. لا يمكننا أن نكون مكابرين دومًا، ونصمّ آذاننا عن ملاحظات الغير. ما دمنا نمضي أفضل أيّامنا محاولين التواصل مع الآخرين فهذا يعني أنّ للآخرين قيمة، وأنّ اعتراف الآخرين بنجاحنا أمر جوهريّ. ما أحوجنا إلى لحظات سعيدة يحتضن فيها الحاضر الماضي وينتصر على المستقبل. توقف هنري عن اجترار أفكاره. دقت الضربات الثلاث معلنة ابتداء المسرحية. رُفع الستار وانكشفت الحلبة عن مغارة قاتمة يجلس فيها أناس صامتون وأعينهم محدّقة في الفراغ. ما من صلة كبيرة بين هذا الحضور الجامد في أوّل المسرحيّة ومعرض الوحوش الذي ملأ القاعة في نصف الساعة الأخيرة. ما يدفع للتساؤل: من أين جاؤوا؟ لا يبدو عليهم أنّهم حقيقيّون كلّيًا. أمّا الحقيقة فكانت هذه القرية المحروقة والشمس والصرخات وأصوات الألمان، والخوف. عطس أحدهم في القاعة وعندئذٍ تنبّه هنري إلى أنَّ المشاهدين كانوا أيضًا حقيقيّين: آن وروبير، دوبروي وبول، ولوسي بلوم ولامبير وفولانج، وكثيرون آخرون ممّن يعرفهم وممّن لا يعرفهم. ماذا جاؤوا يفعلون هنا بالضبط؟ تذكَّر غسقًا أحمر وشمسًا ونبيذًا وذكريات دامية. أراد انتزاع الذكرى من شهر آب

ذاك، انتزاعها من الزمن، وزرعها في الأحلام لتنبت منها قصّة وأفكار تجسّدها الكلمات. تمنّى أن تصبح الكلمات والأفكار والقصّة حيّة. هل جاء هؤلاء البُكم المجتمعون هنا ليعطوها حياة؟ انفجر وابل الرشّاشات وعبرت جوزيت المسرح المقفر في ثوبها الرائع من توقيع أماريليس، ثم انهارت فوق الحلبة فيما تصاعدت من الكواليس صرخات وأوامر جشّة. كذلك صرخ أحدهم في الصالة؛ امرأة تزيّن رأسها قبّعة بعصافير صفراء غادرت الكنبة حيث تجلس بصخب وصاحت: «يكفي لم نعد نريد مثل هذه الفضائح!». وسط الصفير والتصفيق، رمقت جوزيت هنري بنظرة جزعة. فابتسم لها بهدوء. عاودت الكلام مجدّدًا. ابتسم لها فيما ودّ لو أنّه يستطيع القفز إلى الحلبة ويهمس لجوزيت كلمات جديدة، كلمات مقنعة، مثيرة للاضطراب. عليه فقط أن يمدّ يده ليلمس ذراعها لكنّ المسافة التي تفصله عن المسرح بعيدة وتقصيه من هذا العالم الذي تشتبك فيه لحظات الدراما بطريقة لا ترحم. عندئذٍ، أدرك هنري لماذا استُدعي كل هؤلاء الناس: لينطلق على لسانهم الحكم الأخير. لا يتعلّق الأمر بالمجد بل بمحاكمة. يعرف جيّدًا هذه الجمل التي اختارها بعناية فائقة في صمت غرفته الهادئ: لكنّها في هذه الليلة لها طعم الجريمة. مذنب. مذنب. مذنب. أحسّ نفسه وحيدًا وكأنّه في مقصورة محكمة الجنايات يستمع في صمت إلى محاميه. ترافع على أساس الاعتراف بالجريمة، وكل ما يطلبه هو تسامح هيئة المحلّفين. عندئذٍ صرخ أحدهم قائلاً «هذا معيب»، ولم يستطع أن ينبس بكلمة ليدافع عن نفسه. وعندما أُسدل الستار وسط التصفيق

الذي تخلله بعض الصفير، لاحظ أنّ راحتيه كانتا رطبتين فترك الحلبة وذهب ليحتبس في مكتب فيرنون، وبعد بضع دقائق فُتح الباب.

قالت بول:

ـ قيل لي إنّك لا تريد رؤية أحد. لكنّي أفترض أنّني لست أيًّا كان.

شعر أنّ هناك وقاحة معاندة في صوتها. كانت ترتدي فستانًا أسود وهذه الليلة أيضًا، جعلتها أناقتها الزاهدة تبدو وكأنّها غريبة الأطوار. ثم أضافت: «عليك أن تكون مسرورًا. مسرحيّة جميلة».

قال:

ـ أجل، تولّد لديّ هذا الانطباع أيضًا.

ـ أتعرف، المرأة التي أبدت اعتراضها سويسريّة أمضت طيلة فترة الحرب في جنيف. حدثت أيضًا مشاجرة عنيفة قليلاً في الصفوف الأخيرة من الأوركسترا. وتظاهرت أوغيت فولانج بالإغماء.

ابتسم هنري:

ـ أوغيت أغمي عليها؟

ـ بكثير من الأناقة. لكن كان ينبغي عليك أن تراه هو. يا للويس المسكين! اشتمّ رائحة النجاح فامتقع لونه.

قال هنري:

ـ أيّ انتصار مضحك! سترين في القسم الثاني، جميع الناس الذين صفّقوا سيبدأون بالتصفير.

قالت بول متغطرسة:

ـ نِعَم الأمر! ثم أضافت: آن وروبير دوبروي مبتهجان!

بالطبع، جميع الأصدقاء يبتهجون لهذه الفضيحة، للمثقّفين تبدو هذه الفضيحة تافهة بمجرّد أنّ أحدًا غيرهم أثارها. هنري وحده كان هدفًا لهذه الأحقاد وصيحات الغضب التي افتعلها لتوّه. أناس أُحرقوا أحياءً داخل كنيسة وجوزيت خانت زوجها الذي أحبّته حبًّا جمًّا.

كان انفعال الجمهور وضغينته يجعلان من هذه الجرائم الوهميّة حقيقة وكان هو المجرم. ومن جديد، استند إلى الدعامة في الظلمة وتفحّص قضاته. فكّر منذهلاً: «هذا ما صنعته يداي! هذا أنا!» سنة مرّت مذ سحقت شمس آب القرية المحترقة. تلك القرية بصلبانها التي نبتت فوق القبور وأمطروها بالخطب الرنّانة. في الهواء اصطفقت الأعلام الثلاثيّة الألوان، والأرامل الملتحفات بالسواد تبخترن حاملات باقات الأزهار بين أذرعتهنّ. ومن جديد، انبجست همهمات معادية وسط الليل.

فكّر: «لا أبالي بالمتاجرين بالجثث، والآن سيتّهمونني بإهانة الأموات». الآن، يداه جافّتان لكنّه أحسّ في حلقه بطعم الكبريت. تساءل مشمئزًّا: «أتُراني سريع الانجراح إلى هذا الحدّ؟». الآخرون، عندما يصافحونهم في الكواليس يُبدون طلاقة في الوجوه ولامبالاة في تصرّفاتهم... لكن هل كانوا في سرّهم يعرفون هذه

الأهوال الصبيانيّة؟ كيف السبيل إلى المقارنة بيني وبينهم؟ الآخرون يعبّرون عن آرائهم بكياسة ولا يتردّدون في أن يقدّموا للناس كاتالوغًا مفصّلاً بعيوبهم وبالمقاسات الدقيقة لعضوهم التناسليّ، لكنّ طموحاتهم وخيباتهم، فإنّ أيّ كاتب لم يبلغ به الزهو أو التواضع لكي يكشفها في وضح النهار. فكّر هنري: «سيكون صدقنا بمثابة الفضيحة كصدق الأطفال. نكذب مثلهم، ومثلهم يخشى كلٌّ منّا أن يكون وحشًا في سرّه». أسدل الستار للمرّة الثانية، واتّخذ هنري مظهرًا طلقًا ومتكاسلاً وهو يصافح الفضوليّين. صفٌّ طويل كصفوف المؤمنين الذين يتناولون القربان المقدّس: لكن أيتعلّق الأمر بزواج أم بجنازة؟

صرخت لوسي بلوم وهي تهرع باتّجاهه لدى دخوله المطعم الكبير حيث يتبادل التعليقات حشد من النساء المعطّرات.

ـ نجاح باهر!

وألقت على ذراع هنري يدها المرتدية قفّازًا وفوق رأسها يتراقص عصفور أسود كبير حزين: «اعترفْ أنّ جوزيت مميّزة عندما تطلّ في هذا الثوب الأحمر!».

ـ غدًا مساءً، سأمرّغ هذا الثوب في الغبار وأعمل فيه المقصّ في غير موضع!

قالت لوسي بجفاف:

ـ لا يحقّ لك فهو «ماركة أماريليس الشهيرة». عمومًا، لقد وجده الجميع جميلاً.

قال هنري:

ـ بل وجدوا جوزيت جميلة!

وابتسم لجوزيت التي ابتسمت له ودلائل الشكوى بادية على وجهها. وإذ ذاك بهرهما بريق آلة تصوير. وإذ به يقوم بحركة ليخفي وجهه لكنّ يد لوسي أمسكت ذراعه بقوّة.

ـ كن لطيفًا. جوزيت تحتاج للدعاية.

وسطع بريق آخر ومن ثم آخر. راقبت بول المشهد بهيئة كاهنة مهانة. فكّر بغضب: «يا للعجرفة!». لم يكن يعرف ما إذا كان خسر دعواه أم ربحها. فالمجد المتعقل والواثق الذي يسم توزيع الجوائز، يجب أن يتحلّى المرء بقلب كقلوب الأطفال ليعرفه. لكنّه شعر فجأة بالرغبة في أن يكون فرحًا. شيء ما يحدث له للتوّ. شيء من هذه الأشياء التي حلم بها بشكل غامض قبل خمس عشرة سنة عندما كان يهجّئ الملصقات المتوهّجة فوق الأعمدة: والآن، عُرضت أول مسرحيّة له ولاقت ترحيبًا من الجمهور. ابتسم من بعيد لآن وروبير دوبروي واتّجه نحوهما. لكن، ما كاد يخطو بضع خطوات حتى أوقفه لويس معترضًا طريقه. كان يمسك في يده كأس مارتيني وكانت نظرته معتكرة قليلاً.

ـ حسنًا، هذا ما ندعوه نجاحًا باريسيًّا كبيرًا!

قال هنري:

ـ كيف حال أوغيت، قالوا لي إنّ عارض سوء انتابها أثناء العرض. هل هذا صحيح؟

قال لويس:

ـ آه، هذا لأنك تُخضع أعصاب المشاهدين لامتحان عسير! اسمع، أنا لست من هؤلاء الذين استهجنوا المسرحيّة. إذ كيف لنا أن نرفض مسبقًا استخدام وسائل الميلودراما، أو، كما يقول منتقدوك، أساليب الـ Grand Guignol.[1] ـ لكن أوغيت امرأة حسّاسة ولم تحتمل الصدمة. غادرت بعد انتهاء القسم الأول.

قال هنري:

ـ آسف، لم يكن يجدر بك أن تظنّ أنك مرغم على البقاء حتّى النهاية.

قال لويس بابتسامة عريضة!

ـ حرصت على تهنئتك. فأنا صديقك الأقدم بعد كل حساب. نظر من حوله «بالطبع، أنا الوحيد هنا الذي عرف التلميذ الصغير في ليسيه تول، الذي عمل بكل كدّ وجدّ. إن كان من أحدٍ يستحقّ النجاح فهو أنت».

كبح هنري أجوبة عدّة ليبادره بها. لا، ليس قادرًا على الردّ على نذالة لويس بنذالة مشابهة. من القذارة أن نتخيّل ماذا يدور في هذه اللحظة بالذات في هذا الرأس الحاسد. يجب الاحتراس من إثارة غيرته، فقطع الحوار قائلاً وهو يبتعد وعلى وجهه ابتسامة خفيفة:

---

(١) Grand – Guignol: مسرح مأساويّ ظهر في باريس عام ١٨٩٧، متخصّص في الميلودراما الحافلة بالمواقف المرعبة والأحداث المروّعة.

ـ شكرًا لأنّك أتيت. قدّم خالص اعتذاري لأوغيت.

أجل، ذكريات الشباب والطفولة التي عبرت خاطره بشكل خاطف ذلك المساء. هذه الذكريات يتقاسمها معه لويس وحده. وللحال أحسَّ هنري بالاشمئزاز: إنّ آفاق الماضي موصدة بوجهه. غالبًا ما شعر أنّ كل تلك السنوات التي مرّت بقيت تحت تصرّفه سليمة لم تمسّ مثل كتاب أغلق للتوّ، ويمكن فتحه من جديد. عاهد نفسه على أن يستعيد الصلة بين مختلف لحظات حياته. لكن، لسببٍ أو لآخر، أجهضت المحاولة دومًا. لكن، في جميع الأحوال، لن يحاول أن يستجمع حياته كلها الآن لأنّ الوقت غير مناسب. هناك الكثير من الأيدي التي يجب مصافحتها. وإزاء هجمة المدائح الملتبسة، شعر أنّه ضائع.

قال دوبروي:

ـ حسنًا، نجحت. نصف الناس غاضبون والنصف الآخر معجبون. لكن يجري الحديث عن ثلاثمئة عرض للمسرحيّة!

قال هنري:

ـ كانت جوزيت جيّدة، أليس كذلك؟

فعاجلت آن بالإجابة:

ـ جيّدة جدًّا وجميلة جدًّا. ثم أضافت دون ضغينة: «أمّا الأمّ، فيا لها من متوحّشة. سمعتها منذ قليل تضحك برفقة فيرنون... لا تملك شيئًا من الخفر».

ـ وماذا كانت تقول؟

ـ سأخبرك لاحقًا. ثم أجالت نظرها في من حولها: «أصدقاؤها مرعبون».

قال دوبروي:

ـ ليسوا أصدقاءها ولا أصدقاء أحد. إنّه المجتمع الباريسيّ الراقي. وليس هناك ما هو أسوأ. ابتسم ابتسامة اعتذار ثم أضاف: «لنولِّ بالفرار!».

قالت آن:

ـ أنا سابقى قليلاً لأرى بول.

صافح دوبروي هنري: «هل ستمرّ بالمنزل غدًا أو بعد غد؟».

ـ نعم سامرّ. يجب أن نأخذ قرارات. الأمر ملحّ.

ـ اتّصل.

اتّجه دوبروي نحو الباب بسرعة. بدا سعيدًا بالرحيل ولم يُخفِ ذلك. من الواضح أنّ آن بقيت بدافع التهذيب. بدا عليها الاستياء: ماذا قالت لوسي بالضبط؟ «لهذا السبب لم يأتِ لاشوم وفنسان على العشاء. جميعهم يلومونني على تورّطي مع هؤلاء الناس».

نظر خلسة إلى بول. بدت جامدة كتمثال نُحت على ملامحه العتب، فيما تابع إلقاء التحيّة على المدعوّين الأنيقين الذين كان فيرنون يعرّفه بهم. تساءل: «هل أنا على خطأ؟ أم أنّ الأشياء تغيّرت؟» ولّى زمن كنّا نعرف أصدقاءنا وأعداءنا ونحبّهم لحدّ التضحية بحياتنا ونكرههم حتى الموت. أمّا الآن فكل الصداقات

تضمر التحقّظ والضغينة. انكشف الحقد. ولم يعد أحد مستعدًّا، لا للتضحية بحياته ولا لقتل عدوّه.

قال لونوار بلهجة متعالية:

ــ مسرحيّة جديرة بالاهتمام. مسرحيّة مركّبة. تردّد ثم قال: «لو أنّك فقط تريّثت قبل أن تعرضها».

قال جوليان:

ــ يتريّث؟ لأيّ حين؟ بعد إجراء الاستفتاء؟

ــ بالضبط. ليس الوقت ملائمًا لإبراز مكامن الضعف التي من شأنها التسبّب في انقسام اليسار...

ــ تبًّا لهم! لحسن الحظ أنّ بيرون قرّر أخيرًا العصيان والتمرّد؟ الامتثاليّة لا توافقه حتى لو كانت مصطبغة بالأحمر. ضحك: «سينتقدك الشيوعيّون بعنف لدرجة أنّ الصلة بينك وبينهم ستنقطع».

قال لونوار بحدّة يشوبها القلق:

ــ لا أعتقد أنَّ بيرون من الأشخاص الذين يبيّتون الحقد والضغينة. الله يعلم كم وُجهت، على الصعيد الشخصي، بالجفاء والرفض من قبل الحزب الشيوعي. لكن، لن أدع لذلك أن يثبّط عزيمتي: يمكنهم أن يشتموني وأن يهجوني لكنّهم لن ينجحوا في دفعي إلى مناهضة الشيوعيّة.

قال جوليان وهو يقهقه:

ـ وبكلام آخر ترفسني على مؤخّرتي من الجهة اليمنى فأدير الجهة اليسرى.

احمرّ لونوار تمامًا:

ـ الفوضويّة هي أيضًا امتثاليّة. يومًا ستكتب في «الفيغارو». قال ذلك وابتعد برصانة.

أسند جوليان يده إلى كتف هنري: «هل تعرف أنّ مسرحيّتك ليست سيّئة. وكان بإمكانك أن تجعلها أكثر مرحًا لو جعلت منها كوميديا هزليّة. ثم تفرّس في الحاضرين بنظرات غامضة: «ليتك تعمد إلى كتابة تمثيليّة هزليّة عن كل هذا المجتمع الراقي، وسترى أنّها ستشهد إقبالاً منقطع النظير لها من قبل الجمهور».

قال هنري غاضبًا:

ـ لماذا لا تكتبها أنت!

ثم ابتسم لجوزيت التي كانت تعرض كتفيها الذهبيّتين وسط حلقة المعجبين. إذ تقدّم ناحيتها، اصطدم بالنظرة المذعورة في عيني ماري آنج. كان لويس قد دفعها لصق البوفيه. وراح يتحدّث إليها وهو يحدّق في عينيها مواجهة، وفي يده كأس المارتيني. كان الرجال يقرّون للويس بقدرته على الإغواء الثقافي لكنّه لم يحسن قطّ إغواء النساء. في الابتسامة التي كان يواجه بها ماري آنج نفاد صبر وغليل لا يرتوي. فنشعر أنّه مستعدّ لتكرار ابتسامته حتى يصل إلى مبتغاه. لكأنّه يقول: «أريدك. لكن عجّلي في الاستسلام لأنّه ليس لديّ وقت أضيّعه».

على بضع خطوات منهما، كان لامبير يجترّ أفكاره، متجهّم الوجه. توقف هنري قربه وقال له مبتسمًا:

ـ ما هذه الضوضاء الماجنة! كان يبحث في نظراته عن تواطؤ ما فلم يجده.

قال لامبير:

ـ أجل، عرض مضحك! نصف الناس الموجودين هنا لا يريدون إلاّ ذبح النصف الآخر. فيما اخترت أن تراعي الجميع.

ـ هل تسمّي ذلك مراعاة؟ أثرْتُ استياء الجميع!

ـ الجميع؟ أنت تبالغ. لا أهمّيّة تذكر لمثل هذه الفضائح. إنّها فقط نوع من الترويج الإعلامي.

قال هنري بلهجة مصالحة:

ـ أعرف أنّ هذه المسرحيّة لم تعجبك. لكن، ليس هذا سببًا لتكون سيّئ المزاج.

قال لامبير:

ـ آه! لكنّها خطيرة!

ـ ما الخطير فيها؟ حتى لو افترضت أنّها فاشلة فهي ليست بهذه الخطورة!

قال لامبير بلهجة متحفّظة:

ـ الخطير في الأمر أنّك انحدرت إلى هذا المستوى الرخيص من النجاح من خلال الموضوع الذي تناولته والأساليب التي

استخدمتها. سعيت إلى إرضاء غرائز الجمهور، وأكثرها دناءة. لنا الحقّ في أن نتوقّع شيئًا آخر منك.

قال هنري:

ـ كلامكم يدعو إلى الدهشة حقًّا! جميعكم هنا تتوقّعون منّي أشياء وأشياء: أن أدخل إلى الحزب الشيوعي، أن أناهضه، أن أكون أقلّ جدّيّة، أن أكون أكثر جدّيّة، أن أتخلّى عن السياسة، أن أتكرّس لها جسدًا وروحًا. وكلّكم خائبون، تلومونني وتهزّون برؤوسكم أسفًا.

ـ وهل تريد أن نمتنع عن توجيه أيّ انتقاد لك؟

قال هنري:

ـ أريد أن تحكم على ما صنعته وليس على ما لم أصنعه. غريب: عندما نكون مبتدئين، نُستقبل بعين الرضى، ويظهر لك القرّاء الامتنان لما قدّمته لهم من إيجابي. وفيما بعد، تطالبونني بديون ولا رصيد لأحد منكم.

قال لامبير بنبرة يشوبها بعض الودّ:

ـ لا تقلق. سيكون النقد ممتازًا ولا شكّ.

هزّ هنري كتفيه مقتربًا من لويس الذي راح يزعق في وجه ماري آنج وآن. بدا ثملاً تمامًا. لا يتحمّل الكحول ويدفع دومًا ضريبة زهده.

قال لويس وهو يشير إلى ماري آنج:

ـ انظر إليها. تضاجع الجميع. تطلي وجهها بالمساحيق وتحشو نهديها وتتحرّش بالرجال لتثير شهوتهم. وفجأة، تريد أن تلعب دور العذارى القدّيسات.

قالت ماري – آنج بلهجة شاكية:

ـ لكن ماذا تحسب! لديَّ الحقّ بأن أضاجع من أشاء.

صرخ لويس:

ـ الحقّ؟ أيّ حقّ؟ من أعطاها هذا الحقّ؟ إنّها عديمة التفكير والإحساس. بالكاد تختلج ومع ذلك تطالب بحقوق! هذه هي الديموقراطيّة! شيء جميل!...

قالت آن:

ـ والحقّ بإزعاج الجميع؟ من الذي أعطاك إيّاه؟ انظروا إلى هذا الشخص الذي يحسب نفسه نيتشه لأنّه يزعق في وجه امرأة!

قال لويس:

ـ على المرأة أن تسجد للرجل! وكأنّك تتحدّثين عن إلهة! جميعهنّ يعتبرن أنفسهنّ إلهات ومع ذلك فهنّ يتبوّلن ويتغوّطن كما الجميع..

قال هنري:

ـ احتسيت الكثير من الكحول وبتّ لا تُحتمل. الأفضل أن تذهب للنوم.

قال لويس وقد ثقل لسانه:

ـ بطبيعة الحال تدافع عنهنّ! النساء يشكّلن جزءًا من نزعتك الإنسانيّة. تضاجعهنّ كما يضاجعهنّ جميع الرجال. تطرحهنّ على ظهورهنّ وتعتليهنّ لكنّك تحترمهنّ. فهنّ يرغبن أن يكنّ محترمات، هذا هو الأمر أليس كذلك؟ احترمني وأفتح لك فخذيّ.

قال هنري:

ـ وأن تكون نذلاً، هل هذا يشكّل أيضًا جزءًا من روحانيّتك؟ إذا لم تقفل فمك فإنّي سأعمد إلى إقصائك من هذا المكان...

تجهّم وجه لويس وقال فيما هو يبتعد:

ـ تعرف أنّني شربت وتستغلّ الوضع...

سألت ماري – آنج:

ـ هل هو دائمًا هكذا؟

أجابت آن:

ـ دومًا. إلاّ أنّه نادرًا ما يخلع القناع. هذا المساء جُنَّ من الغيرة.

سأل هنري:

ـ هل ترغبين في كأس فتهدّئي من روعك.

ـ أرغب فعلاً. لم أجرؤ على الشرب.

قدّم هنري كأسًا إلى ماري – آنج. لمح جوزيت واقفة قبالة بول التي راحت تتحدّث إليها بطلاقة لسان: كانت عيناها تستنجدان به فجاء وانتصب واقفًا بين المرأتين.

ـ تبدوان جدّيّتين للغاية. عمَّ تتحدثّان؟

قالت بول بشيء من التشنّج:

ـ حديث نسائيّ خاصّ!

قالت جوزيت منتحبة:

ـ تقول إنّها لا تكرهني. لم أفكّر قطّ في الموضوع.

قال هنري:

ـ كفى بول! لا تعظّمي الأمور.

فأجابت بتعالٍ:

ـ لا أعظّم الأمر. أردت فقط أن أشرح موقفي بوضوح! أكره المواقف الملتبسة.

ـ ليس هناك أيّ التباس.

ـ نعمَ الأمر.

ثم مشت باتّجاه الباب بخطوات متكاسلة.

قالت جوزيت:

ـ إنّها تخيفني. نظرت إليك معتمدة عليك لكي تخلّصني منها. لكنّك كنت تتغزّل بهذه السمراء القصيرة القامة...

ـ أنا كنت أتغزّل بماري ـ آنج؟ أنا؟ لكن يا حبيبتي قارني بينك وبينها.

قالت جوزيت بصوتٍ مرتعش:

ــ للرجال أذواق غريبة، هذه العجوز السمينة كانت تقول لي إنك ملكها إلى الأبد فيما أنت تلهو مع فتاة ساقاها مقوّستان.

ــ جوزيت، يا حوريّتي الصغيرة! تعرفين جيّدًا أنّني لا أحبّ إلاّك.

قالت:

ــ وما أدارني؟ هل نعرف أبدًا؟ ستحبّ من بعدي امرأة أخرى. ثم قالت وهي تنظر حواليها: « ربّما هي هنا...».

أجابها بلطف:

ــ لكن أنا من يجدر به أن يشتكي، الجميع تغزّلوا بك كثيرًا هذا المساء!

قالت مرتعشة:

ــ أتظنّ أنّني أحبّ أن يتغزّل الرجال بي؟

ــ لا تكوني حزينة. أدّيت الدور بشكل جيّد. أقسم لك.

قالت بأسى:

ــ لم أكن سيّئة جدًّا بالنسبة لفتاة جميلة. أحيانًا أحبّ أن أكون قبيحة.

ابتسم:

ــ عسى السماء تصمّ أذنيها عن مطلبك!

ــ آه، لا تخف، السماء تصمّ أذنيها.

قال وهو يشير إلى الحضور:

ـ أؤكّد لك أنك فأجأتهم.

ـ فاجأت هؤلاء! هؤلاء لا شيء يفاجئهم، إنّهم في منتهى الخبث.

قال:

ـ تعالي، لنعد، عليك أن ترتاحي.

ـ هل تريد العودة الآن؟

ـ وأنت لا؟

ـ آه أنا، نعم، أنا متعبة. انتظرني خمس دقائق.

شيّعها هنري بنظراته فيما كانت تودّعهم مداورة. وفكّر في سرّه: «هذا صحيح، لا شيء يفاجئهم. لا يمكن التأثير فيهم ولا إثارة سخطهم. ما يدور في رؤوسهم لا قيمة له ككلماتهم». ما داموا ضائعين في مجاهل المستقبل أو في ظلمة القاعة، بوسعهم الإيحاء بأنّهم متفاجئون. لكن، ما إن نراهم وجهًا لوجه حتى نشعر أن لا شيء يُؤمل منهم أو يُخشى من جانبهم. أجل، هذا هو الأمر الذي يبعث على الخيبة أكثر من أيّ شيء آخر: ليس لأنَّ الحكم عليه غير حاسم بل لأنّ من أصدره لا قيمة لرأيه. وأخيرًا، لا شيء، ممّا حدث الليلة اتّسم بالأهمّيّة. حلمه بالمجد حين كان فتى شابًّا لم يكن له أيّ معنى. «ليس الجمهور الذي حضر المسرحيّة هو الجمهور الذي أتوجّه إليه»، هكذا راودته نفسه. وإن يكن، سيظلّ هناك في القاعة بضعة رجال وبضع نساء يستحقون عناء التحدّث إليهم.

لكنّهم يبقون مغمورين. لن تلتقي بأشقاء نفسك الذين يعرفونك على حقيقتك لأنّ هؤلاء لا وجود لهم، ولا سيّما في هذا المجتمع بالذات.

قال وهو يركب سيّارته الصغيرة بالقرب من جوزيت:

ـ لا تحزني.

لم تجب. أسندت رأسها إلى مسند المقعد وأغمضت عينيها وقد بدا عليها الإنهاك. هل صحيح أنّ الجمهور استقبلها بتحفّظ. هذا ما يتبادر إلى الظنّ. كان يودّ فعلاً أن تشعر أنّها نجحت، ولو لأمسية واحدة فقط. كانا يسيران بصمت في الشارع الصغير. تخطّيا امرأة تمشي بخطوات مسرعة. تعرّف هنري إلى آن فأبطأ سرعته.

ـ اصعدي لأقلّك...

ـ لا، شكرًا. أرغب في السير على قدميّ.

توجّهت إليه بإشارة ودودة. ضغط على دوّاسة البنزين. هل رأى دموعًا في عينيها؟ «لكن لماذا؟ ربّما ليس هناك من سبب وربّما لكلّ الأسباب مجتمعة». أحسّ أنّه هو أيضًا تعبٌ من هذه السهرة ومن الآخرين ومن نفسه. «ليس هذا ما أردته»، قال وقد خامره شعور مفاجئ بالخيبة، دون أن يعرف بما كان يفكّر تحديدًا، أبدموع آن أم بوجه لامبير الكئيب، أم بخيبة جوزيت أم بالأصدقاء والأعداء والغائبين، أم بهذا المساء، أم بهاتين السنتين الأخيرتين من حياته، أم بحياته برمّتها؟

قال هنري في نفسه: «ها بدأ الهجوم!».

عندما تصدر الرواية وتُطرح أمام النقاد تضحي كالفريسة المرميّة أمام الكلاب التي يتهافتون على نهشها وتمزيقها إربًا إربًا، لينال كلٌّ منهم نصيبه منها... أمّا إذا تعلّق الأمر بمسرحيّة، فعندئذٍ نتلقى دفعة واحدة في وجهنا كرة الوحل هذه حيث تختلط الأزهار والبصقات. كان فيرنون سعيدًا. برأيه جميع المقالات، بما فيها الجارحة، تساهم في إنجاح المسرحيّة. لكنّ هنري نظر بنفور إلى قصاصات الصحف المبسوطة على مكتبه، نفور يقارب الخجل. تذكّر عبارة سابقة لجوزيت وفكّر: «الشهرة إهانة هي أيضًا». أن تَعرض نفسك فهذا يعني دومًا أن تسلّمها وتذلّها. يحقّ لأيّ كان أن يرفسه بضربة من قدمه أو ينعم عليه بابتسامة. تعلّم كيف يدافع عن نفسه وكانت له وسائله في الدفاع. أمّا مهاجموه فإنّه يتذكّر بدقة وجوههم: أناس مدّعون وحاقدون وفاشلون وأغبياء. أمّا الذين هنّأوه فليسوا أرفع شأنًا من الآخرين. وحده تعاطفهم يدلّ على موقفهم المتعقّل الذي من خلاله يسعون إلى الظهور بمظهر المعتدل وهذا ما يجعلنا لا نعلّق أهمّيّة على عبارات التقريظ التي أطلقوها. ما أصعب الصدق! الحقيقة هي أنّه لا الشتائم ولا المدائح قادرة على إثبات شيء ما. إنّ الشيء الجارح فيها هي أنّها كانت تحبس هنري داخل نفسه بطريقة لا ترحم. لو كانت مسرحيّته إخفاقًا محسومًا، لأمكنه أن يراها بصفتها مجرّد حادث بسيط لن يلبث أن ينساه ويسعى إلى الأفضل. لكنّه كان يتعرّف إلى نفسه فيها ويستشفّ من خلالها حدوده: «أفضل ما كتبته»... لا تزال كلمات دوبروي هذه تعذّبه. لم يكن لطيفًا ما قاله الآخرون عن أنّ كتابه الأوّل هو أفضل

كتبه. لكن مجرّد التفكير بأنّ هذه المسرحيّة التي لا يزال الجدل يُثار حولها تتفوّق على سائر كتاباته، فهذا أيضًا لم يكن مريحًا. قال ذات يوم لنادين إنّه يتفادى أن يقارن نفسه بسواه، لكنّ هناك لحظات نضطر فيها إلى إجراء هذه المقارنة، لحظات يدفعك فيها الآخرون للقيام بذلك. عندئذٍ تطرح أسئلة سخيفة على نفسك: «من أنا تحديدًا؟ وماذا أساوي؟». تقلق لأنّها أسئلة غير مجدية ومع ذلك تشعر أيضًا بأنّك جبان إن لم تطرحها على نفسك. سمع هنري بارتياح وقع أقدام فوق أرضيّة الرواق.

قال سامازيل:

ـ هل بإمكاننا الدخول؟

تبعه لوك ولامبير وسكرياسين.

ـ كنت في انتظاركم.

باستثناء لوك الذي يجرجر بهيئة ناعسة قدميه الضخمتين المصابتين بداء النقرس، بدا عليهم جميعًا أنّهم جاؤوا لمحاسبته. جلسوا حول المكتب.

قال هنري:

ـ أقرّ بأنّني لا أدرك جيّدًا مغزى هذا الاجتماع. سأذهب قريبًا إلى زيارة دوبروي...

قال سامازيل:

ـ لكنّنا جئنا بالضبط لاتّخاذ قرار قبل مقابلته. عندما تحدّثتُ إليه، أعرب عن تحفظ كبير. أنا مقتنع أنّه سيطالب بمهل جديدة. بيْدَ

أنّ بلتوف وسكرياسين يطالبان بتحرّك سريع، وأنا موافق تمامًا معهما. أريد أن يكون واضحًا أنّه في حال اعترض دوبري، ستعلن الجريدة انفصالها عن الـ *S.R.L* وتعمل، دون مساعدة الحركة، على نشر الوثائق.

قال هنري بجفاف:

ـ سواء استجاب دوبروي أو رفض، ستُرفع المسألة إلى اللّجنة بمجملها وسنأخذ برأيها.

ـ اللّجنة ستنحاز إلى جانب دوبروي.

ـ سأتبعه إذًا. على أيّ حال، لا أعرف لماذا نضيّع الوقت في النقاش ولم نعرف بعد جوابه.

قال سامازيل:

ـ لأنّ جوابه متوقّع ولا يخفى على المتبصّر. سيتّخذ من الاستفتاء والانتخابات ذريعة لكي يتنصّل.

قال هنري:

ـ سأحاول إقناعه، لكنّي لن أنشقّ عن الـ *S.R.L*.

قال سامازيل:

ـ أما تزال الـ *S.R.L* موجودة؟ منذ ثلاثة أشهر، ونشاطها معلّق.

قال سكرياسين:

ـ منذ ثلاثة أشهر والـ *S.R.L* لم تفعل شيئًا للتصدّي لهجوم الشيوعيّين. منذ ثلاثة أشهر لم تهاجم الصحافة الشيوعيّة دوبروي. ولهذا سبب وجيه يُسلّط على المسألة ضوءًا جديدًا. توقف عن الكلام ثم أردف بأسلوب مسرحي: «دوبروي انتسب إلى الحزب الشيوعي منذ أواخر حزيران».

ـ كفى كذبًا! قال هنري.

ـ لديَّ إثباتات، قال سكرياسين.

ـ أيّ إثباتات؟

ـ رأى بعضهم بأمّ أعينهم بطاقته وملفّه. ابتسم سكرياسين راضيًا: «منذ عام ١٩٤٤، يوجد في الحزب أعضاء ليسوا في الحقيقة ستالينيّين، تمامًا مثلي ومثلك. لكنّهم يبحثون فقط عن وسيلة لإعادة الاعتبار لأنفسهم. أعرف غير واحد من هذا الصنف وهم في قرارة نفوسهم لا يسعون إلاّ إثر منفعتهم الشخصيّة. دوبروي بالنسبة لي مشبوه من زمان. طرحت أسئلة عنه وخرجت بأجوبة».

قال هنري:

ـ جواسيسك إمّا مخطئون وإمّا كَذَبة. لو أنّ دوبروي أراد الانتساب إلى الحزب الشيوعي لكان انفصل عن الـ *S.R.L* وشرح الأسباب التي حدته لاتّخاذ هذا الموقف.

قال سامازيل:

ـ كان حريصًا دومًا على ألاّ تصبح الـ *S.R.L* حزبًا. بالمبدأ، يمكن لشيوعي أن ينتمي إلى الحركة. والعكس صحيح، يحقّ لعضو في الحركة الانتماء إلى الحزب الشيوعي.

قال هنري:

ـ لكنّه كان أبلغنا موقفه. الحزب الشيوعي ليس حزبًا محظورًا.

قال سكرياسين:

ـ أنت لا تعرفهم! للحزب الشيوعي مصلحة في أن يظهر بعض أعضائه بمظهر المستقلّين. والدليل هو أنّني لو لم أفتح عينيك على الحقيقة لكنت وقعت في الفخّ.

قال هنري:

ـ لا أصدّقك.

قال سكرياسين:

ـ سأسعى إلى لقاء يجمعك بأحد المخبرين. مدّ يده إلى الهاتف.

قال هنري:

ـ سأطرح السؤال على دوبروي وعليه وحده.

ـ وهل تتصوّر أنّه سيجيبك بنزاهة؟ إمّا أنّك ساذج وإمّا لديك أسبابك الخاصّة لتجنّب الحقيقة.

قال سامازيل:

ـ أعتبر أنّ هذه الواقعة الجديدة ستجعل علاقتنا بالـ *S.R.L* تهتزّ في العمق.

قال هنري:

ـ ليست هذه بواقعة.

قال لوك:

ـ ولماذا ينصاع دوبروي لهذه المناورة؟

قال سكرياسين:

ـ لأنّ الحزب الشيوعي يطلب منه ذلك، ولأنّ لديه طموحاته.

قال سامازيل:

ـ ربّما كان يظنّ لسذاجته أنّ سعادة البشريّة بين يدي ستالين.

قال سكرياسين:

ـ إنّه ثعلب قديم، يظنّ أنّ الشيوعيّين انتصروا وأنّه من الأفضل الانضمام إلى صفوفهم. وبمعنى ما هو على صواب. عليك أن تأتمر بالشهادة لكي تجيز لنفسك موقفًا نقديًّا ولا تحرّك ساكنًا لمنعهم من ارتقاء السلطة... وعندما يستلمون السلطة، سترى أنّ هذه الخفّة في الموقف ستكلّفك غاليًا.

قال هنري:

ـ لا أعير اهتمامًا لمثل هذه الاعتبارات الشخصيّة.

قال لامبير:

ـ ومعسكرات الأشغال الشاقّة، هل تعيرها الاهتمام اللازم أم لا؟

ـ وهل رفضت التحدّث عنها؟ قلت إنّي سأتطرّق للكلام عنها بالاتّفاق مع دوبروي. هذا كل شيء. وهذه كلمتي الأخيرة. لا جدوى إذًا من هذا النقاش. ثم أضاف هنري وهو يلتفت إلى سكرياسين: «من الآن حتى يومين أو ثلاثة سنُستشار اللّجنة ونبلّغك موقفها».

قال سامازيل وهو يهمّ بالنهوض:

ـ إدارة «*L'Espoir*» ستبلّغ موقفًا مختلفًا.

ـ هذا ما سنتحقّق منه.

ساروا باتجاه الباب. لكن لامبير ظلّ واقفًا أمام مكتب هنري. وقال:

ـ كان الأوجب بك أن توافق على لقاء المخبر الذي حدّثك عنه سكرياسين. دوبروي صديقك لكنّه المسؤول الرئيسيّ عن حزبك. وبذريعة ثقتك به تضحّي بالثقة التي منحك إيّاها الآخرون.

قال هنري:

ـ لكنّ كل هذه القصّة هذيان ليس أكثر!

في الواقع، لم يكن متأكّدًا من أنّها كذلك كما تعمّد الإيحاء للآخرين. إذا كان دوبروي قد قرّر في نهاية المطاف أن ينضمّ إلى الحزب الشيوعيّ، فلن يستشير هنري، بل يسلك طريقه دون أن يستشير أحدًا أو يكترث بأحد. وفي هذه النقطة بالذات، لم يكن هنري يعلّل نفسه بالأوهام. ولو أُحرج دوبروي فلن يتردّد عن

الكذب. ولكن لم يسأله عن موقفه بعد أيّ سؤال لذا، فإنّه ينقاد لمشاعره والأوجب به بالتالي أن يبدي تحفّظًا يمليه عليه ضميره.

قال لامبير بنبرة تعسة:

ــ سيبهرك ولا شكّ بأطروحاته السفسطائيّة. أمّا أنا فأرى أنّ عدم الكشف عن الحقيقة كاملة وفورًا في مثل هذه الحالة، يُعتبر جريمة. قلت لك في حزيران: إذا لم تنشر الوثائق فسأبيع حصصي من جديد، وأنت تتصرّف بها كما تريد. التحقت بالجريدة على أمل أن تتوقّف قريبًا عن أيّ تعاون مع الحزب الشيوعيّ. وإذا استمرّت على هذا المنوال فما عليّ إلاّ الرحيل.

ــ لم أتهاون قطّ مع الحزب الشيوعيّ.

ــ لكن هذا ما أسمّيه تعاونًا، لو تعلّق الأمر بإسبانيا أو اليونان أو فلسطين أو الهند الصينيّة لعبّرت عن رأيك منذ اليوم الأوّل. لكن، ألا تفطن لما يحدث! أن يُفصل رجل عن عائلته وحياته دون أيّ محاكمة ويُرمى في السجن، ثم يُجبر على العمل حتّى تنهار قواه؛ بالكاد يقدّمون له طعامًا، وإذا أصابه مرض يُترك ليموت جوعًا. هل تقبل بهذا الأمر؟ جميع الناس والعمّال والمسؤولين يدركون تمامًا أنّ هذا قد يحصل لهم في أيّ دقيقة، يعيشون وشبح هذا الرعب يحوم فوق رؤوسهم! هل تقبل بهذا؟

قال هنري:

ــ لا، طبعًا.

ـ إذًا سارع واعترض. في ظلّ الاحتلال لم تكن لطيفًا مع هؤلاء الذين لم يعترضوا.

قال هنري بنفاد صبر:

ـ سأعترض.

ـ قلت إنّك ستتبع دوبروي ودوبروي يعارض هذه الحملة.

ـ أنت مخطئ. لن يعارض.

ـ لنفرض أنّني غير مخطئ...

ـ آه! يجب أوّلاً أن أتحدّث إليه وبعدها نرى ما يُعمل!

قال لامبير وهو يسير باتّجاه الباب:

ـ نعم، سوف نرى!

سمع هنري وقع خطواته يتلاشى شيئًا فشيئًا في الرواق: بدا له أنّ شبابه بالذات يناديه. لو أنّه رأى بعيني فتى العشرين هذه الملايين من العبيد المساجين وراء الأسلاك الشائكة، لما استطاع أن يصمت للحظة واحدة. وكان لامبير يرى بوضوح ما يعتمل في داخله: كان متردّدًا لأنّه يودّ لو يُخفي أنّ هناك شيئًا ما فاسدًا في الاتّحاد السوفييتي، لكنّ هذه الذرائع نابعة من موقف جبان. نهض ونزل الدرج: «للشيوعي الحقّ في أن يختار الصمت، فمواقفه معلنة. حتّى لو كذب فهو، بمعنى ما، لا يخدع أحدًا. لكن أنا الذي أنادي بالاستقلاليّة، إذا استخدمت رصيدي لكي أطمس الحقيقة فأنا نذل. لست شيوعيًّا وهذا لأنّني بالضبط أردت أن أقول بحرّيّة ما لا يريد الشيوعيّون قوله ولا يقدرون على قوله: الدور الذي أضطلع

به عقيم، لكنّهم يعترفون هم أنفسهم بجدواه. لا شكّ أنّ لاشوم، على سبيل المثال، سيكون لي شاكرًا لأنّني سأبادر إلى التحدّث عنه. كما سيشكرني كل هؤلاء الذين ينشدون إلغاء المعسكرات، ولكن لا يُسمح لهم بالاعتراض جهارًا عليها. ومن يدري، ربّما سيحاولون القيام بشيء ما بشكل غير رسمي. ربَّما كانت الضغوط الصادرة عن الأحزاب الشيوعيّة نفسها ستدفع بالاتّحاد السوفييتي إلى أن يعدّل من نظامه الجزائي: اضطهاد الناس علانيّة أمام الملأ أمر مختلف عن اضطهادهم سرًّا. إنّ سكوتي موقف انهزامي وإغماض للعين عن رؤية الأشياء مواجهة، وإعلان العجز عن إمكانيّة تغييرها. وسيكون هذا الموقف أشبه بالحكم على الاتّحاد السوفييتي بالموت بذريعة عدم إدانته. وإذا لم تكن هناك فرصة سانحة لأن يصبح الاتّحاد السوفييتي كما يجب أن يكون عليه فلن يتبقى والحالة هذه أيّ أمل في التغيير بالأساليب السلميّة على وجه الأرض. ولا يعود لما نفعله أو نقوله أيّ أهمّيّة. فكّر هنري في نفسه وهو يصعد الدرج إلى منزل دوبروي: «أجل، إن لم يكن للكلام معنى فلا معنى لأيّ شيء آخر. يجب رفع الصوت عاليًا. وما دام دوبروي لم ينضمّ فعلاً إلى الحزب الشيوعي فهو مضطر لاتّخاذ الموقف نفسه». ضغط هنري على زرّ الجرس: «إذا كان دوبروي قد انضمّ إلى الحزب فهل سيعلن ذلك صراحةً أمامي؟».

قال دوبروي:

ـ هل الأمور على ما يرام؟ كيف أحوال المسرحيّة؟ إجمالاً، تعامل النقد معها بإيجابيّة كبيرة، أليس كذلك؟

شعر هنري أنَّ لهذا الصوت الصادر عن القلب رنّة مزيّفة: أو ربّما لأنّ شيئًا ما داخله زائف الرنّة.

قال:

ــ نعم، جيّدة. هزّ كتفيه: «مللت من هذه المسرحيّة إلى أبعد حدّ، ما أريده هو أن أقدر على التفكير بشيء آخر».

قال دوبروي:

ــ أعرف، ثمّة ما يوجع القلب في النجاح. ابتسم: «لا شيء يرضي الإنسان. والفشل ليس ممتعًا هو أيضًا».

جلسا في المكتب، واستأنف دوبروي الكلام:

ــ حسنًا، لدينا شيء آخر نتحدّث فيه.

قال هنري:

ــ نعم، وأنا متلهّف لأعرف رأيك. أنا الآن مقتنع أنّ بلتوف قال الحقيقة بالمجمل.

ــ بالمجمل نعم. هذه المعسكرات موجودة. ليست معسكرات الموت كما كانت المعتقلات النازيّة، ولكنّها معتقلات في جميع الأحوال. إذ يحقّ لرجال الشرطة أن يزجّوا في المعتقل أناسًا لمدّة خمس سنوات دون محاكمة. وبناء لما تقدّم، أريد أن أعرف ما هو عدد المعتقلين وما هو عدد المساجين السياسيّين بينهم، وما هو عدد هؤلاء الذين حُكم عليهم بالسجن المؤبّد. فالأرقام التي أعطاها بلتوف اعتباطيّة تمامًا.

هزّ هنري رأسه موافقا:

ــ «برأيي، يجب ألاّ ننشر تقريره. سنحدّد معًا ما هي الوقائع التي تبدو لنا أكيدة ونخلص إلى حقائق دامغة. سوف نتكلّم باسمنا موضحين وجهة نظرنا كما ينبغي».

نظر دوبروي إلى هنري: «إذا احتكمت لرأيي، يجب عدم نشر شيء. وسأشرح لك وجهة نظري».

أحسّ هنري بصدمة صغيرة في قلبه وقال في نفسه: «أهكذا إذًا، الآخرون يرون الحقيقة وأنا غافل عنها!».

قاطع دوبروي قائلاً:

ــ هل تنوي التغاضي عن القضيّة؟

ــ وهل تعتقد أنّها ستظلّ مجهولة؟ إنّ صحافة اليمين ستجعل منها موضوعًا دسمًا. لنسهّل لها التلذّذ به. لن نكون البادئين بمحاكمة الاتّحاد السوفييتي. وبدوره طلب من هنري تجاوز الموضوع بحركة من يده: «عبثًا ستحاول أخذ جميع الاحتياطات التي يمكن تصوّرها، فإنّ الناس سيعتبرون حتمًا مقالاتنا اتّهامًا للنظام السوفييتي. وهذا ما لا أريده بأيّ ثمن».

لزم هنري الصمت. تحدّث دوبروي بلهجة حاسمة وعبَّر عن موقعه ولن يغيّره، ولن يفيد النقاش معه بشيء. اتخّذ قراراته وحده، وسيفرضها على اللّجنة، ويجدر بهنري أن ينصاع لها طوعًا.

قال:

ــ أودّ أن أطرح عليك سؤالاً.

ــ هيّا.

ـ هناك أناس يعتبرون أنك انضممت حديثًا إلى الحزب الشيوعي.

ـ يقولون إنّي انضممت؟ من؟

ـ هكذا يزعمون.

هزّ هنري كتفيه:

ـ وهل أخذت كلامهم على محمل الجدّ؟

ـ منذ شهرين لم نتقابل، ولا أظنّ أنك ملزم بإبلاغي بالقرار الذي اتّخذته.

قال دوبروي بحدّة:

ـ لكن، بالتأكيد كنت سأرسل لك بلاغًا بالقرار فيما لو اتّخذته. هذا محال. كيف بالإمكان أن أنضمّ إلى الحزب الشيوعي دون أن أبلغ قرارانضمامي إلى رفاقي في *S.R.L* ومن دون أن أشرح علنًا الأسباب التي حدت بي إلى ذلك؟

قال هنري:

ـ ربّما أردت أن ترجئ إعلان موقفك لبضعة أسابيع. ثم أضاف بحيويّة: «يجدر بي القول إنّ مثل هذا الموقف سيفاجئني من جانبك، لكنّي أردت في أيّ حال أن أطرح السؤال عليك».

قال دوبروي:

ـ « إنّها مجرّد شائعات. الناس أحرار بقول كل ما يخطر ببالهم!».

بدا صادقًا. لكنّه لو كان كاذبًا لكان سيردّد الكلام نفسه أيضًا. وفي الحقيقة لم يكن هنري يدرك لماذا سيقوم دوبروي بهذه الخطوة. لكنّ سكرياسين بدا صادقًا تمامًا فيما قاله. تمنّى هنري في قرارة نفسه لو استطاع أن يستمع إلى كلام ذاك المخبر! الثقة لا يمكن اجتزاؤها، إمّا نثق بالآخر وإمّا لا. حين رفض مقابلة ذاك المخبر، كان ذلك موقفًا نبيلاً زائفًا من قبله لأنّه في الواقع فقد الثقة بدوبروي. أضاف بصوت حياديّ:

ـ في الجريدة، الجميع موافقون على أن ننشر الوثائق. قرّر لامبير مغادرة «*L'Espoir*» إذا لم نتحدّث عن الموضوع.

قال دوبروي:

ـ لا تُعتبر مغادرته خسارة كبيرة!

ـ لكنّها ستجعل الوضع حسّاسًا، لأنّ تراريو وسامازيل مستعدّان لتقديم استقالتهما من الـ *S.R.L*.

فكّر دوبروي لدقيقة:

ـ حسنًا، إذا رحل لامبير، سأشتري أنا حصصه.

ـ أنت؟

ـ لا قيمة للصحافة بنظري. لكنّها الوسيلة الفضلى للدفاع عن أنفسنا. سوف نقنع لامبير ببيع حصصه، وبالنسبة للمال فسأتدبّر أمري.

ظلّ هنري مرتبكًا؛ لم ترق له الفكرة إطلاقًا. وفجأة هبط عليه الإلهام: «إنّه فخّ محكم!». دوبروي أمضى الصيف مع لامبير وكان

يعرف أنّه مستعدٌّ للاستقالة. كل شيء اتّضح لهنري تمامًا: لقد أوكل الشيوعيّون إلى دوبروي مهمّة الوقوف في وجه هذه الحملة العنيفة التي يتعرّضون لها، وذلك عن طريق مصادرة *«L'Espoir»* ورفع نسبة مشاركة دوبروي في إدارة الجريدة.

لن يستطيع دوبروي النجاح في ذلك إلاّ إذا تكتّم بحنكة عن انتسابه للحزب.

قال هنري بجفاف:

ـ الغريب في الأمر هو أنّني أنا أيضًا أرغب في الكلام.

قال دوبروي.

ـ أظنّ أنّك ترتكب خطأً فادحًا إذا فعلت ذلك. خذ علمًا بالأمر. إذا لم يسفر الاستفتاء والانتخابات عن انتصار لليسار، فسنواجه ديكتاتوريّة ديغوليّة. وليس هذا الوقت الملائم لكي نؤدّي خدمة للبروباغندا المناهضة للشيوعيّة.

تفرّس هنري في دوبروي. ليست المسألة معرفة قيمة الحجج التي يقدّمها دوبروي بل ما إذا كان صادقًا أم لا.

سأله:

ـ وبعد إجراء الانتخابات، هل ستوافق على الكلام؟

قال دوبروي:

ـ عندئذٍ سيكون الخبر قد شاع في جميع الأحوال.

ـ نعم، سيكون بلتوف قد نقل معلوماته لجريدة الفيغارو. ما يعني أنّ مصير الانتخابات ليس على المحكّ بل موقفنا بالذات. وبناءً على ذلك، نحن مجبرون في جميع الأحوال على تحديد موقفنا: أيّ موقف يجب اتّخاذه؟ سنحاول عندئذٍ التخفيف من وتيرة تهجّمنا على الشيوعيّين دون أن نبرّر صراحة ممارسات السلطة في الاتّحاد السوفييتي، وسنبدو مرائين...

قاطع دوبروي هنري:

ـ أعرف جيّدًا ماذا ستقول. قناعتي هي أنّ هذه المعسكرات لم يفرضها النظام كما يدّعي بلتوف. إنّها مرتبطة بسياسة معيّنة يمكننا أن ندينها دون أن نوجّه أصابع الاتّهام إلى النظام القائم. سنفرّق بين الأمرين: سنشجب استمرار المعتقلات لكنّنا سندافع عن الاتّحاد السوفييتي.

قال هنري:

ـ لنسلّم بالأمر. من الواضح أنّ كلامنا سيكون له تأثير أكبر إذا كنّا أوّل من يبادر إلى التنديد بهذه المعسكرات. إذا كشفنا عن أمور سبق للآخرين وأشاروا إليها قبلنا فسنكون جوقة مردّدين ليس أكثر. أولى بنا أن نكون السابقين لقطع الدرب على أعداء الشيوعيّة ولن يفيدهم إذ ذاك سعيهم للمزايدة علينا.

قال دوبروي:

ـ أوه! هذا لن يغيّر شيئًا. سيصدّقهم الجمهور رغم ذلك. وسيستغلّون مواقفكم على نطاق واسع. هاك ما سيقولونه: ها إنّ

المناصرين أنفسهم يستنكرون مثل هذه الممارسات لدرجة أنّهم انقلبوا على الاتّحاد السوفييتي! وهذا سيثير الاضطراب في صفوف أناس كانوا في موقف محايد.

هزَّ هنري رأسه:

ـ أولى باليسار أن يتبنّى هذه القضيّة. الشيوعيّون معتادون على نمائم اليمين فلا تؤثّر بهم. أمّا إذا كان اليسار كلّه، عبر أوروبا كلّها، ينتفض ضدّ المعسكرات، فهذا سيلقي الذعر في نفوس الشيوعيّين. الوضع يتغيّر عندما ينكشف أمر ويصبح فضيحة. ربَّما آل الأمر بالاتّحاد السوفييتي إلى أن يعيد النظر في قوانينه الجزائيّة.

قال دوبروي بلهجة محتقرة:

ـ هذه أضغاث أحلام.

فأجابه هنري بغضب:

ـ مهلك! أنت من قال دومًا إنّ بإمكاننا ممارسة بعض الضغوط على الشيوعيّين: هذا هو المعنى الجوهري لحركتنا. وقد سنحت الفرصة لنسعى إلى تفعيل ما طمحنا إليه. حتى لو كانت فرص النجاح ضعيفة فيجب أن نحاول مع ذلك.

هزّ دوبروي كتفيه:

ـ إذا قمنا بهذه المغامرة وكنّا في طليعة المتصدّين للشيوعيّين فسنقطع الطريق مستقبلاً على أيّ تعاون معهم. وعندئذ ستثبت علينا تهمة العداء للشيوعيّة ولن يكونوا على خطأ. إنّ الدّور الذي سعينا للعبه، كما تعرف، يتمثّل في كوننا أقلّيّة معارضة خارجة على

الحزب ولكن متحالفة معه. إذا وقفنا إلى جانب الأكثريّة في محاربة الشيوعيّين، على أيّ مستوى كان، لا نعود نُعتبر كأقلّيَّة بل ندخل في حرب معهم. وسنتحوّل إلى أرقام إضافيّة في قائمة المعادين للشيوعيّة وعندئذٍ يحقّ لهم أن يعاملونا كخونة.

تفرّس هنري في دوبروي. لم يكن ليتكلّم هكذا لو لم يكن شيوعيًّا متخفيًا. إنّ إصراره على الوقوف على الحياد حثّ هنري على الثبات في موقفه: إذا كان الشيوعيّون يرغبون فعلاً بأن يظلّ اليسار محايدًا فهذا يثبت أنّهم يخشون جانبه وأنّ موقفه منهم يؤثّر عليهم تأثيرًا كبيرًا، سلبًا أو إيجابًا.

قال:

ـ باختصار، يبدو أنك، بحجّة الاحتفاظ بفرصة التأثير في الشيوعيّين يومًا، تهدر الفرصة المتاحة لك الآن. لا يُسمح لنا بالمعارضة إلاّ إذا كانت دون تأثير يذكر. ثم أضاف بلهجة حازمة: «لا أقبل بهذا الواقع، ولم تعد تروق لي فكرة أنّ الشيوعيّين سيحتقروننا، ولا أظنّها تروق لك أنت أيضًا، لكنّي فكّرت مليًّا بالأمر: ليس لدينا الخيار». همَّ دوبروي ليتكلّم لكنّه قاطعه لأنّه لم يشأ أن يستمع إلى ردّه قبل أن يفرغ ما في جعبته: «أن تكون غير شيوعي، إمّا أنّ هذا الموقف يعني شيئًا وإمّا لا. إذا لم يكن يعني شيئًا، فلنصبح شيوعيّين أو لنذهب للاعتزال في الريف. وإذا كان هذا يعني شيئًا، فإنّه يرتّب علينا بعض الالتزامات والمواقف المعلنة ومن بينها أن نعرف، عند لزوم الحال، كيف نتخاصم مع الشيوعيّين. أمّا أن نراعيهم، بأيّ ثمن، من دون أن نتحالف صراحة

معهم فهذا يعني أنّنا اخترنا أن نغمض أعيننا ونصمّ آذاننا عمّا يدور حولنا ونتخلّى عن القيام بالدور الذي اؤتُمِنّا عليه».

أخذ دوبروي يربّت على ورق النشّاف بنفاد صبر. ثم قال:

ـ هذه اعتبارات أخلاقيّة لا تعنيني. أهتّم فقط بتبعات أعمالي وليس بالصورة التي يكوّنها الناس عنّي...

ـ لا يتعلق الأمر بالصورة...

قال دوبروي بفظاظة:

ـ بلى، فحوى القضيّة يتمثّل في أنّك تنزعج من أن تبدو وكأنّك تخشى جانب الشيوعيّين!

قال هنري بلهجة متصلّبة:

ـ نعم، يزعجني فعلاً أن أبدو وكأنّني أهابهم. لأنّ هذا سيكون مناقضًا للمواقف التي اتّخذناها منذ سنتين.

واصل دوبروي التربيت على ورق النشّاف وقد بدا عليه أنّه يقفل الطريق أمام الحوار.

أضاف هنري بلهجة جافّة:

ـ تطرح المسألة من وجهة نظر غريبة. ولي الحقّ بأن أسألك لماذا أنت خائف إلى هذا الحدّ من إغضاب الشيوعيّين؟

قال دوبروي:

ـ لا آبه إن كنت أغضبهم أم لا. لا أريد أن أفتح معركة مناهضة للسوفييت وخصوصًا في الوقت الراهن. أجد هذا بمثابة جريمة.

قال هنري:

ـ وأجد من الإجرام أيضًا أن نقف مكتوفي الأيدي أمام قضيّة المعسكرات، وألاّ نفعل ما في وسعنا فعله. نظر إلى دوبروي: «كنت سأفهم موقفك بشكل أفضل لو أنّك انضممت إلى الحزب. أتقبّل أن ينكر شيوعي وجود المعسكرات أو أن يدافع عن وجودها».

قال دوبروي غاضبًا:

ـ قلت لك إنّي لم ألتحق بالحزب الشيوعي، ألا يكفيك هذا؟

نهض روبير وخطا بضع خطوات. فكّر هنري: «لا، بالطبع هذا لا يكفيني. لا شيء يمنع دوبروي من أن يكذب عليَّ بكلّ وقاحة. سبق له أن فعل ذلك من قبل. لا يقيم للاعتبارات الأخلاقيّة أيّ وزن». ثم قال في نفسه بشعور من الضغينة: «لا، هذه المرّة لن أسمح له أن ينال منّي». تابع دوبروي ذرع أرض الغرفة جيئة وذهابًا. هل شعر بارتياب هنري أم أنّ اعتراضه فقط هو الذي كان يغضبه؟ بدا وكأنّه يصعب عليه أن يتمالك نفسه. ثم قال:

ـ حسنًا، لم يعد هناك ما يمكن فعله إلاّ دعوة اللّجنة للاجتماع. قرارها هو الذي سيكون الكلمة الفصل التي سنتبنّاها.

ـ أعضاء اللّجنة سيأخذون برأيك، تعرف ذلك جيّدًا!

ـ إذا كانت حجّتك جيّدة فستقنعهم بها.

ـ هيّا، كفى هزلاً! شارلييه وميريكو يصوّتان دومًا معك. ولونوار يخرّ ساجدًا أمام أقدام الشيوعيّين... رأيهم لا يهمّني.

سأله دوبروي:

ـ إذًا ما الحلّ؟ هل ستتمرّد على قرار اللجنة؟

ـ نعم إذا لزم الأمر.

قال دوبروي بأسلوب منفعل:

ـ هل هذا ابتزاز؟ إمّا تكون حرًّا وإمّا تنفصل الجريدة عن الـ *S.R.L*؟ هل هذا ما ترمي إليه؟

ـ هذا ليس ابتزازًا. اتّخذت قراري بالكلام وسأتكلم. هذا كلّ ما في الأمر.

ـ أوَتُدرك ماذا تعني هذه القطيعة؟ امتقع وجهه كصوته. إنّها نهاية الـ *S.R.L* وانتقال *«L'Espoir»* إلى المعسكر المناهض للشيوعيّة.

ـ الـ *S.R.L* في حالتها الراهنة في أسوأ حالاتها. ولن تصبح *«L'Espoir»* مناهضة أبدًا للشيوعيّة. كن واثقًا من كلامي.

للحظة، نظر الواحد منهما للآخر بازدراء.

وأخيرًا قال دوبروي:

ـ سأدعو اللجنة حالاً للاجتماع. إذا اقتنعت بوجهة نظري فسنعلن فصلك علانيّة.

قال هنري:

ــ ستقنع اللّجنة بوجهة نظرك. ثم مشى صوب الباب: «في حال كان موقفكم مغايرًا لموقفي سأردّ عليكم».

ــ فكّر مليًّا في ما تفعله. فهذا يسمّى خيانة.

ــ فكّرت مليًّا وكفى.

اجتاز دوبروي المدخل وأغلق وراءه هذا الباب الذي لن يجتاز عتبته بعد اليوم.

كان سكرياسين وسامازيل ينتظرانه في الجريدة على أحرّ من الجمر. لم يخفيا ارتياحهما لما حصل. تجهّم وجهاهما قليلاً عندما أعلن هنري أنّه ينوي الاضطلاع شخصيًّا بنشر المقالات عن المعتقلات: «إمّا تقبلون بذلك أو أتخلّى عن القضيّة برمّتها». حاول سكرياسين أن يعترض لكنّ سامازيل سارع إلى إقناعه بالموافقة. انكبّ هنري على كتابة المقالات في الحال. رسم صورة شاملة للنظام الجزائي في الاتّحاد السوفييتي، مرفقًا إيّاها بنصوص تثبت الوقائع، مركّزًا على الجوانب الجزائيّة في التشريعات التي يعتمدها النظام. لكنّه أشار باهتمام إلى أنّ أخطاء الاتّحاد السوفييتي لا تبرّر ولا بأيّ شكل أخطاء الرأسماليّة. كما أنّ إدانة المعسكرات تعني إدانة سياسة معيّنة وليس النظام السوفييتي بمجمله. فالاتّحاد السوفييتي يعاني من مصاعب اقتصاديّة هائلة واعتُبرت المعسكرات وسيلة مرحليّة اعتمدها النظام لمواجهة الأزمة الخانقة. لذا، يجب أن يُعمد إلى إلغائها. ويجب على جميع الناس الذين يعتبرون

الاتّحاد السوفييتي خشبة خلاص ويجب على الشيوعيّين أنفسهم، أن يفعلوا كل ما بوسعهم لكي تُلغى هذه المعسكرات. إنّ الحديث علنًا عن وجودها يُعتبر بحدّ ذاته سعيًا لتغيير الأوضاع. هذا ما حدا بهنري للكلام عنها. ذلك أنّ الصمت ضرب من ضروب الانهزاميّة والجبن، والخيانة.

نُشرت المقالة في صباح اليوم التالي. أعلن لامبير استياءه منها بشدّة. تبادر إلى هنري الانطباع بأنّها تثير نقاشًا حادًّا بشأنها في غرفة التحرير. مساءً، نقل أحد العاملين في الفندق رسالة دوبروي التي جاء فيها أنّ اللّجنة أقصت بيرون وسامازيل وأنّ الحركة لم تعد لديها أيّ صلة بجريدة «*L'Espoir*». كما أعربت اللّجنة عن أسفها لاستغلال بعض الوقائع التي لا يجوز الحكم عليها إلاّ انطلاقًا من تقييم شامل للنظام الستاليني لصالح البروباغندا المعادية للشيوعيّة. أيًّا تكن الأبعاد التي ترتديها هذه المسألة، فإنّ الحزب الشيوعي يبقى أمل البروليتاريا الفرنسيّة الوحيد. وإذا سعى أحدهم إلى تحقيره فهذا لأنّه اختار أن يخدم الرجعيّة. فما كان من هنري إلاّ أن كتب ردًّا على الرسالة اتّهم فيه الـــ *S.R.L* بالاستسلام لإرهاب الشيوعيّة وخيانة المشروع الأساسيّ.

تساءل هنري في اليوم التالي، لدى شرائه «*L'Espoir*» بشيء من الذهول: «كيف وصلت بنا الأمور إلى هذا الحدّ؟». لم يستطع أن يُشيح ببصره عن هذه الصفحة الأولى. اعتمد هو رأيًا معيّنًا، ودوبروي اعتمد رأيًا مختلفًا عنه. دار النقاش واحتدم وجرى التعبير عن بعض مشاعر الضيق والتبرّم بين أربعة جدران، وها

إنّه اليوم يُنشر فجأة على مرأى من الجميع، بالخطّ العريض وعلى مساحة عمودين، سيلاً من الشتائم...

قالت له سكرتيرته عندما وافى إلى الجريدة حوالى الساعة الخامسة:

ـ لم يتوقف الهاتف عن الرنين. أحدهم يُدعى لونوار قال إنّه سيمرّ بك عند الساعة الخامسة.

ـ دعيه يدخل.

عليك أن تطلع على بريد الرسائل. لم أنته من تصنيف المحتويات بعد. فكّر هنري وهو يجلس أمام مكتبه: «هكذا إذًا، الناس مهتمّون بشدّة بهذه القضيّة». ما نُشرت المقالة الأولى بالأمس حتى تدفقت عليه رسال القرّاء يهنّئونه أو يشتمونه، أو يعربون عن دهشتهم من موقفه. كانت هناك رسالة مضغوطة[1] من فولانج: «صديقي العزيز أشدّ على يدك!». وجوليان أيضًا هنّأه بأسلوب رفيع لا عهد له به. لكنّ المزعج في الأمر أنّ الجميع كانوا يظنّون أنّ *«L'Espoir»* ستكون نسخة أخرى عن الفيغارو: «يجب وضع الأشياء في نصابها». رفع هنري رأسه فرأى باب المكتب ينفتح للتوّ، وبول تنتصب أمامه. كانت ترتدي معطفًا قديمًا من الفرو، وكان وجهها شبيهًا بالوجه الذي كانت تبدو عليه في أيّامها السّيئة.

قال هنري:

ـ أنت هنا؟ ماذا يجري؟

---

(١) رسالة مضغوطة: رسالة مستعجلة ترسل بالهواء المضغوط.

قالت بول:

ـ أتيت لكي أطرح عليك هذا السؤال بالذات. رمت على الطاولة العدد الصادر من «*L'Espoir*»: «ماذا يجري؟».

قال هنري:

ـ لكنّ هذا موضّح في الجريدة. دوبروي لا يريدني أن أنشر هذه المقالات عن المعسكرات السوفييتيّة وأنا نشرتها. وحصلت القطيعة. ثم أضاف بنفاد صبر: «كنت سأخبرك بما جرى غدًا عند الغداء. لماذا أتيت اليوم؟».

ـ هل هذا يزعجك؟

ـ يسرّني أن أراك. لكنّي أنتظر لونوار بين دقيقة وأخرى. لديَّ عمل كثير. سأروي لك كلّ شيء وبالتفاصيل غدًا. ليس الأمر بهذا الإلحاح.

ـ لا، بل هو لكذلك. أريد أن تفهني ما سبب هذه القطيعة؟

ـ سبق وقلت لك. ابتسم بجهد: «عليك أن تكوني مسرورة، منذ وقت طويل جدًّا وأنت تترقبين حدوث ما حصل».

نظرت إليه بهيئة قلقة: «لكن لماذا الآن؟ لا يجب أن نقاطع صديقًا كنّا على صداقة معه منذ خمس عشرة سنة لأنّنا مختلفان بشأن قضيّة سياسيّة بسيطة».

ـ لكنّ هذا ما حصل. ثم إنّ هذه القضيّة البسيطة مهمّة للغاية!

تجهّم وجه بول: «أنت لا تقول لي الحقيقة. لعلك تخفي عليَّ أشياء!».

ـ أؤكّد لك، هذه هي الحقيقة.

ـ منذ زمن بعيد لم تعد تطلعني على شيء من أخبارك. أظنّ أنّني أتكهّن السبب. ولهذا جئت أكلّمك، يجب أن تستعيد ثقتك بي.

قال:

ـ لا زالت ثقتي بك قويّة. بناءً على ذلك، نتحدّث غدًا. ليس لديَّ وقت الآن.

لم تتحرّك بول من مكانها. قالت:

ـ لا بدَّ أنّني أغظتك في ذلك المساء حين كنت أشرح موقفي لجوزيت... أعتذر عمّا فعلت.

ـ أنا من يجدر بي أن أعتذر. كان مزاجي سيّئًا...

ـ من فضلك لا تعتذر! رفعت إليه وجهًا طافحًا بالوداعة: «في تلك الليلة، بعد العرض الأوّل للمسرحيّة، وفي الأيّام التالية، توضّحت لي أشياء كثيرة. ليس هناك قواسم مشتركة بينك وبين الآخرين، أو بينك وبيني. أردتك كما حلمت بك وليس كما أنت، وهذا يعني أنّني أفضّل نفسي عليك. وكان هذا اعتدادًا من قبلي. الآن، انتهى كلّ هذا الازدهاء بالنفس. ليس هناك إلاك. أنا لست شيئًا.: أقبل ألاّ أكون شيئًا وأقبل كلّ شيء منك».

قال بانزعاج:

ـ رويدك، لا يأخذك الهوس. قلت لك نتحدّث غدًا.

ـ وهل تظنّ أنّني لست صادقة؟ أقول لك إنّي مخطئة وإنّي كنت مكابرة جدًّا. ذلك أنّ طريق التخلّي عن الكبرياء ليس سهلاً سلوكه.

لكنْ الآن، أقسم لك: لم أعد أريد شيئًا لنفسي، ليس هناك إلاّك. وبإمكانك أن تطلب أيّ شيء منّي.

فكّر هنري: «يا مصيبتي! المهمّ أن تذهب هي قبل أن يصل لونوار». قال بصوت عال: «أصدّقك، لكن كلّ ما أطلبه منك الآن هو أن تصبري حتى الغد وأن تدعيني أعمل».

قالت بول بلهجة عنيفة:

ــ أتهزأ بي؟ ثم رقّ وجهها: «أكرّر لك أنا لك بكلّيّتي. كيف تريد أن أثبت لك صدقي؟ هل تريدني أن أقطع لك أذني؟».

قال هنري في محاولة منه للمزاح:

ــ وماذا أفعل بها؟

ــ سيكون هذا الفعل رمزًا. ترقرقت الدّموع في عينيها: «لا أحتمل أن تشكّ بحبّي لك».

فُتح الباب وأطلّت منه السكرتيرة: «حضر السيّد لونوار، هل أدخله؟».

ــ دعيه ينتظر خمس دقائق. ابتسم هنري لبول: «لا أشكّ بحبّك، لكن كما رأيت، لديَّ مواعيد، وعليك أن تذهبي».

ــ لكنّك لن تفضّل لونوار عليَّ. ماذا يعني بالنسبة لك؟ فيما أنا أحبّك. راحت الدّموع الغزيرة تنهمر من عينيها: «إذا كنت أعاشر المجتمع الراقي وأحاول الكتابة، فهذا من أجل حبّك».

ــ من دون شك.

ـ ربّما أخبروك أنّني أصبحت مغرورة وأنّني لم أعد أعلّق أهمِّيّة إلاّ على عملي. من قال ذلك مخطئ فعلاً. غدًا سأرمي بكل مخطوطاتي في النار، على مرأى منك.

ـ ستكون هذه حماقة.

قالت:

ـ سأحرقها. ثم أضافت بغضب: « سأحرقها في الحال عند رجوعي».

ـ لكن لا تفعلي، أرجوك، هذا لن يفيد بشيء.

بدا على قسمات بول أنّها منهارة: «تقصد القول إنّه لا شيء بإمكانه إقناعك بأنّني أحبّك».

قال:

ـ لكنّني مقتنع، مقتنع تمامًا وبعمق.

قالت وهي تبكي:

ـ آه! كيف السبيل إلى عدم إزعاجك؟ إلاّ أنّ كلّ هذه المواقف التي يغلب عليها سوء الفهم عليها أن تنجلي.

ـ ليس هناك من سوء فهم.

قالت يائسة:

ـ ها إنّي أستمرّ في إزعاجك، ولم تعد تريد رؤيتي!

فكّر بكلّ اقتناع: «لا، لم أعد أريد». وقال بصوت عالٍ: «بالطبع، أريد».

ـ سيؤول بك الأمر لأن تكرهني وستكون على صواب. من كان يقول إنّ بوسعي أن أتشاجر معك، أنا!

ـ لا تتشاجرين معي.

وشهقت بالبكاء:

ـ لكنّك ترى بأنني أتشاجر معك.

قال وهو يصطنع الرقة في صوته إلى حدّ بعيد:

ـ اهدئي يا بول. كان راغبًا في ضربها لكنّه راح يداعب شعرها: «اهدئي!». واستمرّ يداعب شعرها لعدّة دقائق.

وأخيرًا قرّرت أن ترفع رأسها:

ـ حسنًا، أنا ذاهبة. رمقته بنظرات قلقة: «هل ستأتي في الغد لتناول الغداء. أتعدني؟».

ـ أعدك.

عندما أغلقت الباب وراءها قال في نفسه: «يجب ألاّ أعود لرؤيتها إطلاقًا. هذا الحلّ الوحيد؟ لكن، كيف السبيل إلى حثّها على تقبّل المال إذا لم أعد لزيارتها. إنّ امرأة صافية السريرة مثلها لن تقبل بمساعدةٍ من رجل إلاّ إذا ارتضت أن يكون سيّدًا عليها. سأتدبّر أمري. لكنّي لم أعد أريد رؤيتها». وبعد تفكير مليّ اتّخذ قراره الحاسم.

قال للونوار:

ـ اعذرني لجعلكِ تنتظر.

قال لونوار وهو يهمّ بإشارة من يده: «لا أهمّيّة لذلك». أخذ يسعل وتوهّجت بشرته. لا شكّ أنّه راجع قبل دخوله كلّ فكرة يريد التعبير عنها. لكنّ حضور هنري شتّت جمله: «لا بدّ أنّك تشكّ بالهدف من زيارتي».

ــ أجل، تتضامن مع دوبروي وموقفي يروّعك. قلت وشرحت الأسباب التي دفعتني لاتّخاذه. وآسف لأنّي لم أتوصّل إلى إقناعكم بوجهة نظري.

قال لونوار:

ــ قلت إنّك لا تريد حجب الحقيقة عن قرّائك، لكنْ عن أيّ حقيقة تتكلّم؟

اهتدى هنري إلى إحدى الكلمات ــ المفاتيح في خطابه والبقيّة تأتي بسهولة... الحقيقة التي يدّعي هنري الكشف عنها ملتبسة، مجتزأة... يعرف هنري الأغنية المكرورة. استيقظ من غفلته عندما أنهى لونوار كلامه عن العموميّات: «إنّ الإكراه البوليسيّ يلعب في الاتّحاد السوفييتي الدور الذي يلعبه الضغط الاقتصادي في البلدان الرأسماليّة. وإذا كان يمارسه بشكل أكثر جذريّة فلا أرى في ذلك إلاّ حسنات. في هذا النظام، العامل غير مهدّد بالطرد ولا المسؤول بالإفلاس، لذا تقتضي الضرورة إيجاد أشكال أخرى للعقوبات».

قال هنري:

ــ لكن ليس بالضرورة مثل هذه العقوبات. لا يمكن المقارنة بين ظروف العاطل عن العمل وظروف عمّال المعتقلات.

ـ لكنّ معيشتهم اليوميّة مؤمّنة على الأقلّ. وأنا مقتنع أنّ مصيرهم أقلّ هولاً ممّا تروّج له الدعاية المغرضة. ثم إنّه يجدر بنا ألاّ ننسى أنّ ذهنيّة الإنسان السوفييتي ليست كذهنيّتنا، فهو يألف أن يتمّ نقله من مصنع لآخر على ضوء الاحتياجات الاقتصاديّة.

ـ أيًّا تكن ذهنيّته، ليس طبيعيًّا لأيّ كان أن يُستغلّ أو يعاني من سوء التغذية أو يُحرم من حقوقه أو يُسجن أو يعمل كالبهيمة أو يُحكم عليه بالموت بردًا وإنهاكًا أو مصابًا بداء الحفر.

فكّر هنري بسخرية: السياسة أمر رائع! لم يكن لونوار يتحمّل أن يرى ذبابة تتعذّب فيما يوافق وبكل طيبة خاطر أن يصمّ أذنيه عمّا يجري من أهوال في المعتقلات.

قال لونوار:

ـ لا أحد يريد الشرّ لأجلِ الشرّ، والحالة تنطبق على الاتحاد السوفييتي أكثر من أيّ نظام آخر. إذا اتّخذ السوفييت مثل هذه الإجراءات فلأنّها ضرورة مرحليّة. ازداد وجه لونوار احمرارًا: «كيف تجرؤ على إدانة مؤسّسات في بلد تجهل حاجاته وظروفه والمصاعب التي يواجهها؟ هذه خفّة لا تطاق».

قال هنري:

ـ لكنّي تحدّثت عن هذه الحاجات والمصاعب. تعرف جيّدًا أنّني لم أقاضِ النظام السوفييتي بكلّيّته. لكنّ السكوت عن بعض الممارسات الشاذّة ودون تبصّر أعتبره جبنًا. بإمكانك تبرير أيّ شيء بلجوئك إلى فكرة الضرورة هذه. لكنّها سيف ذو حدّين. عندما

يقول بلتوف إنّ المعتقلات ضروريّة، فهذا لكي يثبت أنّ الاشتراكيّة طوباويّة.

ـ بإمكانها أن تكون ضروريّة لفترة انتقاليّة وألاّ تكون قائمة إلى ما لا نهاية. تنسى أنّ الوضع في الاتّحاد السوفييتي لا يزال تحت تأثير الحرب. والدول الرأسماليّة تتحيّن الفرصة الملائمة لتنقضّ عليه.

قال هنري:

ـ وحتى في هذا الوضع، ليست المعتقلات ضروريّة. لا أحد يريد الشرّ للشرّ، لكن يحدث غالبًا أن نرتكب الشَّرّ عبثًا. لا يمكنك الإنكار أنَّه في الاتّحاد السوفييتي، كما في كلّ مكان، ارتُكبت أخطاء. كم من المجاعات والعصيانات والمجازر كان بالإمكان تفاديها. حسنًا، أظنّ أنّ وجود هذه المعتقلات خطأ. ودوبروي من رأيي كما تعرف.

ـ سواء كانت معسكرات العمل ضرورة أم خطأ، فقد قمت بعمل سيّئ. لن تغيّر مهاجمة الاتّحاد السوفييتي شيئًا في مجريات الأمور هناك، لكنّها ستؤدّي خدمة للقوى الرأسماليّة. اخترت أن تكون حليف أميركا والداعين إلى شنّ الحرب على الاتّحاد السوفييتي.

قال هنري:

ـ لا، لا! تستطيع توجيه النقد للشيوعيّة دون أن يسيء ذلك إلى سلامتها. إنّها أكثر صلابة من ذلك!

قال لونوار:

ـ برهنت لتوك أنّه لا يمكننا أن نلزم جانب الحياد دون أن نصبح موضوعيًّا معادين للشيوعيّة. ما من طريق ثالث. وجدت *S.R.L* نفسها منذ البداية بين خيارين لا ثالث لهما: إمّا أن تتحالف مع الرجعيّة أو تُحلّ.

ـ إذا كان هذا رأيك. فلم يتبقَّ أمامك والحالة هذه إلاّ أن تنضمّ إلى الحزب الشيوعي.

ـ أجل، هذا ما تبقى لي لكي أفعله. وهذا ما سأفعله. حرصت على توضيح الموقف: عليك من الآن فصاعدًا أن تعتبرني عدوًّا لك.

ـ آسف لذلك!

ظلاّ لفترة قصيرة يتبادلان نظرات ازدراء وإحراج. ثم قال لونوار:

ـ الوداع إذًا.

ـ الوداع.

أجل، كان هذا الهجوم المضادّ أحد الحلول الممكنة: إنكار الوقائع والأرقام ومسلّمات العقل والحسّ السليم والتشبّث بتبنّي موقف منحاز: كل ما يقوم به ستالين جيّد. «لونوار ليس شيوعيًّا لذا يظهر ورعًا فائقًا». ينحصر همّه الآن في معرفة رأي شيوعيّ آخر غير متعصّب تمامًا كأن يتحدّث إلى لاشوم.

سأل هنري فنسان:

ـ هل رأيت لاشوم مؤخّرًا؟

ـ نعم.

اهتزّ كيان فنسان لقضيّة المعتقلات. في البداية، ظنّ أنّه يجب عدم التطرّق إلى الموضوع، لكنّه في النهاية تبنّى موقف هنري.

ـ وما رأيه بمقالاتي؟

قال فنسان:

ـ إنّه ناقم عليك. يقول إنّك صرت معاديًا للشيوعيّة.

ـ آه! والمعتقلات. ألا يزعجه وجودها؟ ما رأيه بالمعتقلات؟

ابتسم فنسان:

ـ برأيه ليست موجودة إلاّ بوصفها مؤسّسة ضروريّة، وستختفي من تلقاء نفسها.

ـ فهمت.

من البديهيّ أنّ الناس لا يحبّون طرح الأسئلة على أنفسهم ويتدبّرون جميعهم الأمر لكي يحافظوا على النظام الذي يتّبعونه. أخذت الصحف الشيوعيّة تبرّر إنشاء المعتقلات وسمّتها: «معتقلات إعادة التأهيل والعمل التطوّعي». أمّا المناهضون للستالينيّة فلا يرون في القضيّة إلاّ ذريعة لتأجيج المشاعر المناهضة للاتّحاد السوفييتي.

قال سامازيل وهو يرمي على مكتب هنري البرقيّات: «برقيّات تهنئة أيضًا وأيضًا! بالإمكان القول إنّنا أثرنا الرأي العام». ثم

أضاف مبتهجًا: «سكرياسين ينتظر في غرفة الاستقبال. إنّه برفقة بلتوف وشخصين آخرين».

قال هنري:

ـ خطّته لا تهمّني. والمساعي التي يقوم بها لا أكترث لها.

قال سامازيل:

ـ عليك استقبالهم في جميع الأحوال. ثم أشار إلى أوراق وضعها أمام هنري: «أودّ أن تلقي نظرة على هذه المقالات المميّزة التي أرسلها لنا فولانج للتوّ».

ـ لن يكتب فولانج أبدًا في «*L'Espoir*».

ـ للأسف!

فُتح الباب ودخل سكرياسين يبتسم ابتسامته الساحرة: «هل لنا أن نأخذ من وقتك خمس دقائق؟ أصدقاؤنا نفد صبرهم. جئت برفقة بلتوف وبينيت، وهو صحافيّ أميركيّ أمضى خمس عشرة سنة بصفته مراسلاً في موسكو، ومولتبرغ الذي كان لا يزال يناضل في صفوف الحزب الشيوعي في فيينّا حين تركت الحزب. هل بإمكاني إدخالهم؟».

ـ أدخلهم.

دخلوا وكانت نظراتهم محمّلة بالعتب، إمّا لأنّ هنري جعلهم ينتظرون، وإمّا لأنّ الناس لا ينصفونهم. بحركة من يده دعاهم هنري إلى الجلوس. ثم قال وهو يتوجّه إلى سكرياسين: «أخشى ألاّ يسفر هذا الاجتماع عن فائدة تُذكر. أوضحت موقفي في المقابلات

التي أجريناها وفي مقالاتي: لست معاديًا للشيوعيّة. أمّا مشروعك، فيجدر بك عرضه على الاتّحاد الديغولي وليس عليَّ».

قال سكرياسين:

ــ لا تحدّثني عن ديغول. أوّل شيء فعله، ما إن استلم الحكم، هو السفر إلى موسكو. هذا أمر يجب ألاّ ننساه.

قال مولتبرغ بملامة:

ــ ربّما لم يتسنَّ لك الوقت لكي تطّلع بدقّة على برنامجنا. نحن أهل يسار. الحركة الديغوليّة تدعمها الرأسماليّة الكبرى وتحالفنا معها أمر غير مطروح البتَّة. نريد أن نحشد قوى الديموقراطيّة الحيَّة في مواجهة التوتاليتاريّة الروسيّة. وبحركة تنمّ عن أدب، استدرك اعتراضات هنري: «قلت إنّك لن تصبح معاديًا للشيوعيّة، وإنّ كلّ ما ترمي إليه هو فضح بعض التجاوزات، ولا تريد المضيّ قدمًا. لكن لا يمكنك في الحقيقة التوقّف في منتصف الطريق، فالتزامنا بالتصدّي لبلد توتاليتاريّ يجب أن يكون شموليًّا».

قال سكرياسين بحيويّة مستأنفًا الكلام:

ــ لا تقل لي إنّك بعيد جدًّا عن موقفنا. وُجدت الـــ *S.R.L* لكي تحول دون وقوع أوروبا في قبضة ستالين. ونحن أيضًا نسعى لتعزيز أوروبا المستقلّة. إلاّ أنّنا أدركنا أنّه لا يمكن أن يتحقق مسعانا إلاّ بمساعدة أميركا.

قال هنري:

ـ رجل مسخّر! هزّ كتفيه: «ما نسعى إليه هو تجنيب أوروبا أن تكون مستعمرة من قبل أميركا، هذا بالضبط ما سعت إليه الـ *S.R.L* وهو أحد أهدافها الجوهريّة. فنحن لم يتبادر إلى ذهننا قطّ أنّ ستالين يريد إلحاق أوروبا به».

قال بينيت بصوت قاتم:

ـ لا أفهم ما الداعي إلى هذا الحكم المسبق بحقّ أميركا. الشيوعي وحده هو الذي لا يرغب إلاّ في أن يرى أميركا معقلاً للرأسماليّة. إنّها بلاد عمّاليّة كبيرة، بلاد الازدهار والتقدّم والمستقبل.

ـ وهي البلاد التي تتحالف في كل مكان وبشكل جذريّ مع أصحاب الامتيازات: عمّن يدافع الأميركيّون في الصين، في اليونان، في تركيا، في كوريا؟ لا يدافعون عن الشعب بالطبع. بل عن الرأسمال والملكيّة الكبرى. ولذلك فإنّهم يساندون فرانكو وسالازار...

أبلغ هنري في هذا الصباح بالذات أنّ أصدقاءه البرتغاليّين آل بهم الأمر إلى إعلان العصيان وانتهى عصيانهم باعتقال تسعمئة شخص.

قال بينيت:

ـ تتحدّث عن سياسة الحكومة الأميركيّة، ونسيت أنّ هناك أيضًا شعبًا أميركيًّا. يمكنك الاعتماد على النقابات اليساريّة وعلى هذه الفئة من الأمّة المأخوذة بقيم الحرّيّة والديموقراطيّة بكل صدق.

قال لهنري:

ـ لم تنفصل النقابات قطّ عن السياسة التي تتّبعها الحكومة.

قال سكرياسين:

ـ يجب النظر إلى الأمور من دون مواربة. لا يمكن لأوروبا أن تدافع عن نفسها ضدّ الاتّحاد السوفييتي إلاّ بمساعدة أميركا. إذا كنت تأخذ على اليسار الأوروبيّ القبول بذلك فهذا سيؤدّي إلى تضارب مؤسف بين مصالح اليمين ومصالح الديموقراطيّة.

قال هنري:

ـ إذا أدّت ممارسات اليسار إلى تعزيز موقف اليمين فهو ليس بيسار.

قال بينيت بلهجة مهدّدة:

ـ بين أميركا والاتّحاد السوفييتي، هل تختار الاتّحاد السوفييتي؟

قال هنري:

ـ نعم، ولم أخفِ موقفي يومًا.

قال بينيت:

ـ كيف بإمكانك أن تضع في الميزان نفسه تجاوزات الرأسماليّة الأميركيّة وفظاعة الاضطهاد البوليسي.

أصبح صوته مفخّم النبرة أقرب إلى النبوءات. سانده مولتبرغ فيما كان سكرياسين وبلتوف يتحدّثان بالروسيّة بطلاقة. هؤلاء

الرجال ليسوا متشابهين إطلاقًا، لكنّ نظراتهم جميعهم مستغرقة في حلم انتقام فظيع يأبون الاستيقاظ منه. اختاروا جميعًا أن يغمضوا أبصارهم ويصمّوا آذانهم عن العالم تحت وطأة الأهوال الماضية التي قاسوها. سواء كانت أصواتهم حادّة أو خافتة أو مهيبة أو سوقيّة، فإنّها أقرب إلى التكهّن منها إلى الحقيقة. ربّما، من كلّ الشهادات التي أتوا بها من الاتّحاد السوفييتي، كانت هذه الشهادة هي الأكثر إثارة للقلق: هذه الهيئة المرتابة، الغضوبة، المذعورة التي وسمت التجربة الستالينيّة وجوههم بها. دعهم يتكلّمون حين يقصّون عليك ذكرياتهم، لا تردعهم. كانوا أذكى من أن يظنّوا أنّهم قادرون على انتزاع قرار ما بمجرّد سرد أخبارهم. كانوا يتوقون بالأحرى إلى الترويح عن أنفسهم من خلال الكلام. فهذا الكلام يريحهم من كربتهم ولو قليلاً. صمت بينيت فجأة بعد أن استنفد الكلام.

ثم قال فجأة:

ـ لا أرى موجبًا لوجودنا هنا.

قال هنري:

ـ حذّرتكم أنّ اجتماعنا مضيعة للوقت.

نهضوا. حدّق مولتبرغ مطوّلاً إلى عيني هنري وقال بلهجة متودّدة بعض الشيء:

ـ ربّما سنلتقي في وقت أقرب ممّا تظنّ.

عندما غادر المكتب، انتفض سامازيل قائلاً:

ـ ما أصعب النقاش مع أناس متحمّسين. ومن المؤلم أنَّهم يتباغضون فيما بينهم. كلٌّ واحد منهم يخوّن مَنْ بقي ستالينيًّا لوقت أطول من سواه. جميعهم مشبوهون في الحقيقة. بينيت ظلَّ خمس عشرة سنة في موسكو مراسلاً صحفيًّا. إذا كان يندّد بالنظام كما يفعل اليوم فيا للجبن الذي أبداه طيلة تلك السنوات! ثم اختتم كلامه بهيئة راضية: «إنّهم رجال تورّطوا في اتّخاذ المواقف التي لا يمكن لهم أن يتنكّروا لها».

قال هنري:

ـ على الأقلّ يتحلون بشيء من النزاهة. لم يشاؤوا التورّط مع ديغول.

قال سامازيل:

ـ لأنّهم يفتقرون إلى الحسّ السياسيّ.

صحيح أنّ سامازيل جنح ناحية اليسار، لكن لا شيء يمنع إطلاقًا من أن يتحالف مع اليمين. لأنّه لا يكترث لفحوى خطابه بل لعدد الناس الذين يجد عندهم آذانًا مصغية. اقترح على هنري أن يوافق على نشر مقالات فولانج، وراح يتحدّث بتعاطف مبطّن عن برنامج الاتّحاد الديغوليّ. تظاهر هنري بعدم التنبّه إلى تلميحاته. لكن تلك حيلة لا جدوى منها. لم يتردّد سامازيل في الدخول إلى صلب الموضوع صراحة.

قال بأسلوب منفتح:

ـ ثمّة معركة يجب خوضها بجدارة لمن نوى أن يؤسّس يسارًا مستقلاً. سكرياسين على صواب عندما يرى أنّ أوروبا ليس بوسعها أن تنهض دون مساعدة الولايات المتّحدة. يتعيّن علينا إزاء جميع القوى المناهضة لمسيرة الغرب أن نتكاتف معها باسم الاشتراكيّة الحقّة. هاك البرنامج الذي اقترحه علينا: قبول الدعم الأميركيّ بصفته صادرًا من الشعب الأميركي، والقبول بتحالف مع الاتّحاد الديغولي لأنّ بالإمكان توجيهه ربّما نحو سياسة يساريّة.

ثم حدَّق في هنري بنظرات قاسية وملحّة.

قال هنري:

ـ لا تعتمد عليَّ لتنفيذه. سأواصل محاربة السياسة الأميركيّة بكلّ قواي. وأنت تعرف تمامًا: الديغوليّة هي الرجعيّة.

قال سامازيل:

ـ أخشى ألاّ تكون قد أحطت بالوضع من كافّة جوانبه. عبثًا حاولت اتّخاذ الحيطة والحذر، ها نحن مصنّفون على أساس أنّنا مناهضون للمعسكر الشيوعي. وهذا يحرمنا من نصف قرّائنا. الفرصة الوحيدة المتاحة للجريدة هي محاولتها كسب قرّاء آخرين. لذا، يجب ألاّ نتوقّف في منتصف الطريق، بل ينبغي علينا المضيّ قدمًا في الاتّجاه الذي سلكناه لتوّنا.

قال هنري:

ـ أي أن نصبح فعليًّا جريدة مناهضة للشيوعيّة! لا تبحث في الأمر. إذا كان الإفلاس ينتظرنا فليكن، لكنّنا سنحتفظ بخطّنا حتى النهاية.

لم يُجب سامازيل بشيء. لا شكّ أنّ تراريو كان من رأيه. لكنّه يعرف أنّ لامبير ولوك سيدعمان هنري دومًا ولا يمكنه أن يخرق هذا التحالف.

بعد يومين، سأل سامازيل هنري وهو يرمي المجلّة الأسبوعيّة على مكتبه والابتهاج بادٍ على وجهه:

ـ هل رأيت *L 'Enclume* اقرأ...

قال هنري بفتور:

ـ وما الجديد المميّز في *L'Enclume*؟

قال سامازيل:

ـ هناك مقالة كتبها لاشوم عنك، اقرأها..

قال هنري:

ـ أقرأها لاحقًا.

ما إن غادر سامازيل المكتب حتى سارع هنري إلى تصفّح المجلّة. «فلتسقط الأقنعة»، هذا كان عنوان المقالة. كلّما قطع هنري شوطًا في قراءتها، شعر أنّ غيظه يحتدم. أخذ لاشوم يشرح موقفه المناهض لسياسة هنري من خلال استشهادات مجتزأة وخلاصات مغرضة، قائلاً إنّ جميع أعمال هنري نابعة من حساسيّة فاشيّة وهي تروّج لإيديولوجيا رجعيّة. فمسرحيّته الأخيرة إهانة بحقّ

المقاومة، وكما أنّ كره الناس الآخرين متأصّل لديه. وهذا ما تثبته بوضوح المقالات اللعينة التي نشرها في «*L'Espoir*» مؤخّرًا. لو أنّه أعلن صراحة عداءه للشيوعيّة لكان موقفه أكثر نزاهة من أن يؤكّد تعاطفه مع الاتّحاد السوفييتي فيما هو يشنّ حملة النميمة هذه. لم تُذكر كلمتا «خائن» و«مرتهن» صراحة لكن باستطاعتك تبيّنهما بين السطور. والأدهى من ذلك كلّه أنّ لاشوم هو الذي كتب المقالة. استعاد هنري صورة لاشوم من جديد وهو يلمّع بابتهاج أرضيّة الاستوديو حين كان يعيش مختبئًا عند بول. رآه في محطّة ليون متدثّرًا بمعطف طويل جدًّا، مرتبكًا تحت وطأة انفعاله لحظة الوداع. كانت سنابل الميلاد تفرقع وكان لاشوم جالسًا أمام الطاولة في «البار روج» وهو يردّد: «يجب أن نعمل جنبًا إلى جنب». ومن ثم سمعه يقول له بهيئة مرتبكة: «لم نهاجمك قطّ في مجلّتنا». حاول هنري أن يتبيّن حقيقة الأمر: «ربّما لم تكن غلطته. ربّما اختاره الحزب عمدًا ليقوم بهذه المهمّة. والحزب يتحمّل كامل المسؤوليّة عن المقال». لكنّ الغضب المسعور ما لبث أن ظهر في عيني هنري: «لاشوم هو من اختلق هذه المقالة جملة وتفصيلاً. ليست المسألة امتثالاً للأوامر فقط بل نعيد خلق ما نكتبه بأنفسنا. إنّ المسؤوليّة الأولى تقع على لاشوم وليس على شركائه، لأنّه يعرف تمامًا أنّه يكذب ويعرف تمامًا أنّني لست فاشيًّا ولن أصبح فاشيًّا في يوم من الأيّام».

نهض. لا جدوى من الردّ على هذه المقالة: كلّ ما سيقوله يعرفه لاشوم سلفًا! عندما لا يعود للكلام معنى، فإنّ الشيء الوحيد

الذي يجب فعله هو العراك. ركب سيّارته. لا بدَّ أنّ لاشوم موجود في «البار روج» في هذا الوقت. توجّه هنري باتجاه «البار روج» فألفى فنسان يتناول كأسًا من الشراب مع زملاء له. لكنّ لاشوم لم يكن هناك.

ـ لاشوم ليس هنا؟

ـ لا.

ـ إذًا هو في *L'Enclume*.

قال فنسان:

ـ لا أعرف. ثم نهض وتبع هنري باتّجاه الباب: «هل لديك سيّارتك؟ أريد الذهاب معك إلى الجريدة».

ـ لكنّي لست ذاهبًا إلى الجريدة. أنا ذاهب إلى *L'Enclume*.

قال فنسان:

ـ لا تعر بالاً لما حدث.

سأله هنري:

ـ هل قرأت مقالة لاشوم؟

ـ قرأتها. أطلعني عليها قبل أن ينشرها، وتشاجرت معه. مقالة قذرة دنيئة. لكن ماذا نستفيد من إثارة فضيحة؟

قال هنري:

ـ في الغالب لا تعتريني الرغبة في العراك مع أحد. لكن هذه المرّة أجد الأمر ضروريًّا. ومن الأفضل أن تُثار فضيحة.

ـ أنت مخطئ. سيستغلّون ذلك لكي يضخّموا الأمر، وسيضخّمونه أكثر فأكثر.

ـ أكثر ممّا فعلوا. وصفوني بأنّي فاشيّ. لا يمكنهم الذهاب أبعد من ذلك. وعلى أيّ حال، حتّى ولو ضخّموا الأمر فلن أبالي. فتح باب السيّارة فأمسك فنسان بذراعه:

ـ أنت تعرف، عندما يصمّمون على النيل من أحد فإنّهم لا يتراجعون أمام شيء. هناك نقطة ضعف في حياتك وسيشدّدون عليها.

نظر هنري إلى فنسان:

ـ نقطة ضعف؟ تقصد جوزيت وما يشاع عنها من أقاويل؟

ـ نعم، ربَّما تشكّ بصحّة الأمر لكنّ الجميع يتداول به.

ـ لكنّهم لن يجرؤوا على أيّ حال!

ـ وهل تعتقد أنَّ هذا سيزعجهم؟ عندما أطلعني لاشوم على مقالته، عاتبته على الكثير ممّا جاء فيها فحذف منها عشرة أسطر. لكنّه في المرّة المقبلة، لن يسكت عن الأمر.

لزم هنري الصمت. مسكينة جوزيت، كم هي سهلة الانجراح! سرت القشعريرة في ظهره وهو يتخيّلها تقرأ هذه الأسطر العشرة التي حذفها لاشوم. جلس أمام المقود: «اصعد، سنذهب إلى الجريدة. غلبتني». شغّل المحرّك ثم أضاف: «أشكرك!»

قال فنسان:

ـ ما كنت لأصدّق ذلك من لاشوم.

ــ لا من لاشوم ولا من أحد. التعرّض لأحد في حياته الخاصّة، وبهذه الطريقة بالذات، تصرّف حقير جدًّا.

ــ أجل حقير جدًّا. ثم قال بعد تردّد: «لكن عليك أن تفهم شيئًا: لم يعد لديك حياة خاصّة».

ــ كيف! ماذا تقول؟ بالتأكيد لديّ حياتي الخاصّة وهي لا تعني سواي.

ــ أنت رجل عامّ. كل ما تقوم به يصبّ في المجال العامّ: وهذا البرهان! عليك أن تكون شديد الحذر على طول الخطّ.

قال هنري:

ــ لا يمكنك أن تأخذ حذرك ممّن يسعى وراء النميمة. سار بصمت. «عندما أفكّر أنّهم اختاروا لاشوم بالذات للقيام بهذه المهمّة، لاشوم بالذات! هذه قمّة التفنّن في الرياء!» ثم أضاف: «لا بدَّ أنّهم يكرهونني!».

ــ وهل تتخيّلهم يحبّونك!

أمام مبنى الجريدة ترجّل هنري من السيّارة وقال: «عليَّ القيام ببعض المشتريات، وسأعود في غضون خمس دقائق». تذرّع بهذه الحيلة لأنّه أراد أن يختلي بنفسه لخمس دقائق. سار هائمًا تمامًا على وجهه: «هل تتخيّلهم يحبّونك!» لا، لا يتخيّل ذلك لكنّه لم يولِ عداوتهم حقَّ قدرها. تبادرت إلى ذهنه شعارات بائدة حتى كادت أن تنطلق من شفتيه: خصم رفيع المستوى، التحارب لكن ضمن حدود الاحترام... تلك كانت كلمات يرقى عهدها لسنتين أو لقرون عدّة،

ولم يعد أحد يفقه معناها. كان يعرف أنّ الشيوعيّين يهاجمونه صراحة لكنّه كان يطمئن نفسه بأنّ هناك من يكنّ له احترامًا في قرارة نفسه، لا بل إنّه كان يحثّ رفاقه على التأمّل في الأمور. «لكنّهم يكرهونني في الحقيقة!». ظلَّ سائرًا على غير هدى. باريس جميلة كئيبة مثل بروج ـ لا ـ مورت، يغلّفها ذهب الخريف الدخاني، وكان الحقد يتعقّبه وهذه تجربة جديدة عليه، خبيثة بما فيه الكفاية. فكّر هنري: «الحبّ ليس كليًّا، والصداقة هشّة كما الحياة... أمّا الحقد فلا يخطئ صاحبه وهو محتوم كالموت». من الآن فصاعدًا، حيثما يذهب، مهما يفعل، فإنّ هذا اليقين سيرافقه إلى كلّ مكان: «أنا مكروه!».

كان سكرياسين ينتظر رجوع هنري في مكتبه. فكّر هنري: «لا شكّ أنّه قرأ *L'Enclume* ويريد أن يضرب الحديد وهو حامٍ». سأله:

ـ ماذا هناك؟ ثم أضاف وهو يتظاهر بالبراءة: «هل الأمور تسير على ما يرام؟ سحنتك ممتقعة!».

قال سكرياسين:

ـ تنتابني آلام فظيعة في الرأس: لا يجد جفني سبيلاً إلى الغمض وأحتسي الكثير من الفودكا. لا شيء خطير. استوى على كرسيه وأظهر علامات الوقار على وجهه ثم قال:

ـ جئت أسألك عمّا إذا كنت غيَّرت رأيك منذ لقائنا الأخير؟

ـ لا، لن أغيّر رأيي.

ـ ألا تدفعك الطريقة التي يعاملك بها الشيوعيّون إلى التفكير بالأمر.

بدأ هنري يضحك:

ـ آه، أفكّر.أفكّر كثيرًا. لا أفعل إلاّ هذا.

أطلق سكرياسين تنهيدة عميقة: «توقعت أن يؤول بك الأمر لترى بوضوح ما يجري؟».

قال هنري:

ـ هيّا كفى! لا تتأسّف. لست بحاجة إليّ.

ـ لا يمكنك الاعتماد على أحد. اليسار فقد وهجه واليمين لم يتعلّم من أخطائه شيئًا. ثم أضاف بصوت حزين: «ثمّة لحظات يخطر لي فيها أن أذهب للاعتكاف في الريف».

ـ اذهب واعتكف.

ـ لا أشعر أنّ لي الحقّ في ذلك. وضع يده على جبينه متعبًا: «لشدّ ما يؤلمني رأسي!».

ـ هل تريد قرص أورتيدرين؟

ـ لا، لا، عليَّ أن أقابل أناسًا بعد قليل. زملاء قدامى، وهذا الأمر ليس ممتعًا دومًا. لذا لا أحرص على أن أكون في حالة من التبصّر التام.

خيَّم صمت. ثم سأل سكرياسين:

ـ هل ستردّ على لاشوم؟

ـ بالطبع لا.

ـ هذا مؤسف. حين تصمّم، تعرف كيف تدافع عن نفسك. كان ردّك على دوبروي محكمًا.

ـ نعم، لكن هل كان عادلاً؟ ثم تحرّى سكرياسين بنظراته وقال: «أتساءل عمّا إذا كان مخبرك صادقًا!».

قال سكرياسين وهو يمرّر يده على وجهه والألم بادٍ عليه:

ـ أيّ مخبر؟

ـ هذا الذي يدّعي أنّه رأى بطاقة دوبروي وملقه.

ـ آه، ما أهنأ بالك. ابتسم بشكل خاطف: «ليس له وجود أصلاً!».

ـ غير معقول! اختلقته!

ـ برأيي دوبروي شيوعيّ سواء التحق بالحزب أم لا. لكن لم تكن لديّ وسيلة أخرى لكي أقنعك برأيي. لذلك عمدت قليلاً إلى أسلوب الغشّ.

ـ وماذا لو وافقت على الالتقاء بالمخبر؟

ـ الحسّ السيكولوجي الأكثر بداهة يضمن لي أنّك لن توافق.

نظر هنري إلى سكرياسين مستاءً. لم يستطع أن يشعر بالحقد عليه لا سيّما أنّه اعترف بأنّه يكذب بهذه العفويّة. ابتسم سكرياسين حائرًا: «هل أنت غاضب منّي؟».

ـ القيام بخدع مماثلة أمر يدقّ على إدراكي!

ـ لقد أدّيت لك خدمة في الواقع.

ـ اسمح لي بألاّ أشكرك!

ابتسم سكرياسين دون أن يجيب. ثم نهض: «عليَّ الذهاب إلى موعدي».

بقي هنري لوقت طويل شاخص النظرات. لو لم يخترع سكرياسين هذه الأكذوبة، فما الذي كان سيجري؟ ربَّما سارت الأمور على المنوال نفسه، وربَّما لا. على أيّ حال، كان يكره التفكير بأنّه يلعب بأوراق مزوّرة. ما جعله يشعر برغبة هائلة لاستدراك خطئه. «لماذا لا أحاول شرح موقفي لنادين؟» هكذا خطر له فجأة. كان فنسان يراها أحيانًا. قرّر أن يسأله عن تاريخ موعدهما المقبل.

عندما دخل هنري يوم الخميس التالي إلى المقهى حيث كانت نادين تنتظر فنسان، أحسّ بنفسه منفعلاً بشكل مبهم. مع أنّه لم يكن يعلّق أهمّيّة كبيرة على حكم نادين. انتصب أمام الطاولة:

ـ مرحبًا!

رفعت عينيها وردّت بلامبالاة:

ـ مرحبًا.

لم يبدُ عليها أبدًا أنّها متفاجئة حتى.

ـ سيتأخّر فنسان قليلاً. جئت أنبئك بذلك. هل بإمكاني الجلوس؟

هزّت رأسها دون أن تجيب.

قال هنري مبتسمًا:

ـ أنا سعيد لأنّه يمكنني التحدّث إليك. كانت لدينا علاقاتنا الشخصيّة أنا وأنت. لذا أودّ أن أعرف فعلاً ما إذا كان خصامي مع أبيك يؤدّي أيضًا إلى خصام معك.

أجابته نادين ببرودة:

ـ آه! فيما يتعلّق بالعلاقات الشخصيّة، كنّا نرى بعضنا حين نتلاقى صدفة. عندما امتنعت عن المجيء إلى *Vigilance*، لم نعد نرى بعضنا. ليست هناك من مشكلة.

ـ أستميحك المعذرة! ثمّة مشكلة بالنسبة لي. إذا كنّا غير متخاصمين، فلا شيء يمنعنا إذًا من تناول كأس سويّة من وقت لآخر.

ـ ولا شيء يجبرنا على ذلك.

ـ إذًا، وحسب ما أرى، نحن متخاصمان؟ لم تجب فأضاف: «ومع ذلك ترين فنسان الذي يتبنّى موقفي نفسه!».

ـ فنسان لم يكتب الرسالة التي كتبتها.

أجاب هنري بحيويّة:

ـ اعترفي أيضًا أنّ رسالة أبيك لم تكن وديّة هي أيضًا!

ـ ليس هذا سببًا وجيهًا. رسالتك منفّرة إلى حدّ لا يصدّق.

ـ وإن يكن، كنت غاضبًا. نظر إلى نادين مباشرة في عينيها: «أقسموا لي، والدلائل الدامغة في حوزتهم، إنّ والدك التحق

بالحزب الشيوعي فغضبت لأنّه أخفى ذلك عنّي. ضعي نفسك في مكاني».

ــ لم يكن عليك إلاّ عدم تصديق مثل هذه الحماقات.

عندما يركب العناد رأسها فلا أمل يُرجى بإقناعها. على أيّ حال لم يكن هنري يستطيع تبرير موقفه إلاّ إذا وضع دوبروي في موضع الاتّهام، فأغفل الأمر.

سألها:

ــ هل أنت حاقدة عليَّ بسبب هذه الرسالة فقط؟ أم أنّ زملاءك الشيوعيّين أقنعوك بأنّني خائن للقضيّة؟

قالت نادين:

ــ ليس لديَّ زملاء شيوعيّون. حدجت هنري بنظرة قاسية: «سواء كنت خائنًا للقضيّة أم لا، المهمّ أنّك لم تعد ذلك الذي كنته».

قال هنري غاضبًا:

ــ ما تقولينه بلاهة. لا أزال الشخص نفسه.

ــ لا!

ــ ما الذي تغيّر؟ منذ متى؟ وعلامَ تلومينني؟ اشرحي موقفك.

ــ أوّلاً تعاشر أهل السوء من ذاك المجتمع «الراقي». علت نبرتها فجأة: «ظننت أنّك أنت على الأقلّ تريد أن تتذكّر. تقول أشياء رائعة في مسرحيّتك كأن لا ننسى وما إلى ذلك. ومن ثم فعليًّا، أنت كالجميع!».

ـ آه، إنّه فنسان وقد أخبرك قصصًا واهمة!

ـ ليس فنسان. بل سيزيناك. التمع الشرّر في نظرات نادين: «كيف بإمكانك أن تلمس يد تلك المرأة. لو كنت مكانك لكنت سلخت جلدي وأنا حيّة...».

ـ سأقول لك ما قلته لفنسان في يوم ليس ببعيد: حياتي الخاصّة تعنيني وحدي. سنة مضت على معرفتي بجوزيت. لم أتغيّر، أنت تغيّرتِ.

ـ لم أتغيّر. فقط السنة الفائتة، لم أكن أعرف ما أعرفه الآن. ثم أضافت بلهجة متحدّية: «وفوق ذلك، كنت أثق بك!».

قال هنري بغضب:

ـ ولماذا كففت عن ذلك؟

أخفضت نادين رأسها ولم تردّ.

ـ هل أخذت موقفًا ضدّي بسبب قضيّة المعتقلات؟ هذا حقك. لكن أن يؤول بك الأمر لأن تتّخذي قرارًا بأنّني نذل فالأمر لا يمكن التغاضي عنه. ثم أضاف بصوت محتدم: «هذا رأي والدك ولا شكّ بذلك. لكنك لم تكوني توافقين على ما يقوله وكأنّه بمثابة كلام الإنجيل!».

ـ ليس نذلاً من يتحدّث عن المعتقلات، وأرى أنّ له ما يبرّره. المسألة هي معرفة لماذا فعلت هذا.

ـ سبق وشرحت موقفي، أليس كذلك؟

قالت نادين:

ـ ذكرت أسبابًا عامة . لكنّ أسبابك الخاصّة لا تزال مجهولة.
من جديد رمقت هنري نظرة قاسية: «اليمين كلّه ينثر عليك الأزهار، وهذا مزعج. ستقول لي إنّه لا يمكنك فعل شيء حيال ذلك. وهذا أيضًا مزعج».

ـ لكن، نادين، ألا تعتقدين أنّ هذه الحملة هي مناورة لتقريبي من اليمين.

ـ لكنّ اليمين يقترب منك على أيّ حال.

ـ هذا كلام سخيف! لو أردت الانتقال إلى صفوف اليمين لفعلت! ترين جيّدًا أنّ «*L'Espoir*» لم تغيّر خطّها وأقسم لكِ إنّ لي الفضل في ذلك. ألم يخبرك فنسان كيف تجري الأمور في الجريدة؟

ـ فنسان أعمى حين يتعلّق الأمر بأصدقائه. بالطبع، هو يدافع عنك وهذا نابع من طهارة في قلبه وليس أكثر.

ـ وأنت حين تتّهمينني بأنّني نذل، هل لديك إثباتات؟

ـ لا. ثم إنّي لا أتّهمك. أرتاب بك، هذا كل شيء. ابتسمت ابتسامة صارمة: «أنا شخص يرتاب بالآخرين منذ طفولتي».

نهض هنري:

ـ لا بأس. ارتابي قدر ما يحلو لك. أنا، حين تربطني بأحد صداقة ولو ضئيلة، أحاول أن أثق به. لكنّ الأمر، في الواقع، ليس مماثلاً بالنسبة لك. أخطأت في مجيئي لرؤيتك. أعتذر!

فكّر أثناء عودته إلى منزله: «الارتياب!! لا شيء أسوأ من الارتياب. أفضّل أن تلطّخ جبهتي بالوحول كما فعل لاشوم فهذا

أكثر صراحة». تخيّلهم جالسين في المكتب يحتسون القهوة: دوبروي وآن ونادين. لا يقولون «إنّه نذل» فهم على درجة عالية من التوجّس، بل يتوخّون الحذر. بماذا يمكننا الردّ على من يرتاب. بإمكان المجرم أن يجد لنفسه أعذارًا، لكن ماذا يفعل مشتبه به؟ يصبح أعزل تمامًا.

«نعم. هذا ما صنعوا بي: جعلوا منّي مشبوهًا»، هكذا فكّر بغضب في الأيّام التالية: «وفوق ذلك يلومونني جميعهم على أنّ لديّ حياتي الخاصّة!». لكنّه لم يكن محامي الشعب ولا قائدًا نشيطًا، بل كان حريصًا على حياته، حياته الخاصّة. وبالمقابل كان الخوض في أمور السياسة أكثر ممّا يحتمل. إذ لا راحة معها ولا يشعر الإنسان أبدًا بأنّها تنصفه. كل تضحية تترتّب عليها واجبات جديدة. بداية، أرادوا الجريدة، والآن يريدون أن يقفوا بوجهه ويأخذون عليه سعيه وراء سعادته، باسم ماذا؟ على أيّ حال، لم يكن يفعل شيئًا ممّا يريد فعله بل يفعل العكس: لا يستحقّ الأمر عناء أن نزعج أنفسنا. قرّر ألاّ يزعج نفسه وأن يتصرّف على هواه. لقد بات على قناعة بأنّ النقطة التي وصل إليها ينبغي عليه ألاّ يتوقّف عندها.

ومع ذلك، ففي المساء الذي ألفى نفسه فيه جالسًا أمام الطاولة بين لوسي بلوم وكلودي دوبلزنس، يحتسون شمبانيا حلوة المذاق للغاية، تساءل هنري فجأة: «ماذا أفعل هنا؟» لا يحبّ الشامبانيا ولا الثريّات ولا المرايا ولا مخمل المقاعد، ولا هاتين المرأتين اللتين تعرضان بسخاء بشرتهما المنهكة. لا يحبّ لا لوسي ولا دودول ولا

كلودي ولا فيرنون، ولا الممثّل الشابّ الذي ذبُل شبابه باكرًا ويقال عنه إنّه عشيقه.

قالت كلودي:

ـ عندئذٍ دخلتْ إلى الغرفة فرأته مضطجعًا على السرير عاريًا، وذا إحليل صغير.. بهذا الحجم. قالت وهي تشير إلى إصبعها الصغير. سألت: «أين يوضع هذا؟ في الأنف؟». أخذ الرجال الثلاثة يضحكون بصخب. قالت لوسي بصوت يشوبه الجفاف: «نكتة مضحكة جدًّا!». كانت معاشرتها امرأة شريفة النسب ترضي غرورها لكنّها تستاء من النبرة الفظّة التي تتعمّدها كلودي عندما تخرج برفقة من هم أدنى منها مرتبة. لولو بذلت جهدًا مضنيًا لكي تبرز تميّزًا يضاهي أناقتها. التفتت ناحية هنري وهمست له وهي تشير إلى الشابّ الجميل الذي كان يعبّ بقشّته الشيري غوبلر من كأس فيرنون:

ـ سيكون رويري جيّدًا في دور الزوج.

ـ أيّ زوج؟

ـ زوج جوزيت.

ـ لكنّنا لا نراه فهو يموت في أوّل المسرحيّة.

ـ أعرف، لكنّ قصّتك بالنسبة للسينما محزنة جدًّا. بريو يقترح أن يتمكّن الزوج من الهرب والانخراط في صفوف المقاومة. وفي النهاية يعود ويغفر لجوزيت.

هزّ هنري كتفيه:

ـ بريو سينقل مسرحيّتي للسينما ولا شيء أكثر!

ـ لن تتخلّى عن مليوني فرنك لتردّ طلبه منك أن تبعث ميتًا على الشاشة.

قالت كلودي:

ـ يتظاهر بأنّه يمقت المال. مع أنّنا بحاجة ماسّة إليه، وكان الحصول عليه أسهل أيّام الاحتلال النازي.

قالت لوسي:

ـ لا تتكلّمي هكذا أمام مقاوم وجوديّ متحمّس.

هذه المرّة ضحكوا جميعًا في وقت واحد. وابتسم هنري في صحبتهم. لو كان بإمكانهم أن يسمعوه ويروه لكانوا جميعًا عابوا عليه تصرّفه: لامبير كما فنسان، فولانج كما لاشوم، وأيضًا بول وآن ودوبروي وسامازيل ولوك حتّى، وكذلك كل هؤلاء المحتشدين المجهولين الذين يتوقّعون منه شيئًا. ولهذا السبب بالذات، كان هنا، وسط هؤلاء الناس، لأنّه لا يجدر به أن يكون هنا. إنّه مخطئ، مخطئ تمامًا، دون تحفّظ، دون عذر. أيّ سلام هذا! كان سئم حتى الاعتلال من تساؤله المستمرّ: «هل أنا على خطأ أم على صواب؟ على الأقلّ، هذا المساء كان يعرف الجواب: أنا مخطئ، مخطئ تمامًا: تخاصم مع دوبروي إلى الأبد، وفُصل عن الـ *S.R.L*، وأصدقاؤه القدامى، في أغلبهم، يرتعشون مرتعبين عندما يُذكر اسمه. في مجلّة *L'Enclume*، كان لاشوم وزملاؤه ــ وكم غيرهم في باريس والأرياف ــ ينعتونه بالخائن. وفي كواليس ستوديو ٤٦،

قرقعة رشّاشات والألمان يحرقون مدينة فرنسيّة فيما الغضب والهول يستيقظان في النفوس المنقبضة. وفي كل مكان يتأجّج الحقد. تلك هي المكافأة التي حظي بها: الحقد وما من وسيلة لقهره، إلاّ بالشرب. الآن أدرك ما كان يشعر به سكرياسين، فملأ قدحه من جديد.

قالت لوسي:

ــ ما فعلته عمل شجاع.

ــ عمّ تتحدّثين؟

ــ لكنّك فضحت كل هذه الممارسات الفظيعة!

ــ لكن، بهذا المعنى، هناك آلاف الأبطال في فرنسا! إذا هاجمنا الاتّحاد السوفييتي فلن نُرمى بالرصاص ولن نجازف بأنفسنا.

تفرّست لوسي في هنري بنظرة حائرة قليلاً:

ــ نعم. لكنّك جعلت لنفسك موقعًا في صفوف اليسار. لا بدّ أنّ هذه القصّة تورّطك.

ــ لكنْ فكّري في الموقع الذي كان يمكن أن أحتلّه في صفوف اليمين!

قال دودول:

ــ اليمين واليسار.. كل هذه مفاهيم تمّ تجاوزها. يجب أن نُفهم الناس أنّ التعاون بين الرأسماليّة والعمل ضروري للنهوض بالبلاد من كبوتها. قمت بعمل جيّد إذ بدّدت إحدى الأساطير القائلة بأنّ لا مجال للتوفيق بينهما.

ـ لا تسارع إلى تهنئتي!

هذه هي الوحدة الأسوأ: أن يرى أمثال هؤلاء الناس يدعمونه. الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف. إنّها الساعة الأكثر رهبة. المسرح يفرغ الآن، وكلّ هؤلاء المشاهدين الذين أسرهم لمدّة ثلاث ساعات يشنّون هجومهم عليه وينقلبون ضدّه دفعة واحدة: «يا للمجزرة!».

قالت كلودي بهيئة راضية:

ـ لا بدّ أنّ دوبروي العجوز يرغي ويزبد غضبًا.

قالت لوسي:

ـ قل لي، من تضاجع زوجته؟ فهو في النهاية مسنّ..

قال هنري:

ـ لا أعرف!

قالت لوسي:

ـ ذات مرّة شرّفتني بزيارتها. تلك المدّعية المغرورة. آه كم أكره هؤلاء النسوة اللواتي يرتدين زيّ مؤجّرات الكراسي لكي يوهمن الناس أنّهنّ متضلّعات بقضايا اجتماعيّة!

آن مدّعية. ودودول الذي جال العالم كان يقول إنّ البرتغال جنّة. وكانوا جميعًا يظنّون أنّ الثراء فضيلة وأنّهم يستحقون ثرواتهم وكان على هنري أن يلتزم الصمت لأنّه جالس بينهم.

ـــ... الخير، قالت جوزيت وهي تضع حقيبتها الصغيرة المبرّقة على الطاولة. كانت ترتدي ثوبها الأخضر الذي يكشف عن صدرها وكتفيها بوفرة. لم يكن هنري يفهم تصرّفها: ما دامت تؤذيها شهوة الذكور فلماذا تعمد إلى إظهار مفاتنها أمامهم؟ لم يكن يحبّ أن تظهر هذه البشرة الطريّة على مرأى من عامّة الناس وكأنّها ماركة مشهورة. جلست إلى جانبه عند طرف الطاولة.

سألها:

ــ هل كان الأداء جيّدًا؟ هل صفّروا لك؟

قالت:

ــ آه! نجاح باهر بالنسبة لك!

إجمالاً، لم يكن النقاد سلبيّين جدًّا حيالها. قالوا إنّها مبتدئة وإنّ لديها كلّ الحظوظ نسبة إلى الجمال الذي تتمتّع به. وعليها أن تتحلّى بالصبر لتصبح فنّانة محترفة وتؤسّس لمهنة مشرّفة. لكنّها لا زالت تعاني من بعض خيبات الأمل. ثم أشرق وجهها:

ــ أرأيتها. هناك، أمام الطاولة في الزاوية، إنّها فيليسا لوبيز، ما أجملها!

قالت لوسي:

ــ ما أجمل الحلى التي ترتديها خصوصًا!

ــ ما أجملها!

ـ يا صغيرتي، لا تقولي أبدًا في حضرة الرجل عن امرأة أخرى إنّها جميلة. لأنّه والحالة هذه قد يتصوّر أنّك أقلّ جمالاً منها. وكوني متأكدّة: ما من امرأة تصل بها البلاهة لأن تبادلك بالمثل.

قال هنري:

ـ دعي لجوزيت الحرّيّة بأن تكون صريحة. ما من شيء تخشاه.

قالت لوسي بنبرة يشوبها احتقار مبهم:

ـ معك، ربّما. لكن ثمّة من لا يستمتعون بأن يروا أمامهم وجهًا كوجه النادبات. اسكب لها لتشرب. على المرأة الجميلة أن تكون فرحة.

قالت جوزيت:

ـ لا أريد أن أشرب. ثم أضافت بصوت مرتعش: «لديَّ بثرة في زاوية شفتي. لعلّها الكبد. أريد أن أشرب من ماء فيشي».

قالت لوسي وهي تهزّ كتفيها:

ـ ما هذا الجيل!

قال هنري:

ـ حسنة الشرب هي أنّنا نسكر في النهاية.

قالت جوزيت بقلق:

ـ هل أنت ثمل؟

ـ أوه! لا نسكر من الشمبانيا، هذا جهد لا طائل منه. مدّ يده باتّجاه زجاجة الشراب فردعته:

ـ نعم الأمر، لديَّ شيء أرغب في قوله لك. تردّدت ثم أضافت:

ـ لكن عدني بألاّ تغضب.

ضحك:

ـ لا أستطيع أن أعدك دون أن أعرف فحوى الموضوع.

نظرت اليه بنفاد صبر:

ـ إذًا لم تعد تحبّني.

ـ هيّا قولي!

ـ حسنًا، أجريت مقابلة مع مجلّة *L'Eve Moderne*، مساء البارحة...

ـ وماذا أخبرتهم فيها؟

ـ قلت لهم إنّنا مخطوبان. ثم أضافت بحيويّة: «لم أقل هذا لأرغمك على الزواج بي. بإمكاننا إعلان فسخ الخطوبة ساعة نشاء». لكنّ الجميع يروننا معًا طيلة الوقت، والقول إنّنا مخطوبان يمنحني وضعيّة اجتماعية لائقة، كما تعرف». ثم أخرجت من حقيبتها البرّاقة صفحة من المجلّة وبسطتها أمامه والرضى بادٍ على وجهها: «وأخيرًا، ولمرّة يكتبون مقالة لطيفة!».

ـ أريني إيّاها. ثم تمتم: «آه سحنتي ممتازة!».

كانت جوزيت ترتدي ثوبًا مقوّر الصدر بشكل مبالغ فيه وتضحك، وإلى جانبها هنري وأمامهما أقداح الشمبانيا. كان هنري يضحك هو أيضًا. فكّر غاضبًا: «تمامًا كما أفعل الآن. بين ظنّهم بأنّني أمضي لياليَّ وأنا أحتسي الشمبانيا وقولهم إنّي مرتهن

لأميركا، خطوة واحدة. وهذه الخطوة، ما أسهل القيام بها!». لكنّه يكره هذه الضوضاء العقيمة، ويتردّد إلى هذه الأماكن إرضاءً لجوزيت ليس أكثر، فهذه الأوقات يمضيها على هامش حياته المهنيّة. تابع التحديق إلى الصورة: «المشكلة أنّني في الصورة وأنّني في هذا المكان بالذات!».

قالت جوزيت:

ـ هل أنت غاضب؟ وعدتني بألاّ تغضب.

قال:

ـ لست غاضبًا إطلاقًا. فكّر بكل اقتناع: «ليذهبوا جميعًا ويتغوّطوا!» لا يدين لأحد بشيء وينحّي كل الأخطاء جانبًا. هذه هي الحرّيّة الحقيقيّة! «تعالي نرقص».

قاما ببعض الخطوات في الحلبة المزدحمة بالرجال ذوي البذلات السموكنغ والنساء في أثواب الديكولتيه.

سألت جوزيت:

ـ هل صحيح أنّك تنزعج من رؤيتي حزينة؟

ـ يزعجني أن تكوني حزينة.

هزّت كتفيها:

ـ لا دخل لك بذلك!

ـ ومع ذلك فهذا يزعجني. ما من داعٍ كما تعرفين. ما يقوله الناس عنك ممتاز. وأؤكّد لك أنّ الكثيرين سيتعاونون معك.

ـ نعم، هذه حماقة منّي. لأنّي حمقاء. كنت أظنّ أنّه غداة العرض الأوّل للمسرحيّة سيتغيّر كلّ شيء في حياتي وستكفّ أمّي عن التحدّث إليّ بطريقتها المعهودة. وأنّ حياتي النفسيّة ستتغيّر إلى حدّ بعيد.

ـ عندما تكتسبين خبرة طويلة في التمثيل وتصقلين موهبتك، عندئذٍ، كلّ شيء سيبدو لك مختلفًا..

ـ لا، تصوّرت أن... تردّدت: «أنّ ذلك سيكون كفعل السحر».

كانت مؤثّرة جدًّا حين تسعى لأن تجسّد أفكارها الحائرة في كلمات: «عندما يقع أحد في غرامك، غرامًا حقيقيًّا، تشعر أنّ في الأمر سحرًا لأنّ كلّ شيء يتغيّر. ظننت أنّ هذا ما سيحصل لي بعد العرض الأوّل».

ـ قلت لي في يوم ليس ببعيد إنّ أحدًا لم يقع في غرامك.

احمرّ وجهها:

ـ آه، مرّة واحدة. حدث لي هذا مرّة واحدة عندما كنت في سنّ المراهقة كنت خارجة للتوّ من المدرسة الداخليّة، ولم أعد أتذكّر.

قال هنري بلطف:

ـ لكن، يبدو عليك أنّك تتذكّرين. من هو؟

ـ فتى شابّ. لكنّه رحل. رحل إلى أميركا. نسيته. إنّها قصّة قديمة.

سأل هنري:

ـ وأنا وأنت؟ أليس في علاقتنا شيء من السحر.

نظرت إليه بشيء من العتب:

ــ آه! أنت لطيف. تُسمعني أشياء لطيفة، لكن ليس هذا بالغرام الذي يدوم ما دامت الحياة، ولا ينتهي بانتهائها.

قال هنري بشيء من الانزعاج:

ــ ولا الفتى الشابّ، لأنّه رحل.

قالت جوزيت بلهجة غاضبة لم يسمعها صادرة عنها من قبل:

ــ آه، دعني بسلام من هذه القصّة. رحل لأنّه لا يستطيع أن يفعل شيئًا آخر.

ــ هل توفّي؟

ــ وما أدراك بذلك؟

قال متفاجئًا من عنف نبرتها:

ــ عذرًا يا حبيبتي، هل توفّي؟

ــ توفّي. نعم. في أميركا. هل أنت راضٍ؟

ــ لم أكن أعرف. لا تغضبي. تمتم هنري وهو يعيدها إلى الطاولة.

تُرى أما زالت تحتفظ بعد مضيّ عشر سنوات بهذه الذكريات المؤلمة؟ وتساءل بانزعاج: «هل بإمكانها أن تحبّ أحدًا أكثر ممّا تحبّني؟ وليكن، إذا لم تكن تحبّني، فهذا أفضل. هكذا أتنصّل من مسؤوليّاتي ولا أعود في موقع المذنب». شرب عدّة كؤوس، الواحدة تلو الأخرى. وعندئذٍ، أخذت جميع الأشياء من حوله تهذي، باعثة رسائلها المبهرة بسرعة خاطفة وكان الوحيد القادر على الإمساك بها لكنّه لا يلبث أن ينساها في الحال، للأسف! لم يعد يعرف ماذا يعني عود الخشب هذا الملقى بتهاون بالقرب من إحدى

الكؤوس بطريقة جانبيّة. والثريّات، وهذه البلّورات المتدلّية، ماذا تمثّل؟ وهذا العصفور الذي يتأرجح على رأس لوسي كأنّه مسلة جنائزيّة: العصفور الميت، المصبّر، كان بحدّ ذاته ضريحها الجنائزي. على غرار فولانج. لماذا لا يتنكّر فولانج بزيّ عصفور. في الحقيقة، كانوا كلّهم حيوانات متنكّرة. من وقت لآخر تحدث اختلاجة كهربائيّة صغيرة في دماغهم فتخرج عندئذٍ الكلمات على لسانهم.

قال لجوزيت:

ـ انظري! حولّناهم جميعًا إلى بشر: الشمبانزي والبطباط والنعامة والفقمة والزرافة. وهم يتكلّمون، لكن لا أحد يفهم ما يقوله الآخر أرأيت؟ لا تفهمينني: أنا وأنت لسنا من الفصيلة نفسها!

قالت جوزيت.

ـ لا أفهم قصدك.

فقال بلهجة متسامحة:

ـ لا بأس، لا بأس. ثم نهض: «تعالي نرقص».

ـ لكن، ماذا دهاك؟ تدوس على أذيال فستاني. هل شربت كثيرًا؟

ـ ولا مرّة كما ينبغي. ألا تريدين فعلاً أن تشربي ولو قليلاً. ستشعرين بتحسّن كبير إذ ذاك. بإمكانك القيام بأيّ شيء تريدينه. تستطيعين مثلاً أن تضربي دودول أو أن تقبّلي والدتك..

ـ ألا تريد أن تقبّل أمّي؟ ماذا دهاك؟ لم أرك قطّ على هذه الحالة.

قال:

ـ سترينني من الآن فصاعدًا.

تزاحمت مجموعة من الذكريات في رأسه بنزق واستعاد كلمة قالها لامبير. فهتف بها لجوزيت بلهجة مفخمّة «أرأيت، أتمثّل الشرّ!».

ـ لكن ماذا تقول؟ تعال، اجلس.

ـ لا، لنرقص.

رقصا ثم جلسا من جديد ثم رقصا أيضًا. دخلت البهجة إلى نفس جوزيت شيئًا فشيئًا وقالت بصوت منبهر: «انظر إلى هذا الرجل الطويل القامة الذي دخل لتوّه. إنّه جان ـ كلود سيلفير. هذه الحانة جيّدة فعلاً. سنعود إليها».

قال هنري:

ـ نعم، حانة جيّدة.

نظر من حوله مندهشًا: ماذا يفعل هنا بالضبط؟ وفجأة، صمتت الأشياء وشعر بالنعاس وبألم في معدته: «هذا ما يسمّونه الفجور». لنهربْ، لليلة بإمكاننا الهرب، مع القليل من الحظّ والكثير من الويسكي كما كان يقول سكرياسين، وهو العارف بذلك. مع الشمبانيا، تسير الأمور أيضًا. ننسى أخطاءنا وذرائعنا، ننسى الكره وننسى كلّ شيء.

ردّد هنري:

ـ حانة جيّدة. ومن ثم أليس صحيحًا ما يقال: إنّنا لا نتسلى لأجل التسلية. سنعود يا حبيبتي إلى هنا، سنعود!

الفصل الثامن

إنّها لمغامرة غريبة فعلاً أن يعيش المرء حبًّا ويرفضه في آن معًا. كانت رسائل لويس تفطر قلبي. كتب لي قائلاً: «هل سأستمرّ على هذا المنوال: أحبّك في كل يوم أكثر فأكثر؟». وفي رسالة أخرى، قال لي: «أيّ حيلة ماكرة قمت بها معي! لم يعد باستطاعتي إحضار نساء عابرات إلى غرفتي، هاتيك النساء اللواتي كان بإمكاني أن أمنحهنّ بعض الحبّ، لم يعد لديّ ما أمنحهنّ إيّاه». كم رغبت وأنا أقرأ هذه الكلمات أن أرتمي بين ذراعيه! بما أنّ هذا الحبّ ممتنع عليَّ، كان الأوجب أن أقول له: «انسني». لكنّي لم أشأ قول هذا. أردت أن يحبّني. أردت أن ألحق به كلّ الأذى الذي تسبّبت له به. كان الأسى الذي يعتصر قلبه يحدث في قلبي ندمًا عظيمًا فأتعذّب لعذابه. ما أبطأ مرور الوقت! ما أسرع مروره! بقي لويس بعيدًا عنّي كما من قبل. لكنّ زمن الصبا يضيع من يدي شيئًا فشيئًا. حبّنا يشيخ وذات يوم سيموت دون أن تزهر براعمه. كانت تلك فكرة لا تُحتمل. شعرت بالسعادة لمغادرتي سان ـــ مارتان وللالتقائي في باريس بزبائني المرضى والأصدقاء والضوضاء والمهمّات التي تشغلني عن التفكير بنفسي.

لم أرَ بول منذ شهر حزيران الماضي. شغفت كلودي بها ودعتها لإمضاء الصيف في قصرها البورغونيّ. تفاجأت كثيرًا من

قبول بول دعوتها. عندما اتّصلت بها لدى عودتي إلى باريس، حيّرني التهذيب البشوش والبارد الذي تجلى في صوتها.

ــ بالطبع سأسرّ كثيرًا لرؤيتك. هل أنت متفرّغة غدًا فنذهب سويّة إلى تدشين معرض ماركادييه؟

ــ أفضّل رؤيتك على حدة. أليس لديك وقت آخر؟

ــ ذلك أنّي منشغلة جدًّا هذه الأيّام. مهلاً، هل بإمكانك المرور غدًا بعد الغداء؟

ــ هذا يناسبني جدًّا. اتّفقنا.

للمرّة الأولى، منذ سنوات أرى بول متأنّقة. عندما فتحت لي الباب كانت ترتدي تايورًا حديث الزيّ رماديًّا صوفيًّا مجزّعًا مع بلوزة سوداء. شعرها مسرّح إلى الأعلى وغرّتها مقصوصة على جبينها. حاجباها مزجّجان، وجهها ممتلئ وموردّ اللون بشكل خفيف.

قالت بمودّة:

ــ كيف حالك؟ هل أمضيت عطلة جيّدة؟

ــ ممتازة وأنت هل كنت سعيدة؟

قالت بلهجةٍ بدت لي مفعمة بالمعاني المضمرة:

ــ في غاية السعادة. تفحّصتني بنظرات مرتبكة ومستفزّة في آن:«ألم تجدي أنّني تغيّرت؟».

قلت:

ـ تبدين في حالة ممتازة. وتايورك جميل جدًّا.

ـ كلودي أهدتني إيّاه.

ـ إنّه من تصميم بالمان.

ليس هناك مأخذ يؤخذ على هذه القصّة المرهفة ولا على هذا الخفّ الأنيق. ربّما لم أكن معتادة على أسلوبها الجديد. كانت بول تبدو لي أكثر غرابة في أزيائها القديمة الطراز والتي كانت تبتكرها بنفسها فيما مضى. جلست متقاطعة الساقين وأشعلت سيجارة: قالت وهي تضحك ضحكة خفيفة: «هل تعرفين، أنا امرأة جديدة».

لم أعرف بماذا أجيب فقلت ببلاهة:

ـ هل هذا تأثير كلودي.

ـ كلودي ذريعة لا أكثر، مع أنّها شخص مميّز جدًّا. شردت لوهلة ثم أضافت: «الناس أهمّ ممّا تصوّرت. ما إن تكفّين عن إبقائهم على مسافة منك، يصبح كلّ مطلبهم بأن يكونوا لطفاء». تفحّصتني بنظرات ناقدة وقالت: «عليك أن تخرجي أكثر».

قلت بتكاسل:

ـ ربّما، من كان هناك عند كلودي؟

قالت مندهشة:

ـ أوه! الجميع.

ـ ألا تفكّرين في فتح صالون أنت أيضًا.

ضحكت: «أوتعتقدين أنّي غير قادرة على ذلك؟».

ـ على العكس.

رفعت حاجبيها:

ـ على العكس؟

خيّم صمت، ثم قالت بلهجة جافّة:

ـ على أيّ حال، لديَّ شيء جديد في حياتي حاليًّا.

ـ وما هو؟

ـ أكتب.

قلت وأنا أصطنع الحماسة:

ـ هذا جيّد!

قالت مبتسمة:

ـ لم أكن أتصوّر أنّني سأتّجه إلى الكتابة الأدبيّة، لكنّ العديد من الأصدقاء قالوا إنّه يجدر بي ألاّ أضيّع كل هذه المواهب وإلاّ فإنّي أقترف جريمة.

ـ وماذا تكتبين؟

ـ يمكنك أن تسمّي هذه الكتابة كما تشائين: قصص قصيرة، قصائد... من الصعب تصنيفها.

ـ هل أطلعت هنري عليها؟

ـ بالطبع لا، قلت له إنّني أكتب لكنّي لم أطلعه على شيء. هزّت كتفيها: «أنا متأكدّة من أنّه سيتفاجأ. لم يسعَ قطّ للبحث عن

أشكال جديدة. على أيّ حال، التجربة التي أخوضها يجب أن أخوضها وحدي». نظرت إليَّ مواجهة وقالت بلهجة مفخّمة:

ـ اكتشفت الوحدة!

ـ ألم تعودي متعلقة بهنري؟

ـ بلى، لكنّي أحبّه كشخص حرّ. رمت سيجارتها في المدفأة الفارغة ثم أضافت: «كانت ردّة فعله غريبة!».

ـ هل لاحظ أنّك تغيّرت.

ـ بالطبع فهو ليس أبله.

ـ تصوّري!

أمّا أنا فكنت أشعر أنّني بلهاء. ساءلت بول بنظراتي.

قالت بارتياح:

ـ في البداية، لم أتّصل به لدى عودته. انتظرت أن يفعل هو ذلك. وهذا ما حصل. استجمعَت أفكارها لآونة ثم أضافت: «ارتديت تايوري الجميل وفتحت له الباب بهدوء كلّي. وللحال تبدّلت ملامحه. شعرت أنّه مضطرب. أسند جبينه إلى النافذة وأدار لي ظهره لكي يحجب وجهه عنّي فيما كنت أتحدّث إليه بهدوء عن علاقتنا معًا وعن أحوالي الخاصّة. ثم نظر إليَّ بطريقة غريبة وأدركت أنّه يريد امتحاني».

ـ ولماذا يريد امتحانك؟

ـ أوشك أن يقترح عليَّ أن نستعيد حياتنا المشتركة ثم تراجع. أراد أن يعرف ما إذا كنت موضع ثقة فعلاً. له الحقّ في أن يشكّ. لم تكن علاقتي به يسيرة إبّان هاتين السنتين.

ـ وعندئذٍ؟

ـ عندئذٍ قال لي بلهجة رصينة إنّه مغرم بالصغيرة جوزيت. أخذَتْ تضحك ضحكات متواصلة: «هل أيقنت من الأمر؟».

تردّدت:

ـ إنّه على علاقة بها، أليس كذلك؟

ـ بالطبع. لكنّه ليس مضطرًّا ليأتي إليَّ ويقول لي إنه يحبّها. لو كان يحبّها، لما قال لي ذلك بكل تأكيد. إنّه يضعني تحت المراقبة، هل فهمت؟ لكنّي انتصرت سلفًا لأنّني مكتفية بذاتي.

قلت:

ـ فهمت. واستجمعت كلّ شجاعتي لأجعل ابتسامتي عريضة واثقة.

قالت ببشاشة:

ـ المضحك في الأمر، وأكثر من أيّ شيء آخر، هو أنّه في الوقت نفسه كان يظهر بمظهر العاشق المدلّل إلى حدّ بعيد، لا يريدني أن أزعجه. لكنّي لو كففت عن حبّه، أعتقد أنّه سيكون قادرًا على القضاء عليّ. اسمعي، حدّثني عن متحف غريفان.

ـ وما الداعي؟

ـ هكذا، فجأة... يبدو أنّ هناك من دخل الأكاديميّة، مورياك أو دوهاميل وسيقام تمثال له في متحف غريفان. هل تعتقدين أنّ هنري لا يأبه للأمر. في الحقيقة، كان يلمّح بطريقة خفيّة لذاك اليوم الشهير بعد الظهر حين وقع في غرامي: يريدني أن أتذكّر.

قلت:

ـ الأمر معقد.

ـ لكن لا. الأمر في غاية البساطة. على أيّ حال، هناك أمر سهل جدًّا يمكن القيام به. بعد أربعة أيّام، سيجري العرض الأوّل للمسرحيّة، وسأتكلّم مع جوزيت.

سألتها بقلق:

ـ ماذا ستقولين لها؟

ـ أوه، كلّ شيء ولا شيء. ثم أضافت بعد ضحكة عابرة: «أريد أن أحظى بإعجابها». نهضت: «أحقًّا أنّك لا تريدين المجيء معي إلى حفل التدشين؟».

ـ ليس لديّ وقت.

وضعت بيريه سوداء على رأسها ولبست قفّازيها:

ـ بصراحة قولي كيف تجدينني؟

لم أبحث عن أجوبة نابعة من ذاتي بل نظرت إلى وجهها وقلت:

ـ أنت رائعة!

ــ سنرى بعضنا البعض خلال العرض الأول. هل ستأتين إلى العشاء؟

ــ بالطبع.

نزلت معها إلى الشارع، مشيتها تغيّرت أيضًا. مشت طريقها بثقة لكنّها ثقة المسرنم.

قبل العرض الأول بثلاثة أيّام، شاهدت مع روبير عرضًا تجريبيًّا لمسرحيّة «الناجون». تأثّرنا كلانا بالمسرحيّة. أحبّ كل كتب هنري وتمسّني بشكل شخصي. لكنّي أعترف أنّه لم يكتب حتى الآن ما هو أفضل منها: هذا العنف الكلامي جديد لديه. وأيضًا هذه الغنائيّة المضحكة والسوداويّة في آن. هذه المرّة، ما من مسافة بين الحبكة والأفكار. يكفي أن تعير انتباهك للقصّة لكي تفرض المسرحيّة معناها عليك. بما أنّ هذا المعنى ملتصق بقصّة فريدة ومقنعة، فإنّه كان غنيًّا غنى الواقع. «هذا هو المسرح الحقيقي»، قال روبير. أملت أن تكون ردّة فعل المشاهدين مماثلة لما شعرنا به. إلاّ أنّ هذه الدراما التي تمتزج فيها الملهاة بالمأساة كانت شديدة الوقع على الناس وتوشك أن تنفرهم. عندما رُفع الستار في مساء العرض الأول، شعرت بأنّي قلقة فعلاً. كانت الصغيرة جوزيت تفتقر بوضوح إلى التقنيّة لكنّها ما لبثت أن تماسكت واستعادت ثقتها بنفسها عند ردّة الفعل الإيجابيّة التي صدرت عن الجمهور. بعد الفصل الأول، بدأ التصفيق بشكل حادّ. وكانت النهاية تتويجًا لنجاح المسرحيّة. بالطبع، هناك لحظات حقيقيّة من السعادة في حياة الكاتب، لا سيّما إذا لم يكن سيّئ الحظّ إلى درجة عالية. من

الطبيعي أن يكون متأثرًا عندما يعلم هكذا دفعة واحدة أنّه نجح في مسعاه.

عندما دخلنا إلى المطعم، شعرت باندفاع الناس نحو هنري وهم يعبّرون عن تعاطفهم معه. وهذا التعاطف الحقيقي، نادر جدًّا! كلّ شيء من حوله زائف، الابتسامات والأصوات والكلمات. أمّا هو فكان بالضبط مشابهًا لنفسه. بدا سعيدًا ومرتبكًا بعض الشيء، وشعرت بالحاجة إلى أن أقول له أشياء كثيرة لطيفة. لم يكن يجدر بي الانتظار. ما كادت خمس دقائق تمرّ حتى انقبض حلقي. يجدر بي القول إنّ النحس لازمني حين التقيت بلوسي بلوم في اللّحظة التي كانت تقول فيها لفولانج وهي تشير إلى ممثّلتين يهوديّتين: «لم يكن لدى الألمان أفران لحرق الجثث بل محاضن للأطفال!». كنت أعرف المزحة لكنّي لم أسمعها بأذنيّ من قبل. ارتعبت من لوسي بلوم ومن نفسي، وحقدت على هنري. في مسرحيّته، قال أشياء جميلة حقًّا عن النسيان لكنّه كان شديد النسيان هو نفسه. زعم فنسان أنّ الأمّ بلوم جُزّ شعرها وأنّها نالت ما تستحقّه. لكن فولانج: ماذا يفعل هنا؟ تلاشت لديّ كل رغبة في تقديم التهاني لهنري. أظنّ أنّه أحسّ بانزعاجي. مكثت برهة قصيرة تلبية لرغبة بول، لكنّي شعرت بأشياء كبيرة فعمدت إلى تناول الشراب بإسراف. وهذا لم يساعدني البتّة. تذكّرت الكلمات التي قالها لامبير لنادين. تساءلت: «بأي حقّ أعاند وأصرّ على التذكّر؟ لديّ من الذكريات أقلّ من الآخرين. وتعذّبت أقلّ منهم. وإذا كانوا قد نسوا، إذا كان لا بدّ من النسيان فما عليّ إلاّ أن أنسى أنا أيضًا». ولكن عبثًا تشارهت في

الشرب. شعرت بالرغبة في شتم أحد أو البكاء. التصالح، المسامحة! أيّ كلمات مرائية! ننسى، هذا كل شيء. وكأنَّ نسيان الموتى ليس كافيًا. الآن، ننسى الجرائم، ننسى المجرمين. وإن يكن، ليس لديَّ الحقّ: وإذا كانت عيناي تغرورقان بالدمع فهذا لا يعني سواي.

في ذلك المساء، تحدّثت بول مطوّلاً إلى جوزيت. لم أعرف ماذا قالت لها. في الأسابيع التالية، بدا لي أنّها تتفادى لقائي متذرّعة بأنّها تخرج وتكتب، وأنّها منشغلة. كانت تحيط نفسها بهالة من الأهمّيّة. لم أقلق بشأنها البتّة. أخذت بمشاغل كثيرة. وحين عدت إلى البيت ذات يوم بعد الظهر، ألفيت روبير شاحبًا من الغضب. كانت هذه المرّة الأولى في حياتي التي أراه فيها خارجًا عن طوره: تخاصم لتوّه مع هنري. روى لي ما حدث بجمل مختصرة ومتقطّعة. ثم قال لي بلهجة حاسمة:

ــ لا تحاولي أن تجدي له أعذارًا. إنّه غير معذور.

لم أسعَ لذلك في الحال. فقدت قدرتي على الكلام. خمس عشرة سنة من الصداقة تبخّرت في ساعة واحدة! لن يعود هنري للجلوس ثانية على هذه الكنبة. لن نسمع بعد الآن صوته المرح. كم سيكون روبير وحيدًا! وهنري من جهته، كم ستكون حياته فارغة! لا، لا يمكن لهذه القطيعة أن تكون نهائيّة: استعدت قدرتي على الكلام.

قلت:

ـ هذا محال. تجاوزتما حدّ النقاش أنتما الاثنين. في هذه الحالة، يمكن أن تخطئ هنري على المستوى السياسي، لكن دون أن تتخلى عن صداقتك معه. أنا واثقة من أنّ نواياه حسنة. وليس سهلاً أن يرى الإنسان المواقف بوضوح: وعليّ القول من جهتي إنّه لو توجّب عليّ اتّخاذ قرارات على مسؤوليّتي الشخصيّة، لكنت أربكت بطريقة ولا أسوأ.

قال روبير:

ـ تتكلمين وكأنّني طردت هنري رفسًا. لم أطالب إلاّ بتسوية الأمور بالتراضي. لكنّه ذهب وصفق الباب وراءه.

ـ هل أنت واثق أنّك لم تهدّده بالرضوخ أو بالقطيعة؟ عندما طلبت منه أن تصبح «*L'Espoir*» جريدة *S.R.L.*، كان مقتنعًا أنّه في حال الرفض، سيخسر صداقتك. هذه المرّة لم يشأ الرضوخ مفضّلاً، ولا شكّ، بَتّ المشكلة في الحال.

ـ لم تكوني حاضرة ساعة حصول النقاش الحادّ. منذ البداية، كان سيّئ النيّة بشكل فاضح. لا أقول إنّ الوفاق معه كان سيحصل بسهولة لكن كان بإمكاننا على الأقلّ تجنّب الفضيحة. بعدئذٍ، دحض كلّ الحجج التي قدّمتها ورفض النقاش مع اللجنة وذهب به الأمر إلى حدّ التلميح بأنّي كنت ملتحقًا سرًّا بالحزب الشيوعي. مختصر القول: كوني على يقين بأنّه سعى إثر هذه القطيعة.

ـ فكرة سخيفة.

لا شكّ أنّ هنري كان يضمر في قلبه أحقادًا حقيقيّة ضدّ روبير منذ زمن بعيد. لماذا التخاصم الآن؟

حدّق روبير في البعيد بنظرة قاسية:

ـ أزعجه، هل تفهمين؟

ـ لا، لا أفهم.

ـ أحواله تسوء. هل رأيت أيّ صنف من الناس يعاشر؟ نحن ضميره الذي يوقظ لديه شعورًا بالذنب، وهو لا يطالب إلاّ بالتخلّص منه.

قلت: «أنت ظالم! أنا أيضًا، كنت مشمئزّة في ذلك المساء، لكنّك أكّدت لي بنفسك أنّ عرض المسرحيّة في هذه الظروف يرغم الكاتب على تقديم بعض التنازلات، وأنّ هنري لن يذهب بعيدًا فيما يفعله. فهو بالكاد يعاشر هؤلاء القوم. يضاجع جوزيت. لكن بالإمكان الاطمئنان من هذه الناحية لأنّها ليست هي من تستطيع التأثير عليه».

ـ هذا العشاء، بحدّ ذاته، لم يكن خطيرًا. أنا موافق. لكنّه مؤشّر لشيء أبعد منه. هنري شخص شديد الغرور بنفسه ويريد أن يتسنّى له الإعجاب بنفسه بكلّ أمان ودون أن يدين لأحد بشيء.

ـ شديد الغرور بنفسه؟ لكنّه يمضي وقته وهو يقوم بأشياء تزعجه. أنت بنفسك كنت تقول دومًا إنّه متفان إلى حدّ بعيد.

ـ عندما يروق له الأمر. في الحقيقة ليس منشغلاً إلاّ بنفسه. قاطعني روبير بحركة نافدة الصبر: «هذا ما أعيبه عليه أكثر من

أيّ شيء آخر: في هذه القضيّة، لم يشغل باله إلاّ ما يقوله الناس عنه».

ـ لا تقل لي إنّ وجود المعسكرات لا يعني لك شيئًا!

ـ بلى، يعني لي شيئًا. ليست هنا المسألة. هزّ كتفيه: «هنري لا يريد أن يوجّه إليه الاتّهام بأنّه يهاب الشيوعيّين. يفضّل بالفعل الانتقال إلى المعسكر المعادي لهم. وبناءً على ذلك، يلائمه أن يتخاصم معي لأنّه يستطيع والحالة هذه أن يصطنع، دون قيود، وجهًا جميلاً للمثقف ذي القلب الكبير، هذا المثقف الذي يلقى ترحيبًا حارًّا في أوساط اليمين».

ـ هنري غير مهتمّ بأن يعجب اليمين!

ـ يريد أن يظهر إعجابه بنفسه وهذا سيقوده حتمًا إلى اليمين. لأنّ الوجوه الجميلة، في جهة اليسار، لا تجد معجبين كثرًا. مدّ روبير يده نحو الهاتف: «سأدعو اللّجنة للاجتماع غدًا صباحًا».

طيلة السهرة قلّب روبير الرسالة التي أراد تسليمها إلى اللّجنة من وجوهها كافّة. غمر الحزن قلبي في صباح اليوم التالي عندما بسطت جريدة *«L'Espoir»* ورأيت الرسالتين اللتين يتبادل فيهما هنري وروبير الشجب والاستنكار. نادين أيضًا أحسّت بالانزعاج. كانت تحتفظ بقدر كبير من الصداقة لهنري. ومن جهة أخرى، لم تكن تتحمّل أن يُهاجم والدها علانيّة.

قالت بغضب:

ـ إنّه لامبير الذي حرّض هنري.

وددت أن أفهم ماذا يدور في رأس هنري. كانت التأويلات التي قدّمها لامبير مغالية في سوء الظنّ. أكثر ما أثار سخطه أنَّ هنري لم يتحدّث إليه بثقة. لكنّي قلت في نفسي: ولكن بعد كل حساب، روبير هو الذي أعطى المبرّرات الكافية لهنري لكي يرتاب به. لو قلت ذلك له سيجيبني أنّ هنري كان عليه أن يسامحه منذ زمن طويل! حسنًا، المسامحة شيء رائع، لكنّ الماضي لا يُنسى إراديًا! وأدرك عن طريق التجربة أنّه يسهل علينا أن نكون مجحفين مع الناس الذين لم نعتد على توجيه الأحكام بشأنهم. أنا مثلاً، وتحت ذريعة أنّ روبير شاخ قليلاً بالنسبة لأمور تافهة، حدث لي أن شككت به. والآن، بتّ على يقين أنّ القرار الذي اتّخذه بالسكوت عن قضيّة المعسكرات نابع من حجج دامغة، لكنّي، ظننت لوقت ما أنّه نابع من ضعف في رؤيته السياسيّة. لذا أفهم هنري. هو أيضًا أعجب بروبير بطريقة عمياء ليس فيها تبصّر: مع أنّه مدرك لسلطويتّه، إلاّ أنّه استوعبه دومًا وفي كل المواقف حتى عندما شعر أنّه مرغم على التعايش معه على مضض. لا بدَّ أنّ قضيّة تراريو تركت فيه أثرًا، فشعر أنّ روبير الذي خيّب ظنّه لمرّة قادر على تخييب ظنّه مرّة أخرى، ولأيّ سبب كان.

وأخيرًا، إنّ الاسترسال في هذه المسألة لا يجدي نفعًا. العودة إلى الوراء غير ممكنة، المسألة المطروحة الآن تتعلق بمصير الــ *S.R.L* التي بانقسام أفرادها وتفكّكهم تفقد الصوت المعبّر الذي ينطق باسمها، وبالتالي فإنّها تحكم على نفسها بالتداعي سريعًا. اقترح لافوري، عبر وساطة لونوار، أن تُدمج الــ *S.R.L* مع الجماعات

الدائرة في فلك الشيوعيّة. فأجابه روبير أنّه يريد الانتظار إلى ما بعد الانتخابات لكي يتّخذ قراره. لكنّي كنت أعرف أنّه لن يوافق. إنّ اكتشاف أمر المعسكرات لم يجعله غير مبالٍ. ولم تكن لديه رغبة في الاقتراب من الشيوعيّين. إنّ لأعضاء الـ *S.R.L* الحريّة بالانضمام إلى الحزب الشيوعيّ، لكنَّ الحركة إذا انضمّت كفّت عن الوجود ببساطة.

لونوار أوّل المنضمّين إلى الحزب. سُرّ لأنّ الانقسام الحادّ في صفوف الـ *S.R.L* أزال الغشاوة عن عينيه. وتبعه كثيرون: ما أكثر الذين أزيلت الغشاوة عن أعينهم في تشرين الثاني بعد نجاح الشيوعيّين في الانتخابات.

جاءت الصحافيّة الناشئة ماري ـ آنج تسأل روبير إجراء مقابلة معها لمجلّة *L'Enclume*.

سألتها:

ـ لكن منذ متى انتسبت إلى الحزب الشيوعيّ؟

أجابتني ببرودة تنمّ عن تعالٍ:

ـ مذ أدركت أنّه يجب على المرء أن يلتزم بقضايا الناس.

رفض روبير إجراء المقابلة. كلّ هذه الإشاعات من حوله تغيظه. وبالرغم من ضغينته حيال هنري، أثارت مقالة لاشوم استياءه. وعندما عاد لونوار إلى الكلام، استمع إليه بنفاد صبر.

قال لونوار بنبرة متحمّسة.

ـ إنّه أجمل ردّ يستطيع الشيوعيّون القيام به في مواجهة هذه الحملة الحقيرة التي طالتهم: النجاح في الانتخابات. بيرون والجماعة الدائرة في فلكه لم يفلحوا في إقناع ناخب واحد. ثم نظر إلى روبير بنظرة مشوّقة: «الآن ستجد أعضاء الـ *S.R.L* قلبًا واحدًا يسيرون معك. إذا اقترحت عليها الاندماج الذي تحدّثنا عنه في ذلك اليوم».

قال روبير:

ـ الـ *S.R.L* انتهى أمرها، أنا لم أعد أكترث لأمور السياسة.

ـ عجبًا ماذا تقول! ثم أضاف مبتسمًا: «لكن أعضاء الـ *S.R.L* لا زالوا أحياء يرزقون. تكفي كلمة واحدة منك لتجعلهم صفًّا واحدًا وراء هدف واحد...».

ـ لا نيّة لي في قول هذه الكلمة.. لم أكن على وفاق مع الشيوعيّين قبل مسألة المعتقلات. وليس الوقت مناسبًا الآن لأرتمي في أحضانهم.

ـ المعتقلات؟ ماذا دهاك! رفضت المشاركة في هذه الخديعة.

ـ رفضت التحدّث عن المعتقلات لكنّي لم أكفّ عن الإيمان بوجودها. يجب دومًا وقبل كل شيء التخوّف من حدوث الأسوأ. هذه هي الواقعيّة الحقيقيّة.

قطّب لونوار حاجبيه ثم قال: «يجب أن نعرف كيف نتصوّر الأسوأ ونتجاوزه. من هنا، يمكنك أن تعيب على الشيوعيّين ما تشاء لكنّ هذا يجب ألاّ يؤدّي إلى قطع التعاون معهم».

كرّر روبير: «لا، لا، السياسة وأنا افترقنا. أعود إلى مقرّي مطمئنّ البال».

كنت أعرف أنّ الـ *S.R.L* لم تعد موجودة، وأنّ روبير لا يخطّط لأيّ مشروع جديد. لا، بل أصابني شيء من الصدمة حين سمعته يصرّح بأنّه سيلزم مقرّه نهائيًّا. عندما غادر لونوار، سألته:

ــ هل تركت السياسة فعلاً؟

ابتسم روبير:

ــ أشعر أنّها هي التي تريد أن تهجرني، فماذا بإمكاني أن أفعل؟

ــ أنا موقنة أنّ من يطلب يجد.

ــ لا، ثمّة أمر بتّ مقتنعًا به اليوم. هناك أقلّيّة انعدمت أمامها فرص النجاح. هزّ كتفيه: «لا أريد أن أعمل لا مع الشيوعيّين ولا ضدّهم».

قلت ببشاشة:

ــ هل ستتكرّس كلّيًّا للأدب؟

أجابني روبير دون حماسة:

ــ نعم.

ــ بوسعكم متابعة كتابة المقالات في *Vigilance*.

ـ من حين لآخر سأعمد إلى الكتابة. لكنّ ما نكتبه لا يترك أيّ تأثير. ما قاله لونوار عن مقالات هنري صحيح كأن لم تحدث أيّ تأثير في مجرى الانتخابات.

ـ يبدو أنّ لونوار يتوهّم أنّ هنري أسف لكتابتها. لكنّ هذا مجحف، فنظرًا لما قلته لي بنفسك، لم يكن يتمنّى هذا.

قال روبير بلهجة متعجرفة:

ـ لا أعرف ما الذي يتمنّاه. ولست واثقًا من أنّه مدرك ذلك بنفسه.

قلت بحيويّة:

ـ على أيّ حال، عليك الاعتراف أنّ *«L'Espoir»* لا تسير في خطّ معاداة الشيوعيّة.

ـ هذا صحيح لغاية الآن. يجب التريّث لنرى التتمّة.

أغاظني التفكير أنّ روبير وهنري تخاصما بسبب قصّة انتهت بشكل تافه. مسألة مصالحتهما ليست مطروحة على جدول البحث. لكنّ روبير كان يشعر بالوحدة. وهذا واضح. لم يكن شتاءً سعيدًا. الرسائل التي تلقّيتها من لويس مبهجة لكنّها لم تبعث فيَّ الشعور بالرضى. أثلجت في شيكاغو والناس يتزحلقون على البحيرة، ولويس يمضي الأيّام معتزلاً في غرفته يمنّي نفسه بآمال معسولة: في شهر أيّار، سنعبر المسيسيبي في المركب وننام معًا في القمريّة، تهدهدنا دمدمة المياه. بدا عليه تيقّنه من ذلك. لا شكّ أنّ المسيسيبي لا يبدو من شيكاغو بعيدًا إلى هذا الحدّ. لكنّي كنت أعرف أنّ هذا

النهار البارد والرماديّ الذي يتكرّر صباح كلّ يوم سيظلّ يتكرّر إلى ما لا نهاية. فكّرت: «لن نلتقي أبدًا ولن يكون هناك ربيع».

خلال أمسية من تلك الأمسيات التي لا معنى لها، سمعت صوت بول عبر الهاتف. تحدّثت إليّ بلهجة آمرة:

ـ آن، هل هذه أنت فعلاً؟ تعالي الآن، الأمر عاجل وأحتاج لأكلمك.

قلت:

ـ أنا آسفة، لديّ مدعوّون على العشاء. سأمرّ بك غدًا صباحًا.

ـ ألا تفهمين؟ يحدث لي شيء رهيب. وأنت الوحيدة القادرة على مساعدتي!

ـ ألا يمكنك الحضور إلى هنا ولو قليلاً؟

صمتت ثم قالت:

ـ من لديك على العشاء؟

ـ عائلتا بليتييه وكانج.

ـ هنري ليس هناك؟

ـ لا.

ـ أنت واثقة؟

ـ كلّ الثقة.

ـ إذًا أنا آتية إليك. لكن لا تخبري أحدًا بالأمر.

بعد نصف ساعة، دقت الباب: أدخلتها إلى غرفتي. كان منديل قاتم يخفي شعرها. والمساحيق التي استخدمتها لم تستطع إخفاء أنفها المنتفخ. كان للهاثها رائحة قويّة من النعناع والنبيذ السيّئ. لم أتخيّل يومًا أنّ بول ذات الجمال الأخّاذ لن تعود جميلة كما هي الآن. ظننت أنّ شيئًا ما في وجهها سيقاوم كلّ شيء.

وفجأة بدا لي الأمر واضحًا: وجهها، كما وجوه الآخرين، مكوّن من لحم إسفنجيّ ويدخل الماء في تركيبته بنسبة تفوق الـــ ٨٠%. نزعت منديلها وتهاوت على الديوان: «هاك اقرئي ما تلقّيت لتوّي!».

رسالة من هنري. بضعة سطور واضحة الكتابة على ورقة صغيرة بيضاء: «بول، نتسبّب بالأذيّة واحدنا للآخر. من الأفضل الامتناع عن التلاقي. حاولي عدم التفكير بي. أتمنّى أن نوفّق يومًا في أن نصبح صديقين. هنري».

قالت:

ــ هل فهمت منها شيئًا؟

قلت:

ــ لم يجرؤ على التوجّه إليك مباشرة فأرسل إليك رسالة.

ــ ماذا تقصدين بقولك؟

ــ يبدو لي الأمر واضحًا.

ــ هنيئًا لك.

نظرت إليَّ نظرات متفحّصة فما كان منّي إلاّ أن قلت بصوت خافت:

ـ إنّها رسالة قطيعة؟

ـ قطيعة؟ هل سبق لكِ أن قرأت رسالة قطيعة مكتوبة على هذا النّحو؟

ـ ليس فيها ما يدعو إلى العجب.

هزّت كتفيها:

ـ كفى! بداية، ما الذي بيننا لنقطعه؟ يعرض عليَّ الصداقة وأنا لا تربطني به إلاّ علاقة صداقة.

ـ أأنت واثقة من أنّك لم تقولي له إنّك تحبّينه.

ـ أحبّه خارج هذا العالم. هل يؤثّر هذا الأمر الآن على صداقتنا؟ ثم قالت بلهجة عنيفة ذكّرتني فجأة بصوت نادين: «هو الذي سعى إلى هذا الحبّ! هذه الرسالة تنمّ عن خبث لا يُطاق! اقرئيها من جديد: «حاولي عدم التفكير بي» لماذا لا يقول ببساطة: لا تفكّري بي بعد الآن؟ يخون نفسه، يريد أن أتعذّب وأنا «أحاول» لكنّه لا يتمنّى أن أوفّق في مسعاي. كذلك، بدل أن يقول لي: «عزيزتي بول» يقول «بول». تهدّج صوتها وهي تتلفّظ باسمها.

ـ خشي أن تبدو لك كلمة «عزيزتي» خبيثة؟

ـ لا، إطلاقًا. تعرفين، في الحبّ وفي لحظات الهجر التي تهتزّ فيها العلاقة العاطفيّة الأكثر تشوّشًا، لا يُلفظ الاسم مجرّدًا. يريدني أن أسمع صوته الحميم، هل تفهمين؟

ـ لكن، لماذا؟

أجابتني وهي تنظر إليّ نظرة اتّهاميّة:

ـ هذا ما جئت أسألك إيّاه! ثم أشاحت بنظرها: «نتسبّب بالأذيّة واحدنا للآخر»: هنا ذروة المهزلة! يدّعي أنّني أعذّبه!

ـ هو يفترض أنّه يتعذّب جرّاء تسبّبه بتعذيبك.

ـ وهل تصوّر أنّ هذه الرسالة تحمل لي شيئًا إلاّ العذاب! هيّا كفّي عن هذا الكلام. ليس بهذا الغباء.

ساد صمت قصير. ثم سألتها:

ـ كيف تنظرين إلى ما حدث؟

ـ لا أرى بوضوح. لا شيء واضحًا بالنسبة لي. لم أتوقع أن يكون بهذه الساديّة. مرّرتْ يديها على خدّيها بحركة منهكة. «بدا لي أنّني حققت بعض الإنجازات. عاد واثقًا وودودًا. لأكثر من مرّة، شعرت أنّه على أهبة أن يقول لي إنّ الامتحان انتهى. لكنّي، في ذلك اليوم، ارتكبت حماقة؟».

ـ ما الذي حدث؟

ـ في الصحافة أعلن عن زواجه بجوزيت. وبطبيعة الحال، لم أصدّق ذلك دقيقة واحدة. كيف بإمكانه أن يتزوّج جوزيت. فيما كنت أنا زوجته. هذا أيضًا يشكّل جزءًا من الامتحان. فهمت ذلك على الفور. جاء ليعترف لي بأنّ هذه كذبة.

ـ صحيح؟

ــ لكنّي أقول لك ذلك! هل ترتابين بي أنت أيضًا؟

ــ قلت: «صحيح» ولم أضمّن كلامي سؤالاً.

ــ لا بل قلت «صحيح؟». والآن لنغيّر الموضوع. جاء. حاولت أن أشرح له أنّ بإمكانه أن يضع حدًّا لهذه المهزلة وأنّ أيّ تغيير في مجرى حياته لا يمكنه أن يمسّني من الآن فصاعدًا، وأنّني أحبّه في تخلّ مطلق. لا أعرف ما إذا كنت أنا الخرقاء أم كان هو المجنون. كل كلمة كنت أقولها كان يحمّلها معنى آخر. كان هذا مرعبًا...

خيّم صمت طويل. ثم سألتُ بحذر:

ــ لكن ماذا يريد منك بالضبط، ما قولك؟

تفرّست بي بارتياب وقالت:

ــ لكن أيّ لعبة تمارسين معي؟

ــ لا أمارس أيّ لعبة!

ــ تطرحين عليّ أسئلة بلهاء.

وبعد فترة أخرى من الصمت، استأنفت كلامها: «تعرفين تمامًا مراده. يريد أن أعطيه كلّ شيء بدون أن أسأله شيئًا. الأمر بسيط. ما أجهله هو هل كتب هذه الرسالة لأنّه يعتقد أنّني سأطلب منه أن يبادلني الحبّ أم لأنّه يخشى أن أحجب عنه حبّي. في الحالة الأولى، إنّها المهزلة المستمرّة. أمّا في الحالة الثانية... ».

ــ في الحالة الثانية؟

قالت متجهمّة:

ــ إنّه الانتقام. ثم حدجتني من جديد بنظرة متردّدة، مرتابة وملحّة مع ذلك: «يجب أن تساعديني...».

ــ كيف؟

ــ يجب أن تتحدّثي إلى هنري وتقنعيه.

ــ لكن، تعرفين يا بول أنّ روبير وأنا تخاصمنا لتوّنا مع هنري...

قالت بكآبة:

ــ أعرف. لكنّك ترينه مع ذلك.

ــ بالطبع لا.

تردّدت ثم قالت:

ــ لنسلّم بذلك، تستطيعين في جميع الأحوال رؤيته. لن يرميك من أعلى الدرج.

ــ سيظنّ أنّك أنت من أرسلني ولن يعود لما سأقوله أيّ معنى.

ــ هل أنت صديقتي؟

ــ بالطبع!

رمقتني بنظرة منكسرة. وفجأة، تهدّل خداها وأجهشت بالبكاء:
ــ «أشكّ بكل شيء».

ــ بول، أنا صديقتك!

ـ إذًا اذهبي وكلّميه. قولي له إنّني على آخر رمق وإنّ هذا يكفي. قد أكون ارتكبت بعض الأخطاء. لكن، منذ زمن بعيد وهو يعذّبني. قولي له أن يكفّ!

ـ افرضي أنّني قمت بهذا المسعى. عندما سأصارحك بما قاله لي، فهل ستصدقينني القول؟

نهضت، مسحت دموعها وسوّت منديلها، ثم قالت وهي تسير باتّجاه الباب:

- سأصدّقك إذا قلت لي الحقيقة.

كنت أعرف أنّه من غير المجدي تمامًا التحدّث إلى هنري. أمّا بالنسبة لبول، فسيكون كل حوار ودّيّ معها غير مجدٍ من الآن فصاعدًا. لحسن الحظّ، لا يُسمح لنا بمعالجة المقرّبين منّا وإلاّ لشعرت أنّني أستغلّ ثقتها بي. شعرت بارتياح خجول عندما رفضت أن ترفع سمّاعة الهاتف لدى اتّصالي بها، وعندما أجابت على رسالتي بطريقة مقتضبة: «اعذريني، أنا بحاجة إلى الوحدة. سأتّصل بك في الوقت المناسب».

تابع الشتاء يجرجر أذياله. كات نادين مضطربة جدًّا منذ قطيعتها مع لامبير. انقطعت عن رؤية الجميع ما عدا فنسان ولم تعد تهتمّ بالصحافة بل حصرت كلّ اهتمامها بعملها في *Vigilance*. كان روبير يقرأ بنهم ويصطحبني في أغلب الأحيان إلى السينما، ويمضي الساعات مستمعًا إلى الموسيقى. أخذ يشتري الأسطوانات

بحماسة. وكان تعلقه بهذه العادة الجديدة يعني، كما في كلّ مرّة، أنّ عمله متعثّر.

ذات صباح، وفيما كنّا نتناول طعام الإفطار ونتصفّح الجرائد، لفت انتباهي مقال للونوار. كانت هذه المرّة الأولى التي يكتب فيها في جريدة شيوعيّة بهذه اللهجة التهجّميّة. أخذ يجهز على أصدقائه القدامى بكل شراسة، متعرّضًا لروبير بأقلّ سوء ممكن لكنّه صبّ جام غضبه على هنري.

قلت:

ـ انظر إلى هذه المقالة.

قرأ روبير المقالة وطرح الجريدة جانبًا: «يجب الاعتراف أنّ لهنري الفضل في أنّه لم يصبح معاديًا للشيوعيّة».

ـ قلت لك إنّه سيصمد على موقفه.

قال روبير:

ـ لا بدّ أنّ الجريدة تمرّ بأزمة، نشعر عبر مقالات سامازيل أنّه لا يطلب إلاّ الانحياز إلى جهة اليمين، ومعه تراريو بطبيعة الحال. ولامبير مشبوه أكثر من أيّ وقت مضى.

ـ آه، هنري ليس في وضع يُحسد عليه. ثم ابتسمت: «في الواقع أنتما في وضع مشابه: كلاكما متخاصمان مع الجميع».

ـ موقفه أصعب منّي!

كان هنالك شيء من اللطف في صوته. شعرت أنّ حقده على هنري بدأ يتلاشى.

ـ لن أتوصّل أبدًا إلى فهم سبب تخاصمه معك بهذه الطريقة. أنا متأكّدة اليوم أنّه يعضّ أصابعه ندامة.

قال روبير:

ـ فكّرت بذلك غالبًا. في البداية لمته لأنّه أراد قبل كل شيء تلميع صورته في هذه القضيّة. والآن أعتقد أنّه لم يكن على خطأ إلى هذا الحدّ. في الواقع يجب أن نحدّد دور المثقف في أيّامنا هذه. فالسكوت عمّا يجري يعني التهرّب من مواجهة الحقيقة. وفي مثل سنّه، من الطبيعي أن يعبّر عن نفوره.

قلت:

ـ المفارقة أنّ هنري يحرص أقلّ منك بكثير على الاضطلاع بدور سياسي.

ـ ربَّما أدرك أنّ أشياء أخرى مطروحة على بساط البحث...

ـ مثل ماذا؟

تردّد روبير: «هل تريدين معرفة ما أفكّر به حقًّا؟».

ـ بالطبع.

ـ لم يعد للمثقف أيّ دور يقوم به.

ـ ماذا تقول؟ بإمكانه أن يعبّر عن موقفه عن طريق الكتابة. أليس كذلك؟

ـ آه، قد نستمتع بحبك الكلمات كما نحبك اللآلئ في عقد، دون أن نقول شيئًا يُذكر. لكن حتى لو فعلنا ذلك فهذا خطير.

ــ كفى هذرًا! في كتابك تدافع عن الأدب!

ــ آمل أن يكون ما قلته سيعود صحيحًا ذات يوم. الآن أفضل شيء نفعله هو جعل الآخرين ينسوننا.

سألته:

ــ لن تكفّ عن الكتابة، أليس كذلك؟

ــ بلى. حين سأنتهي من هذا البحث، سأنقطع عن الكتابة.

ــ لكن لماذا؟

ــ ولماذا أكتب؟ لأنّه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ولأنّي أؤمن بضرورة هذا الأمر غير الضروريّ. أكتب لأنقذ ما أغفله العمل السياسيّ، أي عن الراهن، والفردي، والتلقائي. ظننت حتى الآن أنّ ما أقوم به يندمج في العمل الثوري. لكن، لا، إنّه يزعجه. وكلّ أدب يهدف في زمننا الحالي إلى أن يعطي البشر شيئًا آخر إلاّ الخبز يُستغلّ لإثبات أنّ البشر بإمكانهم الاستغناء عن الخبز.

قلت:

ــ لكنّك تفاديت دومًا سوء الفهم هذا.

ــ لكنّ الأشياء تغيّرت، هل تفهمين؟ اليوم، الثورة أمانة في أعناق الشيوعيّين وزمامها في أيديهم وحدهم. لم يعد للقيم التي كنّا ندافع عنها أيّ مكان. سنستعيدها ربّما، فلنأمل بذلك. لكن، إذا تخلّينا عن الذود عنها في هذه اللحظة فنكون بذلك أدّينا خدمة للثورة المضادّة.

ـ لا، الموافقة على ما تقوله غير ممكنة. محبّة الحقيقة واحترام الفرد ليسا عقبة في طريق النضال الثوريّ.

ـ حين رفضت الكلام عن معسكرات العمل الإجباريّ فهذا لأنّ الحقيقة بدت لي مؤذية.

ـ هذا وضع خاصّ.

ـ هذا وضع خاصّ لكنّه لا يختلف عن مئات الأوضاع الأخرى. لا! إمّا أن نقول الحقيقة وإمّا لا. إذا اتّخذنا قرارًا بعدم قولها فالأفضل السكوت عنها.

تفرّست في روبير:

ـ أتعرف بماذا أفكّر؟ أظنّ أنكّ لا تزال مقتنعًا بوجوب التزام الصمت فيما خصّ المعتقلات الروسيّة. لكنّ الصمت في هذه الحالة خيانة للذات. ولعلّك مثلي لا تحبّ القيام بمبادرة تؤدّي إلى الندم. إنّك تعاقب نفسك بتخلّيك عن الكتابة.

ابتسم روبير:

ـ لنقل إنّه من خلال التضحية ببعض الأشياء ـ وعمومًا ما سمّيته واجباتي كمثقّف ـ أدركت بطلانها. ثم أضاف: «هل تذكرين ليلة رأس السنة في العام ١٩٤٤؟ قلنا آنذاك إنّه سيأتي وقت يفقد فيه الأدب جميع مزاياه. حسنًا، قد تحقّق ما قلناه! ما نفتقر إليه ليس القرّاء. لكنّ الكتب التي سأقدّمها لهم ستكون إمّا مؤذية، وإمّا عديمة المعنى».

تردّدت ثم قلت:

ــ ثمّة خلل في ما تقوله.

ــ ماذا تقصدين؟

ــ لو أنّ القيم القديمة تبدو لك عقيمة إلى هذا الحدّ لالتحقت بالشيوعيّين.

هزَّ روبير رأسه: «أنت على صواب. ثمّة خلل ما، سأقول لك ما هو: لقد تقدّمت بي السنّ كما ترين!».

ــ وما شأن العمر في ذلك؟

ــ أدرك تمامًا أنّ هناك مبادئ كثيرة تمسّكت بها من قبل ولم تعد ملائمة للعصر. آل بي الأمر إلى التعرّف إلى مستقبل مختلف كثيرًا عمّا تصوّرته. إلاّ أنّني لا أستطيع أن أغيّر نفسي: لذا فإنّني لا أرى مكانًا لي في هذا المستقبل.

ــ وبكلام آخر، تتوق إلى انتصار الشيوعيّين علمًا أنّه لا يمكنك العيش في عالم شيوعيّ.

ــ هذا صحيح تقريبًا. سأكلّمك عن الموضوع لاحقًا. سأكتب بهذا الشأن وسأختم كتابي متطرّقًا إلى هذه النقطة بالذات.

ــ وحين سينتهي كتابك فما الذي ستفعله؟

ــ ما يفعله الجميع. هناك مليارات ونصف من البشر الذين لا يكتبون.

لا أريد أن أقلق بهذا الخصوص. روبير محتاج إلى تسوية وضعه بعد إخفاق الــ *S.R.L*. إنّه يمرّ الآن بأزمة وسيتجاوزها. لكنّي أعرف أنّني لا أوافق على هذه الفكرة: أن تفعل كما يفعل

الجميع: نأكل لنعيش ونعيش لنأكل. كانت هذه الفكرة كابوسًا يشدّ على صدري طيلة فترة المراهقة. وإذا اقتضى الأمر العودة إلى هذه النقطة فمن الأفضل أن نتنشّق الغاز وننتحر طوعًا. لكنّي أظنّ أنّ الجميع يصل بهم الأمر إلى هذا القرار ولا يفعلونه: يريدون فتح قارورة الغاز في الحال ولا يفتحونها.

في الأيّام التالية شعرتني محبطة وفقدت الرغبة في رؤية أيّ كان. تفاجأت حين تسلّمت ذات صباح من أحد الموزّعين باقة هائلة من الورود الحمراء مع رسالة صغيرة شُكّلت بورق التغليف الشفّاف. رسالة من بول: «لاحت إشراقة الأمل من جديد وعادت الأمور إلى مجاريها. أنا سعيدة وأرسل لك ورودًا. إلى اللقاء بعد الظهر في بيتي».

قلت لروبير:

ـ حالتها تسوء!

ـ أليس هناك سوء فهم؟

ـ إطلاقا.

فكرّر على مسامعي ما ردّده مرارًا:

ـ عليك اصطحابها عند ماردروس.

ـ لا يسهل إقناعها.

لم أكن طبيبتها ولا أحسستني رفيقتها فيما كنت أرتقي السلّم والكذب على شفا لساني، ونظرة المحلّلة النفسيّة المحترفة تشعّ في عينيّ. الابتسامة التي رسمتها على وجهي وأنا أقرع بابها بدت لي

خيانة. ما زاد في خجلي هو أنّ بول قامت، لدى استقبالها لي، بحركة غير معهودة: قبّلتني. كانت ترتدي أحد أثوابها الحديثة العهد وقد شكّلت في شعرها المنسدل وردة حمراء ووضعت وردة أخرى فوق صدرها. كان الاستوديو مليئًا بالأزهار.

ــ كم أنت لطيفة لأنّك أتيت! أنت دومًا لطيفة جدًّا. لا أستحقّ ذلك فعلاً. عاملتك بشكل سيّئ. ثم أضافت بلهجة اعتذار: «كنت مشوّشة الذهن للغاية».

ــ أنا من يفترض بي أن أشكرك: أرسلت لي ورودًا رائعة.

قالت بول:

ــ آه! إنّه يوم عظيم. حرصت على أن تحضري للمشاركة في الاحتفال. ابتسمت لي بفرح: «أتوقّع مجيء هنري بين دقيقة وأخرى. كلّ شيء عاد بيننا من جديد».

كلّ شيء عاد من جديد؟ أشكّ بذلك إلى أبعد الحدود. أظنّ بالأحرى أنّ هنري قرّر القيام بهذه الزيارة بدافع الإحسان. على أيّ حال، لم أكن أريد الالتقاء به، قمت بخطوة نحو الباب.

ــ قلت لك إنّنا تخاصمنا مع هنري. سيغضب إذا وجدني هنا. أعود في الغد.

ــ أرجوك ابقي.

لمحت في عينيها ذعرًا غريبًا فرميت بحقيبتي وقفّازيّ على الديوان. بئس الأمر. سأبقى. اتّجهت بول إلى المطبخ بخطوات خفيفة واسعة حريريّة، ثم عادت وهي تحمل كأسين وقنّينة شمبانيا

فوق صينيّة: «سنشرب نخب المستقبل!». طارت السدّادة واصطكّت كأسانا.

قلت:

ـ ماذا حدث؟

أجابت بول ببشاشة:

ـ لا شكّ أنّني غبيّة فعلاً. من زمان أملك جميع الإثباتات في يديّ لكنّ التسوية لم يتمّ إنجازها إلاّ هذه الليلة. لم أكن نائمة لكن حين أغمضت عينيّ تراءت لي بوضوح البركة الكبيرة في قصر دو بلزنس وكأنّها مرسومة على بطاقة بريديّة ـ وما إن بزغ الفجر حتى أرسلت رسالة مضغوطة إلى هنري.

نظرت إليها بقلق. كان حسنًا منّي أنّي بقيت. حالتها سيّئة. سيّئة جدًّا.

قالت بول:

ـ ألا تفهمين، لكنّ الأمر ساذج كمسرحيّة هزليّة. هنري يغار. ضحكَتْ من أعماق قلبها وقالت: «هذا مستغرب أليس كذلك؟».

ـ على الأرجح!

ـ لكنّها الحقيقة، يستمتع بتعذيبي بطريقة ساديّة، والآن أعرف السبب. ثبّتت الوردة الحمراء في شعرها: «عندما صرّح لي فجأة أنّه يجدر بنا أن نكفّ عن المضاجعة، ظننت أنّه يتّخذ هذا القرار بدافع الرهافة الأخلاقيّة لكنّي كنت مخطئة تمامًا. الواقع أنّه تصوّر أنّني أصبحت باردة جنسيًّا وهذا أصابه في صميم عنفوانه. لم

أعترض لأنّني على قناعة تامّة أنّ ذلك سيزيد في غيظه. ثم أخذت أخرج من البيت وأرتدي ملابس أنيقة فغضب للأمر. قلت له إلى اللقاء. قلتها ببشاشة. ببشاشة كبيرة لم ترق له. وحين أصبحت في بورغونيا، ارتكبت أخطاء فظيعة متراكمة. وأقسم إنّني لم أفعل ذلك عمدًا».

وفي هذه اللحظة بالذات، قرع الباب قرعات خفيفة. نظرت إليَّ بول بوجه راعب فما كان منّي إلاّ أن نهضت لأفتح الباب. رأيت امرأة تمسك في يدها سلّة.

قالت:

ـ اعذريني. لم أجد الناطور. جئت لأخصي هرًّا.

ـ العيادة في الطابق الأرضيّ. الباب إلى اليسار.

أغلقت الباب ورائي وجمدت ضحكتي عندما صادفت عيناي نظرة بول التائهة.

قالت:

ـ ماذا هنالك؟

قلت ببشاشة:

ـ الناطور ليس هنا، حصل خطأ وهذا غير مستبعد.

ـ لكن لماذا قرع الباب؟

ـ مجرّد صدفة. يجب أن يقرع على باب ما.

ـ مجرّد صدفة، نعم.

ابتسمتُ بشكل مغرٍ: «كنت تحدّثينني عن عطلتك. ماذا فعلت لكي تثيري سخط هنري؟».

ــ آه! تذكّرت! تلاشت الحيويّة في صوتها: «حسنًا، أرسلت إليه البطاقة البريديّة الأولى. حدّثته فيها عن مشاغلي وكتبت هذه الجملة المشؤومة «أقوم بنزهات طويلة في هذه البلاد التي يُقال إنّها تشبهني، وللحال ظنّ أنّ لديّ عشيقًا».

ــ لا أظنّ ذلك.

قالت بنفاد صبر:

ــ صيغة المجهول التي استعملتُها «يُقال» هي التي جعلته يشتبه بالأمر. عندما تُشبَّه امرأة بمنظر فالذي يقوم بالتشبيه عمومًا هو عشيقها. كذلك أرسلت له بطاقة أخرى إلى البندقيّة وتمثّل حديقة بلزنس وفي وسطها البركة.

ــ وإن يكن؟

ــ أنت شرحت لي أنّ النوافير والفسقيات والبرك رموز في علم التّحليل النفسيّ. لا بدّ أنّ هنري فهم أنّني أقول له صراحة: لديّ عشيق. لا بدّ أيضًا أنّه علم أنّ لويس فولانج كان هناك: ألم تلاحظي أثناء العشاء الذي أقيم على شرف العرض الأوّل للمسرحيّة كيف حدجني بنظراته الغيورة عندما رآني أتحدّث إلى فولانج؟ الأمر واضح مثل عين الشمس. وبدءًا من هذه النقطة، تسلسلت الأحداث.

ــ هذا ما قلته له في رسالتك العاجلة!

ــ نعم والآن بات يعرف كلّ شيء.

ــ وهل أجابك؟

ــ وما الفائدة؟ سيأتي شخصيًّا. يعرف جيّدًا أنّني أنتظره.

لذت بالصمت. في قرارة نفسها، تعرف بول أنّه لن يأتي: لهذا السبب توسّلت إليّ كي أبقى. وسيأتي وقت تعترف به لنفسها أنّه لن يأتي وعندئذٍ ستصاب بالانهيار. رجائي الوحيد أن يكون هنري قد فهم أنّها على وشك أن تصاب بالجنون. وأنّه سيأتي ليراها بدافع الشفقة. وربّما لن يأتي، لا أجد ما أقوله: نظرت بول إلى الباب شاخصة إليه بطريقة بدت لي غير محتملة. رائحة الورود كانت أيضًا جنائزيّة.

سألتها:

ــ أما زلت تعملين؟

ــ نعم.

قلت وقد أتاني إلهام مفاجئ.

ــ وعدتني بأن تطلعيني على بعض ما كتبته ولم تفعلي لغاية الآن.

ــ هل أنت مهتمّة فعلاً؟

ــ بالطبع.

اتّجهت إلى مكتبها وأخرجت حزمة من الأوراق الزرقاء المليئة بكلمات مستديرة الخطوط ووضعتها فوق ركبتيّ. كانت بول ترتكب

أخطاء إملائيّة كثيرة لكن ليس على هذا النحو. قرأت طرسًا لعلّه يساعدني على استعادة رباطة جأشي، أمّا بول فتابعت التحديق إلى الباب.

قلت:

ــ أقرأ خطّك بصعوبة كبيرة. هل يزعجك ان تقرئي لي بصوت عالٍ؟

ــ كما تشائين.

أشعلتُ سيجارة. على الأقلّ، عندما ستقرأ تتّضح لي نبرات صوتها خارجة من حلقها. لم أتوقّع الشيء الكثير لكنّي مع ذلك فوجئت. ما كتبته كان مخزيًا. كانت في منتصف إحدى الجمل عندما قرع الجرس في الأسفل. نهضت بول، وقالت بلهجة ظافرة: «أرأيت!» ضغطت على الزرّ الذي يفتح الباب وبقيت واقفة وعلى وجهها تعابير النشوة.

ــ رسالة مضغوطة.

ــ شكرًا.

أغلق الرجل الباب من جديد. مدّت لي الورقة الزرقاء: «اقرئيها لي». جلست على الديوان. أصبح خدّاها وشفتاها بنفسجيّة اللون.

«بول، ليس هناك سوء تفاهم بيننا. سنصبح صديقين عندما توافقين على أن يموت حبّنا. وريثما يتمّ ذلك، لا تكتبي لي بعد اليوم. إلى اللقاء».

تهاوت من جديد بكل طولها على الديوان وبعنف شديد فتناثرت أوراق الوردة فوق المدفأة لقوّة الصدمة. انتحبت قائلة: «لا أفهم، لم أعد أفهم شيئًا». وأخذت تشهق بالبكاء وقد دفنت وجهها في الوسائد. وعندئذٍ قلت كلمات مجرّدة من المعنى فقط لأسمع هرير صوتي: «ستشفين. يجب أن تشفي. ليس الحبّ كلّ شيء...»، وأنا أعلم تمامًا أنّني لو كنت مكانها لما أردت أن أشفى. وأدفن حبّي بيديّ.

عدت لتوّي من سان ـ مارتان حيث أمضيت عطلة نهاية الأسبوع حين تلقيت رسالة مضغوطة من بول: «العشاء غدًا في الساعة الثامنة».

أمسكت السماعة لأتّصل بها. بدا لي صوتها متجلدًا.

ـ آه، هذه أنتِ؟ ما الأمر؟

ـ أردت فقط أن أؤكّد على الموعد غدًا مساءً.

قالت:

ـ بطبيعة الحال، سأكون في الموعد المحدّد. وأقفلت السمّاعة.

توقعت أن تكون السهرة مضنية. ومع ذلك صُعقت عندما فتحت لي بول الباب. بحياتي لم أر وجهها دون تبرّج. كانت ترتدي تنّورة عتيقة وكنزة عتيقة رماديّة اللون. كان شعرها مرفوعًا إلى الخلف. وكانت جديلتها هزيلة. أضافت إلى الطاولة زوائدها الخشبيّة فأصبح طولها من أوّل الاستوديو إلى أدناه. وقد وضعت عليها اثني عشر صحنًا واثني عشر قدحًا. قالت بعبوس وهي تمدّ لي يدها:

ـ هل جئت لتعزيتي أم لتهنئتي؟

ـ وما المناسبة؟

ـ القطيعة مع عشيقي.

لم أجب.

ثم سألتني وهي تشير من فوق كتفي إلى الرواق المقفر:

ـ أين هم؟

ـ من؟

ـ الآخرون.

ـ من تقصدين؟

قالت بصوت متردّد وهي تغلق الباب:

ـ آه! ظننت أنكم أكثر عددًا. ثم نظرت إلى الطاولة:

ـ ماذا تريدين أن تأكلي؟

ـ لا فرق، أيّ شيء تقدّمينه.

ـ ذلك أنّه ليس لديّ شيء أقدّمه. فقط عندي «نوي».

قلت على عجلة من أمري:

ـ على أيّ حال، لست جائعة.

قالت بلهجة يشوبها المكر:

ـ أستطيع أن أقدّم لك «نوي» دون أن أتسبّب بالإفلاس لأحد.

ـ لا، بالفعل. يصدف ألاّ أتناول العشاء في أغلب الأحيان.

جلسْتُ. لم أستطع أن أشيح بصري عن هذه الوليمة. جلست بول هي أيضًا وتفرّست بي بصمت. كنت ألمح فيما مضى في عينيها ملامة وريبة ونفاد صبر، أمّا اليوم فقد رأيت فيهما، بما لا يقبل الشكّ، شيئًا أسود، باردًا، قاسيًا... رأيت الحقد.

قلت بعد جهد:

ـ من تنتظرين؟

ـ كنت أنتظركم كلكم. هزّت كتفيها: «لا بدَّ أنّني غفلت عن إرسال الدعوات».

سألت:

ـ قلت «كلكم» ماذا تقصدين؟

ـ تعرفين قصدي جيّدًا أنت، هنري، فولانج، كلودي، لوسي، روبير، نادين الثلّة كلها!

ـ الثلّة؟

قالت بصوت قاسٍ:

ـ لا تتظاهري بالبراءة. جميعكم متحالفون. والسؤال الذي أردت طرحه عليكم هذا المساء هو هذا تحديدًا: «ما الغاية من تصرّفكم؟ إذا كان الأمر لصالحي فسأشكركم وأغادر إلى إفريقيا لأعتني بمرضى البرص. وإلاّ، فلن يتبقّى لي إلاّ الانتقام». حدّقت بي بنظرات شاخصة: «سأنتقم بادئ الأمر من أصدقائي الأعزّ. لذا لن أتّخذ قراري إلاّ بعد أن أتأكّد من صحّته». كان هناك في صوتها لوعة قاتمة ما دفعني إلى اختلاس النظر إلى الحقيبة التي وضعتها

فوق ركبتيها وراحت تلعب بسحّابها بطريقة عصبيّة. وفجأة، بدا لي كلّ شيء ممكنًا. هذا الاستوديو الأحمر، مسرح رائع للجريمة! حينها قرّرت القيام بهجوم مضادّ:

ـ اسمعي يا بول! تبدين تعبة إلى حدّ غريب هذه الأيّام. تقيمين عشاءً وتنسين أن توجّهي الدعوة للضيوف وتنسين أيضًا تحضير العشاء، والآن أنت منغمسة كليًّا في عقدة الاضطهاد. عليك الذهاب في الحال لرؤية طبيب. سآخذ لك موعدًا مع ماردروس.

للحظة، بدت مرتبكة. قالت: «أشعر بالآلام في الرأس ولكنّ هذا أمر ثانوي. يجب عليَّ بادئ الأمر أن أضع الأمور في نصابها الصحيح». ثم أضافت بعد تفكير: «أعرف أنّني أتمادى في تحليل الأمور. لكنّ الحقيقة لا مفرّ من مواجهتها».

ـ عن أيّ حقائق تتحدّثين؟

ـ لماذا أرسلت كلودي رسائلها الأخيرة من شارع Singer؟ لماذا هناك سعدان[1] يقوم لي بإيماءات في البيت المقابل؟ لماذا حين قلت لك إنّي لا أعرف كيف أدير صالوننا أجبتني: «على العكس»، لماذا اتّهمتني بتقليد هنري حين حاولت الكتابة وبتقليد كلودي وأزيائها وحياتها الاجتماعيّة. لمتني على قبولي المال من هنري

---

(١) سعدان: Singe. تجدر الإشارة إلى أنّ بول في هذا المقطع تستخدم كلمات Singer (اسم الشارع) وسعدان (Singe) مُقلّد (singer). وكلّ هذه الكلمات تجمع بينها لفظة songe وفي ذلك دلالة على هذيانها الكلامي منطلقة من كلمات متشابهة في اللفظ وفي المعنى (ما عدا اسم الشارع).

ولأنّني تسبّبت بالحزن إلى الفقراء. تحالفتم ضدّي لكي تقنعوني بأنّي حقيرة». ومن جديد حدّقت إليَّ بنظرات مهدّدة: «هل فعلتم ذلك لإنقاذي أم لتدميري؟».

ـ ما تسمّينه وقائع هي مجموعة صدف لا أكثر.

ـ كفى كفى! الوقائع وقائع وليست كالغيوم التي تتلاقى صدفة. وأضافت بنفاد صبر: «لا تتكري! أجيبي بصراحة أو لن نصل إلى حلّ».

ـ لا أحد يفكّر في تدميرك. اسمعي لماذا أضمر لك شرًّا؟ نحن صديقتان!

ـ هذا ما كنت أقوله فيما مضى. ما إن أراك تتلاشى شكوكي، لكأنّ في لقائك سحرًا. ثم نهضت فجأة وتغيّرت نبرة صوتها: «لم أستقبلك إطلاقًا كما ينبغي. يجب أن يكون قد بقي القليل من البورتو في مكان ما». ذهبت للإتيان بالبورتو، ملأت كأسين وهي تبتسم:

ـ كيف حال نادين؟

ـ لا بأس. منذ انفصالها عن لامبير تبدو حزينة.

ـ من تضاجع؟

ـ ليس لديها أحد في الوقت الراهن، حسب ظنّي.

ـ نادين؟ لا تضاجع أحدًا؟ أمر مستغرب.

ـ ليس إلى الحدّ الذي تتصوّرين.

ـ هل تخرج غالبًا مع هنري؟

ـ قلت لك إنّنا متخاصمون.

قالت بول وهي تضحك:

ـ آه، أنسى دومًا مسألة الخصام هذه.

ثم توقفت عن الضحك: «لا أنخدع كما تعرفين!»

ـ ألم تقرئي رسالتي هنري وروبير في *«L'Espoir»*؟

ـ قرأتهما في العدد الذي استلمته، نعم.

تفرّست فيها:

ـ تقصدين القول إنّ هذا العدد فُبرك مسبقًا.

ـ بالطبع، هزّت كتفيها: «بالنسبة لهنري الأمر لا يستحّق التوقف عنده».

التزمت الصمت. لا جدوى من النقاش.

شنّت بول هجومًا جديدًا:

ـ وهكذا، ووفقًا لرأيك، نادين لم تعد تلتقي هنري؟

ـ لا.

ـ لم تحبّه قطّ، أليس كذلك؟

ـ قطّ.

ـ ولماذا سافرت معه إلى البرتغال؟

ـ تعرفين جيّدًا، تهوى أن تكون على علاقة معه لا سيّما أنّها كانت راغبة في السفر.

شعرت بأنّني أخضع لاستجواب بوليسيّ. بين لحظة وأخرى سيعتقلونني وسيوسعونني لكمًا.

ـ وتركتها تذهب هكذا بكل بساطة؟

ـ منذ موت دييغو لم أردعها عن شيء، بل أترك لها الحرّيّة كاملة.

ـ أنت امرأة غريبة. يتحدّثون كثيرًا عنّي ويسهون عنك. ملأت كأسي من جديد: «اشربي هذا البورتو».

ـ شكرًا.

لم أكن أعلم إلى أين تريد الوصول لكنّي شعرت باستياء متزايد. ما الذي تبيّته ضدّي؟

ـ ها إنّك منذ وقت طويل لا تضاجعين روبير، أليس كذلك؟

ـ منذ وقت طويل.

ـ ألم تتّخذي عشّاقًا؟

ـ بعض الأحيان.. لكنّها علاقات عابرة. لا أهمّيّة لها.

ردّدت بول بتمهّل:

ـ علاقات لا أهمّيّة لها. هل لديك علاقة الآن، علاقة لا أهمّيّة لها؟

لا أعرف كثيرًا لماذا شعرتني مجبرة على الإجابة وكأنّني آمل أن تقوى الحقيقة على جنونها فتردّها إلى الواقع. قلت: «أعيش قصّة حبّ جدّيّة مع كاتب من أميركا. يدعى لويس بروغان...».

كنت على أهبة أن أروي كلّ شيء لكنّها قاطعتني.

ــ أوه! أميركا بعيدة. أقصد القول هل لديك علاقة في فرنسا؟

ــ أحبّ هذا الأميركيّ. سأعود لرؤيته في أيّار. لا مجال لإقامة علاقة أخرى.

ــ وما رأي هنري؟

ــ ما دخل هنري بذلك؟

نهضت بول:

ــ هيّا! لنتحدّث بصراحة! تعلمين جيّدًا أنّني أعرف أنّك تضاجعين هنري. ما أريد معرفته تحديدًا هو متى بدأت العلاقة بينكما؟

قلت:

ــ ماذا دهاك؟ نادين التي ضاجعت هنري وليس أنا!!

ــ رميتها في أحضانه لكي تمسكي به. هذا الأمر فهمته منذ زمن بعيد. تحسنين لعب الأدوار ومع ذلك ارتكبت أخطاء.

أخذت بول حقيبتها وعادت إلى العبث بالسحّاب. لم أستطع أن أشيح بنظري عنها نهضت أنا أيضًا.

قلت:

ــ إذا كنت تظنّين ذلك، فمن الأفضل أن أذهب!

ـ حدست حقيقة ما يجري بينكما في تلك الليلة من أيّار ١٩٤٥ عندما ادّعيتما أنّكما تهتما بين الحشود. ثم قلت لنفسي إنّني أهذي. لكن كم كنت بلهاء!

ـ كنت تهذين، والآن تهذين.

استندت بول إلى الباب:

ـ لننته من هذه القصّة. هل أقدمت على تنفيذ هذه الخدعة لتتخلّصي منّي أم لمصلحتي؟

ـ اذهبي لرؤية الطبيب ماردروس أو أيّ طبيب آخر. لكن اذهبي لرؤية أحدهم وسيقول لك إنّك في قمّة الهذيان.

قالت بول:

ـ ترفضين مساعدتي. آه، توقّعت ذلك. لن أكترث للأمر. في النهاية سأرى الأشياء بوضوح حتى من دون مساعدتك.

ـ لا يمكنني أن أساعدك لأنّك ترفضين تصديقي.

لآونة بدت لي لا متناهية، ثبّتت نظرتها في نظرتي.

ـ هل تريدين الرحيل؟ إنّهم بانتظارك؟

ـ لا أحد ينتظرني. لكن لا فائدة من أن أبقى.

تنحّت عن الباب:

ـ ارحلي. بإمكانك أن تكرّري كل ما قلته على مسامعهم. ليس لديَّ ما أخفيه.

قلت وأنا أمدّ يدي نحوها لمصافحتها:

ـ صدّقيني يا بول، أنت مريضة، يجب أن تعتني بنفسك!

صافحتني:

ـ شكرًا لزيارتك. إلى القريب العاجل.

ـ إلى القريب العاجل.

نزلت الدرج بأقصى سرعة.

في اليوم التالي، كنّا نتناول القهوة بعد الغداء فقرع الجرس. كانت كلودي:

ـ اعذروني! من غير اللائق أن آتي بغتة على غير موعد. كان صوتها مضطربًا. وتعابيرها ملحّة: «أتيت للتحدّث معك بشأن بول: أشعر أنّ شيئًا ما لا يسير على ما يرام».

ـ ماذا حدث؟

ـ كان يفترض أن نتناول الغداء عندي. في الساعة الواحدة والنصف. لم تأتِ. اتّصلت فأجابتني وهي تقهقه. قلت لها إنّنا على وشك أن نبدأ بتناول الطعام فصرخت بي: «اجلسوا إلى الطاولة ماذا تنتظرون، اجلسوا إلى الطاولة!» وهي تضحك كمن أصابتها هستيريا.

كانت هناك خشية مشوبة بالسرور تلتمع في عيني كلودي الجاحظتين. نهضتُ: «يجب أن أذهب لرؤيتها».

قالت كلودي:

ـ هذا ما فكّرت به، لكنّي لم أجرؤ على الذهاب بمفردي.

ـ لنذهب معًا.

أقلّتنا سيّارة كلودي وتوقفت بنا أمام منزل بول بعد دقيقتين. بدت اللافتة الأليفة في هذا اليوم «شقق مفروشة» منذرة بالشؤم. قرعت الباب فلم يُفتح. من جديد، قرعت طويلاً. سمعت وقع أقدام تضرب الأرضيّة وظهرت بول. حجبت شعرها بمنديل بنفسجيّ. أخذت تضحك.

ـ ليس هناك إلاّ أنتما الاثنتين؟ أبقت الباب نصف مشقوق وراحت تتفحّصنا بنظرات ماكرة ثم قالت: «لم أعد بحاجة إليكما شكرًا!».

وأغلقت الباب بعنف. سمعتها تصرخ بصوت عالٍ جدًّا وهي تبتعد «يا للمهزلة!».

بقينا مسمّرتين على الرصيف.

قالت كلودي:

ـ أعتقد أنّه يجب إخطار العائلة. لم تعد عيناها تبرقان:«في هذه الحالة، هذا أفضل ما نقوم به».

ـ نعم لديها أخت. تردّدت: «سأحاول مع ذلك أن أتحدّث إليها». هذه المرّة ضغطت على الزرّ مرّة واحدة ففُتح الباب تلقائيًّا. اعترضت الناطورة طريقي. كانت امرأة صغيرة، نحيفة، متكتّمة وتشرف منذ وقت طويل على بيت بول.

ـ هل أنت صاعدة عند الآنسة ماروي؟

ـ نعم، يبدو أنّها ليست على ما يرام.

قالت الناطورة:

ــ بالضبط. أزعجني الأمر. منذ خمسة أيّام على الأقلّ لم تتناول طعامًا. قال لي المستأجرون في الأسفل إنّها طيلة الليل كانت تذرع أرض الغرفة جيئة وذهابًا. عندما كنت أنظّف لها البيت، راحت تهمهم بصوتٍ عالٍ. لقد اعتدت على هذا السلوك. لكنْ في الأيّام الأخيرة، أصبحت تصرّفاتها غريبة تمامًا.

ــ سأحاول أن أصطحبها معي لترتاح.

صعدت الدرج وصعدت كلودي خلفي. سفرة الدرج الأخيرة معتمة لكنّ شيئًا التمع وسط العتمة: عُلّقت ورقة كبيرة بيضاء على الباب بالمسامير الصغيرة وكُتبت عبارة: «السعدان الراقي» بأحرف مطبوعة. قرعت الباب، لكن عبثًا.

قالت كلودي:

ــ يا للهول. ربّما انتحرت.

ألصقت نظري بثقب القفل رأيت بول راكعة أمام المدفأة. وحولها رزم من الأوراق راحت ترميها في النار. قرعت من جديد بقوّة:

ــ افتحي وإلاّ كسرت هذا الباب! نهضت وفتحت الباب وهي تضع يدها خلف ظهرها.

ــ ماذا يُراد منّي؟ من جديد جثت أمام النار. انهمرت الدموع على خدّيها، سال المخاط من أنفها. رمت مخطوطاتها في النار، والرسائل. وضعت يدي على كتفها فانتفضت بشراسة:

ـ اتركيني.

ـ بول، ستأتين معي في الحال ونذهب إلى الطبيب. صرت مجنونة!

ـ اذهبي من هنا. أعرف أنّك تكرهينني، وأنا أيضًا أكرهك. ارحلي. نهضت وأخذت تصرخ: «اذهبا من هنا».

ما هي إلاّ لحظات حتى بدأت تزعق. سرت نحو الباب. ثم خرجنا أنا وكلودي.

أبرقت كلودي إلى شقيقة بول. واتّصلت بماردروس لأستشيره. كما أرسلت رسالة صغيرة إلى هنري. في المساء، وأثناء تناولنا العشاء، قُرع الجرس فانتفضنا مذعورين. قفزت نادين إلى باب المدخل. مدَّ لي فتى ورقة صغيرة وقال لي: «أتيت من قبل الآنسة ماروي، أنا قريب الناطورة». قرأت الرسالة بصوت عالٍ: «لا أكرهك. أنا في انتظارك. تعالي بسرعة».

قالت نادين:

ـ هل ستذهبين؟

ـ بالطبع.

ـ لن يفيد ذهابك إليها بشيء.

ـ من يدري!

ـ لكنها في حال حرجة! ثم أضافت: «حسنًا، إذا ذهبت، أذهب معك».

قال روبير:

ـ بل أنا من سيذهب. نادين على صواب. من الأفضل أن نكون اثنين.

اعترضت بشقّ النفس.

ـ ستستغرب بول الأمر.

ـ بول تستغرب أشياء كثيرة.

في الواقع، حين ألفيتني أمام هذا البيت الذي يخيّم عليه شبح الجنون، وصعدت من جديد الدرج بسجّادته المثقوبة، سُررت لأنّ روبير كان برفقتي. اختفت اللافتة عن الباب. لم تمدّ بول يدها لمصافحتنا. لكنّ وجهها كان هادئًا. أشارت بحركة مصطنعة:

ـ تفضّلا وادخلا.

بقيت مندهشة: كانت كل المرايا محطّمة وقد تناثرت شظايا الزجاج على أرض الغرفة. انبعثت رائحة قويّة من القماش المحترق وملأت أرجاء الغرفة.

قالت بول بلهجة متعالية:

ـ هاك ما أريد. أريد أن أشكركما. ثم أشارت إلينا بالجلوس على الكراسي: «أريد أن أشكركم جميعًا. الآن فقط فهمت...».

بدا لي صوتها صادقًا لكنّ الابتسامة التي وجّهتها لنا كانت تلوي شفتيها. وبدت كأنّها غير قادرة على التحكّم بأطراف جسدها.

قلت:

ـ ليس ثمّة ما تشكرينني عليه. لم أفعل شيئًا.

قالت:

ـ لا تكذبي. تصرّفت لصالحي. أقرّ بهذا، لكن يجب ألاّ تكذبي عليّ. تفحّصتني بنظراتها: «ما فعلته كان لصالحي، أليس كذلك؟».

ـ نعم.

ـ أعرف ذلك. أستحقّ هذه التجربة وكنت محقّة في فرضها عليَّ. أشكرك لأنّك وضعتني في مواجهة ذاتي. أمّا الآن فيجب أن تعطيني نصيحة: هل أتناول حمض السّيانيدر أم أحاول هنا أن أكفّر عن ذنوبي؟

ـ ليس هناك حمض السيانيدر، قال روبير.

ـ حسنًا، لكن في هذه الحالة، كيف سأعيش؟

قلت:

ـ أوّلاً ستتناولين مهدّئًا وتنامين. أنت غير قادرة على الوقوف.

قالت غاضبة:

ـ لم أعد أريد الاهتمام بنفسي. كل ما أفعله هو مواصلة التفكير. لا تقدّمي لي نصائح زائفة.

وتهاوت على أحد الكراسي. لم يعد هناك سوى الانتظار. بين لحظة وأخرى ستتداعى فأضعها في السرير وأعطيها قرص دواء. نظرتُ من حولي. هل كان في حوزتها حمض السّيانيدر؟ أذكر أنّها

أرتني في عام ١٩٤٠ قارورة صغيرة بنّيّة اللون وقالت لي إنّها حصلت على السمّ «فمن يدري؟». ربَّما كانت القارورة في حقيبتها.

لم أجرؤ على لمس حقيبتها. نظرت إلى بول من جديد. فكّها الأسفل مرتخٍ وملامح وجهها متهدّلة. رأيت مرضى كثيرين في هذه الحالة. لكنّ بول لم تكن مريضة. بول صديقتي ويؤلمني أن أراها على هذه الحالة.

قالت بعد جهد:

ـ أريد أن أعمل. أريد أن أعمل. سأعيد لهنري ما وهبني إيّاه من مال. ولم أعد أريد أن يشتمني المتشرّدون.

قال روبير:

ـ سنجد لك عملاً.

قالت:

ـ أريد أن أعمل كخادمة تنظيف البيوت. لكن لديّ مواهب أخرى ولا أريد منافسة أحد. ما هي الأعمال التي لا أنافس فيها أحدًا؟

قال روبير:

ـ سنعثر لك على عمل مماثل.

مرّرت بول يدًا على جبينها: «كل شيء مضنٍ! منذ قليل بدأت أحرق ثيابي، لكن لا يحقّ لي ذلك». نظرت إليَّ: «إذا بعتها إلى لمّامي الخرق، فهل تظنّين أنّهم يكفّون عن كرهي؟».

ـ هم لا يكرهونك.

نهضت فجأة. اتّجهت إلى المدفأة. أمسكت بقفّة الثياب لم تكن بينها فساتين الحرير اللمّاع والتايور الرمادي الصوفي المجزّع إلاّ مجرّد خرق مدعوكة.

قالت:

ـ سأذهب في الحال لأوزّعها؟ لننزل جميعًا.

قال روبير:

ـ تأخّر الوقت.

ـ مقهى المتشرّدين يظلّ مفتوحًا حتى وقت متأخّر.

ألقت معطفًا على كتفيها: كيف السبيل إلى منعها من النزول؟ تبادلتُ مع روبير نظرة، لا بدّ أنّها انتبهت إلى ذلك. قالت بصوت موهن: «هذه أيضًا مهزلة. الآن، بدأت أقلّد نفسي». نزعت معطفها ورمته على الكرسيّ: «هذه أيضًا مهزلة، تذكّرت نفسي وأنا أرمي المعطف!». غرزت قبضتيها في عينيها وقالت: «لا أتوقّف عن رؤية نفسي!» ـ ذهبت لآتي بكوب ماء. ذوّبت فيه قرصًا وقلت: «اشربي هذا ونامي!».

ارتعشت نظرة بول. تهاوت بين ذارعيّ. «أنا مريضة! أنا مريضة جدًّا!».

قلت:

ـ نعم، ستتعالجين وتشفين.

ـ عالجيني، يجب أن أتعالج.

كانت ترتجف، انهمرت الدموع من خدّيها. كانت محمومة ومتعرّقة. بدا لي أنّها بين لحظة وأخرى ستذوب كليًّا، مخلّفة مكانها بركة من القطران الأسود كعينيها.

قلت:

ـ غدًا سأصطحبك إلى الطبيب... بانتظار ذلك، اشربي هذا.

أمسكت الكوب:

ـ هل هذا سيساعدني على النوم؟

ـ بالتأكيد.

وأفرغت الكأس دفعة واحدة.

ـ والآن اصعدي للنوم.

قالت منصاعة:

ـ سأصعد.

صعدت معها. وفيما كانت في غرفة الحمّام، فتحت حقيبتها ذات السحّاب ووجدت في قعرها قارورة صغيرة بنّيّة اللون فدسستها في جيبي. في صباح اليوم التالي، تبعتني بول منصاعة إلى عيادة ماردروس. وعدني بأنّه سيشفيها. سيستغرق العلاج بضعة أسابيع أو بضعة أشهر لكنّها ستُشفى. إلاّ أنّني تساءلت بقلق وأنا أجتاز الشارع: ممّ يريدون أن تُشفى بالضبط؟ أيّ امرأة ستكون بول بعد العلاج؟ آه، من السهل التنبؤ بذلك في نهاية الأمر. ستكون مثلي

ومثل الملايين من النساء. امرأة تنتظر الموت دون أن تعرف معنًى لحياتها.

وأخيرًا قدم شهر أيّار. هناك، في شيكاغو سألبس جلد امرأة أخرى عاشقة ومعشوقة: بدا لي هذا بعيد الاحتمال. جلست في الطائرة وأنا لا أصدّق بعد أن ذلك سيحصل. كانت الطائرة قديمة آتية من أثينا وتطير على علوّ منخفض جدًّا، مليئة بالحانوتيّين اليونانيّين الذين يقصدون إلى أميركا سعيًا وراء الثروة. أمّا أنا فلا أعرف عمّا كنت أبحث. لا صورة حيّة في قلبي ولا رغبة معتملة في جسدي. لم أكن تلك المسافرة التي تغطّي يديها بقفّازين وينتظرها لويس على أرض المطار. لا أحد ينتظرني، «أعرف: أبدًا لن أراه مجدّدًا». هكذا فكّرت فيما كانت الطائرة تعود إلى نقطة الإقلاع في شانون[1] عبر المحيط إثر تعطّل أحد محرّكاتها. أمضيت يومين على ضفّة زقاق بحريّ تكتنفه الأجرف، في قرية زائفة منازلها طفوليّة. عند المساء احتسيت الويسكي الإيرلنديّة، وفي النهار تنزّهت وسط ريف أخضر مائل إلى الرماديّ، كئيب المنظر كما كنت أشتهيه. عندما حطّت الطائرة بنا في آزور، انبثقت إحدى عجلاتها فأنزلونا لمدّة أربع وعشرين ساعة في قاعة مبطّنة بالكريتون. بعد غاندر، واجهت الطائرة عاصفة فتفاداها القبطان هاربًا باتّجاه نوفا سكويتا[2]. شعرت أنّني سأمضي بقيّة حياتي وأنا

---

(١) شانون: نهر رئيسي في إيرلندا.

(٢) نوفا سكويتا: إقليم في كندا.

ادور حول الأرض وأتناول الدجاج البارد. حلقنا فوق هاوية من المياه القاتمة تخترقها أشعّة نور ضيّقة الفتحة لإحدى المنارات. ومن جديد، حطّت بنا الطائرة: فناء آخر وقاعة أخرى. نعم، حُكم عليّ أن أنتقل دون نهاية من ساحة إلى ساحة والضجيج يملأ رأسي وحقيبة زرقاء عند قدميّ.

وفجاة لمحته: لويس. كنّا اتّفقنا على أن ينتظرني هو في بيته. لكنّه هنا وسط الحشد المنتظر عند باب الجمارك. يرتدي قبّعة منشّاة ونظّارتين مذهّبتين. كان مرآه غريبًا، والأغرب من ذلك هو أنني رأيته ولم أشعر بشيء. سنة كاملة من الانتظار والحسرات والندامات، وهذه الرحلة الطويلة... كلّ ذلك لأتحقق ربّما من أنني لم أعد أحبّه. وهو؟ أما يزال يحبّني؟ أردت ان أركض نحوه. لكنّ رجال الجمارك ما زالوا يدقّقون في حقائبي. كانت صاحبات الحوانيت اليونانيّات يحملن حقائبهنّ المليئة بالدانتيل، وكان رجال الجمارك يتفحّصونها قطعة قطعة وهم يمزحون فيما بينهم. وحين أطلقوا سراحي أخيرًا، لم أجد لويس بانتظاري. استقللت سيّارة تاكسي وحين هممت بإعطاء العنوان إلى السائق نسيت الرقم. كانت أذناي تطنّان وهذه الضجّة في رأسي لا تتوقف. وأخيرًا اهتديت إلى الرقم ١٢١١. انطلقت سيّارة التاكسي، وراحت تجتاز الشوارع جادّة بعد جادّة واللافتات المضاءة بالنيون تتوالى أمام ناظري. لم أستطع الاهتداء إلى شيء من هذه المدينة. لكن لا أنكر أنّ المسافة كانت بهذا البعد. ربّما كان السائق يقودني إلى طريق مسدود أو

يريد قتلي. بدا لي الأمر، وفقًا للمزاج الذي كنته، طبيعيًّا أكثر من رؤيتي للويس. عاد السائق أدراجه.

ــ الرقم ١٢١١ غير موجود.

ــ بل هو موجود، أعرف المنزل جيّدًا.

ــ ربّما تغيّرت الأرقام. سنسلك الجادّة في الاتّجاه المعاكس.

أخذ يسير ببطء، وعلى طول الرصيف. بدا لي أنّني أعرف المفارق والأراضي البور وسكك الحديد: لكنّها جميعها متشابهة. ثمّة بركة وجسر بدوا لي مألوفين. لكأنّ الأشياء لا تزال هنا لكنّها غيّرت أماكنها: «جنون مطبق!» نرحل ونقول «سنعود»، لا يمكن أن نرحل إلى الأبد فهذا مؤلم جدًّا. لكنّنا نكذب على أنفسنا ولا نعود. سنة مرّت وأحداث توالت ولا شيء شبيه بنفسه. اليوم، رأيت لويس يرتدي قبّة منشّاة، رأيته دون أن تتسارع خفقات قلبي... ومنزله اختفى. هززت رأسي وقلت: «لم يبق لي إلاّ أن أتّصل به لكن ما هو رقمه» لم أعد أذكره. وفجأة رأيت لافتة حمراء مكتوب عليها Schiltz ووجوهًا ساذجة تضحك على إحدى الملصقات. صرخت بالسائق:

ــ توقّف! توقّف! هنا!

ــ لكن هنا ١١١٢.

ــ أجل ١١١٢، هذا هو الرقم. الآن تذكّرت!

قفزت من التاكسي، وفي الإطار المضاء لإحدى النوافذ، لمحت قامة منحنية. كان يترصّد مجيئي. ينتظرني، هرع لملاقاتي. إنّه هو

نفسه. لا يرتدي قبّة منشّاة ولا نظّارات. بل يعتمر قبعة بايسبول. طوّقني بذراعيه حتى كاد يخمد أنفاسي.

ـ آن!

ـ لويس!

ـ وأخيرًا وبعد طول انتظار. ما أطوله من انتظار.

ـ نعم ما أطوله، نعم.

أعرف أنّه لم يحملني. ولا أذكر أنّني استخدمت ساقيّ الواهيتين لكي أصعد الدرج. ومع ذلك ها نحن نتعانق وسط هذا المطبخ الأصفر. كل الأشياء هنا في مكانها: الموقد، الأرضيّة المشمّعة، الغطاء المكسيكي،...

تمتمت:

ـ لماذا ترتدي هذه الكاسكيت؟

ـ لا أعرف. كانت هنا.

نزع الكاسكيت، رماها على الطاولة.

ـ رأيت صنوك في المطار: يرتدي نظّارتين وقبّة منشّاة. أرعبني: ظننته أنت ولم أشعر بشيء.

ـ أنا أيضًا خفت. منذ ساعة مرّ رجلان تحت نافذتي وكانا يحملان امرأة ميتة أو فاقدة الوعي وظننتها أنت.

ـ والآن، هذا أنت وهذه أنا.

عانقني لويس برغبة قويّة ومن ثم أرخى عناقه: «هل أنت متعبة؟ عطشى؟ جائعة؟».

ــ لا. التصقت به من جديد. كانت شفتاي ثقيلتين جدًّا ومنقبضتين غير قادرتين على إخراج الكلمات. أسندتهما إلى فمه. مدّدني على السرير «آن، انتظرتك طيلة هذه الليالي!».

أغمضت عينيّ. من جديد كان جسد رجل يرتمي بثقله فوق جسدي، بكل ما فيه من ثقة ومن رغبة. كان هذا لويس، لم يتغيّر. ولا أنا تغيّرت، ولا حبّنا. رحلت ثم عدت. استعدت مكاني وتحرّرت من نفسي.

أمضينا اليوم التالي ونحن نحزم أمتعتنا ونمارس الحبّ: يوم طويل استغرق حتى اليوم التالي. في القطار نمنا، وخدّانا متلاصقان. لم أكن قد استيقظت تمامًا عندما لمحت على رصيف أوهايو[١] المركب ذا الشفرات الذي حدّثني عنه لويس في رسائله. فكّرت به طويلاً دون أن أصدّق أنّني سأراه يومًا، والآن لا يزال يصعب عليّ تصديق ذلك. ومع ذلك كان حقيقيًّا. صعدت إليه. نظرت بحنان إلى القمريّة التي ستجمعنا على متنه. في شيكاغو أقيم بمنزل لويس، وهنا هذه الحجرة تجمعنا معًا: ذاك أنّنا كنّا نشكّل فعلاً ثنائيًّا. أجل الآن عرفت: بالإمكان العودة، وسأعود كل سنة، وكل سنة سيتاح لحبّنا أن يُمضي ليلة أطول من الليلة القطبيّة. لكنّ

---

(١) أوهايو: نهر في أواسط الولايات المتّحدة. من أهمّ روافد المسيسيبّي يروي بيتسبورغ، هونتينغتون، سنسيناتي.

السعادة ستستيقظ ذات يوم فلا تغيب فيه أبدًا لمدّة ثلاثة أو أربعة أشهر. من عمق الليل، انتظرنا هذا اليوم، انتظرناه سويّة. لم يعد الغياب يفرّق بيننا. اجتمع شملنا إلى الأبد.

قال لويس:

ــ سنرحل، تعالي بسرعة.

صعد الدرج راكضًا وتبعته. انحنى من فوق الدرابزين. وكان رأسه يدور في كلّ الاتجاهات.

ــ انظري ما أروع هذا المنظر: السماء والأرض أدغمتا في الماء.

كانت أضواء سينسيناتي تلتمع تحت سماء كبيرة منثورة بالنجوم. وكنّا نتزحلق على الشهب المضاءة. جلسنا وبقينا طويلاً ننظر إلى اللافتات المضاءة بالنيون تشحب وتختفي. شدّني لويس إليه. قال:

ــ لم أكن من ذي قبل أؤمن بكلّ هذا؟

ــ ماذا تقصد بــ «كلّ هذا»؟

ــ أن أحِبّ وأحَبّ.

ــ وبمَ كنت تؤمن؟

ــ بغرفة ثابتة، وجبات منتظمة، نساء عابرات، الأمان. كنت أظنّ أنّه لا يجدر بي أن أطلب أكثر. اعتقدت أنّ الجميع وحيدون وعلى الدوام. وها أنت أمامي!

فوق رأسينا صدح مكبّر للصوت هاتفًا بأرقام. كان المسافرون يلعبون البينغو، وكانوا جميعًا عجائز لدرجة أنّني فقدت نصف عمري. كان عمري عشرين سنة وكنت أعيش حبّي الأوّل وكانت هذه رحلتي الأولى. قبّل لويس شعري وعيني وفمي.

ــ لننزل: هل ترغبين في ذلك؟

ــ تعرف جيّدًا أنّني لا أقول أبدًا لا.

ــ لكنّي أحبّ كثيرًا أن أسمعك تقولين نعم. تقولينها بطريقة لطيفة جدًّا.

قلت:

ــ نعم.

سعادة حقيقية ألاّ يكون علينا إلاّ أن نقول: «نعم». من حياتي المنهكة الماضية ومن جسدي المتجدّد كليًّا، كنت أصنع سعادة للرجل الذي أحبّ! يا للسعادة.

استغرق عبورنا أوهايو والمسيسيبي ستّة أيّام. عند كل محطّة، كنّا نهرب من المسافرين الآخرين ونمشي حتى تنبهر أنفاسنا عبر المدن الحارّة السوداء. وبقيّة الوقت، كنّا نتحدّث ونقرأ أو ندخّن دون أن نفعل شيئًا، متمدّدين فوق الجسر تحت الشمس. كلّ يوم، المنظر نفسه يتكرّر: إنّه منظر الماء والعشب وضجيج الآلة نفسه فوق الماء. وكم أحببنا أن يعقب الصباح مساء والمساء صباح. هذه هي السعادة. كل شيء يروق لنا. كنّا سعداء لمغادرتنا القارب. كنّا كلانا نعرف مدينة نيو أورليانز لكن بالنسبة إلى لويس وإليّ لم تكن

المدينة نفسها. زرت برفقته الأحياء الشعبيّة حيث كان، لخمس عشرة سنة خلت، يبيع الصابون. وزرت أرصفة المرافئ حيث كان يقتات بالموز المسروق، والشوارع الضيّقة التي تعجّ بالمواخير والتي كان يعبرها بقلب خافق وعضو ملتهب وجيوب فارغة. بين الفينة والأخرى، كان يتحسّر على هذا الزمن العصيب المغمور بالبؤس والغضب وعنف الرغبات التي لم ترتو. لكن، حين نزّهته في المربّع الفرنسي، عندما تبختر كسائح في الحانات والباحات الداخليّة، ابتهج وكأنّه استطاع النيل من القدر. لم يكن قد استقلّ طائرة من قبل. وخلال الرحلة كلّها أبقى أنفه ملتصقًا بكوّة الطائرة. مبتسمًا من دون سبب لغيوم السماء.

أنا أيضًا كنت منتشية... أيّ تغرّب! لكأنّ النجوم الثابتة في كبد السماء بدأت بالرقص وارتدت الأرض حلّة جديدة! لكأنّنا تغيّرنا نحن أنفسنا! بالنسبة إليّ، يوكاتان(١) لم تكن إلاّ اسمًا مجرّدًا من معناه، مكتوبًا بأحرف صغيرة في الأطلس. لا شيء يربطني بها. لا رغبة ولا صورة، وها إنّي أراها بأمّ عيني. خفّت سرعة الطائرة واندفعت صوب الأرض. لمحت مروجًا من المخمل الأخضر الموشّح بالرماديّ تنبسط من أقصى السماء إلى أقصاها حيث كان ظلّ الغيوم يرسم على الأرض شبه بحيرات سوداء. سرت على طريق محدّبة بين حقول أزهار الباهرة الزرقاء وفوقها يتفجّر، بين

---

(١) يوكاتان: شبه جزيرة في جنوب شرقي المكسيك، بين خليج المسكيك والبحر الكاريبي. آثار غنيّة من حضارة المايا.

الفينة والأخرى، الأحمر القاني للعندم الهنديّ[١] بقممه المسطّحة. سلكنا شارعًا تحفّ به البيوت الصغيرة المبنيّة من الآجرّ وسقوف القشّ. الشمس ساطعة والجوّ صاف. تركنا حقائبنا في قاعة الفندق وهي بمثابة غرفة من زجاج تزدحم بنباتات البلدان الحارّة. كانت تتصاعد منها رائحة المياه الآسنة، وتهجع فيها طيور النحام الورديّة مستندة إلى إحدى قوائمها. ثم انطلقنا عبر الساحات البيضاء حيث يتوزّع في ظلّ الأشجار المبرنقة، أناس يرتدون الأبيض، مسترسلين في أحلامهم تحت قبّعاتهم المصنوعة من القشّ. تذكّرت سماء طليطلة وأفيلا. أدهشني أن أستعيد إسبانيا في هذه الجهة من المحيط، أكثر من أن أقول لنفسي: «أنا في يوكاتان».

قال لويس:

ــ لنستقلّ إحدى هذه العربات الصغيرة.

في زاوية الساحة قطار من العربات السوداء ذات الظهور الصلبة. أيقظ لويس أحد الحوذيّين. جلسنا على المقعد الضيّق. أخذ لويس يضحك:

ــ والآن إلى أين نذهب؟ هل تعرفين أنت؟

ــ قلْ للحوذيّ أن يجول بنا ويوصلنا إلى البريد لأنّ هناك رسائل عائدة لي.

تعلّم لويس في كاليفورنيا الجنوبيّة بضع كلمات بالإسبانيّة. تكلّم قليلاً مع الحوذيّ. فراح الحصان يسير بخطى وئيدة. سلكنا جادّات

---

(١) عندم هنديّ: جنس شجر أحمر الزهر.

مترفة ومهملة. المطر والفقر تآكلا الدارات المبنيّة بأسلوب قشتاليّ قاسٍ. التماثيل تتعفن خلف أسيجة الحدائق الصدئة. الأزهار الرهماء، الحمراء والبنفسجيّة والزرقاء، تحتضر تحت الأشجار نصف العارية. في كل مكان تفوح رائحة الموت. كنت مسرورة عندما وجدتني عند حدود السوق الهنديّة: تحت الخيم التي تلفحها أشعّة الشمس، حشد يضجّ بالحيويّة.

قلت للويس:

ـ انتظرني لخمس دقائق.

جلس على إحدى درجات السلّم، ودخلت إلى مركز البريد. وصلتني رسالة من روبير. أزلت الختم عنها في الحال. أخبرني أنّه يصحّح طباعة النسخة الأخيرة من كتابه، وأنّه يكتب مقالة لمجلّة *Vigilance*، مقالة سياسيّة. حسنًا فعلت بأنّي لم أقلق كثيرًا بشأن روبير. عبثًا يرتاب بالسياسة والكتابة فهو لا يتخلّى عنهما مع ذلك. قال لي إنّ الطقس غائم في باريس. وضعت الرسالة في حقيبتي وخرجت: ما أبعد مدينة باريس! ما أشدّ زرقة السماء هنا! تأبّطت ذراع لويس: «كل شيء على ما يرام».

اخترقنا الحشد. في ظلّ الخيم، كانوا يبيعون الخضار والأسماك والصنادل والقطنيّات. النساء يرتدين تنانير طويلة مطرّزة. أعجبتني جدائلهنّ اللمّاعة ووجوههنّ التي لا يتحرّك شيء فيها. أمّا الهنود الصغار فكانوا يستغرقون في الضحك كاشفين عن أسنانهم الشديدة البياض. جلسنا في حانة تفوح منها رائحة زنخة، حيث

قُدّمت لنا بيرة مزبدة سوداء ترغو موضوعة على برميل. ليس هناك إلاّ الرجال وكلهم فتيان يثرثرون ويضحكون.

قلت:

ـ يبدو أنّ هؤلاء الهنود سعداء!

ـ يسهل قول هذا. حتّى الأحياء الإيطاليّة الفقيرة حين نتنزّه فيها أيضًا في طقس مشمس يبدو فيها الناس سعداء.

ـ ما تقوله صحيح. يجب النظر عن كثب.

قال لويس:

ـ فكّرت بالأمر وأنا أنتظرك. يبدو لنا كلّ شيء عيدًا لأنّ السفر عيد بحدّ ذاته. لكنّي واثق أنّهم ليسوا في عيد! قذف من فمه نواة الزيتون ثم أضاف: «السائح يعبر ولا يتوقّف عند حقيقة ما يرى».

ابتسمت للويس:

ـ لنشترِ بيتًا صغيرًا. ننام في الأراجيح وأحضّر لك التورتيّا ونتعلّم التحدّث باللغة الهنديّة.

ـ يا ليت!

قلت متنهّدة:

ـ آه يجب أن تكون لدينا عدّة حيوات.

نظر إليّ لويس وقال مبتسمًا ابتسامة خفيفة:

ـ تتدّبرين أمرك لا بأس عليك!

ـ ماذا تقصد؟

ـ تتدبّرين أمرك لتكون لك حياتان، حسب ما يبدو لي.

تدفّق الدّم إلى خديّ. لم يكن صوت لويس مجافيًا ولا ودّيًّا أيضًا. أبسبب الرسالة من باريس؟ فجأة تنبّهت إلى أنّني لا أفكّر وحدي بعلاقتنا؛ هو أيضًا يفكّر فيها على طريقته. قلت في نفسي: ها قد عدت وسأعود دومًا. لكن ربّما كان يقول: سترحل دومًا. بمَ أجيبه؟ لا أعرف.

قلت بقلق:

ـ لويس، لن نصبح عدوّين يومًا، أليس كذلك؟

ـ عدوّين؟ ومن يستطيع أن يكون عدوّك؟

بدا لي مرتبكًا صراحة. لا شكّ أنّ الكلمات التي تلفّظت بها سخيفة. ابتسم لي ورددت الابتسامة. لكنّي أصبت بالجزع فجأة: هل سأعاقب يومًا على جسارتي في أن أحبّ دون أن أهب حياتي بكلّيّتها؟

تناولنا العشاء في الفندق، بين طيري نحام ورديين. أوفدت لنا الوكالة السياحيّة في ميريدا مكسيكيًّا صغيرًا. استمع إليه لويس بنفاد صبر. لم أستمع إلى حديثهما. تابعت أسئلتي: ما الذي يدور في رأسه؟ لم نتحدّث إطلاقًا عن المستقبل. ولا طرح لويس عليّ أسئلة. ربّما كان عليّ أن أبادر أنا إلى طرحها. لكن، ألم أقل له منذ عام ما توجّب عليّ قوله! لا جديد عندي أضيفه. ثم إنّ الكلمات خطيرة وبإمكانها إفساد كل شيء. يجب أن نعيش هذا الحبّ المتاح لنا.

لاحقًا، حين سيصبح لهذا الحبّ ماضٍ طويل خلفه، سيحين الوقت للتحدّث عنه.

قال المكسيكيّ الصغير:

ـ لا تستطيع السيّدة الذهاب إلى شيشن ـ إيتزا في الباص. ثم ابتسم لي ابتسامة عريضة: «ستكون السيّارة تحت تصرّفكما طيلة النهار وتجول بكما بين الآثار وسيكون السائق بمثابة دليل سياحيّ لكما».

قال لويس:

ـ لا نريد دليلاً سياحيًّا ونفضّل السير على الأقدام.

ـ فندق مايا يقدّم تنزيلات لزبائن الوكالة.

قلت:

ـ سننزل في فندق فيكتوريا.

قال الساكن المحلّي:

ـ مستحيل، فيكتوريا نزل يؤمّه السكّان المحلّيُّون.

إزاء صمتنا، ارتسمت على وجهه ابتسامة تعبّر عن خيبة أمله: «ستمضيان يومًا ممتعًا!».

في الواقع، كان الباص الذي أوصلنا في صباح اليوم التالي إلى شيشن ـ إيتزا مريحًا تمامًا. شعرنا بأنفسنا فخورين بعنادنا عندما اجتزنا الحديقة في فندق مايا وسمعنا جلبة أصوات أميركيّة.

قال لويس: «هل تسمعينهم! لم آتِ إلى المكسيك لرؤية الأميركيّين».

كان يحمل في يده حقيبة سفر صغيرة، وسرنا متلمّسين طريقنا على درب موحلة. مياه ثقيلة انسابت من الأشجار التي حجبت السماء عنّا. لم نكن نرى شيئًا وشعرت بالدوار لدى تنشّقي هذه الرائحة الثقيلة وهي مزيج من التربة العضويّة والأوراق العفنة والأزهار المحتضرة. في الظلمة، قفزت هررة غير مرئيّة ذات عيون برّاقة. أشرت إلى هذه الأجفان التي لا جسد لها:

ــ ما هذا؟

ــ إنّها حباحب. هناك أيضًا منها في إيلينوا. احبسوا خمس حباحب تحت زجاج قنديل فترسل نورًا يمكّنكم من القراءة.

قلت:

ــ سيكون هذا مفيدًا للغاية، لأنّني لا أرى شيئًا. هل أنت متأكّد من أنّ هناك فندقًا آخر؟

ــ تمامًا!

بدأت أشكّ بقوله. لم نرَ منزلاً ولم نسمع ضجّة بشريّة. وأخيرًا سمعنا كلامًا إسبانيًّا. ولمحنا بغموض حائطًا ما. ليس هناك ضوء. دفع لويس بوّابة لكنّنا لم نجرؤ على التقدّم. سمعنا دمدمة خنازير وثرثرة طيور ونقيق ضفادع. همست للويس: «هذه مهلكة».

صرخ لويس:

ــ هل يوجد فندق هنا؟

سُمعت ضجّة والتمعت ومضة شمعة. ومن ثم ظهر علينا نور واضح. وجدنا أنفسنا في فناء نزل. ابتسم لنا رجل بتهذيب. تكلّم بضع كلمات بالإسبانيّة. قال لي لويس: «يعتذر لأنّ هناك عطلاً في الكهرباء. لديه غرف شاغرة».

الغرفة تطلّ من جهة على الفناء ومن الجهة الأخرى على الغابة. الغرفة فارغة، لكنّ الشراشف بيضاء تحت الناموسيّات البيضاء. قدّموا لنا على العشاء تورتيّا التصقت بأسناننا وفولاً بنفسجيّ اللون ودجاجة هزيلة أشعلت صلصتها حلقي. كانت غرفة الطعام مزيّنة بالخزف الشعبي والصور الملوّنة الرديئة. على أوراق الروزنامة هنود نصف عراة رؤوسهم مكللة بالريش يلعبون بالكرة الطائرة وسط مدرج قديم. على مقعد في الفناء، وسط الخنازير والدجاجات يجلس مكسيكي يعزف على الغيتار.

قلت:

ــ شيكاغو، ما أبعدها عنّا! وما أبعد باريس! وما أريح هذا المكان!

قال لويس بصوت حيويّ:

ــ نعم، لقد بدأت رحلتنا الممتعة حقًّا!

شددت على يده. في هذه اللحظة، كنت أعرف تمامًا ماذا يدور في رأسه. صوت الغيتار، جوقة الضفادع، وأنا. استمعت إلى الضفادع والغيتار وكنت متّجهة بكليّتي له. بالنسبة له ولي ولنا، لا شيء موجودًا إلاّ نحن الاثنين.

طيلة الليل، ضجّت غرفتنا بنقيق الضفادع. في الصباح، قأقأت آلاف الطيور. وعندما دخلنا إلى الحرم حيث تنتصب المدينة القديمة كنّا وحدنا. هرع لويس باتّجاه المعابد وتبعته بخطى وئيدة. كنت لا أزال مشوّشة الذهن كما لحظة وصولي إلى يوكاتان. لغاية الآن، تماهى لي كلّ ما هو موغل في القدم مع تاريخ منطقة المتوسّط. في الأكروبول والفوروم، تأمّلت دون عجب ماضيّ بالذات. لكن لا شيء يربط تاريخي بتاريخ شيشن ـ إيتزا. لثمانية أيّام خلت، كنت أجهل حتى اسم هذه المكّة الهندسيّة الهائلة بحجارتها المشبعة دمًا. ها هي أمامي، عملاقة، خرساء، تسحق الأرض تحت ثقل هندستها المتقنة ومنحوتاتها التي تعبّر عن تزمّت دينيّ صارخ. معابد ومذابح والمدرج المرسوم في الروزنامة وسوق بألف عمود ومعابد أخرى حادّة الزوايا ورسوم نافرة غريبة. بحثت عن لويس فلمحته في أعلى الهرم الكبير. لوّح لي بيده وبدا صغيرًا جدًّا. كان الدرج وعرًا، على الرغم من ذلك ارتقيته دون أن أنظر إلى قدميّ، بعينين شاخصتين إلى لويس.

قلت:

ـ أين نحن؟

ـ أتساءل مثلك!

فيما وراء الأسوار، تلمح على مدى النظر الأدغال الخضراء حيث يتوهّج من وقت لآخر العندم الهندي. ليست هناك حقول.

ـ لكن، أين يزرعون الذرة؟

قال لويس بنبرة مدّعية:

ـ ألم يعلّموك شيئًا في المدرسة؟ عندما يحين موسم البذار، يحرقون بقعة من الأدغال. وبعد الحصاد، تعود الأشجار إلى سابق عهدها. لذا لا نرى الأضرار.

ـ كيف عرفت؟

ـ أوه، أعرف هذا منذ زمن بعيد.

أخذت أضحك: «أنت تكذب. قرأته في أحد الكتب هذه الليلة فيما كنت نائمة. وإلاّ لقلته لي البارحة في الباص».

بدا مرتبكًا.

ـ أمر غريب! حتى في الأمور الصغيرة التافهة، تحبطين خططي دومًا. نعم، وجدت كتابًا البارحة مساءً في الفندق وأردت إبهارك.

ـ أبهرني. ماذا عرفت أيضًا؟

ـ الذرة تنبت وحدها. لا يحتاج المزارعون إلى العمل فيها أكثر من بضعة أسابيع سنويًّا. لذا، تسنّى لهم الوقت ليبنوا كل هذه المعابد. ثم أضاف بجفاء مفاجئ: «تخيّلي حياتهم: يأكلون التورتيّا ويحملون الحجارة، تحت هذه الشمس الحارقة! يأكلون ويتعرّقون، يتعرّقون ويأكلون، يومًا بعد يوم! ثمّة ما هناك أسوأ من الأضاحي البشريّة التي كانوا يقدّمونها. فكّري بملايين التعساء الذين جعل منهم المحاربون والكهنة دوابًّا! ولأيّ سبب؟ بدافع الغرور الباطل!».

نظر بعدائيّة إلى هذه الأهرامات التي كانت قديمًا تتطاول حتى السماء والتي ترزح اليوم تحت ثقلها الأرض؛ لم أشاطره غضبه. ربَّما لأنّه لم يحدث لي قطّ أن أكلت خبزي بعرق جبيني أو ربَّما لأنّ هذا الشقاء بات موغلاً في القدم. لكنّه لم يعد بإمكاني أن أفعل كما فعلت منذ عشر سنوات فأضلّ سبيلي من غير قصد مسبق في النظر إلى هذا الجمال المندثر. هذه الحضارة التي أهرقت حيوات إنسانيّة كثيرة لتتجلى بروعتها الهندسيّة، لم تخلّف شيئًا وراءها. جدبها هو الذي أغاظني أكثر منه قساوتها. لم يعد هناك إلاّ حفنة من علماء الآثار ومدّعي الفنّ الذين يهمّون بهذه الأنصاب التي راح السّياح يصوّرونها بشكل آليّ.

قلت:

ــ ما رأيك لو ننزل؟

ــ كيف؟

لكأنّ الجدارن الأربعة التي يستند إليها السطح كانت جميعها عموديّة؛ وأحدها مخطّط بالظلال والأنوار ولا نستطيع أن نضع عليها أقدامنا. أخذ لويس يضحك: «ألم أخبرك أنّني أُصاب بدوار مرعب عندما أكون على علوّ مترين من الأرض؟ صعدت دون أن أنتبه لكنّي لم أعد قادرًا على النزول مجدّدًا».

ــ لكنّ ذلك ضروريّ!

تراجع لويس إلى وسط المسطّحة:

ـ مستحيل! ابتسم من جديد: «منذ عشر سنوات كنت في لوس أنجلوس معدمًا فقيرًا وكدت أموت من الجوع، ثم وجدت عملاً: كان عليّ أن أطيّن فوهة المدخنة في أحد المعامل. رفعوني في سلّة وبقيت ثلاث ساعات أتردّد ولا أستطيع الخروج منها. آل بهم الأمر في النهاية إلى إنزالي وغادرت، وجيوبي لا تزال فارغة. مع أنّني لم أكن قد ذقت طعامًا من يومين. تخيّلي!».

قلت:

ـ غريب أن تصاب بالدوار. عاشرت الكثير من الناس في حياتك ومن كلّ المشارب. ظننتَ أنّك أكثر تمرّسًا وتجربة! سرت باتّجاه الدرج: «هناك عائلة أميركيّة بأكملها تستعدّ للصعود. لننزل!».

ـ ألا تخافين؟

ـ بلى.

ـ إذًا دعيني أتقدّمك.

أمسك واحدنا بيد الآخر ونزلنا بطريقة منحرفة. كان العرق يتصبّب من جسدينا عندما وصلنا إلى الأسفل. كان هناك دليل سياحي يشرح لجماعة السيّاح أسرار روح المايا. تمتمت: «ما أعجب السفر!».

قال لويس:

ـ نعم: إنّه عجيب. ثم جذبني من يدي قائلاً: «تعالي نشرب كأسًا».

كانت فترة بعد الظهر حارّة وغفونا في أراجيح أمام باب غرفتنا. ثم كما ينتحي النبات، جعلني فضولي أدير وجهي كلّيّة ناحية الغابة. قلت:

ــ أرغب في الذهاب والتجول في هذه الأدغال.

قال لويس:

ــ ولم لا؟

توغّلنا في صمت الغابة المطبق الرطيب. ما من سائح. النملات الحمراء تحمل فوق ظهورها بقايا الأعشاب اليابسة المسنّنة وتتّجه جماعات نحو حصون غير مرئيّة. صادفنا أيضًا أسرابًا من الفراشات التي تطير على وقع أقدامنا، فراشات ذات ألوان ورديّة زرقاء وخضراء وصفراء. المياه المحتبسة في النباتات المعرّشة انهالت علينا قطرات كبيرة. بين الحين والآخر، نلمح في آخر الدرب تلّة غامضة ربّما كانت تحوي داخل غلافها المحصب معبدًا أو قصرًا مدمّرًا. بعضها منبوش من قبره حتى النصف لكن الأعشاب تخنقه.

قلت:

ــ يتبادر إلينا الاعتقاد أنْ لا أحد جاء إلى هنا!

قال لويس بفتور:

ــ نعم.

ــ انظر إلى آخر الدرب. هناك أيضًا معبد.

ــ نعم.

معبد كبير جدًّا. العظايات المذهبّة تتدفّأ بين الحجارة. المنحوتات أتلفت ما عدا تمثال على شكل تنّين بارز الأنياب مكشّر. طلبت من لويس أن ينظر إلى التنيّن.

ـ أراه.

وفجأة رفس التنّين في شدقه.

ـ ماذا تفعل؟

ـ رفسته.

ـ لماذا؟

حدجني بنظرات لم ترق لي. ثم جلس فوق إحدى الصخور سألته: «ألا تريد القيام بجولة حول المعبد؟».

ـ قومي بها من دوني.

قمت بجولة حول المعبد وقد فارقني لبّي. لم أرَ إلاّ حجارة مرصوفة الواحد فوق الآخر ولم تعنِ لي شيئًا. عندما عدت، لم يقم لويس بحركة وكان وجهه خاليًا من أيّ تعبير، وكأنّ ذاته انفصلت عنه.

سألني:

ـ هل رأيت ما يكفي؟

ـ هل تريد العودة؟

ـ شرط أن تكوني رأيت ما يكفي.

ـ نعم، رأيت ما يكفي، فلنعد.

حلّ المساء. أخذت الحباحب الأولى تومض. أقلقني تصرّف لويس وفكّرت أنّني لا أعرفه بشكل كافٍ. كان من العفويّة والصدق بحيث بدا لي بسيطًا! لكن، هل كذلك فعلاً؟ عندما وجّه رفسة للتنّين بدا شرّيرًا. وكلّ هذا الدوار الذي يصيبه، ماذا يعني؟ مشينا بصمت: بماذا كان يفكّر.

قلت:

ـ بماذا تفكّر؟

ـ أفكّر ببيتي في شيكاغو. نسيت المصباح مضاءً. والعابرون سيظنّون أنّ أحدًا هنالك، ولا أحد هنالك.

ـ هل ندمت على مجيئك إلى هنا؟

ضحك لويس بخفّة:

ـ وهل أنا هنا؟ أمر غريب. أنت كطفلة وكل شيء يبدو لك واقعيًّا. أمّا أنا فكلّ هذا يترك لديّ الانطباع بأنّه حلم حلمه رجل آخر.

ـ لكن هذا أنت وهذه أنا!

لم يجب لويس. خرجنا من الغابة. ادلهمّ المساء تمامًا. في السماء هجعت النجوم القديمة كيفما اتّفق وسط نثير النجوم الجديدة. حين لمحنا أنوار النزل، ابتسم لويس: «وأخيرًا، ظننتني تهت».

ـ تهت؟

ـ قديمة جدًّا هذه الخرائب! موغلة في القدم.

ــ أهوى الشعور بأنني تهت.

ــ أنا لا. تهت لفترة طويلة من الزمن وظننتني لن أستطيع جمع شتات نفسي، لا أريد العودة إلى هذه الحالة بأيّ ثمن.

ثمّة تحدٍّ في صوته. أحسست بخطر غامض جاثم فوقي.

قلت:

ــ يجب أن نتوه أحيانًا. فالمجازفة توصلنا إلى حقائق جديدة.

قال لويس بنبرة حاسمة:

ــ أفضّل عدم التوصّل إلى حقيقة جديدة على القيام بهذه المجازفة.

أدرك تمامًا حقيقة شعوره. عانى الكثير ليحظى بالقليل من الأمان. وكان حريصًا على الاحتفاظ به ومع ذلك، بأيّ تهوّر أحبّني! هل سيندم على حبّه لي؟

ــ هذه الرفسة، هل لأنّك أحسست بأنّك تائه؟

ــ لا، لم تعجبني البهيمة.

ــ بدوت شرّيرًا حقًّا.

ــ هذا لأنّني شرّير فعلاً.

ــ ليس معي.

ابتسم:

ــ معك يصعب الأمر. حاولت لمرّة واحدة السنة الفائتة وبكيت في الحال.

دخلت إلى غرفتنا وسألت:

ــ لويس، هل لديك مأخذ عليّ؟

ــ من أيّ جهة؟

ــ لا أعرف لجهة كل شيء ولا شيء. لجهة أنّ لديّ حياتين.

ــ لو كانت لديك حياة واحدة لما كنت هنا.

نظرت إليه بقلق:

ــ هل لديك مأخذ عليّ؟

ــ لا، لا مأخذ لي عليك. جذبني ناحيته: «أريد أن آخذك...».

أزاح الناموسيّة على عجل ورماني على السرير. عندما أصبحنا عاريين، الجسد لصق الجسد، قال بصوت فرح:

ــ رحلة الجسد أجمل أسفارنا!

أشرق وجهه. لم يعد يشعر بأنّه ضائع. لم يعد مستاء حين أوى إلى جسدي، ولم أعد قلقة. السلام، والسعادة التي وجدناها ونحن متعانقان أقوى من أيّ شيء آخر.

السفر والتجوّل في العالم لترى بعينيك ما لم يعد موجودًا وما لا يعنيك نشاط مريب فعلاً. كنّا متّفقين على هذه الناحية أنا ولويس. هذا لا يمنع أنّ ذلك يمتعنا نحن الاثنين، وبشكل هائل. في أوكسمال، كان اليوم أحدًا والهنود الذين يقومون بالنزهة يفرغون ما في سلالهم في ظلال المعابد، نزلنا الأدراج المتعرّجة متشبّثين

بالسلاسل خلف نسوة يرتدين تنانير طويلة. بعد يومين، حلّقنا فوق غابات سكرى بالمطر. حلّقت الطائرة عاليًا في السماء ولم تنزل. إنّها الأرض التي اجتزناها صعدًا عشيّة لقائنا على ضفاف بحيرة زرقاء ومدينة مسطّحة، محتجبتَين خلف الأشجار الخضراء. المدينة مربّعة بشكل منتظم كدفتر تلميذ: إنّها الغواتيمالا. الفقر الجافّ في الشوارع المحفوفة بالبيوت المتطاولة المنخفضة. السوق الوفير بالبضائع، الفلاّحات بأقدامهنّ الحافية وملابسهنّ المترفة بالرغم من قدمها، الحاملات فوق رؤوسهنّ سلالاً من الأزهار والفواكه. في حديقة الفندق في أنتيغا، تهاوت أكوام من الأزهار الحمراء والبنفسجيّة والزرقاء على طول جذوع الأشجار وأغرقت الجدران.

كان المطر ينهمر بغزارة، كثيفًا وحارًّا. كانت ببغاء مقيّدة تركض من أعلى إلى أسفل على مجثمها وهي تضحك. على ضفّة بحيرة أتيتلان نمنا في أحد البنغالات المزهرة بباقات هائلة من القرنفل. قادنا مركب إلى سانتياغو حيث النساء المرتديات أشرطة حمراء فوق رؤوسهن يهدهدن أطفالاً رضّعًا متدثّرين من رؤوسهم حتى أكتافهم بقلنسوات أسطوانيّة. نزلنا من المركب ذات خميس، وألفينا أنفسنا وسط سوق في شيشيكاستننغو. الساحة مليئة بالخيم والبسطات التي تكدّست فوقها البضائع. النساء يرتدين صداري مطرّزة وتنانير متعدّدة الألوان، يبعن الحبوب والطيور والخزفيّات والحقائب والأحزمة والصنادل وكيلومترات من الأنسجة بألوان الزجاجيّات والسيراميك. جميلة جدًّا، حتّى أنّ لويس راح يتحسّسها ببهجة.

قال:

ـ اشتري هذا النسيج الأحمر أو ذاك الأخضر المزدان بعصافير صغيرة.

ـ انتظر، يجب أن نرى كل شيء.

لكنّ الأروع بين كل هذ الروائع كانت القمصان القديمة التي ترتديها بعض الفلاّحات. لفتَ نظر لويس إلى إحدى هذه البلوزات ذات التطريزات القديمة حيث أزرق شارتر(١) يندمج بنعومة مع ألوان الأحمر والذهبيّ الخافت: «هذا ما أريد أن أشتريه إذا كان يُباع».

تفحّص لويس الهنديّة العجوز بجدائلها الطويلة.

ـ ربّما كانت تبيعه.

ـ لن أجرؤ على سؤالها. ثم بأيّ لغة؟

تابعنا تجوالنا. كانت هناك نساء يدعكن بين راحاتهنّ عجينة التورتيّا. قدور مليئة باليخنة الصفراء تغلي على نار خافتة. عائلات تتناول طعامها. في الساحة كنيستان بيضاوان متقابلتان ويمكن الوصول إليهما عبر الأدراج. فوق الدرجات رجال بلباس مصارعي الثيران يلوّحون بالمباخر. صعدنا إلى الكنيسة الكبيرة عبر دخان كثيف ذكّرني بطفولتي الورعة.

---

(١) شارتر: مدينة فرنسيّة على أور، كاتدرائيّة من القرن الثاني عشر، من روائع الفنّ القوطي في أوجه.

سألت:

ـ هل يحقّ لنا الدخول؟

قال لويس:

ـ وماذا سيفعلون بنا؟

دخلنا وغصّ حلقي برائحة ثقيلة من التوابل. لم تكن هناك كراسٍ ولا مقاعد. الأرض المرصوفة بالبلاط حديقة شموع ورديّة اللهب. أخذ الهنود يتمتمون صلوات وهم يمرّرون من يد ليد عرانيس الذرة. فوق المذبح مومياء مسجّاة ومغطّاة بالديباج والأزهار. في الجهة المقابلة صورة كبيرة للمسيح وإكليل الشوك يعلو رأسه، وأمارات العذاب على وجهه، مدثّرة بالأقمشة والجواهر.

قال لويس:

ـ ليتنا نفهم ماذا يقولون!

كان ينظر إلى عجوز ذي قدمين خشنتين يبارك النساء الراكعات. جذبت لويس من ذراعه: «لنخرج، كل هذا البخور يتسبّب لي بألم في الرأس».

عندما أصبحنا في الخارج، قال لويس:

ـ تعرفين. لا أعتقد أنّ هؤلاء الهنود فعلاً سعداء. ملابسهم ذات ألوان زاهية لكن نفوسهم حزينة.

اشترينا أحزمة وصنادل وأقمشة. كانت العجوز ذات القميص الرائع لا تزال هنا، لكنّي لم أجرؤ على الاقتراب منها. في القهوة

القائمة في الساحة والتي هي محل سمانة في الوقت نفسه، جلس بعض الهنود يشربون حول إحدى الطاولات ونساؤهنّ جالسات عند أقدامهنّ. طلبنا تيكيلا فقدّموها لنا مع الملح وقطع الحامض الصغيرة الخضراء. راح هنديّان صغيران يرقصان بينهم وهما يترنّحان. كان جليًّا أنهّم غير قادرين على اللهو، جليًّا إلى حدّ ينفطر معه القلب. في الخارج بدأ الباعة يجمعون بسطاتهم استعدادًا للرحيل وجباههم معصوبة بعصابات جلديّة تساعدهم في تثبيت أحمالهم. ثم مضوا وهم يحثّون الخطى.

قال لويس:

ـ انظري! لا يجدون حرجًا في القيام بدور الدوابّ!

ـ لعلّهم أفقر من أن يمتلكوا حميرًا.

ـ نعم. لكنّهم يبدون قانعين للغاية ببؤسهم: هذا ما يزعجني. ثم أضاف: «ما رأيك لو نعود؟».

ـ لنعد.

عدنا إلى الفندق لكنّه تركني أمام الباب: «نسيت أن أشتري السجائر، سأعود في الحال».

كانت النار متأجّجة في المدفأة. هذه المدينة الصغيرة جاثمة على ارتفاع أعلى من أعلى مقاطعة في فرنسا، والليل فيها بارد. اضطجعت أمام اللهب الذي تفوح منه رائحة الصمغ. تروق لي هذه الغرفة بجدرانها المطليّة بالزهري وسجاجيدها كلّها. فكّرت بلويس: شعرت بالسعادة لأنّي سأكون وحدي لخمس دقائق فهذا يتيح لي أن

أفكّر به. بالطبع، كل ما يمتّ إلى التاريخ بصلة لا يستهوي لويس. لا تهمّه المعابد والمناظر والأسواق بل الناس. لديه أفكاره فيما يتعلّق بمفهومه للإنسان، الإنسان هو قبل كل شيء ذلك الذي لا يعيش خانعًا، ذلك الذي تحدوه رغبات ويناضل لإشباعها. كان لويس يرضى بالقليل لكنّه يرفض بحزم أن يُحرم من كلّ شيء. في رواياته مزيج غريب من الحنان والقسوة لأنّه يكره الضحايا الراضين بقدر ما يكره مضطهديهم. كان يكنّ مودّة للناس الذين يسعون إلى إشباع رغباتهم عبر الفنّ والمخدّرات والجريمة عند لزوم الحال، والسعادة في أفضل الأحوال. ولم يحظ بإعجابه إلاّ الثوّار الكبار. لا يهوى السياسة بأكثر مُنّي، لكنّه معجب بستالين وماوتسي تونغ وتيتو، أمّا شيوعيّو أميركا فكان يتّهمهم بالسذاجة والميوعة. لكنّه لو سكن فرنسا لكان شيوعيًّا على ما أظنّ، أو لسعى إلى ذلك على الأقلّ. أدرت رأسي باتّجاه الباب: لماذا لم يعد بعد؟ أوشك صبري أن ينفد عندما عاد أخيرًا متأبّطًا رزمة.

قلت:

ـ ماذا كنت تفعل؟

ـ أوكلت إليّ مهمّة خاصّة.

ـ ومن أوكلها؟

ـ أنا نفسي.

ـ وهل نفّذتها؟

ـ بالطبع.

رمى لي الرزمة. انتزعت الورقة فملأ أزرق شارتر عينيّ: إنّه القميص الرائع.

قال لويس:

ـ لكنّه متّسخ على الأرجح.

تبعت بإصبعي الإطار المطرّز والرسوم النزقة والمدروسة في آن: «قميص رائع، لكن كيف حصلت عليه؟»

ـ اصطحبت معي بوّاب الفندق واهتمّ بالتفاوض. لم ترض العجوز أن تبيع قميصها الرثّ، لكن عندما اقترحنا عليها أن تبادله بقميص جديد، وافقت. بدا عليها أنّها تعتبرني أبله لكنّي، بعد هذه المقايضة، توجّب عليَّ أن أقدّم كأسًا للبوّاب. استبقاني وما عاد يتركني. يريد الذهاب إلى نيويورك ليجني ثروة.

تشبّثت بعنق لويس:

ـ لماذا أنت لطيف معي إلى هذا الحدّ؟

ـ سبق وقلت لك: لست لطيفًا. أنا أنانيّ جدًّا. الواقع أنّك فلذة صغيرة منّي. عانقني بقوّة أكبر: «حبّك ناعم جدًّا».

آه، لا شيء ناجعًا كالجسد في مثل هذه اللحظات التي تتأجّج فيها مشاعر الحنان. التصقت بلويس. كيف يمكن لجسده أن يكون بهذه الألفة وهذه القدرة على إثارة الاضطراب فيّ؟ وفجأة ألهب دفئه جلدي مخترقًا عظامي. تهاوينا على السجّادة أمام اللهب الذي يحدث نشيشًا.

ـ آن، هل تعرفين كم مدى حبّي لك؟ هل تعرفين مع أنّي لا أبوح لك بهذا الشعور غالبًا؟

ـ أعرف. وأنت هل تعرف أيضًا؟

ـ نعم.

رمينا ملابسنا في كل زوايا الغرفة.

قال لويس:

ـ لماذا أشتهيك إلى هذا الحدّ؟

ـ لأنّي أشتهيك إلى هذا الحدّ.

مارس الحبّ معي فوق السجادة. ثم أعاد الكرّة فوق السرير. ولوقت طويل بقيت ملتصقة بظلّ إبطه.

ـ كم أحبّ أن أكون ملتصقة بك!

ـ كم أحبّ أن أكون ملتصقا بك!

بعد لحظات استند لويس إلى كوعه؟

ـ حلقي جافّ وأنت؟

ـ آخذ كأسًا.

أمسك السمّاعة وطلب كأسي ويسكي. لبست مبذلي ولبس برنسه الأبيض العتيق.

قلت:

ـ يجب أن تتخلى عن هذا البرنس المريع!

فتلحّف بالقماش الإسفنجيّ:

ــ أنتظر حتّى يتخلّى عنّي.

لم يكن بخيلاً على الإطلاق لكنّه يكره رمي الأشياء وخصوصًا ملابسه القديمة. أحضروا لنا الويسكي وجلسنا أمام النار. في الخارج، بدأت تمطر، تمطر كلّ ليلة.

قلت:

ــ أشعر بأنّني في أفضل حال.

ــ وأنا أيضًا.

طوّق كتفيّ بذراعيه وقال: «آن، ابقي معي!».

غصصت بريقي: «لويس! أنت تعرف كم أودّ ذلك. لكنّي لا أستطيع!».

ــ لماذا؟

ــ شرحت لك السبب السنة الفائتة.

أفرغت كأسي دفعة واحدة. انهالت عليَّ جميع المخاوف القديمة:

خوفي في نادي ديليزا وفي ميريدا وشيشن ــ إيتزا، وغيرها من المخاوف التي سرعان ما لجمتها. هذا ما استشعرته... ذات يوم سيقول لي: ابقي وعليَّ أن أجيبه بــ «لا» وماذا سيحدث عندئذٍ؟ السنة الفائتة لو فقدت لويس لاستطعت أن أتعزّى، لكن الآن أفضّل أن أدفن حيّة على أن أحرم منه.

قال:

ـ أنت متزوّجة لكن بإمكانك الطلاق. نستطيع العيش معًا دون أن نتزوّج. انحنى صوبي: «أنت زوجتي، زوجتي الوحيدة».

اغرورقت عيناي بالدموع وقلت: «أحبّك. تعرف جيّدًا كم أحبّك لكن في مثل سنّي لا يمكننا أن نتنكّر لحياتنا كلّها هكذا دفعة واحدة. فات الأوان. التقينا في وقت متأخّر جدًّا».

قال:

ـ ليس بالنسبة لي!

ـ هل تظنّ ذلك؟ إذا طلبت منك المجيء للعيش في باريس إلى الأبد، فهل توافق؟

قال لويس بحيويّة:

ـ لا أتكلّم الفرنسيّة.

ابتسمت.

ـ هذا يمكن تعلمه. ثم إنّ الحياة في باريس ليست أغلى منها في شيكاغو. والآلة الكاتبة يمكن نقلها بسهولة. هل تأتي؟

تجهّم وجه لويس: «لا أستطيع الكتابة في باريس».

قلت:

ـ أرأيت، لن تستطيع الكتابة خارج بلادك. أنا لا أكتب. لكنّ الأشياء بالنسبة لي تساوي قدر ما تساوي كتبك بالنسبة لك.

لزم لويس الصمت لآونة ثم قال:

ـ ومع ذلك تحبّينني؟

ـ نعم، سأحبّك حتى موتي. أخذت يديه: «لويس أستطيع العودة كلّ سنة. إذا كنّا واثقين من التلاقي كلّ سنة، لن يعود هناك فراق بل فقط فترات انتظار. وكم يهون عذاب الانتظار إذا كنّا متحابّين بهذه القوّة».

قال لويس:

ـ إذا كنت تحبّينني كما أحبّك، فلماذا نضيّع ثلاثة أرباع حياتنا في الانتظار؟

قلت:

ـ لأنّ الحبّ ليس كل شيء. افهمني. بالنسبة لك أنت أيضًا. ليس كلّ شيء.

كان صوتي مرتعشًا ونظرتي تتوسّل لويس: عساه يفهم! عساه يكون وفيًّا لهذا الحبّ الذي ليس كلّ شيء بالنسبة لي، لكنّي من دونه لست شيئًا.

قال لويس:

ـ لا، الحبّ ليس كل شيء.

نظر إليّ متردّدًا حائرًا.

قلت بشغف:

ـ إذا كنت مرتبطة بأمور أخرى، فهذا لا يعني أنّي أحبّك أقلّ. لا تحقد عليّ ولا تحبّني أقلّ. داعب لويس شعري: «أظنّ أنّه لو كان الحبّ كلّ شيء في نظرك لما أحببتك بهذه القوّة. لأنّك لن تعودي أنت».

اغرورقت عيناي بالدموع. إذا كان يتقبّلني بكلّيتي مع ماضيّ وحياتي وكل ما يفرّقني عنه، لاستطعنا إنقاذ سعادتنا. ارتميت بين ذراعيه:

ــ لويس، مرعب جدًّا أن لا تفهم! لكنّك تفهم! يا لسعادتي!

قال لويس:

ــ لكن لماذا تبكين؟

ــ لأنّني خفت: إذا فقدتك لن يكون بمقدوري مواصلة حياتي.

كفكف دمعة تحدّرت على خدّي: «لا تبكي. أخاف عندما تبكين».

ــ أبكي لأنّني سعيدة. لأنّنا سنكون سعداء. عندما سنكون معًا، سنغرف من ينبوع السعادة ما يكفينا لسنة. أليس كذلك يا لويس؟

قال:

ــ نعم، يا غاليتي الصغيرة. قبّل خدّي المبلل: «غريب! تبدين لي أحيانًا امرأة متعقّلة جدًّا وأحيانًا طفلة، ليس أكثر!».

قلت:

ــ أعتقد أنّي امرأة حمقاء. لكنّ الأمر سيّان عندي، شرط أن تحبّني.

قال لويس:

ــ أحبّك أيّتها الغالية الصغيرة الحمقاء.

كان قلبي يهلّل ابتهاجًا في صباح اليوم التالي حين استقللنا الباص الصغير الذي أوصلنا إلى كويتزالتينانغو. لم أعد أخشى المستقبل ولا لويس ولا الكلمات. لم أعد أخشى شيئًا. إنّها المرّة الأولى التي أجرؤ فيها على القيام بمشاريع علنيّة: السنة المقبلة، سيستأجر لويس بيتًا على ضفّة بحيرة ميشيغان وسنمضي الصيف هناك. بعد سنتين، سيأتي إلى باريس وسأزوّره فرنسا وإيطاليا... أمسكت يده التي تضغط على يدي. وكان يوافق على اقتراحاتي وهو يبتسم. اجتزنا غابات كثيفة وتساقط مطر حارّ جدًّا وجعلتني رائحته النقاذة أخفض الزجاج لأشعر بقطرات المطر تلامس وجهي. أثناء عبورنا شيّعنا رعاة جامدين تحت قبعاتهم المصنوعة من القشّ فبدوا وكأنّهم ينقلون أكواخًا فوق ظهورهم. قال لويس:

ـ هل نحن حقًّا على علوّ ٤٠٠٠ متر.

ـ هكذا يبدو.

هزَّ رأسه:

ـ لا أصدّق هذا وإلاّ لأصابني الدوار.

من بعيد، كانت هذه النجود ستبدو لي أقرب إلى معجزة مستحيلة. هذه النجود العالية كجبال الجليد، المكسوّة بالأشجار الوافرة الأوراق. الآن، أراها أمامي وتبدو لي طبيعيّة كما لو أنّني أرى البراري الفرنسيّة. الواقع أنّ غواتيمالا الشاهقة ببراكينها الهاجعة وبحيراتها وفلاّحيها المشعوذين تشبه أوفرني. بدأت أسأم منها، وشعرت بالسعادة حين واصلنا انحدارنا بعد يومين باتّجاه

الساحل. كان النزول رهيبًا عند الفجر. ارتجفنا من شدّة البرد على الطريق المتعرّجة التي تحفّ بها مراع خضراء، ومن ثم اختفت النباتات المتهافتة تحت أمواج نبات قاتم صلب الأوراق وبرّاق اللون. عند سفح المراعي الجبليّة المتلألئة بالجليد الأبيض ظهرت بلدة جاقّة أندلسيّة تنبت فيها الخبّيزة والجهنميّة. بعد انعطافات صغيرة في الباص، اجتزنا أيضًا عدّة خنادق. اشتعلت السماء وعبرنا بالقرب من مزارع موز توزّعت فيها أكواخ حولها هنديّات عاريات الصدور. كانت محطّة مونتزاتينانغو سوقًا شعبيًّا. وكانت النساء جالسات على السكك يعرضن تنانيرهنّ وبقجهنّ وطيورهنّ. سُمع صوت جرس في البعيد. بدأ الموظّفون بالصراخ وبان قطار صغير سبقته ضوضاء معهودة وأبخرة وقرقعة حديد.

استغرق الوقت عشر ساعات لنعبر المئة والعشرين كليومترًا التي تفصلنا عن غواتيمالا. وفي اليوم التالي نقلتنا طائرة في غضون خمس ساعات فوق جبال قاتمة وساحل ملتمع إلى مكسيكو.

قال لويس في التاكسي:

ــ وأخيرًا وصلنا إلى مدينة حقيقيّة تحدث فيها أشياء. ثم أضاف: «أحبّ المدن».

ــ أنا أيضًا.

اخترنا فندقنا مسبقًا، وكانت الرسائل بانتظارنا. قرأت رسائلي في الغرفة جالسة بالقرب من لويس، الآن، أستطيع التفكير بحياتي في باريس دون أن يتبادر إلى ذهني أنّني أسرق منه شيئًا. الآن،

أتقاسم كلّ شيء معه حتى الأمور التي تفرّقنا. بدا روبير رائق المزاج. قال لي إنّ نادين حزينة ولكنْ هادئة، وإنّ بول شفيت تقريبًا. كلّ شيء إذًا على ما يرام.

ابتسمت للويس:

ـ من أرسل لك رسالة؟

ـ ناشريّ.

ـ ماذا يريدون؟

ـ يريدون معرفة تفاصيل عن حياتي. يريدون إصدار الكتاب والترويج له بقوّة. كان صوت لويس متجهّمًا. نظرت إليه وسألته:

ـ هذا يعني أنّك ستجني مالاً كثيرًا، أليس كذلك؟

ـ لنأمل ذلك. دسَّ الرسالة في أحد جيوبه: «يجب أن أجيبهم في الحال».

سألت:

ـ ولماذا في الحال؟ هيّا نَزُرْ مكسيكو.

أخذ لويس يضحك.

ـ رأس صغير وعينان لا ترتويان من النظر أبدًا.

كان يضحك لكنّ شيئًا ما في نبرته أربكني.

قلت:

ـ إذا كان الخروج يضجرك، فلنبقَ!

ـ ستكونين حزينة جدًّا!

مشينا بمحاذاة آلاميدا. فوق الرصيف، كانت النساء يضفّرن أكاليل جنائزيّة هائلة. وأخريات يذهبن ويجئن. كلمة «القصر» لمعت بفرح على واجهة قاعة جنائزيّة. سلكنا جادّة عريضة شعبيّة. ومن ثم شوارع صغيرة مريبة. للوهلة الأولى أعجبتني مكسيكو، لكن لويس كان منشغلاً. هذا لا يفاجئني. هناك أمور يقرّرها بلمحة بصر لكن يحدث له غالبًا أن يتردّد إذا أراد تجهيز حقيبته أو كتابة رسالة، تركته يستغرق في تأمّله الصامت طيلة العشاء. فيما بعد، حين أصبحنا أمام ورقة بيضاء. بدا بفمه المنفرج وعينيه الكابيتين أشبه بسمكة. نمت ولم يكن قد كتب كلمة واحدة.

ـ سألته صباح اليوم التالي:

ـ هل انتهيت من كتابة رسالتك؟

ـ نعم.

ـ لماذا تزعجك كتابتها إلى هذا الحدّ.

ـ هذا لا يزعجني.

أخذ يضحك: «آه، لا تنظري إليَّ كما لو أنّني كنت أحد مرضاك. تعالي نتنزّه».

تنزّهنا كثيرًا هذا الأسبوع. تسلقنا الأهرامات الكبيرة وأبحرنا في القوارب المزهرة، وتسكّعنا في جادّة جاليسكو وفي أسواقها البائسة ومراقصها وقاعاتها الموسيقيّة. تجولّنا في المنطقة وشربنا التكيلا في بارات سيّئة السمعة. كنّا نعتزم البقاء قليلاً في مكسيكو وتمضية شهر في زيارة البلاد والرجوع إلى شيكاغو لبضعة أيّام.

لكن ذات يوم بعد الظهر، عندما كنّا عائدين إلى غرفتنا للخلود إلى القيلولة، قال لي لويس بفظاظة:

ـ يجب أن أكون الخميس في نيويورك.

نظرت إليه بدهشة: «في نيويورك؟ لماذا؟».

ـ الناشرون الذين أتعامل معهم يطالبون بذلك.

ـ هل تلقّيت رسالة جديدة؟

ـ نعم، يوجّهون لي دعوة لمدّة خمسة عشر يومًا.

ـ لكنّك لست مرغمًا على تلبية دعوتهم.

ـ بلى أنا مرغم. ثم أضاف: «ربّما كان الأمر مغايرًا لما يحصل في فرنسا. إصدار كتاب هنا مسألة ذات أهمّيّة. إذا أردنا أن يدرّ علينا مالاً فيجب القيام بتدابير محدّدة، عليّ أن ألتقي أناسًا وأحضر حفلات راقصة وأجري المقابلات. ليس الأمر ظريفًا. لكنّ الأمور تجري على هذا النّحو».

ـ ألم تخطرهم أنك لن تكون متفرّغًا قبل تمّوز؟ ألا يمكنهم إرجاء الإصدار إلى شهر تمّوز؟

ـ تمّوز توقيت سيّئ. عندئذٍ سيتوجّب الإرجاء حتى تشرين الثاني. وسيكون الوقت متأخّرًا جدًّا. أضاف لويس بنفاد صبر: «منذ أربع سنوات وأنا أعتاش ممّا ينفقه عليّ ناشرو كتبي. إذا كانوا راغبين في أن يحصّلوا ما أنفقوه فيجب أن أستجيب لرغباتهم. كما أنّني بحاجة إلى المال أنا أيضًا. إذا أردت مواصلة كتابة ما يروق لي».

ـ أتفهّم موقفك.

بالرغم من تفهّمي، أحسست بفراغ غريب في جوف معدتي.

أخذ لويس يضحك:

ـ أيّتها الغالية الصغيرة المسكينة! كم تبدين جديرة بالشفقة عندما لا تلبّى أوامرها ونكون رهن تصرّفها! وننصاع لتوجيهاتها.

احمرّ وجهي. صحيح، لويس يسعى طيلة الوقت لإرضائي. إنَّها المرّة الأولى التي ينصرف فيها إلى أموره الخاصّة. لذا لا يفترض بي أن أشعر بأن عيشي نُغّص. كان صوته عدائيًّا قليلاً ربَّما لأنّه اكتشف أنّني أنانيّة.

قلت:

ـ إنّها غلطتك. دللتني كثيرًا. ابتسمت: «أوه! ما أجمل أن نتجوّل في نيويورك. إلاّ أنّ فكرة تغيير جميع مشاريعنا تسبّبت لي بصدمة. لقد أبلغتني بهذه الأمور دون سابق إنذار».

ـ وكيف ينبغي إخطارك بذلك؟

قلت ببشاشة:

ـ لا ألومك على شيء. تحرّيت لويس بنظراتي ثم سألته: «هل وجّهوا لك الدعوة منذ الرسالة الأولى؟».

ـ نعم.

ـ ولماذا لم تطلعني على الأمر؟

ـ أعرف أنّ هذا لن يسرّك.

هيئته المرتبكة جعلتني أتعاطف معه. الآن أفهم لماذا صعب عليه إلى هذا الحدّ أن يكتب الرسالة. كان يحاول أن ينقذ سفرتنا إلى المكسيك معلّلاً النفس بأنّه سيوفّق إلى ذلك. لذا لم يشأ أن يشغل بالي بلا طائل. لكنّه أخفق. يحاول الآن أن يعالج المشكلة وقد أبدى غيظه من جرّاء ردّة الفعل التي أبديتها. وهو يؤثر الاغتياظ على الحزن، أتفهّمه.

قلت:

ـ كان عليك إعلامي بالأمر. لست هشّة إلى الحدّ الذي تتصوّر. ابتسمت له بحنان: «أرأيت؟ تدللني كثيرًا!».

ـ ربّما.

ومن جديد شعرتني مرتبكة وقلت: «عندما نصل إلى نيويورك، سينقلب الوضع، سأكون على استعداد لتلبية كافّة رغباتك».

نظر إليّ لويس ضاحكًا:

ـ هل هذا صحيح؟

ـ نعم، لكلٍّ دوره.

ـ إذًا، دعينا ننتظر حتى الوصول إلى نيويورك. لنبدأ في الحال. أمسكني من كتفي ثم قال بشيء من التحدّي: «تعالي وأطيعيني!».

إنّها المرّة الأولى التي أمنحه فيها فمي وأنا أقول لنفسي: «لا» لكنّني لم أكن معتادة على قول «لا» ولم أعرف. الآن، تأخّر الوقت لكي أتمالك نفسي وأتخلّص من المتاعب التي أتسبّب بها. بالطبع،

حدث لي مرّتين أو ثلاثًا أن قلت «نعم» دون أن تكون الاستجابة نابعة من رغبة صادقة لديَّ. لكنّ قلبي كان دومًا موافقًا، أمّا اليوم فالأمر مختلف. كان هناك في صوت لويس وقاحة سمّرتني مكاني. لم تكن حركاته وكلماته تصدمني إطلاقًا لأنّها عفويّة مثل رغبته ومثل لذّته وحبّه، لكنّني اليوم شاركت على مضض في الممارسة المألوفة التي بدت لي غريبة، ومبتذلة وفي غير مكانها. تنبّهت إلى أنّ لويس لم يقل لي:« أحبّك». متى قالها للمرّة الأخيرة؟

ولعلّه لن يقولها في الأيّام التالية. لم يتكلّم إلاّ عن نيويورك. أمضى فيها يومًا عام ١٩٤٣ عندما أبحر إلى أوروبا. لذا، كان يتحرّق شوقًا للذهاب إليها آملاً بأن يرى فيها أصدقاء قدامى من شيكاغو ويتعرّف إلى أشياء أخرى كثيرة. المستقبل والماضي كانا أغلى من الحاضر بالنسبة للويس. أنا قريبة منه ونيويورك بعيدة، وكان يهجس بها. لم أتأثّر باندفاعته كثيرًا لكنّ غبطته أحزنتني. ألا يتحسّر على الأوقات التي نمضيها معًا بمفردنا ولا من يشوّش علينا هذا الاجتماع؟ كانت لديَّ ذكريات عديدة وحديثة العهد ولم يكن هناك ما أخشاه لو أنّه سئم منّي. لعلّه اعتاد على وجودي إلى جانبه أكثر ممّا ينبغي.

كان الحرّ في نيويورك لا يطاق. ولّت الأمطار الليليّة الغزيرة إلى غير رجعة. منذ الصباح الباكر والسماء تتلظّى كالجمر. غادر لويس الفندق باكرًا، واسترسلت في غفوتي تحت هدير المكيّف. قرأت وأخذت حمّامًا وكتبت بضع رسائل. في السادسة ارتديت

ثيابي وانتظرت لويس. وصل في السابعة والنصف وهو يفيض حيويّة:

ـ التقيت فلتون!

كان حدّثني كثيرًا عن فلتون هذا. يعزف على الطبلة ليلاً ويعمل كسائق تاكسي نهارًا. ويتعاطى المخدّرات ليلاً ونهارًا. زوجته تمارس الدعارة وتشاطره تعاطي المخدّرات. تركا شيكاغو لدواع صحيّة طارئة. لم يكن لويس يعرف أين يقيمان بالضبط. ما إن أنهى عمله مع وكلائه وناشريه، حتى شرع يبحث عنهما، وبعد تطوّر أحداث كثيرة، اتّصل بفلتون على الهاتف.

قال لويس:

ـ إنّه ينتظرنا. سيجول بنا في نيويورك.

كنت أرغب في قضاء السهرة أنا ولويس بمفردنا لكنّي قلت له بحماسة: «يسرّني أن أتعرّف إليه».

ـ سيأخذنا إلى العديد من الأماكن التي لن نستطيع اكتشافها من دونه.

ثم أضاف لويس ببشاشة: «إنّها أماكن لم يصطحبك إليها بالطبع أصدقاؤك من الأطبّاء النفسيّين!».

في الخارج، الطقس حارّ ورطب، وحرارته ازدادت في كوخ فلتون.

كان فلتون شابًّا طويل القامة، ممتقع الوجه، يضحك برغبة جامحة وهو يمسك بيدي لويس. في الواقع، لم يعرّفنا على الشيء

الكثير في نيويورك. جاءت زوجته برفقة شابّين ومعهما علبتان من البيرة. أفرغوا العلبتين الواحدة تلو الأخرى، وهم يتحدّثون عن أناس لا أعرف شيئًا عنهم، قائلين إنّهم سُجنوا للتوّ وسيخرجون قريبًا، وإنّهم يبحثون عن حيلة للخروج من الورطة، وقد وجدوها. تحدّثوا أيضًا عن الإتجار بالمخدّرات والرشوة التي يضطرّون لدفعها إلى رجال الشرطة. بدا لويس مغتبطًا للغاية بأحاديثهم. ذهبنا لنتناول أضلع خنزير في إحدى حانات الجادّة الثالثة. وتابعوا أحاديثهم لوقت طويل، شعرت بإحباط لا حدود له.

وظللت محبطة طيلة اليوم التالي. لم أخطئ في تقديري. ما إن أصبح لويس في نيويورك حتى خفّت حماسته. لم يكن يهوى النمط الذي تفرضه عليه الحياة هنا، ولا الحفلات الاجتماعيّة ولا الدعايات. يذهب من دون مبالاة إلى حفلات الغداء والعشاء والكوكتيل ويعود منها متجهّم الوجه. أمّا أنا فلم أكن أعرف ما الذي يتوجّب عليّ أن أفعله. يقترح لويس عليَّ بفتور مرافقته لكنّي لم أعد آبه الآن للقاءات التي لا غد لها ولا أستمتع بلقاء الأصدقاء القدامى. رحت أتنزّه في الشوارع وحيدة ودون كبير اقتناع: الطقس شديد الحرارة والإسفلت مائع تحت قدميّ. العرق يتصبّب منّي وأشعر بالشوق السقيم للويس. والأسوأ هو أنّ الأمر لم يكن أكثر بهجة حين نلتقي. يضجر لويس من أن يخبرني عن لقاءاته المضجرة. وأنا ليس لديّ ما أخبره. عندئذٍ، نذهب إلى السينما أو إلى مباراة في الملاكمة أو نقوم بجولة في البايسبول. وغالبًا ما يذهب فلتون معنا.

سألني لويس ذات يوم:

ــ لا تشعرين بمودّة كبيرة لفلتون، أليس كذلك؟

ــ ليس لديَّ ما أقوله له ولا هو أيضًا. تفحّصت لويس بفضول: «لماذا أصدقاؤك المفضّلون نشّالون أو مدمنون على المخدّرات أو قوّادون؟».

هزَّ لويس كتفيه: «أجدهم أكثر ظرفًا من الآخرين».

ــ لكن ألم تغوك إطلاقًا تجربة إدمان المخدّرات؟

أجابني بحيويّة:

ــ أوه، لا! تعرفين أنّني أتشوّق إلى ركوب المخاطر ولكن من بعيد.

بدا عليه أنّه يمزح لكنّه يقول الحقيقة. ينبهر بكل ما هو خطر ومتطرّف وجنونيّ ولكنّه قرّر أن يعيش حياته دون مخاطرة لا بل باعتدال وتعقّل. هذا التناقض هو ما يجعله أكثر الأحيان قلقًا ومتردّدًا ثم تساءلت بقلق:

ــ أليس هذا التناقض هو الذي يحدوه أيضًا في تصرّفاته حيالي؟

أحبّني لويس باندفاع وتهوّر، تُرى هل يلوم الآن نفسه على هذا التهوّر؟ عمومًا، هناك أمر ما لم يعد باستطاعتي تفاديه: تغيّره حيالي منذ بعض الوقت.

لكن هذا المساء بالذات، بدا عليه وهو يدخل الغرفة أنّه رائق المزاج. أمضى فترة بعد الظهر يسجّل مقابلة في الراديو. كنت أتحضّر للاسوأ لكنّه قبّلني ببشاشة:

ــ ارتدي ثيابك بسرعة سأتناول العشاء بصحبة جاك موراي، وستأتين معي. أبدى رغبة شديدة في التعرّف إليك وأنا أريد أن تتعرّفي إليه.

لم أخف خيبتي وقلت: «هذا المساء لويس، أليس بإمكاننا أن نمضي سهرة وحدنا أنا وأنت»؟

ــ نغادر باكرًا ما إن ينتهي العشاء.

أفرغ على الطاولة ما في جيوب سترته وأخرج من الخزانة بذلته الجديدة: «غالبًا ما ينقرني الأدباء. ثقي أنّ موراي سيعجبك».

ــ أثق بكلامك.

جلست أمام منضدة الزينة لأسوّي هندامي.

ــ سنتناول العشاء في الهواء الطلق في السنترال بارك. يقال إنّ المكان رائع والأكل لذيذ. ما رأيك؟

ابتسمت:

ــ شرط أن يتسنّى لنا الوقت لنكون بمفردنا في أقرب فرصة. عندئذٍ سيكون الأمر رائعًا.

نظر إليّ لويس نظرة متردّدة: «أودّ بشدّة أن يعجبك موراي».

ــ وما السبب؟

قال لويس بنبرة فرحة:

ــ «خطّطنا لمشاريع سويّة! لكن يجب أن يروق لك في البداية لكي نستطيع تنفيذها!

تحرّيت لويس بنظراتي.

ــ يملك بيتًا في قرية صغيرة بالقرب من بوسطن. وقد دعانا للإقامة فيه قدر ما نشاء. سيكون هذا أفضل بكثير من العودة إلى شيكاغو حيث الحرّ لا يُطاق.

ومن جديد شعرت بفراغ كبير في جوف معدتي. سألته: «هل يقيم في هذا المنزل أم لا؟».

ــ يقيم فيه مع زوجته وولديهما. ثم أضاف لويس بنبرة ساخرة بعض الشيء: «لكن لا تخافي، ستكون لنا غرفتنا الخاصّة بنا».

قلت:

ــ لكنْ، لويس، لا رغبة لي في أن أمضي هذا الشهر الأخير لي هنا مع أناس آخرين. أفضّل الحرّ الذي لا يطاق في شيكاغو شرط أن نكون بمفردنا أنا وأنـــت.

قال لويس بلهجة فظّة:

ــ لا أرى ما يستوجب بقاءنا وحيدين ليلاً ونهارًا بذريعة أنّ أحدنا يحبّ الآخر.

وقبل أن أتمكّن من الإجابة، دخل إلى الحمّام وأقفل الباب خلفه. «ماذا يعني بقوله؟ هل يضجر برفقتي؟». ارتديت بلوزة من الدانتيل وتنّورة تصدر حفيفًا كنت اشتريتها من مكسيكو، وانتعلت صندلاً

ذهبيّ اللون. وقفت في منتصف الغرفة والحيرة تعتريني. هل هو ضجر أم ماذا؟ تناولت المفاتيح التي تركها على الطاولة ثم محفظة نقوده وعلبة الدخان كاميل: أيعقل أن أحبّ لويس إلى هذا الحدّ وأنا لا أعرفه إلاّ لمامًا! بين الأوراق لاحظت رسالة وفي أولها تحيّة من ناشريه. بسطتها: «لويس بروغان العزيز. بما إنّك تفضّل المجيء حالاً إلى نيويورك، فنحن موافقون. سنتّخذ كل التدابير اللازمة. وموافقون أيضًا بالنسبة للخميس ظهرًا...» قرأت التتمّة وعيناي يغشاهما الضباب. التتمة لا أهمّيّة لها. «تفضّل المجيء حالاً إلى نيويورك.. تفضّل. تفضّل..». في المساء الذي أقامت فيه بول مأدبتها الموهومة، شعرت أنّ الأرض تميد تحت قدميّ. اليوم، أشعر بما هو أسوأ. لم يكن لويس مجنونًا. لا بدّ أنّني أنا المجنونة! تهاويت على الكنبة. هذه الرسالة كتبها بعد ثمانية أيّام فقط من تلك الليلة في شيشيكاستننغو، حين قال لي: «أحبّك أيّتها الغالية الحمقاء». أذكر كلّ شيء: لهيب النار والسجاجيد وبرنسه القديم والمطر على النوافذ. قال لي: «أحبّك». كان ذلك قبل ثمانية أيّام من وصولنا إلى مكسيكو. وفي أثناء ذلك لم يطرأ شيء على علاقتنا. لماذا قرّر أن يختصر فترة لقائنا الحميم؟ لماذا كذب عليّ؟ لماذا؟

عندما خرج لويس من الحمّام قال لي:

ـــ أوه، لا تقلبي سحنتك هكذا!

كان يخال أنّني مستاءة من دعوة موراي. لم أكذّبه. مستحيل عليَّ التفوّه بكلمة. في سيّارة التاكسي، لم ننبس بكلمة.

الجوّ منعش في السنترال بارك. على الأقلّ، الاخضرار والشراشف الدمقسيّة والدلاء المليئة بالثلج وأكتاف النساء العارية... كل ذلك يعطي انطباعًا بالبرودة والانتعاش. احتسيت كأسي مارتيني الواحدة تلو الأخرى. وبفضلهما، استطعت، عندما حضر موراي، التلقط ببضع جمل لائقة. لو أنّني التقيت به حين كنت أهوى اللقاءات التي لا أفق لها لسررت بلقائه ولا شكّ. كان مستدير الشكل من كل النواحي: رأسه ووجهه وجسده. لذا نشعر أنّنا نرغب، لدى سماعه، في التشبّث به كما نتشبّث بعوّامة. ما ألطف صوته! وما أقسى صوت لويس! هذا ما لاحظته لدى سماعه. حدّثني عن كتب روبير وهنري. بدا وكأنّه على اطّلاع بكل ما يجري. ما أظرف الحديث معه. لكنّ المطرقة لا تزال تقرع في رأسي: «تفضّل المجيء إلى نيويورك.. تفضّل المجيء إلى نيويورك». لكن هذا كابوس، وسيستمرّ من دوني فيما أنا منشغلة بتناول كوكتيل من القريدس واحتساء النبيذ الأبيض. سألني موراي عن رأي الفرنسيّين باقتراحات مارشال[1]. وبدأ يحادث لويس عن

(١) مارشال: مشروع مارشال وضعه وزير الخارجيّة الأميركي جورج مارشال عام ١٩٤٨، ويقضي بأن تقدّم الولايات المتّحدة مساعدات اقتصاديّة وماليّة حيثما تبرز الحاجة لها لمحاربة الجوع والفقر واليأس والفوضى الناشئة عن الحرب العالميّة الثانية. أدّى المشروع إلى إنشاء «برنامج الإنعاش الأوروبّي» الذي وافقت بموجبه ١٦ دولة في أوروبّا الغربيّة (لا تشمل الاتّحاد السوفييتي أو غيره من الدول الشيوعيّة) على ثلثي المساعدات من الولايات المتّحدة، فتدفّقت الأموال الأميركيّة (١٣ مليار دولار) إلى أوروبّا الغربيّة وساعدت في إنعاش الزراعة والصناعة. اعتبر الاتّحاد السوفييتي أنّ البرنامج المبنيّ على مبدأ ترومان هو =

الموقف المحتمل للاتّحاد السوفييتي: كان يعتقد أنّ الاتّحاد السوفييتي سيصرف مارشال وسيكون موقفه هذا صائبًا. بدا عليه أنّه أخبر في السياسة من لويس. وإجمالاً كان تفكيره أكثر تنظيمًا وثقافته أمتن. بدا لويس مغتبطًا لسماع آرائه واردة على لسان رجل يعرف تمامًا كيف يدافع عنها. نعم، موراي قادر، على أصعدة كثيرة، أن يقدّم له أكثر منّي. فهمت رغبة لويس في أن يجعل منه صديقه. وفهمت رغبته في إمضاء هذا الشهر برفقته. لكن هذا لم يوضح لي الأسباب التي دفعته إلى كذبة مكسيكو. لم يفسّر لي الجوهريّ.

سأل موراي وهو يتّجه إلى موقف السيّارات:

ــ تريد أن أقلّكما إلى مكان ما؟

قلت بحيويّة:

ــ لا، أرغب في السير على قدميّ.

ابتسم موراي ابتسامة عريضة وقال:

ــ إذا كنت تحبّين السير على القدمين، فيجب أن تأتي حتمًا إلى روكبورت. هناك منتزهات رائعة يمكن التعرّف عليها. أنا واثق من أنّ المكان سيعجبك ومن دواعي سروري أن تشرّفاني بزيارتكما أنتما الاثنين.

قلت بحرارة:

محاولة من قِبَل الولايات المتّحدة لرشوة الدول الأوروبيّة وتشريبها مبادئها السياسيّة وليس تلبيةً لحاجة اقتصاديّة.

ـ هذا رائع!

ـ ابتداءً من الاثنين المقبل. نحن بانتظاركما ولستما مضطرين لإبلاغنا مسبقًا بحضوركما.

صعد إلى سيّارته وانطلقنا سيرًا على الأقدام نتجوّل في الحديقة.

قال لويس بنبرة يشوبها العتب:

ـ أظنّ أن موراي كان راغبًا في إمضاء السهرة معنا.

قلت:

ـ ربّما. لكن أنا لا.

ـ لكنّكما بدوتما متفاهمين.

ـ وجدته محبّبًا جدًّا. لكن لديّ أشياء أريد أن أقولها لك.

تجهّم وجه لويس:

ـ على ألا يكون الأمر خطيرًا!

ـ بلى، أشرت إلى صخرة مسطّحة وسط المرجة «لنجلس هنا». كانت بعض السناجب الرماديّة اللون تركض بين الأعشاب. وفي البعيد، المباني الكبيرة تلتمع. قلت بلهجة محايدة:

ـ منذ قليل، عندما دخلت لتستحمّ، تركت وراءك رسائل على الطاولة. تحرّيت نظرة لويس: «لم يفرض عليك ناشروك المجيء إلى نيويورك الآن. أنت الذي اقترحت عليهم ذلك. فلمَ قلت لي العكس؟».

قال لويس بلهجة صارمة:

ــ آه، تقرئين رسائلي من خلف ظهري!

ــ ولم لا، فأنت تكذب عليّ.

قال بعدائيّة:

ــ أكذب عليك وتطلعين سرًّا على أوراقي، نحن متعادلان في الإساءة.

وفجأة فارقتني كل قوّة ونظرت إليه منذهلة. هذا هو، هذه أنا، كيف وصلت بنا الحال إلى ما هي عليه؟

ــ لويس، لم أعد أفهم شيئًا. تحبّني وأحبّك. ثم سألت بحيرة: «ما الذي يحدث لنا؟».

ــ لا شيء إطلاقا.

ــ لا أفهم، اشرح لي. كنّا سعيدين جدًّا في مكسيكو. لماذا قرّرت المجيء إلى نيويورك؟ أنت تعرف جيّدًا أنّه لم يعد بإمكاننا تقريبًا أن نلتقي على انفراد..

ــ لا شيء هناك إلاّ الهنود والخرائب. شعرت بالاختناق. هزّ كتفيه «أردت أن أغيّر الجوّ بعض الشيء. لا أرى ما المأساويّ في ذلك؟».

لم يرضني هذا الجواب. لكنّي قرّرت موقتًا الاقتناع به.

ــ لماذا لم تقل لي إنّك سئمت من المكسيك؟ لماذا هذه الألاعيب؟

ــ لو لم أفعل ذلك لما كنت سمحت لي بالمجيء إلى هنا ولأرغمتني على البقاء هناك.

دهشت وكأنّي تلقّيت صفعة منه. أيّ حقد في صوته!

ــ هل تعني فعلاً ما تقوله؟

ــ نعم.

ــ لكن، لويس، متى منعتك من أن تفعل ما تريده؟ نعم، تسعى دومًا إلى إرضائي. لكن بدا لي أنّ ذلك يرضيك أنت فعلاً. لم يتبادر إلى ذهني الانطباع بأنّني أسبّب لك بعض الإحراج.

استعدت ماضينا في ذهني: كلّ شيء كان حبًّا وتفاهمًا وسعادة.

سعادة أن يمنح أحدنا السعادة للآخر. أرعبني التخيّل أنّ لطف لويس ستعقبه الشكوك والتّهم.

ــ أنت من العناد لدرجة أنّك لا تتنبّهين للأمر. ترتّبين الأمور في رأسك ومن ثم لا تحيدين عمّا قرّرته قيد أنملة. وتصرّين على تمضية الوقت حيثما تشائين.

ــ لكن متى حصل هذا؟ أعطني أمثلة...

تردّد لويس:

ــ أرغب في تمضية هذا الشهر عند موراي، وأنت ترفضين.

قاطعته:

ــ أنت سيّئ النيّة. متى حصل هذا قبل مكسيكو؟

ــ أعرف تمامًا أنّه لو لم أقم بهذه الحيلة لبقينا في مكسيكو. وفقًا لمشاريعك، يجب أن نمضي شهرًا آخر هناك. وكنت ستقنعينني أنّه يجب القيام بذلك.

ـ أوّلاً، خطّطنا معًا لهذا المشروع. ثم إنّني كنت سأناقشك في الموضوع وسأتبيّن أنّك راغب بشدّة في المجيء إلى نيويورك. وسيؤول بي الأمر في النهاية إلى النزول عند رغبتك!

ـ يسهل قول هذا. قاطعني بحركة: «على أيّ حال سيحتاج الأمر إلى بذل الجهود المضنية لإقناعك. فكّرت بكذبة صغيرة لكسب الوقت. ليس هذا بالأمر الخطير؟».

ـ بلى، إنّه خطير. ظننتك لا تكذب عليّ أبدًا؟

ابتسم لويس بشيء من الانزعاج:

ـ الواقع أنّني لا أكذب عليك. إنّها المرّة الأولى. لكنّك أخطأت باللعب على هذا الوتر. سواء كذبنا أو لا فالحقيقة لا تقال أبدًا.

تفحّصته بحيرة: لا بدّ أنّ أمورًا غريبة تدور في رأسه! وشجونًا كثيرة تضغط بثقلها على صدره ولكن ما هي تحديدًا؟ هززت رأسي:

ـ لا أظنّ ذلك. بإمكاننا التحدّث واحدنا للآخر والتفاهم بغية التعارف أكثر فأكثر. يكفي القليل من الإرادة الطيبّة.

ـ أعرف أنّ هذه الفكرة تروق لك. لكن هذه أسوأ كذبة: الادّعاء بأنّنا نتصارح.

نهض:

ـ وأخيرًا، بالنسبة لهذه النقطة تحديدًا، قلت الحقيقة لك. وليس لديّ ما أضيفه. لنرحل من هنا، إذا أمكن.

ـ لنرحل.

اجتزنا الحديقة بصمت. لم يوضح لي هذا التفسير شيئًا. ما عدا شيئًا واحدًا: عدائيّة لويس. لكن ما مصدرها؟ إنّه أكثر عدائيّة من أن يشرح لي مصدرها! ولن يفيد بشيء أن أساله.

سأل لويس:

ــ أين نذهب؟

ــ حيثما تشاء!

ــ ليست لديّ فكرة.

ــ ولا أنا!

ــ بدا أنّ لديك خططًا بالنسبة لهذه السهرة!

ــ لا شيء محدّدًا. ظننت أنّنا سنذهب إلى حانة هادئة وسنتحدّث.

قال متبرّمًا:

ــ لا نتحدّث هكذا بِناءً على توصية!

ــ فلنذهب لسماع موسيقى الجاز في الكافيه سوسايتي.

ــ ألم تسمعي ما يكفي من الجاز في حياتك؟

وتصاعد الغضب إلى وجهي:

ــ حسنًا لنعد للنوم.

قال لويس ببراءة:

ــ لست نعسًا. كان يستمتع بإغاظتي من غير عمد. فكّرت بضغينة: «يتعمّد إفساد هذه السهرة، يتعمّد إفساد كل شيء». ثم قلت بلهجة جافّة:

ــ لنذهب إذًا إلى الكافيه سوسايتي ما دمت راغبة في ذلك وما دمت غير راغب في شيء.

استقللنا سيّارة تاكسي. تذكّرت ما قاله لويس منذ سنة، عن أنّه يصعب عليه التفاهم مع الآخرين وأنّه هو السبب في ذلك. هذا صحيح إذًا! لديه علاقات طيّبة بتيدي وفلتون وموراي لأنّه لا يراهم إلاّ نادرًا. لكنّ الحياة المشتركة أمر لا يستطيع احتماله لفترة طويلة.

أحبّني بتهوّر. وها إنّ الحبّ يبدو له قيدًا. ومن جديد، شعرت بسورة من الغضب تشدّ على حلقي: «كان عليه أن يعرف مسبقًا أنّ هذا يحدث له ولم يكن يفترض به أن يدعني أتورّط جسدًا وروحًا في هذه العلاقة. ليس من الجائز أن يتصرّف كما يفعل الآن. إذا كان وجودي ثقيلاً عليه، فليعبّر عن رأيه بصراحة: بإمكاني العودة إلى باريس. فأنا على استعداد للعودة!». كانت الفرقة الموسيقيّة تعزف مقطوعة لديوك إلينتون. طلبنا ويسكي. تفحّصني لويس بشيء من القلق:

ــ هل أنت حزينة؟

ــ لا، لست حزينة بل حانقة.

ــ حانقة؟ لديك طريقة هادئة جدًّا في أن تكوني حانقة.

ــ لا تثق بالمظاهر!

ـ بماذا تفكّرين؟

ـ أفكّر أنّه إذا كانت هذه العلاقة تثقل كاهلك، فما عليك إلاّ أن تعلن صراحة. أستطيع أن أستقلّ طائرة إلى باريس غدًا.

ابتسم لويس:

ـ اقتراح خطير.

ـ ما إن نخرج بمفردنا حتى أشعر أنّك لا تحتمل ذلك. أعتقد أنّ الأساس لفهم تصرّفك هو هنا: إنّ وجودي يسبّب لك الملل، والأفضل لي أن أذهب.

هزّ لويس رأسه، وقال بلهجة صارمة:

ـ لا أشعر معك بالملل.

فارقني غضبي بسرعة كما اعتراني. ومن جديد شعرتني لا حيلة لي. قلت:

ـ إذًا ماذا هنالك؟ قل لي ما الأمر تحديدًا؟

قال لويس بعد صمت:

ـ لنقل إنّك بين الفينة والفينة تثيرين غيظي قليلاً!

ـ لاحظت ذلك. لكن أريد معرفة السبب.

قال لويس بطلاقة لسان مفاجئة:

ـ قلت لي إنّ الحبّ ليس كلّ شيء بالنسبة لك. مفهوم. لكن لماذا تطلبين منّي أن يكون كلّ شيء بالنسبة لي؟ اذا كنت راغبًا في المجيء إلى نيويورك ورؤية الأصحاب فهذا يغضبك. يجب أن

تحظي وحدك بالاهتمام دون سواك، ولا شيء آخر موجود. يجب أن أستجيب لكلّ رغباتك على الدوام فيما أنت لا تضحّين بشي من حياتك. هذا ليس عادلاً!

لذت بالصمت. هناك سوء نيّة في كل هذه المآخذ واعتلال في المنطق! نصف المسألة ليست هنا. لأوّل مرّة خلال هذه السهرة، ألمح بصيص نور ولم يكن مطمئنًا.

تمتمت:

ـ أنت مخطئ. لا أطلب شيئًا!

ـ أوه، بلى ترحلين وتعودين متى يحلو لك. لكن ما دمت هنا، يجب أن أوفّر لك السعادة الكاملة...

ـ أنت الظالم. اختنق صوتي في حنجرتي. وبدا لي هذا واضحًا فجأة: لويس حاقد عليّ لأنّني رفضت البقاء معه إلى الأبد. هذه الرحلة إلى نيويورك وهذه المشاريع مع موراي كلها أعمال انتقام منّي!

ـ أنت حاقد عليّ؟ لماذا؟ ليس الذنب ذنبي. تعرف جيّدًا.

ـ لا أحقد عليك. أفكّر فقط أنّه يجب ألاّ نطلب أكثر ممّا نستطيع أن نعطي.

ردّدت:

ـ أنت حاقد عليّ: نظرت إلى لويس بيأس وأضفت: «ومع ذلك حين تحدّثنا في شيشيكستننغو، كنّا متّفقين. هل تفهمني؟ ما الذي طرأ حتىّ تبدّلت الأمور؟».

ـ لا شيء.

ـ وأمّا بعد؟ قلت إنك ما كنت لتحبّني بهذا القدر لو لم أكن مختلفة. قلت إنّنا سنكون سعيدين...

هزّ لويس كتفيه:

ـ قلت ما أردتني أن أقوله.

ومن جديد، شعرت أنّني أتلقى صفعة على وجهي. تمتمت: «ماذا تقصد؟».

ـ أردت أن أقول أشياء كثيرة أخرى لكنّك رحت تبكين من الفرح فآثرت الصمت على الكلام.

أجل، أذكر ذلك. الأحطاب في النار. يستعر لهيبها وعيناي مغرورقتان بالدموع. صحيح أنّني استعجلت البكاء من الفرح على كتفي لويس. أرغمته على فعل ما لا يريد فعلهُ.

قلت:

ـ كنت خائفة جدًّا. خائفة جدًّا من أن أخسر حبّك.

ـ أعرف. بدا عليك أنّك مرتاعة. وهذا جعلني أعدل عن الكلام. ثم أضاف بضغينة: «كم اغتبطت عندما أدركت أنّني انصعت لرغباتك! البقيّة لا تهمّك».

عضضت شفتي. لا يجدر بي أن أبكي هذه المرّة ومهما كان الثمن، رغم أنّ ما يحصل لي مرعب. لهيب النار والسجاجيد والمطر على النوافذ ولويس في برنسه الأبيض. كلّ هذه الذكريات كانت واهمة. رأيتني أبكي على كتفه وكنّا متّحدين إلى الأبد. لكن

يبدو أنّني كنت متّحدة فقط بذاتي. كان على صواب. توجّب عليَّ الاهتمام بما يدور في خلده بدلاً من أن اكتفي بالكلمات التي أنتزعها منه عنوةً. كنت جبانة وأنانيّة، ونلت عقابي. استجمعت كلّ شجاعتي. الآن، لم يعد باستطاعتي الهروب.

سألت:

ـ لو لم أبكِ فماذا كنت ستقول لي؟

ـ لقلت إنّه لا يمكن أن تحبّي بالطريقة نفسها رجلاً هو كلّ شيء بالنسبة لك، ورجلاً ليس كذلك.

سَرَتْ في عروقي قشعريرة، فقلت في محاولة الدفاع عن نفسي: «قلت لتوّك العكس حين ذكرت أنّني لو لم أكن مختلفة لما أحببتني بهذا القدر».

قال لويس:

ـ هذا ليس تناقضًا. ثم هزَّ كتفيه: «لكنّ المشاعر تحتمل التناقض...».

لا جدوى من النقاش. ولا دور للمنطق في هذا المجال. لا شكّ أنّ مشاعر لويس كانت مشوّشة فقال لي كلمات مهدّئة لكسب الوقت ومن ثم بدأ يحقد عليّ. لا بأس. اليوم لا يحبّني بالطريقة نفسها التي أحبّني بها سابقا. كيف بإمكاني تقبّل ذلك؟ اليأس يخنقني. تابعت الكلام لأقطع على نفسي مشقّة التفكير.

ـ لم تعد تحبّني كما في السابق، أليس كذلك؟

تردّد لويس ثم قال:

ـ أعتقد أنّ الحبّ أقلّ أهمّيّة ممّا تصوّرت.

ـ لاحظت ذلك. ما دام عليّ الرحيل مجدّدًا فسواء كنت هنا أم لم أكن فهذا لا يغيّر الشيء الكثير.

قال لويس:

ـ شيء من هذا القبيل... نظر إليّ وقد تغيّر صوته. قال بانفعال «ومع ذلك انتظرتك طويلاً! طيلة السنة لم أفكّر بشيء آخر. كم اشتهيتك!».

قلت بحزن:

ـ نعم والآن...

طوّق لويس كتفي بذارعه: «لا زلت حتى الآن أشتهيك».

ـ أوه، بهذه الطريقة!

ـ ليس فقط بهذه الطريقة. تشبّثت يده بذراعي: «سأتزوّجك في الحال». أخفضت رأسي. تذكّرت النجم المذنّب فوق البحيرة. عندما تمنّى أمنية لكن لم تتحقّق. أنا الذي وعدت نفسي بألاّ أخيّب آماله، ها قد خيّبتها بشكل لا رجوع فيه. كنت المذنبة الوحيدة. لن أستطيع أبدًا أن أحقد عليه، ولا بأيّ شأن.

لم نعد إلى الكلام، استمعنا إلى القليل من الجاز ثم عدنا. لم أنم. تساءلت بقلق عمّا إذا كنت سأقدر على إنقاذ حبّنا. يمكن لحبّنا أن ينتصر على الغياب والانتظار وكلّ شيء شريطة أن يرغب كلانا بذلك. ولويس، هل يريد ذلك؟ قلت في نفسي: «الآن، هو متردّد. يريد أن يتفادى بأيّ طريقة الحسرات والألم وكآبة الروح. لكن، هو

الذي يأنف من رمي برنسه القديم، لن يستطيع التخلّص بسهولة من ماضينا». سخاؤه يفوق كبرياءه. هكذا رحت أقول أيضًا لكي أعلّل نفسي. ونهمه يفوق حذره. يتمنّى أن تطرأ على حياته مستجدّات. إلاّ أنّني كنت أعرف أيضًا أيّ قيمة يعطي لأمانه واستقلاليّته وكم يتباهى بأنّه يعيش باعتدال وتعقّل. قد يبدو الحبّ الذي يجمع بيننا ضربًا من الجنون. نعم، هذا هو ما يخيفني أكثر من أيّ شيء في تصرّف لويس. هذه النوبات المسعورة من الحكمة التي تستولي عليه فجأة. وهذا ما يجدر بي أن أتداركه. يجب أن أثبت للويس أنّ حظوظ النجاح في هذه العلاقة أكثر من حظوظ الفشل.

كنّا نتناول طعام الفطور فخطر لي أن أشنّ الهجوم:

ــ لويس، فكّرت بعلاقتنا طيلة الليل.

ــ كان من الأفضل لك أن تنامي.

كان صوته وديًّا. بدا مرتاحًا. لا بدّ أنّه يشعر بالارتياح بعد أن أزاح ما كان يثقل على صدره.

ــ قلت لي البارحة إنّني أغيظك لأنّني أطلب منك أكثر ممّا أعطي. وهذه خطيئة لن أعود إلى ارتكابها. سآخذ فقط ما تعطيني إيّاه ولن أطالب بأيّ شيء آخر.

أراد لويس مقاطعتي لكنّي تابعت. بداية نذهب إلى عند موراي. هذه قضيّة محسومة لدينا معًا. ثم إنّني لا أريد أن يعتقد أنّه مجبر على هذا الوفاء الذي فرضه على نفسه لغاية الآن. حين أغيب عنه، له مطلق الحرّيّة بأن يعيش حياته كأنّني غير موجودة. وإذا صدف

ووقع في غرام امرأة أخرى فيا لتعاستي. لن أعترض. لن تمنحه علاقتنا ما يتمنّاه إلاّ أنّها لن تحرمه من شيء.

قلت:

ــ إذًا لا تعد للاعتقاد بأنّني نصبت لك فخًّا. لا تفسد الأشياء فقط من أجل إفسادها.

استمع إليّ لويس بانتباه. ثم هزّ رأسه وقال:

ــ ليس الأمر بهذه البساطة!

قلت:

ــ أعرف، من اللحظة التي نحبّ فيها لا نعود أحرارًا. لكن إذا أقيمت علاقة بين طرفين يعتبر أحدهما أنّه لا يملك حقوقًا على الآخر، فالأمر مختلف!

ــ أوه، ما همّني إذا ظنّت امرأة أنّ لها حقوقًا عليَّ ما دمت لا أعترف لها بها. ثم أضاف: «يجب ألاّ نعود مجدّدًا إلى الحديث عن هذا الأمر. وإلاّ زدنا الأمور تعقيدًا».

قلت:

ــ لعلّك تعقّدها أيضًا لو سكتّ عنها. انحنيت صوبه: «أريد أن أسألك سؤالاً: هل تندم لأنّك التقيتني؟».

ــ لا، كوني مطمئنّة. لن أندم أبدًا على ذلك.

بعثت النبرة التي تكلّم بها الشجاعة في نفسي فقلت:

ــ لويس، سنلتقي من جديد أليس كذلك؟

ابتسم:

ـ هذا هو الأمر الذي أنا متأكّد منه أكثر من أيّ شيء في هذا العالم.

عاد الأمل إلى قلبي. كنت أعرف أنّ خطابي لم يقنعه إلاّ جزئيًّا. والواقع أنّه كان على صواب. مخادع هذا الكلام عن الحرّيّة فيما أطلب منه ألاّ ينتزعني من قلبه. فكّرت: «لكن يكفيني ألا يحقد عليّ ويضمر الضغينة في قلبه، وسوف أثبت له أنّ حبّنا يمكن أن يكون في مأمن». لا شكّ أنّني اكتشفت نقطة ضعف فيه. أم تكون هواجسه قد تلاشت في اللحظة التي تكوّنت فيها: اصطحبني إلى كوني آيلند بعد الظهر. وأظهر المزيد من الحنان والغبطة كما في الأيّام الجميلة. فجأة أسهب في الحديث عن الحياة الأدبيّة في نيويورك وعن الناس والكتب. راح يتكلّم ويستفيض في الكلام كما لو أنّنا التقينا للتوّ. ولو تلفّظ بكلمة «أحبّك» لشعرت أنّ علاقتنا عادت من جديد إلى سابق عهدها.

سألني نهار الاثنين بصوت متردّد:

ـ هل يزعجك حقًّا أن نذهب إلى موراي؟

ـ لا، إطلاقا، هذا مبتغاي.

ـ إذًا لنرحل هذا المساء.

نظرت إليه مندهشة:

ـ ظننت أنّ لديك أشياء تريد القيام بها هنا؟

أخذ لويس يضحك:

ـ لن أقوم بها.

في صباح اليوم التّالي، شربنا القهوة مع موراي وزوجته في استوديو مزدان بواجهات زجاجيّة عريضة. كان البيت منعزلاً عن القرية وجاثمًا فوق نتوء صخري، وأزرق السماء وصخب البحر يتسرّبان عبر النوافذ. راح لويس يتكلّم بدون انقطاع وهو يتناول بنهم شرائح الخبز المطليّة بالزبدة. يُخيّل للمرء وهو ينظر إلى وجهه المغتبط بأنّه حقّق أغلى أحلامه. يجدر الاعتراف بأنّ كل شيء كان على ما يرام: الموقع والطقس والإفطار وابتسامة مضيفينا. ومع ذلك، أحسست أنّني غير مرتاحة.

كانت هيلين، بالرغم من لطفها، تلقي في نفسي الرهبة. كل شيء فيها يشهد على أنّها امرأة شابّة مكتملة: أناقتها المحتشمة وسحر منزلها وطفلاها المتمتّعان بالصحّة. لكنّ النساء اللواتي يقدرن على تنظيم أمور حياتهنّ بهذه السهولة والاعتناء بكل تفاصيلها يبعثن فيَّ شيئًا من الرعب. وها إنّي عالقة في شباك هذه الحياة الضيّقة التي لا مكان لي فيها. شعرتني مكبّلة وفي الوقت نفسه، أسير على غير هدى.

كان ديك ابن موراي، في الثامنة من عمره. وسرعان ما تصادق مع لويس. قادنا عبر درب متعرّج إلى خليج صغير عند أسفل الصخور. أمضى لويس الصبيحة وهو يلهو معه بالكرة في الماء وعلى الرمل. سبحت وقرأت. واستطعت أن أبعد عنّي شبح الضجر، لكنّي مع ذلك ظللت أتساءل: «ماذا أفعل هنا؟». عند الظهر اصطحبنا موراي في سيّارته ونزّهنا على طول الشاطئ. لم

ترافقنا إيلين. عند رجوعنا، بقينا أنا ولويس بمفردنا لوقت طويل في الاستوديو وأمامنا كأسان من الويسكي. وانتبهت فجأة إلى أنّه سيتسنّى لنا غالبًا أن نبقى وحيدين لوقت طويل، فموراي يمضي نهاراته أمام الآلة الكاتبة، وهيلين لا تملك دقيقة فراغ واحدة لنفسها. احتسيت جرعة ويسكي فشعرت بتحسّن في مزاجي.

قلت:

ـ ما أجمل هذه القرية وما ألطف موراي! أنا سعيدة.

ـ نعم، نشعر بالارتياح هنا.

على الراديو بُثّت مقطوعة موسيقيّة قديمة، استمعنا إليها بصمت. رنّت مكعّبات الثلج في قدحينا. سمعنا ضحك الأطفال. وعمّت رائحة حلويات طيّبة الفوح ممتزجة مع رائحة البحر.

قال لويس:

ـ ما أهنأ هذه الحياة! منزل وزوجة لا نحبّها لا قليلاً ولا كثيرًا، وأطفال.

سألت بفضول:

ـ أتعتقد أنَّ موراي متعلق بهيلين بهذه الطريقة: لا كثيرًا ولا قليلاً؟

ـ هذا واضح للعيان.

ـ ماذا عنها هي؟ هل تحبّه؟

ابتسم لويس:

ـ كثيرًا وقليلاً جدًّا ككلّ النساء على ما أعتقد.

فكّرت بشيء من الحزن «ها إنّه يلومني من جديد» والسبب بالطبع هذه الرغبة التي تولّدت عنده في أن يكون أبًا لعائلة يعيش معها بسلام.

سألت:

ـ هل تعتقد أنّك ستكون سعيدًا إذا أحبّتك امرأة على هذا النحو وحظيت بمثل هذه الحياة؟

ـ على الأقلّ لن أكون تعيسًا!

ـ ليس هذا أكيدًا. هناك أناس يتعسهم ألاّ يشعروا أنّهم سعداء. وأظنّ فعلاً أنّك منهم.

ابتسم لويس:

ـ ربّما.

ثمّ قال بعد تفكير:

ـ على أيّ حال أحسد موراي على أنّ لديه أطفالاً. يضنى الإنسان إذ يعيش وحيدًا على الدوام، منشغلاً بنفسه عن الآخرين. هذا النمط من العيش لا طائل منه. ليت لديّ بضعة أطفال.

ـ لا بأس، قد تتزوّج ذات يوم وتُرزق بأطفال.

نظر إليّ لويس متردّدًا:

ـ لن يكون هذا لا غدًا ولا بعد غد، لكن لاحقًا بعد بضع سنوات، لم لا؟

ابتسمت له:

ـ نعم، لم لا؟ في بضع سنوات...

هذا كلّ مرادي، بضع سنوات، أن يمنحني بضع سنوات. لم تعد عهود الوفاء الأبدي تناسبني. لقد تقدّم بي العمر. يكفي فقط أن يعيش حبّنا طويلاً بما يكفي لكي ينطفئ بنعومة تاركًا في القلب ذكريات لا شائبة فيها، وصداقة لا تنتهي.

كان العشاء غنيًّا بأطايبه وموراي في غاية الودّ، ما جعلني أشعر بالألفة. ذات يوم، جاءنا بعض الزوّار لتناول القهوة، وكنت رائقة المزاج. في بداية هذا الموسم، المصطافون في روكبورت لا يزالون قلائل ويعرفون بعضهم بعضًا البعض جيّدًا. وبما أنّهم متشوّقون للتعرّف إلى وجوه جديدة، احتفوا بنا. سرعان ما انسحب لويس من الحوار وراح يساعد هيلين في تحضير السندويشات ومزج الكوكتيل. أمّا أنا فبذلت كل ما في وسعي للإجابة على الأسئلة التي انهالوا بها عليّ. بدأ موراي النقاش عن العلاقة بين علم النفس التحليليّ والماركسيّة. كنت ملمّة بهذا الموضوع أكثر من أيّ كان، وهذا ما حثّني على الكلام فاستفضت فيه.

عندما أوينا إلى غرفة نومنا، تفحّصني لويس بهيئة غريبة ثم قال:

ـ وأخيرًا، سأقتنع أخيرًا أنّ هناك دماغًا داخل هذه الجمجمة الصغيرة..

ـ هل أحاول الظهور بمظهر الأذكياء؟

ــ لا. أقصد أنّك ذكيّة فعلاً. وتابع ينظر إليّ وشيء من الملامة يبين في عينيه: «أمر غريب؛ لا أستطيع أن أكتفي بالنظر إليك على أنّك امرأة تركن إلى عقلها وحسب. بالنسبة إليّ، أنت فعلاً شيء آخر»!

قلت وأنا أتغلغل بين ذراعيه:

ــ معك، أشعر فعلاً أنّني شيء آخر.

ما كان أعنف عناقه! آه، فجأة، اختفت الأسئلة. كان حضوره شديد التوهّج وهذا يكفيني. تداخلت ساقاه في ساقيّ وأحسست بلهاثه ورائحته ويديه القويّتين فوق جسدي. هتف: «آن» بنبرة صوته الشبيهة بالماضي، وكما في الماضي، منحتني ابتسامته قلبه وجسده.

عندما استيقظنا، كانت السماء والبحر مشرقين. استعرنا درّاجات موراي وذهبنا إلى القرية. تنزّهنا على الجسر وأمضينا وقتًا طويلاً ننظر إلى القوارب والصيّادين والشباك والأسماك. تنشّقت رائحة السمك الطازج النضرة. الشمس تداعبني ولويس يمسك بذارعي ويضحك.

قلت بحماس:

ــ ما أجمل هذه الصبيحة!

قال لويس بصوت حنون:

ــ أيّتها الغالية الصغيرة المسكينة، يكفيك القليل لتشعري أنّك في الجنّة.

ــ السماء والبحر والإنسان الذي أحبّ، ليس هذا بالقليل.

طوّق ذراعي:

ــ هيا! لست متطلّبة جدًّا!

ــ أكتفي بما أملكه.

ــ أنت على صواب، يجب الاكتفاء بما نملكه.

أصبحت السماء أكثر زرقة، والبحر أكثر حرارة، وسمعت جرسًا في داخلي يصدح فرحًا. حسنًا فعلت بقبولي المجيء إلى هنا. لويس يشعر بأنّه حرّ ويدرك أنّ حبّه لي لا يحرمه من شيء. على الشاطئ راح يلهو مع ديك لفترةٍ طويلة بعد الظهر. وقدّرت له صبره. منذ زمن بعيد، لم أره بهذا الانشراح. اصطحبنا موراي لرؤية بعض الأصدقاء. بعد العشاء، لم يحاول لويس هذه المرّة أن يبقى على الحياد. بل راح يستفيض في الكلام. وبالفعل لا يني يفاجئني. لم أكن أظنّ أنّ بإمكانه أن يأتلف مع الناس إلى هذا الحدّ. لكنّه أثبت عن جدارة أنّه كذلك. أخذ يتحدّث عن رحلتنا باختصار بليغ، مبدعًا في تصوير ما رآه، فبدت معه غواتيمالا حقيقيّة أكثر ممّا هي عليه في الواقع. وشعر الجميع بالرغبة في الذهاب إليها. وعندما قلّد الهنود الصغار الذين يهرولون تحت ثقل أحمالهم، تعجّبت النساء وقالت إحداهنّ:

ــ بإمكانك أن تكون ممثّلاً بارعًا!

وقالت أخرى:

ــ كم هو محدّث بارع!

توقّف لويس عن الكلام وقال وهو يبتسم: «يا للصبر الذي تملكونه!» ثم أضاف: «أنا أكره أخبار الأسفار».

قالت إحدى الشقراوات:

ـ أوه، ليتك تواصل الكلام!

ـ لا، لقد انتهى دوري. ثمَّ مشى إلى البوفيه. احتسى كأس مانهاتن فيما هرعت نساء جميلات ذوات أكتاف ذهبيّة ونساء أخريات خفيفات الظلّ، أقلّ جمالاً، للتحلّق حوله.

اغتظت قليلاً لاستنتاجي أنّه يعجب النساء. اعتقدت أنّه أغواني برهافة لأنّه غافل عن كلّ إغواء فيما أكتشف الآن أنّه مغوٍ. على أيّ حال، لقد نلت منه ما لا يستطيع أحد سواي أن يناله. فكّرت وبي شعور من الفخر: «بالنسبة لي وحدي هو فريد».

احتسيت الشراب أنا أيضًا ورقصت وتحدّثت إلى عازف غيتار طُرد لتوّه من الإذاعة بسبب أفكاره التقدّميّة، ومن ثمَّ إلى موسيقيّين ورسّامين ومفكّرين وأدباء. روكبورت خلال الصيف هي الملحق الثقافي لغرينويتش فيلدج، ومليئة بالفنّانين. وفجأة، لاحظت أنّ لويس اختفى. سألت موراي:

ـ أين ذهب لويس؟

قال لي موراي بصوته الهادئ:

ـ لا أعرف.

شعرت بكرب في قلبي: هل ذهب ليقوم بجولة في الحديقة مع إحدى معجباته الجميلات؟ في هذه الحالة، لن يُسرّ كثيرًا برؤيتي.

بئس الأمر! جلت بنظري في القاعة والمطبخ ثمَّ خرجت من المنزل. لا يُسمع إلاّ صرير الجنادب المملّ. قمت ببضع خطوات ولمحت قبس سيجارة. رأيت لويس جالسًا على أحد الكراسي وحيدًا في الحديقة.

سألته:

ــ ماذا تفعل هنا؟

ــ أرتاح.

ــ اعتقدت أنّ هؤلاء النسوة سيلتهمنك حيًّا.

قال لويس بنبرة متشقية:

ــ هل تعرفين ما يجدر بي فعله؟ يجب وضعهنّ جميعًا في قارب ورميهنّ في البحر واستبدالهنّ بمجموعة من الهنديّات الصغيرات. هل تذكرين الهنديّات الصغيرات في شيشيكاستننغو، الوادعات الجالسات على الأرض عند أقدام أزواجهنّ، المسترسلات في الصمت ووجوههنّ جامدة لا تتحرّك.

ــ أذكر.

ــ لن نرى بعد اليوم وجوههنّ الجميلة وجدائلهنّ السوداء. تنهّد: «كم هنّ بعيدات الآن هاتيك الهنديّات». كان في صوته الحنين نفسه حين حدّثني في شيشن ــ إيتزا عن بيته في شيكاغو: «لو أصبح ذكرى في قلبه ويفكّر بي بهذا الحنان». لكنّي لم أشأ أن أصير ذكرى.

ــ ربَّما عدنا لرؤية الهنديّات الصغيرات يومًا.

قال لويس:

ـ لا أعتقد. نهض: «تعالي لنأخذك في نزهة. ما أطيب عبير هذه الليلة».

ـ يجب العودة إلى هؤلاء الناس يا لويس. سيلاحظون غيابنا.

ـ وإن يكن؟ ليس لديَّ ما أقوله لهم ولا حاجة بي لسماع حديثهم.

ـ لكنّهم أصدقاء موراي. ليس لطيفًا أن تختفي هكذا!

تنهّد لويس:

ـ كم أحبّ أن تكون لديّ زوجة هنديّة صغيرة تتبعني حيثما أذهب دون أن تعترض!

عدنا إلى البيت. لم يعد لويس سعيدًا. شرب كثيرًا ولم يعد يجيب إلاّ بهمهمات على الأسئلة التي تُطرح عليه. جلس قربي واستمع إلى الحوار، واللوم بادٍ على وجهه. قلت لموراي إنّ هناك كتّابًا كثيرين في فرنسا يتساءلون عن جدوى الكتابة في أيّامنا هذه. وراح الجميع يناقشون بشغف هذا الموضوع. ازداد وجه لويس تجهّمًا؛ فهو يمقت النظريّات والأنظمة والعموميّات. أعرف السبب. بالنسبة له: لا يمكن للفكرة التي تخطر على باله أن يعبّر عنها بمجموعة من الكلمات، بل هي شيء حيّ، تتحرّك في داخله وتطغى على كل شيء، ويحتاج إلى مجهود جبّار لإعادة تكوينها، لذا يخيفه هذا قليلاً. ينفر من الشعور أنّه ضائع فيؤثر الأمان. وغالبًا ما ينغلق على ذاته. وكان جليًّا أنّه مستغرق في مثل هذه الحالة.

ولكن، في لحظة ما انفجر قائلاً:

ـ لماذا نكتب ولمن نكتب؟ إذا بدأنا نتساءل بهذه الطريقة فإنّنا لن نعود للكتابة! نكتب وهذا كل شيء والناس يقرأوننا. الكتّاب الذين لا يقرأهم أحد هم الذين يطرحون مثل هذه الأسئلة!

أشاع هذا الكلام الحرج بين السامعين. لا سيّما أنّه كان هناك عدد لا بأس به من الكتّاب الذين لا يقرأ لهم أحد ولن يقرأ لهم أحد.

لحسن الحظّ، أصلح موراي الأمور وعاد لويس ليستغرق من جديد في غفلته. وبعد ربع ساعة استأذنّا بالانصراف.

طيلة النهار التالي، كان لويس متجهّم المزاج. عندما جاء ديك إلى الشاطئ والمسدّسات في قبضتيه مطلقًا صيحات هجوميّة، نظر إليه لويس بشكل غير ودّي. لقنه درسًا في الملاكمة واصطحبه إلى السباحة وهو متبرّم بشكل واضح. مساءً، وحين كنت أتحدّث إلى هيلين وموراي، انصرف إلى قراءة الجرائد. أعرف أنّ موراي لا يأبه لمثل هذه الأمور لكنّي خشيت من أن تنجرح مشاعر هيلين. فكّرت وأنا على أهبة النوم «شرب الكثير بالأمس، آمل أن يكون مزاجه رائقًا غدًا».

لم يصدق ظنّي. في صباح اليوم التالي، لم تظهر على شفاه لويس ابتسامة واحدة. كانت هيلين منزعجة لأنّه انتزع منها مكنسة الكهرباء ونظّف البيت من القبو حتى العلّية. لكنّ هذه الحمية في النظافة تدعو إلى الارتياب. كان لويس يحتفظ بصمته ويتعمّد

الانكفاء على ذاته. ممَّ كان يهرب؟ لقد أظهر مودّة نسبيّة خلال الغداء، لكن حين أصبحنا وحدنا على الشاطئ قال لي بغضب:

ـ إذا جاء هذا الصبيّ وأزعجني مجدّدًا، فسألوي عنقه.

قلت باحتداد:

ـ لكّنها غلطتك. ما كان يجدر بك أن تظهر لطفًا شديدًا في النهار الأول.

قال لويس بصوت مشحون بالضغينة:

ـ دائمًا أسمح للآخرين بأن ينالوا منّي في اليوم الأول.

قلت بحيويّة:

ـ نعم، وعليك أن تتحسّب للأمر.

سمعنا صليل حصًى تتدحرج فوق رؤوسنا، ثم شاهدنا ديك ينحدر نحونا مرتديًا بنطالاً بمربّعات سوداء وبيضاء وقميصًا ناصع البياض وحزامًا شبيهًا بالذي يتمنطق به رعاة البقر. هرع إلى لويس:

ـ لماذا جئت إلى هنا؟ انتظرتك في الأعلى. قلت لي البارحة إنّنا سنذهب بعد الغداء للتنزّه على الدرّاجة.

ـ لا رغبة لي في التنزّه اليوم.

نظر إليه ديك بملامة: «البارحة قلت سنذهب غدًا وغدًا هو اليوم».

ـ إذا كان اليوم فهو ليس غدًا. ماذا يعلّمونكم في المدرسة. ألا تعلم أنّ الغد هو الغد!

أمسك ديك بذراع لويس وقال بلهجة حزينة: «هيّا! تعال!».

تفلّت لويس من قبضة ديك بفظاظة وبهذه السحنة الحردة التي أظهرها في ذلك اليوم الذي رفس فيه تنّين الحجر. وضعت يدي على كتف ديك.

ـ اسمع! أنا سأصطحبك للتنزّه على الدرّاجة. سنذهب إلى القرية، سننظر إلى المراكب ونأكل البوظة.

نظر إليَّ ديك بفتور ثمّ أشار إلى لويس: «لقد وعدني بالمجيء!».

ـ إنّه متعب.

التفت ديك إلى لويس:

ـ هل ستبقى هنا، هل ستسبح؟

ـ لا أعرف.

قال ديك:

ـ سأبقى معك، سنمارس الملاكمة ومن بعدها نسبح. نظر إلى لويس نظرات واثقة.

ـ لا! قال لويس.

أسندت يدي إلى كتف ديك: «تعال، دعه وحده. لديه أشياء كثيرة تشغل باله وعليه التفكير بها. عليَّ الذهاب إلى روكبورت

وسأصاب بالسأم إذا ذهبت وحدي. تعال ورافقني. ستخبرني قصصًا. وسأشتري لك مجلاّت مصوّرة وكلّ ما تريد!». قلت ذلك بكلّ ما في اليأس من قوّة.

أدار ديك ظهره للويس وراح يصعد الدرب. أغضبني موقف لويس: لا يجدر التصرّف مع ولد صغير على هذه الشاكلة! وفوق ذلك، لا أحبّ أن أهتمّ بديك. لحسن الحظّ، ونظرًا للمهنة التي أمارسها، أعرف كيف أجعل طفلاً يثق بي! ما لبثت أساريره أن انفرجت. قمنا بجولة على الدرّاجة وجعلته يغلبني بفارق ضئيل. أترعت ديك بمثلّجات الكشمش، واستقللنا قارب صيد. وفي النهاية فعلت ما في وسعي لأسلّيه ولم يفارقني إلاّ قبل وقت قصير من موعد العشاء.

قلت للويس وأنا أدخل الغرفة:

ـ حسنًا، بإمكانك أن تشكرني. أرحتك من هذا الصبيّ. ثمَّ أضفت: «أسأت التصرّف معه».

ـ هو الذي كان يجدر به أن يشكرك. لو بقي دقيقة واحدة لحطّمت عظامه.

اضطجع على السرير في بنطاله القماشي القديم وقميصه ذي الأكمام القصيرة. راح يدخّن وهو يحدّق إلى السقف. شعرت بالاستياء منه: كان يجب أن يشكرني. خلعت ثوب البحر وبدأت أسرّح شعري. قلت: «حان الوقت لترتدي ثيابك».

ــ لكنّي ارتديت ثيابي. ألا ترين أنّ لديَّ ثيابًا تغطّي جسدي. هل أنا عارٍ؟

ــ لا يعقل أن تنزل بهذا اللباس للقاء مضيفيك!

ــ بل سأنزل هكذا. لا أرى لماذا يجب على الناس أن يغيّروا ملابسهم بذريعة أنَّ الشمس غابت.

ــ موراي وهيلين يفعلان ذلك. وأنت في ضيافتهما. وفوق ذلك، سيكون لديهم ضيوف على العشاء.

ــ أيضًا وأيضًا! لم آتِ إلى هنا لأستعيد حياة نيويورك البلهاء.

ــ ولم نأتِ إلى هنا لنكون قليلي التهذيب مع الجميع! البارحة مساءً بدأت هيلين تنظر إليك بريبة. توقفت عن الكلام فجأة: «أوه! وما همّي في النهاية! افعل ما تريد!».

وأخيرًا، ارتدى لويس ثيابه وهو متبرّم. فكّرت وبي شعور من الغضب: «هوالذي اقترح عليّ هذه العطلة، والآن يتعمّد إفسادها وجعلها لا تطاق». أنا من جهتي، أفعل ما بوسعي لتسيير الأمور وهو يفسد كلّ شيء. قرّرت هذا المساء ألاّ أهتمّ به. تعبت من مراقبة تصرّفاته بشكل متواصل.

قمت بما عاهدت نفسي عليه: تحدّثت إلى الجميع متجاهلة لويس. إجمالاً وجدت أصدقاء موراي لطفاء. وأمضيت سهرة طيّبة برفقتهم. نحو منتصف الليل تقريبًا غادر كل المدعوّين وانسحبت هيلين فبقيت أنا وموراي وعازف الغيتار وشخصين آخرين. وظللنا

نتحدّث حتى الساعة الثالثة صباحًا. حين عدت إلى غرفتنا، أشعل لويس الضوء واستوى في سريره جالسًا:

ـ وماذا بعد؟ هل انتهيت من إحداث هذه الضجّة بواسطة فمك؟ ما كنت أظنّ يومًا أنّ بإمكان امرأة أن تحدث مثل هذا القدر من الضجّة بمفردها، باستثناء السيّدة روزفلت طبعًا.

قلت وأن أخلع ملابسي:

ـ أحبّ التحدّث إلى موراي.

ـ هذا مأخذي عليك!

علا صوته: « نظريّات، لا شيء إلاّ نظريّات! لا تؤلّف الكتب الجيّدة بالنظريّات! ثمّة أناس يفسّرون الكتب وآخرون يكتبون وهم يشكّلون فريقين مختلفين تمامًا».

ـ لا يدّعي موراي أنّه روائي. إنّه ناقد وناقد ممتاز باعترافك أنت.

ـ إنّه ثرثار كبير! وأنت هنا تصغين إليه وأنت تبتسمين ابتسامات متذاكية. أشعر برغبة بأن أصدم رأسك بالحائط لكي أعيد إليه شيئًا من الحسّ السليم.

اندسست في السرير: «ليلة سعيدة».

أطفأ الضوء دون أن يجيب. أبقيت عينيّ مفتوحتين. لم أكن غاضبة. لم أعد أفهم شيئًا. ربّما كانت هذه الجلسات واللقاءات تضجر لويس. لكنّنا نمضي طيلة نهارنا في سلام ملكي. وفي الحقيقة لم يكن لموراي أيّ صلة بالادّعاء، لا من قريب ولا من

بعيد. ولغاية الآن، كان لويس يستهدفني أنا عندما يعنّ على باله أن يفسد علينا هذه العطلة. لا زالت ضغائنه سارية المفعول. لكن، كان بإمكانه أن يبدي استياءه منّي شخصيًّا عندما يتعكّر مزاجه ولا يحمّل الآخرين أيّ مسؤوليّة.

لا بدّ أنّه غاضب من نفسه ليحقد على الجميع بهذا الشكل! ربّما كان نادمًا على هذه اللحظات التي عاد ومنحني فيها كل حنانه: بدت لي هذه الفكرة غير محتملة، بحيث أردت أن أناديه وأكلّمه. لكنّ صوتي اختنق في صدري قبل أن يخرج إلى فمي. سمعت تنفّسه المنتظم. كان نائمًا ولم أجرؤ على إيقاظه. إنّه لشيء مؤثّر أن ترى رجلاً نائمًا والبراءة تشعّ من وجهه: كلّ شيء حينئذٍ يُصبح ممكنًا، كلّ شيء بإمكانه أن يبدأ أو يعود من جديد. سيفتح عينيه وسيقول: «أحبّك يا صغيرتي الغالية!» ولكن لا، لن يقولها، هذه البراءة ليست إلاّ سرابًا. غدًا سيكون مشابهًا لليوم: «أمَا من وسيلة للخروج من هذه الورطة؟» تساءلت يائسة. ثم انتفضت متمرّدة: «ماذا يريد؟ ماذا سيفعل؟ بماذا يفكّر؟ أنا هنا تشغل بالي الأسئلة فيما هو يرقد بهدوء وقد أراح نفسه من التفكير: هذا مجحف! حاولت ألاّ أفكّر بشيء. لكن لا، لا أستطيع النوم. نهضت دون ضجّة. منعني ديك من السباحة بعد الظهر. رغبتِ فجأة بالانتعاش الذي يمنحه الماء. لبست ثوب الاستحمام وأخذت برنس لويس القديم ونزلت حافية القدمين عبر المنزل النائم. ما أشدّ رحابة الليل! انتعلت حذائي المطّاطي وركضت حتى الشاطئ. رقدت على الرمل. كان الهواء ناعمًا. أغمضت عينيّ تحت النجوم وهدهدني هدير الأمواج. عندما

استيقظت، كان هناك كوكب ضخم أحمر ينبثق من الماء. إنّه اليوم الرابع للخلق: الشمس ولدت للتوّ. لم يعرف البهائم ولا الناس العذاب بعد. التحمت بالبحر. مضطجعة على ظهري، كنت أعوم وعيناي مليئتان بالسماء ووزني كالريشة خفّة.

ــ آن.

نظرت إلى الشاطئ: الأرض مأهولة. ثمّة رجل يناديني. إنّه لويس لابسًا سروال النوم وعاري الصدر. استعدت وزن جسدي وسبحت باتّجاهه. «هاأنذا!».

هرع للقائي. كانت المياه تصل إلى ركبتيه عندما أمسكني بين ذراعيه.

ــ آن! آن!

ــ ستبتلّ كليًا. دعني أجفّف نفسي. قلت وأنا أجذبه إلى الشاطئ.

لم يفكّ عناقه.

ــ آن، كم كان خوفي شديدًا!

ــ هل أخفتك؟ جاء دوري لأخيفك!

ــ فتحت عينيَّ. كان السرير فارغًا وأنت لا تعودين. نزلت. لم أجدك في المنزل فجئت إلى هنا ولم أرك في البداية.

ــ هل ظننت أنّني غرقت؟

ــ لا أعرف ما الظنون التي انتابتني تحديدًا. لكأنّه كابوس!

جمعت البرنس الأبيض: «ادعكني وجفّف نفسك».

أطاع الأمر، لبست ثوب الاستحمام وتدثّر بالبرنس.

سألني أن أجلس بقربه.

جلست ومن جديد عانقني: «أنت هنا! لم أفقدك!».

قلت باندفاعة:

ــ أبدًا، لن أكون السبب في خسارتك.

لفترة طويلة داعب شعري بصمت. وفجأة قال لي: «آن، لنعد إلى شيكاغو».

أشرقت الشمس في قلبي أكثر توهّجًا من تلك التي طلعت في السماء.

ــ أودّ كثيرًا أن أستجيب لرغبتك.

ــ لنعد، أرغب فعلاً في أن أكون وحدي معك! منذ المساء الأوّل لوصولنا أدركت البلاهة التي ارتكبتها!

ــ لويس! أحبّ كثيرًا أن أكون وحدي معك! ابتسمت له: «هل هذا ما جعلك سيّئ المزاج للغاية؟ هل ندمت على مجيئك إلى هنا؟».

هزّ لويس رأسه:

ــ أحسست أنّني علقت في الفخّ، ولم أكن أجد أيّ وسيلة للخروج منه: كان الأمر رهيبًا!

ــ والآن، هل وجدت وسيلة للخلاص؟

نظر إليّ لويس وكأنّ الوحي هبط عليه: «جميعهم نيام في هذه الساعة. لنحزم أمتعتنا ونولي هاربين!».

ابتسمت:

ـ حاول بالأحرى أن تشرح الأمر لموراي، فهو سيتفهّم ظرفنا.

ـ وإذا لم يتفهّم فبئس الأمر.

نظرت إليه بشيء من القلق:

ـ لويس، هل أنت واثق من أنك تريد العودة؟ أليست مجرّد نزوة عابرة؟ ألن تندم على القرار؟».

ابتسم لويس ابتسامة خفيفة: «أعرف تمامًا أنّني أتصرّف بمزاجيّة. لكنّي أقسم صادقًا وأنت الشاهدة على قسمي إنّها ليست نزوة».

ومن جديد، تحرّيت نظرته: «عندما سنعود إلى منزلنا، هل تظنّ أنّنا سنستعيد حياتنا السابقة؟ هل سيكون لقاؤنا هناك كما كان في السنة الماضية أو على الأقلّ شبيهًا به؟

قال لويس بلهجة جدّيّة:

ـ سيكون بالضبط كالسنة الماضية. أخذ رأسي بين يديه ونظر إليّ طويلًا: «حاولت أن أقلل من حبّي لك فلم أقدر».

ـ آه، لا تحاول إذًا.

ـ لن أحاول.

لا أعرف ماذا قال لويس لكنّ موراي كان بشوش الوجه حين رافقنا إلى المطار في مساء اليوم التالي. لم ينكث لويس بوعده. في شيكاغو استعدت كلّ شيء. وعندما افترقنا عند زاوية الجادّة، ضمّني بين ذراعيه وهو يقول: «لم يسبق لي أن أحببتك بهذا القدر».

الفصل التاسع

فتحت السكرتيرة الباب: رسالة عاجلة.

قال هنري وهو يمسك بالرسالة الزرقاء: «شكرًا». أطرق هنيهة ثم قال: «بول انتحرت». عبثًا حاول ماردورس التأكيد له أنَّها نزعت من رأسها فكرة الانتحار وأنّها شُفيت تقريبًا. ابتداءً من تلك الساعة، كلّما رنَّ الهاتف وكلّما جاءته خصوصًا رسالة مضغوطة أحسّ بأنّ هناك شيئًا مشؤومًا. تنهّد مرتاحًا عندما قرأ توقيع لوسي بلوم: «يجب أن أراك حالاً. مرَّ بي غدًا صباحًا». أعاد قراءة الرسالة العاجلة بحيرة. لم يسبق للوسي أن كلّمته بهذه النبرة. جوزيت في أحسن حال وقد سعدت بالدور الذي لعبته في فيلم «سوزون الجميلة». وستذهب هذه الليلة إلى الحفلة الراقصة التي سترفل فيها النساء بأثواب الدانتيل، وسترقص في ثوب طويل من توقيع أماريليس. لم يدرك هنري سبب إلحاح لوسي على رؤيته. دسَّ الرسالة في جيبه: لا شكَّ أنّ ثمّة مشكلة ما في المنظور القريب. لا بأس، مشكلة إضافيّة لن تغيّر الواقع في شيء! عاد بتفكيره إلى بول ومدّ يده إلى سمّاعة الهاتف لكنّه ما لبث أن تراجع. «الآنسة ماروي بحالة ممتازة»، لن يتغيّر الجواب الذي سيبادرونه به، ولا لهجة الممرّضة الصقيعيّة. مُنعت عنه زيارة بول. الجميع متّفق على أنّه هو الذي تسبّب بجنونها. نِعمَ الأمر، لقد وفّروا عليه مشقّة توجيه التّهمة لنفسه. منذ زمن وبول تمعن في أن تجعل علاقتها به شبيهة بعلاقة الضحيّة بالجلاّد، وهذا الواقع جعله

في حال من الضيق وانقباض القلب لدرجة لم يعد يشعر معها بالندم. على أيّ حال، منذ أدرك أنّ المرء مخطئ مهما فعل حتى لو اعتقد أنّه أحسن صنيعًا، شعر بقلبه خفيفًا مرتاحًا. كانوا يكيلون إليه الشتائم في كلّ يوم وكان يتجرّعها وكأنّها كوب من الحليب الساخن.

قال لوك:

ـ هل أنا أوّل الواصلين؟

ـ كما ترى.

تهاوى لوك فوق الكرسيّ. تعمّد أن يأتي مرتديًا قميصًا قصير الأكمام ومشّاية في قدميه، لأنّه يعرف أن تراريو يكره الذين يهملون مظهرهم.

قال:

ـ قلْ لي، ماذا نفعل إذا تركنا لامبير؟

فأجابه هنري باندفاع:

ـ لن يتركنا.

ـ إنّه لا شكّ مع فولانج: أنا واثق أنّ هذا ما حدا بسامازيل لأن يقترح عليك نشر مقالات فولانج. لكي يحثّ لامبير على جعلنا أقلّيّة.

ـ لامبير وعدني بالتصويت إلى جانبي.

ـ أتساءل أيّ لعبة يلعبها هذا الزازو الصغير. أنا لو كنت مكانه لكنت غادرت منذ زمن بعيد!

قال هنري:

ـ أعتقد أنّه عمّا قريب سيرحل. لكنّه لن يكون ماكرًا كالآخرين. التزمت بتعهّداتي وهو سيلتزم بها.

ألزم هنري نفسه عند كل مناسبة بالدفاع عن لامبير في مواجهة لوك وعن لوك في مواجهة لامبير. لكنّ الحالة ملتبسة في الواقع. لن يستمرّ لامبير في التصويت إلى ما لا نهاية ضدّ قناعاته.

قال لوك:

ـ التزموا الصمت فقد حضر العدوّ!

دخل تراريو أوّلاً وتبعه سامازيل. لامبير متجهّم الوجه. لا أحد كان يبتسم ما عدا لوك. وحده كان مستمتعًا بحرب الاستنزاف هذه حيث لا أحد يستنزف.

قال تراريو وهو يحدّق مليًّا بوجه هنري:

ـ قبل الشروع في منقاشة في المسألة التي اجتمعنا حولها اليوم، أريد أن أمتدح الإرادة الطيّبة في كلّ واحد فينا. ثم أضاف بلهجة حارّة: «نحن جميعًا حريصون على استمرار *«L'Espoir»*. ومع ذلك، ندفعها في طريق الإفلاس بسبب انعدام التفاهم. آراء سامازيل وبيرون على طرفي نقيض، ما يجعل القارئ يبحث عن صحيفة أخرى بسبب هذه البلبلة. يجب بأسرع وقت ممكن أن نتجاوز خلافاتنا الذاتيّة ونتفاهم على بعض القواسم المشتركة التي من شأنها أن تعزّز من دور الجريدة».

هزّ هنري رأسه: «للمرّة المئة أكرّر أنّني لن أقدّم أيّ تنازل. كلّ ما عليكم فعله هو التخلّي عن معارضتي. أحافظ على الخطّ الذي التزمته الجريدة منذ إنشائها».

قال سامازيل:

ـ لكنّ هذا الخطّ حكم عليه إخفاق الـ *S.R.L* بالفشل، وقد تخطّته الأحوال المستجدّة ولم يعد يتلاءم مع المتغيّرات الطارئة. لم تعد المسألة المطروحة اليوم هي التزام جانب الحياد في مواجهة الشيوعيّين. يجب اتّخاذ القرار دون تردّد وبشكل حاسم معهم أو ضدّهم.

حاول أن يصطنع البهجة في ضحكته لكنّه لم يوفّق، ثم أضاف: «وعلى الرغم من الأسلوب الذي يتعاملون به معك، فإنّك تستمرّ في مراعاتهم، وهذا ما يفاجئني».

قال هنري:

ـ ويفاجئني أن يساند أناس يزعمون أنّهم يساريّون حزب الرأسماليّين والعسكريّين ورجال الدين.

قال سامازيل:

ـ لنوضح الأمور. ناضلت طيلة حياتي ضدّ العسكر وسلطة الكنيسة والرأسماليّة. لكن يجب الاعتراف بأنّ ديغول ليس فقط رجلاً عسكريًّا، ثمَّ إنّ دعم الكنيسة ضروري لكي ندافع عن القيم التي نتمسّك بها. وبإمكان الديغوليّة أن تكون نظامًا مناهضًا للرأسماليّة إذا أدارها رجال من اليسار.

قال هنري:

ـ لا بأس أن يرد على لسانك هذا الكلام، ولا تعمد إلى صمّ أذنيك كليًّا.

قال تراريو:

ـ أعتقد أنّه سيكون من مصلحتك أن تبحث معنا عن أرضيّة مشتركة لأنّكم ستصبحون في النهاية أقلّيّة.

قال هنري:

ـ هذا يفاجئني. ابتسم ابتسامة عابرة للامبير الذي ظلّ متجهّمًا. لا شكّ أنّ صدقه يثقل على كاهله وكان حريصًا على إظهار أهمّيّته. أردف: «على أيّ حال، إذا أصبحنا أقلّيّة فسأستقيل، لكنّي لن أقبل أن أتنكّر للمبادئ التي أتمسّك بها». ثم أضاف بنفاد صبر: «من غير المجدي النقاش حتى لو دام هذا النقاش حتى الصباح. ثمّة قرار يتوجّب علينا اتّخاذه فلنتّخذه. أمّا أنا فأرفض جذريًّا نشر مقالات فولانج».

قال لوك:

ـ وأنا أيضًا.

وعندئذٍ توجّهت جميع الأنظار إلى لامبير الذي قال وهو لا يزال مخفضًا عينيه:

ـ لا يبدو لي نشرها ملائمًا.

قال سامازيل غاضبًا:

ــ لكنّك كنت تجدها ممتازة. أمّا الآن فإنّك تخشى أن تعارضهم وتخجل من التعبير عن رأيك بكلّ صراحة.

أجاب لامبير بنبرة متعالية:

ــ قلت لي إنّ نشرها لا يبدو ملائمًا. هل هذا واضح؟

قال لوك بلهجة ساخرة:

ــ هل تريدان أن تهمّشانا؟ اعرفا أنّكما أخطأتما الهدف.

نهض تراريو فجأة ونظر إلى هنري نظرة يتطاير منها الشّرر:

ــ يومًا ما ستفلس جريدة «*L'Espoir*»، وسيكون سبب هذا الإفلاس مكافأة لك على إصرارك على مواقفك المتصلّبة.

ثم مشى نحو الباب وتبعه سامازيل ثم لوك.

سأل لامبير هنري بلهجة كئيبة:

ــ هل أستطيع التحدّث إليك؟

ــ كنت سأسألك السؤال نفسه.

أحسّ بابتسامة زائفة ترتسم على شفتيه. منذ أشهر، لا بل منذ سنة لم يستطيع تبادل حوار ودّي فعلاً مع لامبير. ليس لأنّه لم يسعَ إلى ذلك بل لأنّ لامبير كان يبدي استياءه المتواصل.

قال هنري:

ــ أعرف ماذا ستقول لي. تجد أنّ الوضع لم يعد يُحتمل.

قال لامبير:

ـ نعم، الوضع لم يعد محتملاً. نظر إلى هنري نظرة فيها الكثير من العتب: «لديك الحقّ في ألاّ توافق على مواقف ديغول، لكن بإمكانك أن تقف منه موقف الحياد الإيجابي. في هذه المقالات التي رفضت نشرها، فولانج يفصل بطريقة ثاقبة النظر فكرة الديغوليّة عن فكرة الرجعيّة».

قال هنري:

ـ التمييز بين المواقف السياسيّة أشبه بالأعمال الصبيانيّة. ثم أضاف: «أفهم من كلامك أنك تريد أن تبيع أسهمك في المجلّة من جديد؟».

ـ نعم.

ـ وستعمل في «*Les Beaux jours*» مع فولانج؟

ـ بالضبط.

قال هنري:

ـ بئس الأمر! ثم هزّ كتفيه: «أرأيت؟ كنت على صواب. كان فولانج يدعو إلى الكفّ عن الخوض في الأمور السياسيّة، كان يتحيّن الفرصة ليسارع إلى الارتماء في أحضان السياسة من جديد».

قال لامبير بحيويّة:

ـ إنّها غلطتكم! أقحمتم السياسة في كلّ الأمور! ليتنا نستطيع أن نمنع العالم من أن يكون مسيّسًا بشكل كلي. لكن حتى في هذه الحالة، نحن مرغمون على العمل في السياسة.

قال هنري:

ـ على أيّ حال، لن يتحقّق مرادك! والنقاش غير مجدٍ في النهاية. فنحن لم نعد نتكلّم اللغة نفسها. أعد بيع حصصك، إلاّ أنّ هذا يطرح مشكلة. إذا تقاسمناها نحن الأربعة، يعود الوضع إلى ما كان عليه حين عرضت عليّ أن تساعدني على تجاوزه، وعلينا أن نتفاهم أنا وأنت ولوك على شخص قادر على شرائها من جديد.

ـ اختر من تشاء، هذا الأمر لا يعنيني في شيء. حاول فقط أن تجده سريعًا لأنّ ما فعلته اليوم لن أستطيع تكراره مستقبلاً.

ـ سأبحث عن الشخص الملائم، لكن اترك لي الوقت لأدبّر أموري. لا يمكن الاهتداء إلى بديل عنك بهذه السرعة. تلفظ بالكلمات الأخيرة كيفما اتّفق. لكن لامبير بدا متأثّرًا بما قاله. كان ينجرح من جمل بريئة ويحدث له أن يحمّل أهمّيّة لكلمات لا معنى لها.

قال بلهجة حردة:

ـ بما أنّنا لم نعد نتكلّم اللغة نفسها، فإن أيّ بديل عنّي سيكون حتمًا أفضل منّي.

قال هنري:

ـ أنت تعرف جيّدًا أنّه إلى جانب الأفكار التي يؤمن بها الشخص، هناك الشخص نفسه.

ـ أعرف، هذا ما يعقّد الأمور. أنت شيء وأفكارك شيء آخر. ثم نهض: «هل ترافقني إلى مهرجان لونوار؟».

ـ ربّما كان من الأفضل الذهاب إلى السينما.

ـ آه، لا! لا أريد أن أفوّت عليّ الاحتفال.

ـ إذًا مرّ لاصطحابي عند الثامنة والنصف.

أعلنت الصحف الشيوعيّة أنّها ستعمد إلى تنظيم احتفال تُتلى فيه التحفة الفنيّة المؤلّفة من أربعة فصول وستّ لوحات، حيث لونوار «يوفّق في الربط بين متطلّبات الشعر ونقائه ومهمّة إيصال رسالة إنسانيّة شاملة إلى البشر».

اقترح جوليان، باسم الجماعة القديمة التي أنشأها «حركة ما وراء الإنسان»، أن يفشّل هذا الاحتفال. ففي المقالات التي نشرها لونوار مذ ارتدّ إلى الحزب الشيوعيّ، تحريض يتّسم بالدناءة. أدان ماضيه وأصدقاءه بحميّة هي من الحقد بحيث إنّ هنري لم يكن منزعجًا من أن يكون لونوار موضع سخرية. ومن ثمَّ، لا مانع من حضور هذا الاحتفال، فتلك وسيلة كغيرها من الوسائل لتمضية هذه السهرة. مذ مرضت بول وهو لا يتحمّل الوحدة إلاّ على مضض. وفوق ذلك، كانت هناك رسالة لوسي بلوم العاجلة التي تسبّب له حيرة وإرباكًا.

كانت القاعة تغصّ بالحاضرين. الأنتليجنسيا الشيوعيّة مجتمعة بكلّ أفرادها المناضلين: الحرس القديم وعدد من المنتسبين الجدد. قبل ذلك بسنة، كان الكثير من هؤلاء المنتسبين الجدد يندّدون بشراسة بالهفوات والأخطاء التي يرتكبها الشيوعيّون. ومن ثمَّ، أدركوا فجأة، في تشرين الثاني، جوهر الوضع. أدركوا أن

انضمامهم إلى صفوف الحزب يعود بالفائدة عليهم. اجتاز هنري الممرّ الوسطيّ في القاعة للعثور على مقعد شاغر، ولدى مروره، أبدت الوجوه التي صادفها استياءها الواضح لدى رؤيته. كان سامازيل على صواب: لا يظهرون أيّ امتنان لكونه صادقًا.

طيلة السنة وهو يخوض مواجهة شرسة للدفاع عن «*L'Espoir*» ليمكّنها من الصمود في مواجهة الضغوط الديغوليّة. وقد ندّد بعنف بالحرب الحاصلة في الهند الصينيّة، ووقف ضدّ اعتقال النوّاب المدغشقريّين، وأيضًا ضدّ خطّة مارشال. أي أنّه في المحصّلة تبنّى مواقفهم نفسها، ولكن هذا لم يمنعهم من أن يتعاملوا معه بصفته خائنًا وعميلاً. تقدّم هنري حتى الصفوف الأولى. بادره سكرياسين بابتسامة، لكنّ الشبّان المتحلّقين حول جوليان نظروا إلى هنري بعدائيّة، فعاد أدراجه متّجهًا إلى عمق الصالة وجلس على أحد المدرّجات.

قال هنري:

ـ لا بدَّ أنّني شخص من صنف سيرانو دوبرجوراك(١). ليس من حولي إلاّ الأعداء.

أجابه لامبير:

---

(١) سيرانو دو برجراك Cyrano de Bergerac: إشارة إلى الشخصيّة الرئيسيّة في المسرحيّة التي ألّفها إدمون روستان والتي هي مستوحاة من شخصيّة واقعيّة تحمل الاسم نفسه.

ـ الحقّ عليك أنت الذي تسبّبت بذلك.

ـ يجب أن تدفع أثمانًا غالية لتكسب صداقة الناس.

كان قد أحبّ الزمالة والعمل الجماعي ضمن فريق واحد. ولكنّ هذه الرغبة تنتمي إلى زمن ولّى وإلى عالم آخر. أمّا اليوم، فمن الأفضل أن نكون وحدنا تمامًا. وهكذا لن يعود لدينا شيء نخسره ولا الكثير لنربحه. لكن من ذا الذي يربح شيئًا على هذه الأرض؟

قال لامبير:

ـ انظر إلى بيزيه الصغيرة. لقد ائتلفت سريعًا مع الجوّ.

قال هنري ببشاشة:

ـ نعم، إنّها مناضلة نشيطة.

قبل ذلك بأربعة أشهر، رفض أن ينشر لها ريبورتاجًا عن المشاكل التي يعاني منها الألمان، وأخذت تنوح قائلة: «بالطبع، لكي ينجح الإنسان في الصحافة فعليه أن يرهن نفسه للفيغارو أو للأومانيته» وأضافت: «ولا يمكنني من جهة أخرى، أن أنشر هذا المقال في مجلة *L'Enclume*». ثمَّ بعد أسبوع اتّصلت قائلة: «سأنشر هذا المقال في *L'Enclume*» وأخذت تكتب فيها أسبوعيًّا. وكان لاشوم يستشهد بها بحماسة قائلاً: «عزيزتنا ماري آنج بيزيه». كانت تنتعل حذاء مسطّحًا من دون كعب وتتبرّج بشكل سيّئ. صعدت الممرّ بين المقاعد وهي تصافح الحاضرين، وعلى وجهها علامة الثقة بالنفس والاعتزاز. مرّت من أمام هنري فأمسكها من ذراعها وقال: «صباح الخير».

قالت دون ابتسامة:

ـ صباح الخير.

وهمّت بالانسحاب سريعًا.

ـ أنت مستعجلة كثيرًا. هل تعليمات الحزب هي التي تمنعك من التحدّث إليّ؟

قالت ماري آنج وقد اتّخذ صوتها الطفوليّ نبرة لاذعة:

ـ لا أظنّ أنّ لدى أحدنا ما يقوله للآخر.

ـ دعيني على الأقلّ أهنئك، فأنت تحرزين نجاحًا.

ـ بل قل إنّي أقوم بعمل ناجع.

ـ برافو! أصبحت تتحلّين بكل الفضائل الشيوعيّة!

ـ آمل أن أكون تخلّيت عن بعض العيوب البورجوزايّة.

وابتعدت بصلف. وفي هذه اللحظة علا التصفيق. وصعد لونوار إلى المنصّة. جلس أمام الطاولة فيما كان مصفقون مأجورون يفتعلون أجواءً حماسيّة. وضع كرّاسات الورق على السجّادة وأخذ يقرأ نصًّا أقرب إلى بيان حزبيّ. قرأ بصوت متقطّع، مشدّدًا على كل كلمة بجهد بالغ وكأنّه يجتاز حقلاً من الألغام بين الكلمات. كان جليًّا أنّه يردّد الأفكار الأكثر استهلاكًا فيما يتعلّق برسالة الشاعر وضرورة التزامه بالقضايا الاجتماعيّة، والتعبير بصدق عن المشاكل التي يعاني منها الواقع. وعندما توقف، علت موجة جديدة من الهتاف والتصفيق الحادّ: لم ينبس معسكر الأعداء بكلمة.

قال لامبير:

ـ هل انتبهت لما يحصل؟ ما الذي يدفعهم إلى التصفيق بتلك الحدّة وذلك الحماس؟

لم يجب هنري بشيء. بالطبع، كان يكفيه أن ينظر مواجهة إلى هؤلاء المثقفين ذوي النيّة السيّئة لكي يقتلع من صدورهم مشاعر الغضب. ارتدّوا إلى الحزب الشيوعيّ بدافع الانتهازيّة أو الخوف، أو ربّما لإراحة ضميرهم. ولم يكن هناك حدود لعبوديّتهم. لكن يجب أن يكون المرء ذا نيّة سيّئة أيضًا لكي يرضى بهذا الانتصار السهل للغاية. لم يكن هنري يفكّر بهؤلاء الناس عندما قال في نفسه منقبض القلب: «إنّهم يصبّون عليّ جام حقدهم»، بل بهؤلاء الآلاف من الناس الذين قرأوا «*L'Espoir*» صادقين، والذين لم يعودوا يقرأونها وقد بات اسم هنري بالذات لهم مرادفًا للخيانة. وهكذا فإنّ هذه الحفلة التي تستحقّ الهزء بها لم تخفّف بشيء من صدقهم ولا من حقدهم.

وبصوت هادئ باشر لونوار تلاوة مشهد مكتوب بالشعر الموزون. يحكي المشهد عن شابّ يشكو هذه الكآبة الغامضة التي تعتمل في كيانه. أراد أن يغادر مسقط رأسه. ولكنّ أهله وعشيقاته ورفاقه يحثّونه على الخنوع. إلاّ أنّه أحبط الإغراءات البورجوازيّة... فيما راح الكورس يعلّق على رحيله بمقاطع شعريّة ملغّزة عصيّة على الفهم، وتتالت الصور الغامضة والكلمات المتحذلقة التي أبرزت تفاهة المقاطع المسرحيّة الطويلة.

وفجأة سُمع صوت صارخ في القاعة يقول:

ـ مخادع!!

ونهض جوليان وهتف:

ـ وُعدنا بالشعر فأين الشعر؟

وصاح صوت آخر:

ـ والواقعيّة، أين هي الواقعيّة؟

ـ والتحفة الفنيّة: نريد التحفة الأدبيّة!

ـ وإلى متى ننتظر سماع الشعر الذي يوفّق بين ضرورات الفنّ والالتزام بالقضايا الإنسانيّة!؟

وراحوا يهتفون وهم يدبّكون بأقدامهم هاتفين: «توفيق!». فيما تصاعدت صيحات عبر الصالة: «اطردوهم! نادوا الشرطة! مشاغبون! حدّثونا عن المعسكرات! يحيا السلم ليسقط الفاشيّون! لا تشتموا المقاومة! يحيا توريز! يحيا ديغول! تحيا الحريّة!».

تحدّى لونوار جلاديه بنظراته. بدا وكأنّه سيسقط خائرًا على ركبتيه، كاشفًا عن صدره أو كأنّه سيبدأ بأداء رقصة تعبّر عن حال التشنّج التي اعترته. ومن دون أن يُعرف السبب، هدأت الضجّة، واستأنف لونوار القراءة. أخذ يتحدّث عن البطل الذي يجول الآن أنحاء العالم بحثًا عن طريقة للهروب من الواقع ولكن عبثًا.

ثم تجاسر أحدهم في الصالة وعزف لحنًا خفيفًا على الهارمونيكا، فتردّدت أصداؤه في أرجاء القاعة. وبعد قليل، سُمعت أصوات بوق تتبعث. وراح جوليان يبادر كل بيت شعر منظوم على

البحر الإسكندريّ[1] بوصلة من الضحك جعلت فم لونوار يرتعش ويلتوي غضبًا. وانتقلت عدوى الضحك من مقعد إلى مقعد. ضحك الجميع وبدأ هنري يضحك هو أيضًا. ألم يأتِ لهذه الغاية؟ صرخ أحدهم: نذل، وزاد ضحك هنري حدّة. وانفجر التصفيق وسط الضحك والصفير. صاحوا أيضًا: «في سيبيريا! في موسكو يحيا ستالين! واش! عميل!». وصاح أحدهم: «تحيا فرنسا!».

قال لامبير وهو يغادر القاعة:

ـ كنت آمل أن يكون هذا المشهد أكثر إضحاكًا!

قال هنري:

ـ في الواقع، لم يكن الاحتفال مضحكًا على الإطلاق. التفت خلفه عندما سمع صوت سكرياسين وهو ينهج لاهثًا.

ـ رأيتك في القاعة ثم اختفيت. بحثت عنك في كل مكان.

قال هنري:

ـ بحثت عنّي؟

شعر بغصّة في حلقه: ماذا يريد منّي؟ طيلة السهرة وهو يتوقع بأنّ شيئًا رهيبًا سيحدث...

قال سكرياسين:

---

(١) البحر الإسكندريّ: alexandrin بحر شعريّ من اثني عشر مقطعًا صوتيًا.

ــ نعم، لنذهب إلى «النيو بار» ونشرب نخب هذا الحدث! هل تعرف «النيوبار»؟

قال لامبير:

ــ أعرفه.

قال سكرياسين قبل أن يختفي بلمحة بصر:

ــ إذًا إلى اللقاء هناك.

سأل هنري:

ــ وما هذا «النيوبار»؟

قال لامبير وهو يصعد إلى سيّارة هنري:

ــ صحيح أنّه لم يعد لديك موطئ قدم في هذا الحيّ! منذ أن استولى الشيوعيّون على «البار روج»، التجأ الزبائن القدامى الذين لا ينتمون إلى الحزب الشيوعي إلى حانة جديدة بالقرب منه.

قال هنري:

ــ لنذهب إلى «النيوبار».

ركب في السيّارة وحين انعطفت السيّارة حول زاوية الشارع قال:

ــ إنّه هنا؟

ــ نعم.

أوقف هنري سيّارته وهو يشدّ على الفرامل بقوّة. تعرّف إلى المقهى في الأنوار الساطعة التي تنبعث من المكان. دفع باب «النيوبار»: «ما هذا المطعم الصغير البشع!».

قال لامبير:

ـ نعم، لكن روّاده أفضل من روّاد البار المجاور.

ـ أوه! أشكّ بالأمر! هزَّ كتفيه: «على أيّ حال، لا أبيّت نيّة سيّئة تجاه معشر السوء!».

جلسا أمام إحدى الطاولات. هنالك كثير من الشبّان، ودخان السجائر والضجيج ينبعثان من المقهى. لا يعرف هنري أيًّا من هؤلاء الأشخاص فهو عندما يخرج مع جوزيت، يتردّد إلى أماكن مختلفة تمامًا.

سأل لامبير:

ـ هل تريد ويسكي؟

ـ حسنًا!

أمر لامبير بإحضار كأسيْ ويسكي بهذه النبرة المملّة التي اكتسبها من فولانج المشوبة بالأناقة المصطنعة. انتظرا كأسيهما بصمت. شعر بالإحراج لأنّه لا يجد ما يقوله للامبير.

ثم بذل جهدًا وقال:

ـ يبدو أنَّ كتاب دوبروي صدر.

ـ هذا الذي نُشرت منه مقاطع في «*Vigilance*»؟

ـ نعم.

ـ لديَّ فضول لأقرأه.

ـ وأنا أيضًا، قال هنري.

فيما مضى، كان دوبروي يمرّر دومًا التجارب المطبعيّة الأولى إلى هنري. أمّا هذا الكتاب، فسيشتريه من إحدى المكتبات ويتحدّث عنه مع من يشاء إلاّ مع دوبروي، أي الشخص الوحيد الذي كان يودّ فعلاً أن يتحدّث إليه عنه.

ـ عثرت على هذا المقال الذي كتبته عن دوبروي ورفضت أن تنشره لي. هل تذكر؟ تعرف، ليس سيّئًا هذا المقال.

قال هنري:

ـ لم أقل لك قط إنّه سيّئ.

تذكّر هذا الحوار. كانت تلك المرّة الأولى التي أحسّ فيها هنري بنوع من العدائيّة لدى لامبير.

ـ سأستعيده وأقوم بدراسة شاملة عن دوبروي. تردّد قليلاً ثم قال: «طلب منّي فولانج أن أنشره في *Les Beaux Jours*».

قال هنري:

ـ حاول ألاّ تظلم دوبروي كثيرًا.

ـ ساكون موضوعيًّا. ثمَّ أضاف: «لديّ أيضًا قصّة قصيرة ستُنشر في هذه المجلّة».

ـ آه، كتبت قصصًا قصيرة أخرى؟

ـ كتبت اثنتين. أعجبتا فولانج كثيرًا.

ـ أودّ فعلاً الاطّلاع عليهما.

ـ لن تعجباك.

ظهر جوليان في فرجة الباب واتّجه إلى طاولتهما متأبّطًا ذراع سكرياسين. يبدو أنّ أحقادهما المشتركة تجمعهما الآن وتربط بينهما برباط الصداقة.

ـ إلى العمل أيّها الرفاق. آن الأوان أخيرًا لكي نوفّق بين الإنسان والويسكي.

كانت هناك قرنفلة بيضاء تزيّن عروة قميصه. استعادت نظرته شيئًا من ألقها القديم، ربّما لأنّه لم يكن قد تناول مشروبًا بعد.

هتف سكرياسين:

ـ زجاجة شمبانيا من فضلك؟

فقال هنري بنبرة مرتاعة:

ـ قنّينة شمبانيا هنا!

قال سكرياسين:

ـ لنذهب إلى مكان آخر.

قال جوليان وهو يستعجل في الجلوس:

ـ لا، لا. نرضى بالشمبانيا. لكنّ المهمّ ألاّ يكون هناك غجريّون. ابتسم: «سهرة جميلة، أليس كذلك؟ أمسية ثقافيّة من طراز رفيع! يؤسفني أنّها لم تنتهِ بالعراك الدامي».

قال سكرياسين:

ـ أمسية جميلة. لكن يجب أن تكون لها تبعات. ثم نظر إلى جوليان وهنري بإلحاح: «خطرت لي فكرة خلال الأمسية: يجب إنشاء رابطة هدفها التصدّي لمواقف المفكّرين الخائنين في كلّ مناسبة وبجميع الأساليب».

قال جوليان:

ـ ما رأيك بإنشاء رابطة للوقوف في وجه جميع الرابطات!

قال هنري لسكرياسين:

ـ قل لي، أليس لديك استعداد لتكون فاشيًّا قليلاً!

قال سكرياسين:

ـ وهاك، هاك السبب في أنّ انتصاراتنا لا غد لها!

قال جوليان:

ـ تبًّا للغد!

أصبح وجه سكرياسين قاتمًا: «في جميع الأحوال، يجب القيام بشيء ما».

ـ لماذا؟ قال هنري.

قال سكرياسين:

ـ سأكتب مقالاً عن لونوار. فهو يمثّل حالة مثلى للعُصاب السياسيّ.

قال هنري:

ـ أوه، رويدك! أعرف من يكيل له الكيل كيلين.

قال جوليان:

ـ جميعنا عصابيّون. لكن لا أحد منّا على الأقلّ ينظم الشعر على البحر الإسكندريّ!

قال هنري:

ـ هذا صحيح. وأخذ يضحك: «قل لي، ماذا كان أصابك لو أنّ مسرحيّة لونوار نجحت؟».

قال جوليان:

ـ وأنت ماذا كان أصابك لو أنّ توريز جاء ورقص الكنكان[1]؟

قال هنري:

ـ لكنّ لونوار كتب بعض القصائد الجيّدة.

هزّ لامبير كتفيه وقد بدا على وجهه الاشمئزاز:

ـ هذا قبل أن يتخلّى عن حرّيّته.

قال هنري:

ـ ما هي حرّيّة الكاتب؟ يجب تحديد معناها.

قال سكرياسين:

---

(١) الكنكان: رقصة استعراضيّة فرنسيّة الأصل.

ـ لا معنى لها. ولا معنى لأن يكون المرء كاتبًا في عصرنا هذا.

قال جوليان:

ـ لكن هذا بالضبط يؤجّج فيَّ الرغبة في الانكباب على الكتابة.

قال لامبير بحيويّة مفاجئة:

ـ عليك بذلك فعلاً. نادرون هم الكتّاب الذين لا يعتبرون أنفسهم مضطلعين برسالة ما!

فكّر هنري: «يلمّح إليّ بتعليقه»، لكنّه لم يقل شيئًا.

أخذ جوليان في الضحك:

ـ انظروا إليه! أوكل إليّ على الفور المهمّة بأن أشهد بأنّ الكاتب ليس من الضروري أن يضطلع برسالة اجتماعيّة.

قال لامبير:

ـ لا، لم أقصد هذا!

وضع جوليان إصبعًا على شفتيه: «وحده الصمت يمكن الوثوق به!».

قال سكرياسين فجأة:

ـ يا للمصيبة! شاهدنا لتوّنا حدثًا يثير الاضطراب في النفس. خسرنا رجلاً كان صديقًا لنا فانحدر إلى الحضيض بعد انضمامه إلى الحزب الشيوعي... وأنتم تتكلمون في الأدب! ألستم رجالاً حقًّا؟

قال جوليان:

ـ تأخذ الدنيا كثيرًا على محمل الجدّ!

ـ صحيح؟ لكن إذا لم يكن هنالك أناس مثلي يأخذون الدنيا على محمل الجدّ لاستلم الستالينيّون سدّة الحكم ولما عرفت ماذا سيكون مصيرك أنت!

قال جوليان:

ـ في مكان هادئ جدًّا، تحت سطح التراب ببضعة أشبار!

أخذ هنري يضحك:

ـ هل تعتقد أنّ الشيوعيّين يريدون جلدك.

قال جوليان:

ـ لكنّ جلدي لا يريدهم. أنا حسّاس جدًّا. التفت إلى سكرياسين «لا أطلب شيئًا من أحد. أستمتع بالحياة ما دامت الحياة توفّر لي المتعة. وعندما تصبح مستحيلة، أضع لها حدًّا».

سأل هنري بلهجة ممازحة:

ـ هل تنتحر إذا استلم الشيوعيّون سدّة الحكم؟

قال جوليان:

ـ نعم، وأنصحك بكلّ صدق أن تفعل مثلي.

قال هنري:

ـ هذا كثير! نظر إلى جوليان بذهول: «نخال أنّنا نمزح بين الأصدقاء، ثم نلاحظ فجأة أنّ أحدهم يعتبر نفسه نابوليون!».

ـ وقل لي: ماذا تفعل في حال استلمت الديكتاتوريّة الديغوليّة الحكم؟

ـ لا أحبّ الخطب ولا الموسيقى العسكريّة، لكنّي أتدبّر أموري بحشو أذنيَّ بقليل من القطن!

ـ واضح. حسنًا سأقول لك شيئًا: سيصل بك الأمر إلى نزع القطن والتصفيق للخطب التي تقال.

قال سكرياسين:

ـ لست من أنصار الديغوليّة كما يعلم الجميع. وأنت تعرف. لكن لا مجال للمقارنة بين فرنسا ديغوليّة وفرنسا ستالينيّة!

ـ هزّ هنري كتفيه:

ـ آه! عمّا قريب ستهتف لديغول قائلاً: «يحيا ديغول»!

قال سكرياسين:

ـ ليست هذه غلطتي إذا كانت القوى المناهضة للشيوعيّة قد حزمت أمرها حول رجل عسكري. عندما أردت أن أعبّئ اليسار ضدّ الشيوعيّين رفضت.

قال هنري:

ـ ما دام المرء مناهضًا للشيوعيّة فلا بأس أن ينتمي إلى جهاز العسكر. هذا هو قصدك؟ ثم أضاف بغضب: «أنت تتحدّث عن اليسار! كنت تقول: يجب الاعتماد على الشعب الأميركي والنقابات. وفي مقالاتك تدافع عن مارشال وشركاه!».

ـ في الوقت الراهن، العالم منقسم بين كتلتين. هذا أمر واقع ونحن مرغمون على أن نختار إمّا أميركا وإمّا الاتّحاد السوفييتيّ.

قال هنري:

ـ وتختار أميركا!

ـ لا توجد معسكرات اعتقال في أميركا.

ـ أيضًا وأيضًا معسكرات الاعتقال هذه! ستجعلني أندم لأنّني تحدّثت عنها.

قال لامبير:

ـ لا تقل هذا! إنّه العمل الأكثر إثارة للتقدير الذي فعلته في حياتك. كان السكر قد أثقل لسانه بعض الشيء. أفرغ كأسه الأولى وباشر بالثانية، على الرغم من أنّه لا يتحمّل شرب الكحول.

ـ هزّ هنري كتفيه: «وبمَ أفادت هذه المقالات! استخدمها اليمين لكي يخلق إحساسًا بالذنب لدى الشيوعيّين، وكأنّ ذلك يبرّر أخطاءه».

ـ ما إن تتحدّث عن الاستغلال والبطالة والجوع حتى يبادرك أهل اليمين قائلين: ومعسكرات العمل الإجباري؟ حتى لو لم تكن موجودة لاخترعوها!

قال سكرياسين:

ـ لكنّ الحقيقة أنّها موجودة. وهذا أمر مزعج، أليس كذلك؟

قال هنري:

ــ أشفق على الناس الذي لا ينزعجون من أمر.

نهض لامبير فجأة:

ــ اعذروني لديّ موعد.

قال هنري وقد نهض أيضًا:

ــ أذهب معك! أريد العودة لأنام.

قال جوليان:

ــ تنام! في مثل هذه الساعة وفي ليلة مماثلة!

قال هنري:

ــ إنّها ليلة عظيمة! لكنّي أشعر بالنعاس. حيّا الجميع ومشى نحو الباب.

سأل هنري لامبير:

ــ لديك موعد مع من؟

ــ ليس لديّ موعد لكنّي سئمت. ليسوا ظرفاء. ثمّ أضاف بضغينة: «هل يمكن تمضية السهرة دون الكلام في السياسة»؟

ــ لم نتكلّم في السياسة. كلّ ما فعلناه أنّنا تحدّثنا بحماقة في مواضيع الساعة.

ــ تحدّثنا بحماقة في السياسة!

ــ اقترحت عليك الذهاب إلى السينما!

قال لامبير:

ــ إمّا السياسة وإمّا السينما! أليس هناك شيء آخر على هذه الأرض؟

قال هنري:

ــ بلى!

ــ ماذا؟

ــ أودّ حقًّا أن أعرفه!

رفس لامبير إسفلت الرصيف وسأل بنبرة شاكية على نحو غامض:

ــ ألا تأتي لنشرب كأسًا؟

ــ حسنًا.

جلسا على الرصيف، المساء جميل والناس يضحكون حول المناضد. عمّ كانوا يتحدّثون؟ السيّارات الصغيرة اجتازت الطريق المعبّدة المتعرّجة، فتيان وفتيات يعبرون متعانقين، على الأرصفة كوبلات يرقصون، وتتاهت أصداء موسيقى جاز جميلة... بالطبع، ثمّة أشياء كثيرة على الأرض غير السينما والسياسة: لكن لأناس آخرين...

توجّه لامبير إلى الساقي قائلاً:

ــ كأسان مزدوجتان من الوسكي لو سمحت!

ــ كأسان مزدوجتان من الويسكي! ما أعظم طاقتك على الشراب! أنت أيضًا بدأتِ تشرب!

ـ ماذا تقصد بـ «أنت أيضًا»؟

ـ جوليان يشرب وسكرياسين يشرب.

ـ فولانج لا يشرب وفنسان يشرب.

ابتسم هنري:

ـ أنت الذي تُحمّل كل الأقوال تفسيرات سياسيّة، قلت هذا على سبيل الصدفة!

قال لامبير وعلى وجهه تعابير عناد غامض:

ـ ونادين أيضًا لم تعد تريد أن أشرب! لا تظنّ أنّني قادر على ذلك ولا على أيّ شيء آخر: تمامًا مثلك أنت. ثم ختم كلامه بصوت متجهّم: ليتني أوحي بالثقة.

قال هنري:

ـ لكنّي كنت أثق بك دومًا!

ـ هذا ليس صحيحًا، كنت متساهلاً معي في وقت ما، ليس أكثر. احتسى لامبير كأس الويسكي حتى نصفها وأضاف بلهجة عنيفة: «في عرفك، إمّا أن نكون عباقرة أو نكون وحوشًا. حسنًا، فنسان من الوحوش. أمّا أنا فلست لا كاتبًا ولا ناشطًا سياسيًّا ولا ماجنًا كبيرًا. أنا فقط فتى ميسور الحال ولا أعرف حتى كيف أسكر».

هزّ هنري كتفيه: «لا أحد يطلب منك أن تكون عبقريًّا ولا وحشًا!».

ـ أنت لا تطلب منّي شيئًا لأنّك تحتقرني.

ـ أنت معتوه تمامًا! آسف لأنّ لديك مثل هذه الأفكار. لكنّي لا أحتقرك.

ـ تعتقد أنّي بورجوازي.

ـ وأنا، ألست كذلك؟

أجاب لامبير بضغينة:

ـ أوه! لكنّك لا تظهر على حقيقتك أمام الناس. تدّعي أنّك لا تشعر بالتفوّق على أيّ كان. لكن واقع الأمر أنّك تتعالى على الجميع. تحتقر الجميع: لونوار، سكرياسين، جوليان، سامازيل، فولانج، والجميع، وأنا أيضًا. ثم أضاف بصوت مشوب بالإعجاب والفظاظة في آن: «لا شكّ أنّ لديك أخلاقيّة عالية جدًّا! أنت نزيه ومستقيم وصريح وشجاع ومنطقيّ مع نفسك. وليس فيك عيب! آه ما أروع أن يحسّ الإنسان أنّه منزّه عن كل عيب، وفي منأى عن كل لوم!».

ابتسم هنري:

ـ أقسم لك بأنّني لست على تلك الحال التي تصفها.

قال لامبير بنبرة مثبطة للعزيمة:

ـ هيا كفى! ليس فيك عيب، أنت تعرف ذلك. وأعرف جيّدًا أنّني لست كذلك. ثم أضاف بغضب: «لكنّي لا أبالي: أنا كما أنا».

قال هنري:

ـ ومن يلومك على أيّ شيء؟ نظر إلى لامبير نظرة يشوبها الندم. ربّما لامه على استسلامه للسهولة لكنّ للامبير أعذاره: طفولته البائسة ووفاة صديقته روزا وهو لا يزال في العشرين. أمّا نادين فلم تكن قادرة على مؤاساته. في الواقع، كان طلب لامبير بسيطًا جدًّا: «أن يدعه يعيش حياته كما يهوى»، فيما أنا لم أكن إلاّ متطلّبًا معه، لذا نقل لجهة فولانج. لم يفت الأوان بعد، يستطيع هنري أن يمنحه فرصًا أخرى مؤاتية.

قال بصوت ودود:

ـ أشعر أنّ لديك مآخذ كثيرة عليّ. تحسن صنيعًا لو أنّك تذكرها كلّها دفعة واحدة، فيشرح كلّ منّا وجهة نظره.

أجابه لامبير بلهجة مغتمّة:

ـ ليست لديّ مآخذ. أنت الذي توجّه إليّ الملامة طيلة الوقت. تمضي وقتك وأنت تخطّئني.

ـ أنت مخطئ تمامًا. إذا كان رأيي مختلفًا عن رأيك فهذا لا يعني أنّني ألومك. بداية، لسنا من عمر واحد، وما يصلح لي لا يصلح لك بالضرورة. مثلاً، أنا عشت شبابي وأتفهّم فعلاً أن ترغب في التمتّع بشبابك ولو قليلاً.

قال لامبير:

ـ تتفهّم ذلك؟

ـ بالطبع.

ـ أوه! لكنّي لن أكترث مهما وجّهت إليّ من الملامة.

كان صوته متلجلجًا، لقد احتسى الكثير من الشراب وبات الحوار معه صعبًا. على أيّ حال، لا يستدعي الأمر العجلة مطلقًا.

قال هنري مبتسمًا:

ـ اسمع، تأخّر الوقت وكلانا مرهق. أقترح عليك أن نخرج معًا في إحدى الأمسيات المقبلة ولنحاول أن نعقد لقاءً حواريًّا صريحًا بيننا: منذ زمن بعيد، لم يجر بيننا حديث صريح.

قال لامبير:

ـ هل تظنّ أنّ هناك إمكانيّة لإجراء حوار حقيقيّ بيننا؟

ـ طبعًا هناك إمكانيّة لو أردنا ذلك. نهض هنري: «هل تريد أن أوصلك إلى المنزل»؟

أجاب لامبير بلهجة غامضة:

ـ لا، سأحاول أن ألتقي بعض الأصحاب.

ـ إلى اللقاء إذًا. في أمسية مقبلة.

مدَّ لامبير له يده:

ـ إلى مساء قريب.

عاد هنري إلى الفندق. في علبة بريده رزمة من الأوراق: إنّه بحث دوبروي. فكَّ الخيوط وهو يصعد الدرج، وفتح الكتاب عند الصفحة الأولى: بالتأكيد، كانت بيضاء، ماذا يتخيّل؟ موفان هو الذي أرسل هذا الكتاب كما يرسل كتبًا أخرى كثيرة.

تساءل: لماذا تخاصمنا؟ غالبًا ما يطرح على نفسه هذا السؤال. كانت مقالات دوبروي في *Vigilance* صدى لافتتاحيات هنري. الواقع أنْ لا شيء يفرّق بينهما. ومع ذلك تخاصما. ما حصل بينهما لا يمكن تجاوزه ولكنّه يظلّ عسير التفسير. الشيوعيّون يكرهون هنري، لامبير يترك «*L'Espoir*»، بول جنّت، العالم متّجه سريعًا نحو الحرب... والخصام مع دوبروي لم يعد له ما يبرّره.

جلس هنري أمام طاولته وراح يتصفّح الكتاب. كان يعرف مسبقًا ما ورد في متنه لذلك قفز سريعًا إلى الفصل الأخير. إنّه فصل طويل. لا بدَّ أنّه كُتب في كانون الثاني بعدما حُلّت الـ *S.R.L*. شعر هنري أنّه مشوّش الذهن. الشيء المميّز لدى دوبروي أنّه لا يتردّد إطلاقًا في إعادة النظر في أفكاره. وفي كل مرّة يركب مغامرة جديدة. لكن، هذه المرّة، كان الانقلاب في أفكاره جذريًّا. «المثقف الفرنسي عاجز اليوم». بالطبع، دوبروي ليس في وضع يُحسد عليه: الـ *S.R.L* باءت بالفشل، مقالاته في *Vigilance* تحدث رفعًا لكنّها لا تترك أثرها في نفس أحد؛ الاتّهامات التي تطاله: تارة هو شيوعيّ متستّر، وطورًا عميل وول ستريت. ليس لديه إلاّ الأعداء. وهنري أيضًا ليس في وضع يُحسد عليه وحالته مشابهة لحالة دوبروي! لكنَّ ثمّة فارقًا: هنري يعيش كل يوم بيومه وهو قادر على تدبّر أموره بالتي هي أحسن. أمّا دوبروي، ونظرًا للجانب المتزمّت في شخصيّته، فلا يعرف تسيير أموره. على أيّ حال يتجاوز بأفكاره هنري ويذهب بعيدًا في مواقفه إلى حدّ أنّه يشكّ بجدوى الأدب نفسه. تابع هنري القراءة. لا بل إنّ دوبروي

يذهب أبعد من ذلك أيضًا. يدين وجوده بالذات. ويواجه الإنسانويّة القديمة التي كان يؤمن بها بإنسانويّة جديدة أكثر واقعيّة وأكثر تشاؤميّة تبرّر إلى حدّ بعيد استخدام العنف وتقطع الطريق على مفهوم العدالة والحرّيّة والحقيقة. كان دوبروي يؤكّد بنبرة ظافرة أنّ هذه الأخلاقيّة هي الوحيدة الملائمة للعلاقة الراهنة التي تتحكّم بناس اليوم. ولكي يتبنّاها، كان عليه أن يتخلّى عن مفاهيم ثابتة وقناعات راسخة لديه، وهو شخصيًّا غير قادر على ذلك. كان غريبًا أن يبشّر دوبروي بحقيقة لا يقدر أن يتبنّاها: هذا يعني موته. فكّر هنري: «هذه غلطتي، لو لم أعاند في مواقفي وأصعّد الأمور، لكانت الـــ *S.R.L*. استمرّت، ولما اعتقد دوبروي أنّه منهزم إلى هذا الحدّ». رأى هنري دوبروي عديم القدرة، معزولاً، مرتابًا بجدوى ما يدعو إليه وقد سُدّت بوجهه آفاق المستقبل، متنكّرًا لكلّ ماضي أيّامه. فانقبض قلبه لتخيّله دوبروي على هذا النحو. وفجأة خطرت له فكرة: «سأكتب له!» ربّما لن يردّ دوبروي على رسالته أو ربّما سيردّ عليها حانقًا. لكن ما همّ! لم يكن هنري يعرف معنى «العنفوان». وهكذا صمّم على أن يكتب إليه عندما خلد إلى فراشه. ثمّ فكّر أيضًا: «غدًا سألتقي لامبير وسيدور بيننا حديث صريح». وأطفأ النور وهو يتساءل: «غدًا... لماذا تريد الأمّ بلوم رؤيتي غدًا صباحًا؟».

غادرت مدبرّة المنزل، ودخل هنري إلى الصالون. جلود الدبّ والسجاجيد والدواوين الخفيضة.. لا يزال كلّ شيء على حاله. لا يزال الصمت نفسه حين التقى هنا جوزيت التي كانت تمنح جسدها

له بشكل مضمر. ليس من الممكن أن تكون لوسي قد استدعته لتستعرض له مفاتنها الخمسينيّة! ردّد في نفسه: «ماذا تريد منّي؟» وحاول أن يتلافى الأجوبة.

قالت لوسي:

ــ شكرًا على مجيئك.

كانت ترتدي ثوبًا منزليًّا صارمًا. شعرها مرتّب بعناية، لكنّها لم ترسم حاجبيها. وهذا النوع من الصلع جعلها تبدو وكأنّها عجوز فجأة.

أشارت إليه بالجلوس.

ــ ثمّة خدمة أريد أن أطلبها منك. ليس من أجلي خصوصًا بل من أجل جوزيت. هل أنت حريص عليها، نعم أم لا؟

قال هنري:

ــ تعرفين موقفي جيّدًا.

كانت نبرة لوسي عاديّة، فأحسّ بالارتياح على نحو مبهم وفكّر: «تريدني أن أتزوّج بجوزيت، أو أن أتواطأ معها في مكيدة ما».

لكن لماذا تمسك هذه المحرمة الصغيرة من الدانتيل بيدها اليمنى؟ لماذا تضغط عليها بهذه القوّة؟

قالت لوسي:

ــ لا أعرف ما هي حدود مساعدتك لها.

ــ قولي لي ما الأمر.

تردّدت لوسي. دعكت المنديل بيديها الاثنتين: «سأقول لك. ليس لديّ الخيار». افترّ ثغرها عن ابتسامة خفيفة: «لا بدّ أنّهم أخبروك أنّنا خلال الحرب لم نكن في صفوف المقاومة!».

ـ نعم أخبروني بذلك.

ـ لا أحد يعرف مقدار الثمن الذي دفعته لتكون لي دار أزياء أماريليس، ولكي أجعل منها دارًا بلغت شهرة كبيرة. على أيّ حال، هذا شأني وحدي ولا أدّعي قول ذلك لأستثير فيك أيّ شفقة. إلاّ أنّني أريدك أن تفهم أنّني، بعد أن صارت الدار ملكي، كنت على استعداد لأضحّي بالغالي والرخيص لأتفادى إعلان إفلاسي، ولم أستطع إنقاذها إلاّ بلجوئي إلى الألمان، وقد استعنت بهم. ولن أقول لك إنّي نادمة على ذلك. فكما تعرف، لا يمكن الحصول على ثروة بدون ثمن. استقبلتهم في دارتي في ليون وأقمت الحفلات. وفي النهاية، قمت بما هو ضروري. تسبّبت علاقتي بهم ببعض المشاكل إبّان التحرير. لكن مضى زمن على ذلك وأسدل الستار على تلك القصّة.

نظرت لوسي من حولها ثم إلى هنري. تمتم بصوت هادئ: «وماذا بعد؟». بدا له أنّ هذا المشهد حصل من قبل، لكن متى؟ ربّما في أحلامه. ربّما مذ تلقّى هذه الرسالة المضغوطة. كان يعرف ماذا ستقول لوسي. منذ سنة وهو ينتظر هذ اللحظة.

ـ هناك شخص كان يُعنى بشؤوني يدعى مرسييه. كان يأتي غالبًا إلى ليون وقد سرق صورًا لنا واستحصل على رسائل، وجمع

بعض الأحاديث المدوّنة على أوراق. إذا عمد إلى نشر هذه الوثائق سنتعرّض أنا وجوزيت إلى الملاحقة بتهمة الخيانة الوطنيّة.

قال هنري:

ــ صحيحة إذًا قصَّة الملفّ هذه؟

شعر هنري بإرهاق شديد يعتريه.

قالت لوسي مندهشة وقد ارتخت ملامحها قليلاً:

ــ آه! كنت على علم بذلك؟

قال هنري:

ــ استعنت أيضًا بجوزيت.

قالت لوسي بمرارة:

ــ استعنت بها! جوزيت لم تفدني بشيء! كلّ ما فعلته هو أنّها تورّطت مع بعض الشبّان الألمان من دون أن تقدّم أيّ فائدة. وقعت في غرام رائد شابّ، جميل وعاطفي ولا يملك أيّ نفوذ. بعث لها برسائل عاطفيّة قبل أن يلقى حتفه على الجبهة الشرقيّة. تركت جوزيت الرسائل في كلّ مكان، وكذلك الصور التي تجمعها بعشيقها وهما يتنزّهان معًا. وثائق مهمّة أؤكّد لك ذلك. وقد أدرك مرسييه في الحال مدى الفائدة التي يمكنه أن يجنيها والضرر الذي يمكن أن يلحقه بنا.

نهض هنري فجأة ومشى نحو النافذة. كانت لوسي تمعن النظر فيه لكنّه لا يكترث لنظراتها. تذكّر وجه جوزيت المتكاسل في تلك الصبيحة، الأولى لهما معًا، هذا الصوت الذي بدا له صادقًا جدًّا

فيما كان يكذب وهو يقول له: «وقعت في الغرام؟ غرام من؟». لقد وقعت في الغرام. أحبّت رجلاً آخر: فتىً ألمانيًّا جميلاً.

التفتت لوسي نحوه فسألها بعد جهد:

ـ هل ابتزّك؟

ضحكت بشكل عابر وقالت:

ـ أوتتخيّل أنّني جئت أطلب منكِ مالاً؟ منذ ثلاث سنوات وأنا أدفع له المال وكنت مستعدّة لمواصلة الأمر. لا بل إنّني نقدته مبلغًا كبيرًا لكي أستردّ الملفّ، لكنّ مرسييه ماكر وبعيد النظر. حدّقت في عيني هنري وقالت بنبرة متحدّية: «كان واشيًا يعمل لدى الغستابو وقد أوقفته السلطات للتوّ. أبلغني أنّه إذا لم أعمل على إخراجه من السجن فسيورّطنا جميعًا».

لزم هنري الصمت. لغاية الآن، تنتمي النساء القذرات اللواتي ضاجعن الألمان إلى عالم آخر لا صلة تجمعه بهذا العالم إلاّ الكراهية. لكن ها إنّ لوسيّ تتحدّث عن الموضوع وهو يصغي إليها. ذاك العالم الحقير كان عالمه أيضًا، عالمه بالذات. انتقلت جوزيت من بين ذراعي الكابتن الألماني إلى ذراعيه هو.

قالت لوسي:

ـ أوتدرك ماذا تمثّل هذه القصّة بالنسبة لجوزيت؟ مع هذا الطبع الذي تملكه فلن تقوم لها قائمة. ستفتح قارورة الغاز وتنتحر.

قالت بصوت حانق:

ـ وماذا تريدين منّي أن أفعل؟ ماذا تتوقّعين منّي؟ لا أعرف محاميًا يستطيع إنقاذ مخبر للغستابو. النصيحة الوحيدة التي بإمكاني تقديمها لك هي الهروب إلى سويسرا في أسرع وقت ممكن.

هزّت لوسي كتفيها: «إلى سويسرا! قلت لك إنّ جوزيت ستنتحر بفتح قارورة الغاز». ثم قالت بتحنّن مفاجئ: «كم كانت سعيدة في الأيّام الأخيرة، تلك الغبيّة المسكينة! لقد قال الجميع إنّها رائعة على الشاشة». ثم أضافت بنفاد صبر: «اجلس واسمعني!».

قال هنري وهو يجلس:

ـ أسمعك.

ـ لديّ محامٍ تحت تصرّفي، الأستاذ تروفو، ألا تعرفه؟ إنّه صديق موثوق به للغاية ويدين لي ببعض الأشياء. ثم تفرّست في عيني هنري: «درسنا القضيّة معًا بتمعّن كبير. قال إنّ الحلّ الوحيد هو أن ينكر مرسييه التهمة متحجّجًا بأنّه عميل مزدوج. وبالطبع، هذه الحجّة لن تستوي إذا لم يساندها مقاوم معروف».

قال هنري:

ـ آه، الآن فهمت!

فأجابته لوسي ببرودة:

ـ هذا يسهل فهمه!

ضحك هنري ضحكة صغيرة ثم قال:

ـ وهل تعتقدين أنّ الأمر بهذه البساطة! المصيبة هي أنّ جميع الرفاق يعرفون أنّ مرسييه لم يعمل معي قطّ.

عضّت لوسي شفتها. وفجأة لم تعد ملامحها تشي بالتعجرف. خشي أن تبدأ بالبكاء لأنّ المشهد سيكون منفّرًا والحالة هذه. كان يراقب بلذّة خبيثة هذا الوجه المتراخي والكلمات تتدافع كالريح في رأسه. مغرمة بكابتن ألماني. لقد نالت منّي! أنا الغبيّ! أنا الغبيّ المسكين! خال نفسه واثقًا من لذّتها وحنانها. أنا الغبيّ! لم تنظر إليه إلاّ بوصفه أداة لمآربها. كانت لوسي ذكيّة وبعيدة النظر. إذ كانت قد عُنيت بمصالح هنري ورمت بجوزيت بين ذراعيه فهذا ليس لتؤمّن مهنة لابنتها، فهي لا تبالي بابنتها إطلاقًا بل لكي تكسب مودّة حليف سيكون لها درعًا واقية ذات يوم. وجوزيت تصرّفت وفقًا لتعليمات أمّها. كانت تقول لهنري إنّها لم تحبّ قطّ لكي يعذر لها تحفّظها العاطفيّ حياله. فيما كان كلّ الحبّ الذي كان هذا القلب التافه قادرًا على منحه، قد منحته إلى رائد ألماني شابّ في منتهى الجمال. كان يرغب في شتمها وضربها، وها إنّهم يطلبون منه إنقاذها!

قالت لوسي:

ــ ألم يكن عملكم سرّيًا؟

ــ بلى، لكنّنا متعارفان.

ــ ألن يصدّقك قاضي التحقيق على كلامك؟ إذا واجهك بزملائك فهل سيعاكسون ما تقوله؟ قال هنري غاضبًا:

ــ لا أعرف ولا أريد القيام بمخاطرة. لا يبدو أنّك تدركين خطورة الأمر ولا العواقب الناتجة عن «شهادة زور». تحرصين

على دار أزيائك، وأنا أيضًا أحرص أشدّ الحرص على سمعتي وسلامتي.

استعادت لوسي هدوءها وقالت بصوت محايد:

ـ التهمة الأساسيّة ضدّ مرسييه هي أنّه سلّم فتاتين في ٢٣ شباط عام ١٩٤٤ على جسر آلما. نظرت إلى هنري نظرة متسائلة «كان اسمهما في السرّ ليزا وإيفون. أمضتا سنتين في داشو. ألا يعني لك هذا شيئًا»؟

ـ لا!

ـ للأسف، لو أنك تعرفهما لكان بإمكانك مساعدتنا. لكنّهما تعرفانك بطبيعة الحال. إذا أكّدت أنّ مرسييه كان في ذلك اليوم برفقتك، وإذا أعلنت أنك تعمّدت استخدام مرسييه خفية كواشٍ ألن تخونهما شجاعتهما؟ عندئذٍ هل سيجرؤ أحد على التصدّي لك أو تكذيب أقوالك؟

فكّر هنري. نعم، ستكون هناك مصداقيّة كبيرة في ما سيقوله. ويمكن لهذه الخدعة أن تنطلي على القضاة. كان لوك في بوردو عام ١٩٤٤، وشانسيل وفاريو وغاليتييه ماتوا. وإذا كان لدى لامبير وسيزيناك ودوبروي شكوك فسيحتفظون بها لأنفسهم. لكنّه لن يدلي بشهادة زور من أجل فتاة تافهة أعجبه جسدها. أمر غريب، كيف استطاعت هذه الفتاة الاحتفاظ بالسرّ والظهور بمظهر الفتاة البريئة.

قال:

ـ أسرعا في الهرب إلى سويسرا. هناك أناس موسرون كثر. إلى سويسرا أو البرازيل أو الأرجنتين. العالم واسع. القول إنّه لا يمكن العيش إلاّ في باريس مجرّد حكم مسبق.

قالت لوسي:

ـ أنت تعرف جوزيت، أليس كذلك؟ استعادت لتوّها حبّها للحياة. لن تتحمّل هذه المصيبة.

فكّر هنري وهو يشعر بوخز في ضميره «يجب أن أراها في الحال!» ثم نهض فجأة وقال للوسي:

ـ عليّ أن أفكّر بالأمر.

انتزعت ورقة صغيرة من جيبها وقالت له:

ـ هذا هو عنوان الأستاذ تروفو. إذا اتّخذت قرارك اتّصل به.

سأل هنري:

ـ افرضي أنّني وافقت. كيف أتأكّد من أنّ مرسييه سيعيد الملفّ؟

ـ وماذا تريده أن يفعل غير ذلك؟ لا مصلحة له في إغضابك. ومن ثمَّ، إذا أعلن عن الملفّ فستصبح شهادتك مشبوهة. أمّا، إذا خلّصته من الورطة فلا بدّ أنّه لن يردّ لك طلبًا.

قال هنري:

ـ سأتّصل بك هذا المساء.

نهضت لوسي. لوهلة، بقيت منتصبة أمامه بهيئة متردّدة. ومن جديد خشي من أن تنهار باكية أو أن ترتمي عند قدميه. لكنّها اكتفت بإطلاق تنهيدة ورافقته إلى الباب.

نزل الدرج بحيويّة. ركب سيّارته ثم صعد إلى شارع غابرييل. لا يزال يحتفظ بالمفتاح الصغير الذي أعطته إيّاه جوزيت لسنة خلت، ذات ليلة جميلة من ليالي الغرام. فتح باب الشقة ودخل إلى الغرفة دون أن يدقّ على الباب مستأذنًا.

قالت جوزيت:

ــ من هنا؟ فتحت عينيها وابتسمت بغموض: «هذا أنت؟ كم الساعة الآن؟ لطف منك أن تأتي لتقبّلني».

لم يقبّلها. فتح الستائر وجلس على مقعد متحرّك. بين هذه الجدران المبطّنة وهذه التحف وهذا الساتان وهذه الوسائد، من الصعب تخيّل الفضيحة والسجن واليأس. كان وجه جوزيت المتورّد يبتسم مكلّلاً بشعرها المتوحّش.

قال:

ــ لديّ ما أقوله لك.

استوت جوزيت في جلستها متّكئة إلى وسائدها: «عمّ؟».

ــ لماذا لم تقولي لي الحقيقة؟ أمّك أخبرتني كلّ شيء. ثم قال بصوت عنيف: «هذه المرّة أريد الحقيقة. هل رمتك أمّك بين ذراعيّ ظنًّا منها أنّني يمكن أن أفيدك بشيء؟».

قالت جوزيت:

ـ ما الذي يحصل؟

ـ أجيبيني؟ هل وافقت أن تضاجعيني تنفيذًا لأوامر والدتك؟

ـ منذ زمن طويل وأمّي تقول لي بأن أتركك. كانت تريدني أن أوقع في حبائلي عجوزًا ثريًّا. ورددّت بصوت متوسّل: «ما الذي يحصل؟».

قال:

ـ الملفّ، ألم تسمعيهم يتحدّثون عن الملفّ؟ الشخص الذي يمتلكه في حوزته أوقف، ويهدّد بأن يعترف بكلّ شيء.

أخفت جوزيت رأسها في الوسادة وقالت يائسة:

ـ ألن ننتهي من ذلك أبدًا!

ـ هل تذكرين أوّل صبيحة أمضيتها معك في هذا السرير؟ قلت لي حينها إنّك لم تحبّي أحدًا. ولاحقًا، حدّثتني على نحو غامض عن فتى توفّي في أميركا. رجلك الذي أغرمت به كان ضابطًا ألمانيًّا. آه! خدعتني خدعة ذكيّة.

قالت جوزيت:

ـ لماذا تكلّمني هكذا؟ ماذا فعلت لك؟ عندما كنت في ليون، لم أكن أعرفك.

ـ لكن حين سألتك للمرّة الأولى كنت تعرفينني. لقد كذبت عليَّ ببراعة تامّة!

ـ وماذا يفيدك لو قلت الحقيقة؟ أمّي حظّرت عليّ ذلك. ثمَّ إنّك كنت بالنسبة لي رجلاً غريبًا.

ـ وهل ظللت غريبًا طيلة سنة؟

ـ لكن لماذا يتكلّمون عن كل ذلك. أخفت وجهها بين يديها وأخذت تبكي: «قالت لي أمّي إنّهم إذا وشوا بي، فسأذهب إلى السجن. لا أريد أن ينكشف الأمر وإلاّ قتلت نفسي».

ـ كم دامت قصّتك هذه مع الرائد؟

ـ سنة واحدة.

ـ هو الذي أسكنك في هذه الشقّة؟

ـ نعم، كل ما أملكه هو هبة منه!

ـ وهل كنت تحبّينه؟

ـ كان يحبّني، أحبّني كما لم يحبّني رجل. ثمّ أضافت وهي تشهق بالبكاء: «نعم أحببته. ليس هذا سببًا لكي أدخل السجن!».

نهض هنري، قام ببعض الخطوات وسط الأثاث الذي اختاره الرائد الجميل. في الحقيقة، شعر منذ البداية أنَّ جوزيت قادرة على منح نفسها إلى الألمان. اعترفت قائلة: «لا أفهم شيئًا من هذه الحرب». ويجب أن يعذرها الآن أكثر لأنّ حبًّا حقيقيًّا جمعها بذلك الرجل. لكنْ يشقّ عليه أن يتخيّل ذاك الرجل ببذلته الخضراء المرمّدة على هذه الكنبة بالذات، وجسدها ملتصق بجسده وفمها ملتصق بفمه.

ـ هل تعرفين ماذا تريد أمّك؟ تريد منّي أن أدلي بشهادة زور لكي أخلّصك من الورطة. لا أظنّ أنّ هذا يعني لك شيئًا!

ردّدت جوزيت والدموع تنهمر من عينيها:

ـ لن أذهب إلى السجن. سأنتحر. على أيّ حال، لا أخشى من القدوم على الانتحار.

قال هنري وقد رقّق من لهجته:

ـ مسألة ذهابك إلى السجن ليست مطروحة.

ماذا دهاك! من العبث أن تلعب الآن دور منقذ العدالة. كل ما في الأمر أنّه كان يشعر بالغيرة. وإذا أراد أن يعدل فعلاً. فليس في مقدوره أن يحقد على جوزيت لأنّها أحبّت أوّل رجل أحبّها، وبأيّ حقّ يلومها على صمتها؟ ليس له الحقّ في ذلك.

أضاف:

ـ في أسوأ الأحوال، ستضطرّين إلى مغادرة فرنسا. ولا يختلف العيش في أيّ مكان عن العيش في فرنسا.

واصلت جوزيت نحيبها. بالطبع، ما كان يقوله خالٍ من أيّ معنى. لن تستطيع جوزيت تحمّل العار والهرب والمنفى. فهي، أصلاً، ليست متشبّثة بالحياة كثيرًا. نظر من حوله وتصاعد الكرب إلى حلقه. تبدو الحياة لاهية، خفيفة جدًّا وسط هذا الديكور المسرحيّ المضحك. لكن إذا انتحرت جوزيت ذات يوم بالغاز، فإنّها ستقضي نحبها وسط هذه الجدران المبطّنة، متدثّرة بهذه الأغطية الورديّة وستُدفن بقميصها الناعم كالزبد. إنّ خفّة هذه

الغرفة ليست إلاّ وهمًا بصريًّا. فدموع جوزيت حقيقيّة وثمّة جثّة حقيقيّة تختبئ وراء هذه البشرة المعطّرة.

جلس عند حافّة السرير وقال:

ـ لا تبكي. سأنقذك من هذه الورطة!

باعدت بين خصلات شعرها المنسدلة على وجهها الدامع: «أنت؟ تبدو حانقًا جدًّا».

ـ لا، لا، لست غاضبًا. ثم ردّد باحتداد: «أعدك بأنّي سأنقذك من هذه الورطة».

قالت جوزيت وهي ترتمي بين ذراعيه:

ـ آه، نعم أنقذني! أتوسّل إليك!

قال بلهجة رقيقة:

ـ لا تخافي. لن يحصل لك سوء.

قالت جوزيت:

ـ أنت لطيف! التصقت به وقرّبت منه شفتيها فأشاح بوجهه.

تمتمت بصوت يذوب دعة: «هل أثير اشمئزازك؟» فأحسّ هنري بالخجل فجأة! الخجل من أن يكون في جانب الخير. رجل في مواجهة امرأة. رجل يملك المال والشهرة والثقافة والأخلاق العالية. لكنّ الأخلاق فقدت وهجها منذ بعض الوقت، ومع ذلك لا يزال بإمكانها أن تخلق أوهامًا. وعند لزوم الحال، سيقع في فخّ الأوهام هو أيضًا.

قبّل الفم المالح جرّاء الدموع:

ــ أنا، من أشمئزّ من نفسي!

ــ أنت؟

رفعت نحوه عينين حائرتين لا تفهمان شيئًا. قبّلها من جديد بدافع الشفقة. تلك الفتاة المسكينة هل زُوّدت بسلاح ما لكي تدافع به عن نفسها؟ هل كانت لها مبادئ تتمسّك بها، أو آمال تعيشها؟ لم تتلقّ إلاّ الصفعات من والدتها، ولم تصادف سوى فظاظة الرجال، ولا تتمتّع إلاّ بالجمال المهين. والآن وضعنا في قلبها ندمًا لم تكن تتوقّعه.

قال:

ــ كان عليّ أن أكون لطيفًا في الحال بدل أن أصرخ في وجهك.

نظرت إليه بقلق:

ــ أحقًّا لست حاقدًا عليَّ؟

ــ لا. وسأنقذك من هذه الورطة.

ــ بأيّ طريقة؟ وما هي الوسيلة؟

ــ سأتدبّر الأمر وأقوم بما يلزم.

أطلقت تنهيدة وألقت رأسها على كتف هنري. داعب شعرها. أن يدلي بشهادة زور: ترعبه هذه الفكرة. لكن ما همَّ؟ سيخنث باليمين لكنّه لن يؤذي أحدًا. أمر مؤسف أنّه سينقذ مرسييه. لكن كم

من الكثيرين غيره يستحقّون الموت وهم يعيشون في أنعم بال وأيسر حال! إذا رفض القيام بذلك، فسيدفع جوزيت للانتحار أو لتدمير حياتها. لا، سيقدم ولن يتردّد. من جهة هناك مصير جوزيت، ومن جهة أخرى هناك وساوس الضمير. فتل خصلة من شعرها حول إصبعه وغاص في تفكير عميق. في جميع الأحوال راحة الضمير لا تجدي نفعًا، سبق له أن تبصّر في الأمر مطوّلًا، لا بأس أن يرتكب خطأ له ما يبرّره وأن يدع القواعد الأخلاقيّة جانبًا ولن يفوّت فرصة الإنقاذ المتاحة.

ها إنّ أمامه فرصة ليقول تبًّا للأخلاق. ولن يفوّت هذه الفرصة. أفلت خصلة الشعر ومرّر يده على وجهها. لا يلائمه أن يلعب دور الرجل الشيطانيّ. سيدلي بهذه الشهادة الزور إذ ليس أمامه حلّ آخر. هذا كل شيء. «كيف وصل بي الأمر إلى هنا؟» بدا له هذا منطقيًّا جدًّا ومستحيلًا تمامًا في آن معًا. لم يشعر قطّ في حياته أنّه تعرّض لهذه التجربة المرّة.

لم يكتب هنري رسالة إلى دوبروي. ولم يسعَ إلى إجراء حديث من القلب للقلب مع لامبير. الوفاء للأصدقاء يرتّب عليه مسؤوليّات عظيمة يجب الاضطلاع بها... ولكي يفعل ما سيفعله، يجب أن يكون وحيدًا. الآن، وقد اتّخذ قراره، لم يعد يساوره أيّ شعور بالندم. ولم يكن خائفًا أيضًا. بالطبع، المجازفة كبيرة.

قد يحصل تدقيق في المعلومات، ويا للفضيحة المشينة إذا ثبتت عليه تهمة الشهادة زورًا! فهذه التّهمة، سيجعل منها الديغوليّون ومثلهم الشيوعيّون موضوعًا دسمًا للشتائم والنميمة. أمّا فيما يتعلق

بمستقبله الشخصيّ فهو لا يبالي. رتّب مع الأستاذ تروفو المهنة المزعومة. لم يكن مشمئزًّا كثيرًا عندما دخل إلى ديوان قاضي التحقيق. بدا له هذا المكتب الشبيه بآلاف المكاتب الأخرى مجرّدًا من حقيقته وكأنّه ديكور مسرحيّ. وكان القاضي وكاتب المحكمة مجرّد ممثّلين يؤدّيان دورهما في دراما مبهمة. وهنري أيضًا كان يؤدّي دوره مثلهما بمعزل عن الهدف الأساسي المتمثّل في كشف الحقيقة.

قال بصوت واثق:

ــ بالطبع، العميل المزدوج مرغم على إعطاء براهين للعدوّ. تعرف ذلك تمامًا كما أعرفه. لم يكن مرسييه يستطيع مساعدتنا دون أن يورّط نفسه. وقد تداولنا دومًا بالتعليمات التي كان يمدّ بها الألمان. ولم يحدث قطّ أيّ تسرّب للمعلومات الأساسيّة المتعلّقة بالنشاطات التي كانت تقوم بها شبكة المقاومة. وإذا كنت لا أزال أمامك حيًّا حتى اليوم، وإذا كان هناك الكثير من الأصدقاء الذين نجوا من الموت، وإذا استطاعت «*L'Espoir*» أن تواصل صدورها السرّي إبّان الاحتلال، فهذا بفضل مرسييه.

تكلّم بحماسة أحسّها مقنعة. كانت ابتسامة مرسييه تؤكّد كلام هنري. كان مرسييه فتى جميلاً في الثلاثين من عمره، سيماؤه وتقاسيم وجهه تعبّرعن تواضعه. «ومع ذلك، فكّر هنري، ربّما هو الذي وشى ببوريل أو فوشوا وبآخرين غيرهم، ليس كرهًا بهم وإنّما من أجل الحصول على المال. لقد قتل العديد ممّن وشى لهم. أمّا هو فلا يزال يعيش مكرّمًا وثريًّا وسعيدًا». لكن، بين هذه الجدران

الأربعة يشعر المرء أنّه بعيد، بعيد جدًّا عن العالم الذي يعيش فيه الناس ويموتون. ولم يكن لذلك أهمّيّة تذكر.

قال القاضي:

ـ من الصعب جدًّا البتّ في القضيّة ومعرفة بالضبط متى يصبح العميل المزدوج خائنًا. الأمر الذي تجهله هو أنّ مرسييه تجاوز هذا الخطّ.

أشار القاضي إلى المباشر القضائي فجمد هنري. كان يعرف أنّ إيفون وليزا أمضتا اثني عشر شهرًا في داشو، لكن لم يرهما قطّ. الآن، يراهما أمامه. كانت إيفون السمراء تبدو وكأنّها شفيت من عذابات المعتقل، لكنّ ليزا ذات الشعر الكستنائي لا تزال هزيلة وممتقعة كعائدٍ من الموت، وعلى الرغم من الانتقام لم تستردّ عافيتها. لكنّهما حيّتان ترزقان، وسيكون كذبه على مرأى منهما أمرًا فظيعًا. أدّت إيفون شهادتها ولم تفارق نظراتها وجه مرسييه:

ـ في ٢٣ شباط ١٩٤٤، في الساعة الثانية بعد الظهر، كان لديّ موعد على جسر آلما مع ليزا بيلو الموجودة ههنا. عندما اقتربت منها، تقدّم ثلاثة رجال منّا، اثنان منهم ألمانيّان وثالثهما الذي سلّمنا لهما هو هذا الموجود هنا. كان يرتدي معطفًا بنّي اللون، دون قبّعة وحليق الذقن، كما هو اليوم.

قال هنري بحزم:

ـ ثمّة خطأ بالنسبة للشخص الذي سلّمكما. في ٢٣ شباط في الساعة الثانية، كان مرسييه برفقتي في لاسوتيران، وصلنا معًا إليها

مساءً. حيث كان علينا أن نتسلّم من بعض الرفاق خريطة المستودعات التي قصفها الأميركيّون بعد ثلاثة أيّام. وأمضينا النهار برفقتهم.

قالت إيفون:

ـ لكنّه هو الذي وشى بنا. نظرت إلى ليزا فقالت بدورها:

ـ أجل إنّه هو!

قال القاضي:

ـ ألم تخطئ بالتاريخ؟

هزّ هنري رأسه نفيًا:

ـ جرى القصف في ٢٦ شباط. أبلغت المعلومات في ٢٤. وأمضيت يومي ٢٢ و٢٣ هناك. هذه التواريخ لا تُنسى.

ثم التفت القاضي إلى المرأتين الشابّتين:

ـ هل تمَّ توقيفكما فعلاً في ٢٣ شباط؟

ـ نعم، في٢٣ شباط.

بدتا مندهشتين.

قال هنري:

ـ رأيتما الواشي لبرهة خاطفة فقط وفي ظروف تتّسم بالاضطراب. أنا عملت بِسنتين مع مرسييه. لذا، لا يمكن أن أخلط بينه وبين شخص آخر. كلّ ما أعرفه عنه هو أن أقول إنّه لا يُعقل

أن يكون قد سلّم مقاومتين. إنّه مجرّد افتراض. لكنّي أقسم بيميني إنّه كان في ٢٣ شباط عام ١٩٤٤ برفقتي في لاسوتيران.

نظر هنري نظرة ثاقبة إلى إيفون وليزا اللتين تبادلتا نظرات تنمّ عن خيبة كبيرة. كانتا واثقتين، وبالمقدار نفسه، من هويّة مرسييه كما من صدق هنري. بدا الذعر في أعينهما. قالت إيفون:

ــ إذًا كان هذا أخاه التوأم.

قال القاضي:

ــ ليس لديه أخ.

ــ إذًا كان أحدًا يشبهه وكأنّه أخ له.

قال هنري:

ــ يُخلق من الشبه أربعون! لا سيّما أنّ سنتين قد مرّتا على الحادثة.

خيّمت فترة صمت. ثم قال القاضي:

ــ هل تصرّان على ما ورد في إفادتكما؟

ــ لا، قالت إيفون.

ــ لا، قالت ليزا.

لكي لا تكشفا عن ارتيابهما بإفادة هنري تراجعتا عن إفادتهما بشأن مرسييه. فضّلتا الارتياب بذكرياتهما الأكثر يقينًا. لم يكن الماضي فقط هو الذي يتداعى أمام أنظارهما بل الحاضر والواقع أيضًا. ارتعب هنري لرؤية هذه الحيرة التائهة في عمق أعينهما.

قال القاضي:

ـ من فضلكم، أعيدوا قراءة إفادتكم جيّدًا ووقعوا تحتها.

قرأ هنري من جديد الورقة المكتوبة على الدكتيلو. مكتوبة بخطّ لاإنسانيّ، كانت شهادته تفقد كلّ وزنها. ولم يزعجه أن يوقع. لكنّه شيّع خروج المرأتين الشابّتين بنظرات حائرة. شعر بالرغبة في الركض خلفهما لكن لا شيء لديه ليقوله.

كان يومًا شبيهًا بالأيّام الأخرى. ولا أحد كان يقرأ على وجهه أنّه حنث بيمينه للتوّ. التقى لامبير في الرواق دون أن يبتسم له. ربّما كان عاتبًا على هنري لأنّه يقترح عليه لقاء مصارحة ومكاشفة بينهما. «غدًا سأدعوه إلى العشاء». نعم، عادت الصداقة لتربط بينهما من جديد. ولّى عهد المحاذير والوساوس.

جرت الأمور كما ينبغي بحيث تبادر إلى الذهن الانطباع أنّ شيئًا لم يحدث. فكّر هنري وهو يجلس أمام مكتبه: «لنعد إلى سابق عهدنا وكأنّ شيئًا لم يكن». تصفّح بريد رسائله: رسالة من ماردروس يعلمه فيها أنّ بول شُفيت. لكن ليس من المستحسن أن يحاول هنري رؤيتها. خبر سارّ. بيار لوفيريه يقول إنّه مستعدّ لشراء حصص لامبير. نعم الأمر! كان رجلاً مستقيمًا وصارمًا. لن يعيد للجريدة شبابها المفقود، لكن بالإمكان التعاون معه. آه! أرسلت لنا معلومات إضافيّة عن قضيّة مدغشقر. قرأ هنري الصفحات المكتوبة على آلة الدكتيلو. مقتل ألف من أبناء مدغشقر مقابل مئة وخمسين أوروبيًّا. حالة الذعر تسود الجزيرة. وقد أوقف جميع النوّاب مع أنّهم أنكروا إعلانهم العصيان وأُخضعوا لتعذيب يذكّر

بالتعذيب الذي كان يمارسه الغستابو. اعتُدي على محاميهم بإلقاء قنبلة عليه. أبطلت المحاكمة مسبقًا ولم تورد أيّ صحيفة خبرًا عن الفضيحة ولم تندّد بها. أخرج هنري قلمه، يجب إرسال أحد إلى هناك. سيرحّب فنسان بالفكرة كثيرًا. وبانتظار ذلك عليه أن يباشر بكتابة افتتاحيّته. ولم يكد ينهي الأسطر الأولى حتى فتحت السكرتيرة الباب: «لديك زائر». ناولته بطاقة: الأستاذ تروفو. شعر بوخز في قلبه. لوسي بلوم، مرسييه، الأستاذ تروفو، مؤامرة ما حدثت ولديه شركاء.

ـ أدخليه.

كان المحامي يحمل في يده محفظة جلديّة كبيرة. قال: «لن أزعجك لوقت طويل. إفادتك قلبت الأمور رأسًا على عقب. صدر القرار بإسقاط الدعوى. أنا ممتنّ لك جزيل الامتنان. الأخطاء التي ارتكبها ذلك الفتى لن يعوّض عنها في السجن. وقد منحته الفرصة لاستعادة حياته الطبيعيّة ويصبح رجلاً جديدًا».

ـ ويقوم بدناءات جديدة! لكن ليست هذه المسألة. كلّ ما أتمنّاه هو ألاّ أسمع باسمه.

قال الأستاذ تروفو:

ـ نصحته بالرحيل إلى الهند الصينيّة.

ـ فكرة ممتازة، ليقتل من الهنود الصينيّن قدر ما قتل من الفرنسيّين وسيكون بطلاً شهيرًا. في انتظار ذلك، هل أعاد الملفّ؟

قال الأستاذ تروفو:

ـ بالضبط. انتزع من محفظته رزمة ضخمة مغلّفة بورق بنّي: «حرصت على تسليمك إيّاها يدًا بيد».

أخذ هنري الرزمة ثم قال بعد تردّد:

ـ لكن لماذا تسلّمها لي أنا؟ ألم يكن عليك تسليمها إلى السيّدة بلوم.

أجابه الأستاذ تروفو بلهجة محايدة:

ـ افعل بها ما تريد. التزم موكّلي بأن يسلّمك إيّاها.

رمى هنري الرزمة في الدرج. كان المحامي يدين للوسي بلوم بأشياء غامضة. لكن هذا لا يعني أنّه يكنّ لها أيّ مودّة، ولعلّه كان يعلّل نفسه بلذّة الانتقام منها بهذه الطريقة.

ـ هل أنت واثق من أنّ كل الوثائق والصور موجودة في الرزمة؟

ـ بالتأكيد، يعرف هذا الفتى تمامًا أنّ أيّ تغيّر في المزاج من قبله سيكلّفه غاليًا. لن نسمع باسمه بعد اليوم. أنا واثق.

قال هنري:

ـ شكرًا على حضورك وعذرًا على إزعاجك.

لم ينهض المحامي:

ـ ألا تعتقد أنّ علينا ما نخشاه بالنسبة للطعن في الشهادة؟

قال هنري:

ـ لا أعتقد. على أيّ حال، لم يتسرّب أيّ شيء عن هذه القصّة في الإعلام.

ـ لا، لحسن الحظّ فقد عولجت بسرعة كبيرة.

خيّمت على المكان فترة صمت. لم يحاول هنري قطعه، إلى أن بادر الأستاذ تروفو أخيرًا القول: «حسنًا، أتركك لعملك. آمل أن نلتقي في يوم قريب عند السيّدة بلوم». نهض: «إذا واجهتك أيّ مشكلة، أحطني علمًا».

قال هنري بلهجة جافّة:

ـ شكرًا.

ما إن خرج المحامي حتى فتح الدرج. تجمّدت يده على الورق البنّي. يجب عدم لمس أيّ شيء. حمل الرزمة إلى غرفته وهمّ بحرقها دون إلقاء أيّ نظرة عليها. لكنّه لم يكن قد أكمل فكرته حتى فكّ الخيوط ووزّع الوثائق على الطاولة: رسائل بالألمانيّة والفرنسيّة، تقارير، شهادات، صور، لوسي بلوم في ثوب مقوّر الصدر، مشنشلة بالجواهر وسط جنود ألمان في بزّاتهم العسكرية. جوزيت جالسة بين ضابطين أمام دنّ من الشمبانيا وهي تضحك ملء شدقيها. جوزيت واقفة في ثوب فاتح اللون وسط مرجة خضراء والضابط الجميل يعانقها وهي تبتسم له تلك الابتسامة الواثقة التي غالبًا ما أثارت الاضطراب في نفسه، كان شعرها منسدلاً بحرّيّة على كتفيها، وبدت أكثر شبابًا من اليوم وأكثر فرحًا بالتأكيد! كم كانت تضحك! عندما وضع هنري الصور على الطاولة

من جديد لاحظ أنَّ أصابعه تركت على صفحتها الملمّعة أثارًا رطبة. حدس دومًا أنّ جوزيت كانت تضحك فيما كانت آلاف النساء مثيلات ليزا وإيفون يحتضرن في المعتقلات. لكنّها قصّة قديمة، محتجبة خلف ستار يخلط الماضي بالغياب والعدم. الآن، اتّضح له كلّ شيء. كان الماضي حاضرًا شديد الحضور.

«يا حبّي العزيز». هكذا كتب الضابط بفرنسيّة دؤوبة تتخللها بعض الجمل القصيرة بالألمانيّة، جمل قصيرة تلتهب حبًّا. بدا في منتهى الغباء والوله والحزن. أحبّته. وحين توفّي، لا بدَّ أنّها بكته بمرارة. لكن قبل ذلك، ضحكت وضحكت كثيرًا.

أعاد هنري الرزمة كما كانت ورماها في أحد الأدراج وأقفل عليها بالمفتاح. «غدًا أحرقها». أمّا الآن فعليه أن ينهي مقاله. أمسك بقلمه من جديد. سيتكلّم عن العدالة والحقيقة، ويندّد بالجرائم وأعمال التعذيب. قال في نفسه بحزم: «يجب القيام بذلك». لو تخلّى عمّا يجب أن يفعله فسيصبح مذنبًا بشكل مضاعف. أيًّا تكن فكرته عن نفسه، كان هناك هؤلاء الناس ويجب السعي لإنقاذهم.

عمل حتى الساعة الحادية عشرة مساءً، دون أن يضيّع وقته في تناول العشاء. لم يكن جائعًا. وككلّ مساء، ذهب لاصطحاب جوزيت من أمام باب المسرح. انتظرها في سيّارته. كانت ترتدي معطفًا بخاريًّا بلون الضباب. في كامل تبرّجها وجمالها. جلست بقربه ورتّبت بعناية أطراف الغيمة التي غلّفتها.

سألته:

ـ أبلغتني أمّي بأنّ الأمور جرت على خير ما يرام. هل هذا صحيح؟

ـ نعم، كوني مطمئنّة. جميع الأوراق أُحرقت.

ـ هل هذا صحيح؟

ـ نعم.

ـ ألن نرتاب فيك لكونك كذبت؟

ـ لا أعتقد.

ـ طيلة النهار كنت مرتعبة. أنا منهكة القوى. خذني إلى البيت.

ـ حسنًا.

انطلقت السيّارة بصمت نحو شارع غابرييل. ألقت جوزيت يدها على ذراعه:

ـ هل أنت من أحرق الأوراق والصور؟

ـ نعم.

ـ هل نظرت إليها؟

ـ نعم.

ـ وماذا وجدت فيها؟ ثمَّ قالت بلهجة قلقة: «بالتأكيد، لا يوجد لي صور منافية للحشمة. لم تؤخذ لي مثل تلك الصور أبدًا».

قال مبتسمًا نصف ابتسامة:

ـ لا أعرف ماذا تقصدين بصورغير محتشمة، كنت برفقة الرائد الألماني وكنت جميلة جدًّا.

لم تجب. كانت أمامه جوزيت نفسها، لكن من خلالها، استعاد الفتاة الجميلة البهجة التي كانت تضحك في الصورة ولا تخطر فكرة الحزن على بالها لكنّها من الآن فصاعدًا ستعيش دومًا محاطة بالأحزان.

أوقف السيّارة وأوصل جوزيت حتى باب مدخل المبنى وقال: «لا أريد الصعود. أنا أيضًا منهك. ولديّ أعمال كثيرة عليَّ القيام بها».

حملقت بعينيها الكبيرتين:

ــ ألن تصعد؟

ــ لا.

ــ هل أنت غاضب؟ في ذلك اليوم قلت إنّك لست غاضبًا. لكن هل أنت كذلك الآن؟

ــ لا. هذا الرجل أحبّك وأحببته وكنت حرّة في أن تفعلي ما تشائين. هزّ كتفيه: «ربّما أشعر بالغيرة. لا أرغب في الصعود».

ــ كما تشاء.

ابتسمت له بحزن وضغطت على الزرّ. عندما توارت، بقي لبرهة طويلة يتأمّل جبهة الباب المضاءة. أجل، ربّما كان يشعر بالغيرة بكلّ بساطة. ربّما لم يكن يحتمل هذا المساء أن يأخذها بين ذراعيه: «أنا مجحف بحقها». لكن لا علاقة للعدالة بهذا الموضوع. لا يضاجع الرجل امرأة لأنّ عليه أن يكون عادلاً معها. ابتعد.

في صباح اليوم التالي عندما دعا لامبير إلى العشاء، احتفظ هذا بهيئته المتجهّمة قائلاً:

ــ آسف، لديّ موعد.

ــ وغدًا؟

ــ غدًا أيضًا، أنا مرتبط طيلة الأسبوع.

ــ إذًا نرجئ لقاءنا إلى الأسبوع المقبل.

من المستحيل أن يشرح للامبير لماذا لم يوجّه دعوة له قبل ذلك. لكنّ هنري قرّر بعد بضعة أيّام أن يعيد الكرّة. لا بدَّ أن لامبير سيتأثّر بهذا الإلحاح. صعد درج الجريدة. كان يعيد في ذهنه خطبة صغيرة يقنع بها لامبير بالموافقة على دعوته عندما التقى سيزيناك.

قال بمودّة:

ــ عجبًا! أنت هنا! ماذا صار بحالك؟

ــ لا شيء مهمّ.

ازداد وزنه وبات أقلّ جمالاً من ذي قبل.

قال هنري:

ــ ألن تصعد لدقيقة؟ منذ زمن بعيد لم نلتق معًا.

قال سيزيناك:

ــ ليس اليوم.

وفجأة، نزل الدرج. ارتقى هنري الدرجات الأخيرة. كان لامبير مستندًا إلى الحائط في الرواق. وبدا عليه وكأنّه في انتظاره.

قال هنري:

ـ التقيت لتوّي سيزيناك. هل رأيته؟

ـ نعم.

سأل هنري وهو يدفع باب مكتبه:

ـ هل تراه من وقت لآخر؟ ماذا صار بحاله؟

قال لامبير وفي صوته نبرة غريبة:

ـ أظنّ أنّه مخبر يعمل مع رجال الشرطة. نظر هنري إليه بدهشة: كان جبينه يندى عرقًا.

ـ ما الذي جعلك تفكّر بذلك؟

ـ الأشياء التي قالها لي.

ـ إنّه مدمن بحاجة للمال. بالطبع، إنّه أكثر الناس ملاءمة للعب دور المخبر. ثم أضاف هنري بفضول: «وماذا أخبرك؟».

ـ اقترح عليّ تسوية غريبة. وعدني أن يشي لي بالأنذال الذين قتلوا والدي إذا وضعت بين يديه بعض المعلومات.

ـ أيّ معلومات؟

حدّق لامبير مباشرة في عيني هنري: «معلومات عنك».

أحسّ هنري بانقباض في معدته.

قال بلهجة متفاجئة:

ـ وبماذا يمكنني أن أثير اهتمام الشرطة؟

ـ تثير اهتمام سيزيناك. لم يشح بنظره عن هنري: «يبدو أنّك أدليت بشهادتك في يوم ليس ببعيد لصالح شخص يدعى مرسييه. شخص كان يقوم بأعمال مشبوهة ويتردّد على لوسي بلوم وابنتها. ادّعيت أنّه كان يعمل في عامي ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤ في شبكتنا. وأنّه رافقك إلى لاسوتيران في ٢٣ شباط ١٩٤٤».

ـ هذا صحيح. ماذا بعد؟

قال لامبير بلهجة ظافرة:

ـ لكنّك لم تلتقِ قطّ بمرسييه قبل هذا الشهر الأخير. سيزيناك يعرف هذا جيّدًا. وأنا أيضًا. تبعتك كظلّك في تلك السنة. لم يكن هناك شخص يُدعى مرسييه. رحلتك إلى لاسوتيران جرت في ٢٩ شباط وكان من المتّفق عليه أن أرافقك، لذا ما زلت أذكر التاريخ جيّدًا. أمّا أنت فاصطحبت شانسيل.

ـ أنت مجنون تمامًا! استفزّه ما قاله لامبير في العمق كما لو أنّه كان يستهدفه شخصيًّا. ثم أضاف: «قمت برحلتي إلى لاسوتيران الأولى برفقة مرسييه ولا أحد يعرف بها إلاّ أنا». ثم أضاف بلهجة غاضبة: «لا تستحقّ أن أردّ عليك لأنّك في النهاية تتّهمني بالشهادة زورًا. ولا شيء إلاّ ذلك».

قال لامبير:

ـ في ٢٣ شباط، كنت في باريس. كلّ شيء مدوّن في مفكّرتي. سأتحقّق من ذلك. لكنّي أعرف أنّك لم تقم إلاّ برحلة واحدة

وقد تناقشنا فيها مطوّلاً! لا. أنا لا أختلق أكاذيب. الحقيقة هي أنّ مرسييه يقف على سرّ هاتين المرأتين بطريقة أم بأخرى. وأنت لكي تنقذ المرأتين اللتين جُزّت شعورهما، بيّضت صفحة مخبر غستابو!

ـ لو كان أحد ما غيرك قال لي ذلك لهشّمت وجهه. اخرج من هذا المكتب حالاً ولا تعد إلى هنا.

قال لامبير:

ـ انتظر! لديّ كلمة أقولها لك، لم أقل شيئًا لسيزيناك ومع ذلك كنت راغبًا بأن يطلعني على ما لديه من معلومات. ثم أردف: «لم أقل له شيئًا. والآن، أشعر أنّني بريء الذمّة وبإمكاني أن أستعيد حرّيَتي».

ـ منذ زمن طويل وأنت تنتظر ذريعة للتنصّل منّي! فوصل بك الأمر إلى حدّ اختلاق واحدة. أهنّئك.

ـ لم أختلق شيئًا. يا إلهي كم كنت أحمق! ظننتك مثالاً في النزاهة. هذا مرعب. أتصوّر أنّ عليّ أن أكون صادقًا معك لأنّك لا تتكلّم إلاّ صادقًا وتسدي النصائح إلى الجميع، وسرعان ما تبيّن لي أنّك مثل كل الناس، تعمد أحيانًا إلى إسكات صوت الضمير والخروج على القواعد الأخلاقيّة كأيّ إنسان آخر.

ثم توجّه نحو الباب شامخ الرأس، لدرجة أنّ هنري شعر برغبة في الابتسام فتلاشى غضبه. لم يشعر إلاّ بقلق غامض. هل كان يجدر به أن يشرح له الأمر بصراحة؟ لا، لأنّ لامبير متقلقل جدًّا

ويمكن التأثير عليه بسهولة. ربَّما اليوم يرفض أن يُدلي بمعلومات لسيزيناك، لكنّه قد يسرّ له باعترافه غدًا، أو لفولانج ويصبح هذا الاعتراف بين أيديهما سلاحًا مخيفًا. عليه مواصلة الإنكار: الأمر خطير بما فيه الكفاية ولا يجوز التهاون فيه. فكّر هنري: «سيزيناك يبحث عن دلائل ضدّي. يعرف أنّ بإمكانه أن ينشرها بثمن باهظ، لم يسمع دوبروي باسم مرسييه. ربّما سيتذكّر أن هنري كان في باريس في شباط ١٩٤٤.

إذا باغته سيزيناك على حين غرّة، فلن يكون لديه أيّ سبب لتزييف الوقائع. «يجب إخطاره». لكن كيف أوهم هنري بأن يتواطأ معه وهو لم يحاول بعد التصالح معه. ثم إنّه غير قادر على أن يتصوّر للحظة واحدة أنّه يدلي أمامه بالحقيقة. غريب أمره! كان يقول في نفسه «لو كان تعرّض لظرف مشابه لأقدم على ما فعله دون تردّد» ومع ذلك، لا يتحمّل أن يكون أحد غيره على بيّنة من الأمر، أي أنّه يشعر بالعار جرّاء ما فعله. ما دام أمره لم ينكشف فإنّه يجد مبرّرًا للعمل الذي أقدم عليه. لكن إلى متى سيدوم ذلك؟ ردّد في نفسه «أنا في خطر» وهناك أحد ما في خطر أيضًا: فنسان. حتى لو لم تكن عصاميّته هي التي اغتالت العجوز، فإنّ سيزيناك كان يملك معلومات مفصّلة عنه. يجب إخطاره هو أيضًا. ويجب الذهاب حالاً لرؤية لوك الذي كان يتعالج في بيته من نوبة نقرس، ويكتب معه رسالة الاستقالة من الجريدة. كان لوك يتوقّع منذ زمن طويل تفاعل الأزمة ولن يتأثّر بذلك كثيرًا. نهض هنري، فكّر: «لن أعود للجلوس على هذه الطاولة انتهى الأمر. لم تعد

«*L'Espoir*» لي!». تأسّف لتخلّيه عن الحملة التي بدأها في مواجهة الأحداث التي تدور في مدغشقر. لكن في ما عدا هذا، كان أقلّ انفعالاً بكثير ممّا تصوّر. حين نزل الأدراج، قال في نفسه على نحو غامض: «إنّها الضريبة» ضريبة ماذا؟ هل هي الضريبة التي يدفعها لأنّه ضاجع جوزيت؟ أم لأنّه أراد إنقاذها؟ هل لأنّه يريد التشبّث بأسلوب حياة خاصّة فيما يفرض عليه العمل السياسي أن يضحّي بالكثير في سبيله؟ هل لأنّه اقتحم ميدان العمل السياسي فيما ظلّ على مسافة منه ولم يكرّس كامل وقته له؟ لا يعرف. حتى لو عرف، ففي الليلة التي استلمت الآلات الكاتبة رسالة استقالته أبلغ هنري بوّاب الفندق قائلاً: «غدًا، لست مرتبطًا بأحد. لا أستقبل زائرين ولا مخابرات هاتفيّة». أغلق باب غرفته من غير رغبة. لم يضاجع جوزيت من جديد. لا يبدو أنّ ذلك أثّر فيها كثيرًا، وهذا أفضل. لكنّ هذا لم يمنع من أن يبدو السرير حيث ينام هنري وحده جافًّا كسرير مستشفى. ما أعذب أن ينام الإنسان ملتصقًا بجسد آخر دافئ، واثق: يستيقظ مرتويًا. الآن، حين يستيقظ، يشعر بفراغ موحش. صعب عليه أن ينام. كان مترعًا سلفًا بكلّ التعليقات التي ستثيرها استقالته.

نهض في ساعة متأخّرة. ما كاد يخرج من حمّامه الصباحي حتى وصلته رسالة مضغوطة. شعر بوخز في القلب عندما تعرّف إلى خطّ هنري: «قرأت لتوّي رسالتك الوادعة للجريدة. أمر عبثي أن نشدّد على خلافاتنا فيما أمور كثيرة تجمعنا. أمّا أنا فلا أزال صديقك دومًا». أرفقت الرسالة بحاشية: «أودّ أن أحدّثك قريبًا، في

أقرب وقت ممكن عن شخص يبدو أنّه يضمر لك شرًّا». لوقت طويل شخصت عينا هنري إلى الأسطر الزرقاء القاتمة. فكّر بأن يكتب إلى دوبروي فاستبقه دوبروي إلى ذلك. بالإمكان وصف سخائه بالكبرياء: فالكبرياء لديه كانت فضيلة سخيّة. فكّر هنري: «سأذهب إليه في الحال». شعر أنّ أحدًا ألقى على صدره خليّة من النمال الحمراء. ماذا قال سيزيناك؟ هل أثار في نفس دوبروي الشكوك؟ وهل بإمكان هنري أن يقدر على الكذب ليبدّد هذه الشكوك؟ لم يفت الأوان على الكذب بعد لأنّ دوبروي كان يمنحه صداقته. لكن، من المشين أن يردّ الإنسان على عرض بهذا السخاء بإساءة الأمانة. لكن، ما العمل؟ دوبروي نفسه سيرتاع لمثل هذا الاعتراف. عندئذٍ سيشعر هنري أنّه مذنب. استقلّ سيّارته. للمرّة الأولى يشعر أنّ سرًّا يثقل على صدره: إمّا أن يخدع الآخرين وإمّا أن يخون نفسه، وحينئذٍ تتقطع عرى الصداقة بينه وبين الآخرين. تردّد طويلاً أمام باب دوبروي قبل أن يدقّ على الجرس أخيرًا.

فتح له دوبروي الباب باسمًا:

قال بلهجة طبيعيّة ومتلهّفة، وكأنّ لديهما أشياء مهمّة يودّان التباحث فيها بعد غياب قصير.

ـ كم أنا سعيد برؤيتك!

قال هنري:

ـ لا، بل أنا السعيد. سُررت كثيرًا عندما تلقيت رسالتك.

دخلا إلى المكتب. أضاف هنري: «غالبًا ما فكّرت بالكتابة لك».

قاطعه دوبروي: «ما الأمر؟ هل تركك لامبير؟».

التمع في عينيه الفضول القديم، عينيه الثاقبتين كعيني صقر، الماكرتين اللتين لم تتغيّرا!

قال هنري:

ـ منذ أشهر وسامازيل وتراريو يستعدّان للانضمام إلى صفوف الديغوليّين ووصل الأمر بلامبير إلى السير في ركبهما.

قال دوبروي:

ـ النذل الصغير!

قال هنري بانزعاج:

ـ لديه أعذاره.

جلس في الكنبة المعهودة وأشعل سيجارة كالعادة. الأعذار الحقيقيّة التي يبرّر بها تصرّف لامبير يجب أن يبقيها سرّيّة. لم يتغيّر دوبروي ولا المكتب ولا الطقوس. لكنّه هو الذي تغيّر. فيما مضى، كان بإمكانهم سلخ جلده وتشريح جسده دون أن يفاجئه الأمر. أمّا اليوم فهو يخفي تحت جلده ورمًا مخجلاً.

قال بسرعة:

ـ تشاجرنا وجعلته يخرج عن أطواره.

قال دوبروي:

ـ كان الأمر سينتهي على هذا النحو عاجلاً أم آجلاً! ثم بدأ يضحك: «حسنًا، أحكمت الحلقة. الـ *S.R.L* ماتت. سُرقت منك جريدتك. وها قد عدنا إلى نقطة الصفر».

ـ إنّها غلطتي.

ـ ليست غلطة أحد.

فتح الخزانة: لديّ «أرمانياك» لذيذ جدًّا، هل تريد؟

ـ بسرور.

ملأ دوبروي قدحين صغيرين وقدّم أحدهما لهنري ثم تبادلا الابتسامة.

سأل هنري:

ـ ألا تزال آن في أميركا؟

ـ ستعود بعد خمسة عشر يومًا. ثمَّ أضاف دوبروي بفرح: «كم ستسرّ حين تعرف. فهي تجد أنّ فراقنا كان بمثابة حماقة ارتكبناها معًا».

قال هنري:

ـ نعم منتهى الحماقة.

كان راغبًا في أن يفصح عمّا يعتمل في صدره. بدا له أنَّ هذا الخصام لن ينتهي تمامًا ما لم يتصارحا بقلب مفتوح. كان مستعدًّا للاعتراف بأخطائه. لكنّ دوبروي هو الذي قطع هذا الصمت المزعج فسأل:

ــ قيل لي إنّ بول شُفيت، فهل هذا صحيح؟

ــ على ما يبدو. لم تعد تريد رؤيتي. وأنا مسرور بذلك. ستقيم عند كلودي دوبلزنس.

قال دوبروي:

ــ ها أنت حرّ طليق كالهواء. ماذ تنوي أن تفعل؟

ــ سأنهي روايتي. وفيما يتعلّق بالباقي. لا أعرف. كلّ هذا حصل بسرعة ولا أزال تحت تأثير الصدمة.

ــ ألا يسرّك أنّك ستتمتّع أخيرًا بكامل وقتك، تتصرّف به كما تشاء؟

هزّ هنري كتفيه:

ــ ليس بشكل تامّ. ربّما يصحّ كلامك لاحقًا. أمّا الآن فلديَّ بعض الهموم.

قال دوبروي:

ــ أتساءل عن سببها.

ــ عبثًا تقول إنّها ليست غلطتي. إنّي أتحمّل المسؤوليّة عن كلّ ما حدث. لو لم أعاند لكنت اشتريت حصص لامبير من جديد، ولكانت *«L'Espoir»* لنا، ولاستطاعت الـ *S.R.L* الصمود.

قال دوبروي:

ــ الـ *S.R.L* قضيّة خاسرة في جميع الأحوال. أمّا الجريدة فكان بالإمكان إنقاذها. لكن ماذا بعد؟ هل بإمكاننا التصدّي للكتلتين،

والإبقاء على خطّنا المستقلّ؟ هذا ما أحاول مواصلته في *Vigilance*، لكن لا أعرف فعلاً ما جدوى ذلك!

تفرّس هنري في دوبروي حائرًا. هل يسارع إلى تبرئة هنري على سبيل رهافة الإحساس؟ أم أنّه يريد أن يتفادى وضع سلوكيّاته بالذات موضع تساؤل؟

قال هنري:

ــ هل تظنّ أنّ لــ *S.R.L* لم تكن لديها فرصتها المؤاتية في تشرين الأوّل؟

قال دوبروي بلهجة فظّة:

ــ لا أظنّ أنّه كانت لديها تلك الفرصة.

لا، لم يطلق كلامه على سبيل الأدب واللياقة بل لأنّه كان مقتنعًا بما يقول.

أحسّ هنري أنّه مشوّش الذهن. كان بوّده أن يفكّر أن لا دخل له في فشل الــ *S.R.L*. ومع ذلك فإنّ هذا الإعلان الذي قام به دوبروي أثار فيه الاستياء. في كتابه، استنتج دوبروي عجز المثقّفين الفرنسيّين، لكن، لم يفترض هنري أنّ دوبروي أضفى على استنتاجاته طابعًا استرجاعيًّا وحمّل الماضي فشله أيضًا.

سأل:

ــ منذ متى تفكّر على هذا النحو؟

ــ منذ زمن طويل. هزّ كتفيه: «منذ البداية والصراع الدائر هو بين الاتّحاد السوفييتي والولايات المتّحدة. نحن خارج الصراع».

قال هنري:

ــ لكن، ما كنت تقوله لا يبدو لي مع ذلك مغلوطًا إلى هذا الحدّ. كأنّ لأوروبّا دورًا يجب أن تضطلع به وفرنسا من ضمن أوروبّا.

ــ كان هذا خطأ. حشرونا في الزاوية. ثم أضاف دوبروي بلهجة نافدة الصبر: «وأخيرًا، هل كان دورنا حاسمًا؟ لا شيء إطلاقا».

لكنّ، الحقيقة أنّ دوبروي لا يزال كما هو. يلحّ عليك في مواكبته ثم يتركك في مكانك ليعود بك من جديد إلى اتّجاه آخر. غالبًا ما قال هنري: «لا نستطيع فعل شيء»، ولكن أن يؤكّد دوبروي ذلك بهذا الحزم فهذا يزعجه.

قال:

ــ عرفنا دومًا أنّنا لسنا إلاّ أقلّيّة. لكنّك كنت تسلّم بأنّ الأقلّيّة يمكنها أن تكون فعّالة.

قال دوبروي:

ــ في بعض الحالات نعم، لكن ليس في هذه الحالة.

وراح يتكلّم بسرعة. كان جليًّا أنّ أمورًا كثيرة تثقل على صدره منذ وقت طويل: «أمّا المقاومة فأمر مختلف: حفنة من الناس تكفي لاستمرار وجودها. كلّ ما سعينا إليه من خلالها هو تحريك الرأي العامّ والتحريض والأعمال التخريبيّة. هذا عمل تستطيع أقلّيّة القيام به. لكنّ البناء أمر مختلف. ظننّا أنّ علينا فقط مواصلة انطلاقتنا،

فيما كانت هناك قطيعة جذريّة بين فترة الاحتلال والفترة التي أعقبت التحرير. إنّ رفض التعامل مع العدوّ كان من شأننا. أمّا التتمّة فلم تعد تعنينا».

قال هنري:

ــ إلاّ أنّ ذلك يعنينا مهما يكن، ولو قليلاً.

كان يدرك جيّدًا لماذا يزعم دوبروي العكس. لم يكن العجوز يريد التفكير أنّه كانت هناك إمكانيّات للتحرّك وأنّه استغلّها بشكل سيّئ. فضّل أن ينسب لنفسه خطأ في الحكم على الاعتراف بفشله. لكنّ هنري بقي مقتنعًا أنّه في عام ١٩٤٥، كان المستقبل لا يزال مشرّعًا آفاقه. لم ينخرط في العمل السياسي تلبية لرغبة ذاتيّة. بل لأنّه أحسّ بشكل بديهي أنّ ما يجري من حوله يعنيه مباشرة.

قال: «لقد أخطأنا هدفنا، لكن هذا لا يعني أنّنا أخطأنا في السعي إليه».

قال دوبروي:

ــ أوه، لم نسئ إلى أحد، فالاهتمام بالسياسة أفضل من الانصراف إلى تناول الخمرة. فهذا أقلّ ضررًا بالصحّة. لكن لا يمنع أنّنا ضللنا الطريق، وأيّ ضلال! عندما نعود إلى قراءة ما كتبناه بين ١٩٤٤ و١٩٤٥، نشعر بالرغبة في الضحك على نفوسنا. أعد قراءة ذلك وسترى.

قال هنري:

ــ لنقل بالأحرى إنّنا كنّا متفائلين جدًّا. واضح...

ـ لنفرض أنّنا حصلنا على كل الأسباب التخفيفيّة التي تريد! من نجاح المقاومة، حتّى البهجة التي تلت التحرير. كلّ ذلك يبرّر ما قمنا به على نحو واسع. آمنّا أنّ الحقّ سينتصر، وأنّ المستقبل بين أيدي الناس ذوي الإرادة الطيّبة... كلّ ذلك آمنّا به، والسبب مثاليّتنا القديمة. هزَّ كتفيه: «كنّا أطفالاً».

صمت هنري. كان متعلّقًا بهذا الماضي كما يتعلّق المرء بذكريات الطفولة. نعم. ذلك الزمن حيث كنّا نميّز دون تردّد بين أصدقائنا وأعدائنا، وبين الخير والشرّ. ذلك الزمن حيث كانت الحياة شفافة كصورة مشرقة زاهية الألوان.

نعم، كان ذلك الزمن أشبه بعهد الطفولة. لا بل إنّ نفوره من نكران هذه الحقيقة يؤكّد على أقوال روبير.

سأل:

ـ برأيك ماذا كان يجدر بنا أن نفعل؟ ثمَّ ابتسم: «هل كان يفترض بنا الانتساب إلى الحزب الشيوعي؟».

قال دوبروي:

ـ لا، كما قلت لي يومًا. لا يمكننا إلاّ التأكيد على ما نحن مقتنعون به. مستحيل أن يخرج الإنسان من جلده. وإلاّ لكنّا شيوعيّين سيّئين جدًّا. وأضاف فجأة: «على أيّ حال ماذا فعل الآخرون؟ هم أيضًا مُحرجون».

ـ والحلّ؟

ـ لا شيء. ليس هناك ما ينبغي القيام به.

ملأ هنري قدحه من جديد. ربّما كان دوبروي على صواب. لكن، والحالة هذه، الوضع أشبه بمهزلة. استعاد هنري تلك الصبيحة الربيعيّة عندما تأمّل بحنين صيّادي السمك. قال لنادين: «ليس لديَّ الوقت». كان عليه مسؤوليّات كثيرة يقوم بها ويشعر أنّ الوقت يضيق به. أمّا في الحقيقة فليس هناك ما ينبغي القيام به!

قال دوبروي.

ـ للأسف. لم ننتبه للأمر في وقت أبكر! التسليم بأنّنا ننتمي إلى أمّة من الدرجة الخامسة وإلى حقبة تمّ تجاوزها، لا يحدث هذا في يوم واحد. هزّ رأسه: «يجدر بك القيام بعمل طويل مضنٍ قبل أن تقتنع بأنّك عاجز».

ـ نظر هنري إلى دوبروي بإعجاب: شعوذة جميلة حقًّا! لم يكن هناك إخفاق، بل خطأ في التقدير. والخطأ نفسه مبرّر، فهو إذًا مغتفر. جُرّد الماضي كما تُجرّد عظام الحبّار، ودوبروي ضحيّة مثلى من ضحايا الحتميّة التاريخيّة. أجل، لكنّ هنري لا يجد ذلك مرضيًا البتّة. لا يميل إلى الاعتقاد بأنّه كان مسيّرًا طيلة الوقت. لقد مرَّ بأزمات ضمير كثيرة وشكوك وانفعالات هزَّت كيانه. أمّا دوبروي فلا يرى في الملامة أيّ جدوى بعد أن فات الأوان. تساءل هنري دومًا عن هويّته وها قد أتاه الجواب: مثقّف فرنسي أسكرته نشوة الانتصار لعام ١٩٤٤ وسرعان ما استعاد رشده نتيجة الأحداث التي أعقبت هذا النصر.

قال هنري:

ـ منذ متى وأنت حتميّ الهوى!

ـ لا، لا أقصد أنّ العمل السياسيّ مستحيل بشكل عام، لكنّه بات مستحيلاً بالنسبة لنا في هذا الظرف بالذات.

قال هنري:

ـ قرأت كتابك. تقول باختصار إنّه لا يمكن فعل شيء إلاّ الانضمام كليًّا إلى صفوف الشيوعيّين.

ـ نعم، ليس بسبب مبادئهم الصائبة بل لأنّهم الوحيدون على الساحة السياسيّة.

ـ ومع ذلك فأنت لا تنضمّ إليهم.

ـ أستطيع أن أصنع حياتي من جديد... شتّان بين ثورتهم والثورة التي كنت أتوق إلى تحقيقها فيما مضى. كنت مخطئًا. لسوء الحظّ، لا يكفي أن يكشف المرء أخطاءه لكي يصبح إنسانًا آخر! أنت لا تزال في ريعان الشباب وقادرًا ربّما على القيام بهذه الخطوة. أمّا أنا فلا.

ـ أوه! أنا منذ وقت طويل لم تعد لديَّ رغبة بالانخراط في العمل السياسي. أردت الانعزال في الريف، أو الهرب إلى الخارج والكتابة. ابتسم: «برأيك هل من جدوى في مواصلة الكتابة؟».

ابتسم دوبروي أيضًا:

ـ ربّما بالغت. فبعد كل حساب، ليس الأدب بهذه الخطورة.

ـ لكنّك تظنّ أنّه لم يعد له معنى، أليس كذلك؟

ـ وأنت هل تظنّ أنّ له معنى؟

ـ نعم، لأنّي أواصل الكتابة.

ـ ليس هذا سببًا مقنعًا.

نظر هنري إلى دوبروي مرتابًا:

ـ أما تزال تكتب أم انقطعت عن الكتابة؟

ـ لا نستطيع التخلّي عن عاداتنا السيّئة إذا تبيّن لنا أنّها عديمة الفائدة، وإلاّ لكانت مصحّات المجانين خالية.

قال هنري:

ـ آه! حسنًا. لم تتوصّل إذًا إلى هذه القناعة بعد. هذا أفضل.

أجابه دوبروي بهيئة ماكرة:

ـ ربّما سأتوصّل لذلك يومًا.

خيّم صمت ثقيل فقطعه دوبروي:

ـ وردت على رأسي فكرة كنت أريد إبلاغك بها؛ بالأمس، تلقّيت زيارة غريبة: صديقك سيزيناك، لا أعرف ماذا بينكما. لكنّه يبيّت لك شرًّا.

قال هنري:

ـ طردته من «*L'Espoir*». مضى زمن طويل على ذلك.

قال دوبروي:

ـ بدأ يطرح عليَّ جملة أسئلة لا رابط بينها: عمّا إذا كنت أعرف شخصًا يُدعى مرسييه، عمّا إذا كنت متواجدًا في باريس، لم

أعد أذكر في أيّ يوم تحديدًا من عام ١٩٤٤. بداية لا أذكر شيئًا. ثمَّ ما شأنه في ذلك كلّه؟ طردته بلهجة جافّة. وعندئذٍ راح يروي تفاصيل قصّة خرافيّة.

ــ عنّي؟

ــ نعم، إنّه مريض الكذب، هذا الفتى الشابّ، وبإمكانه أن يكون خطيرًا. أخبرني أنّك أدليت بشهادة زور لكي تبرّئ جريمة أحد المخبرين الذين كانوا يعملون مع الغستابو، وأنّهم ابتزّوك عبر الصغيرة بلوم. يجب وضع حدّ لأقواله ومنعه من ترويج قصص مماثلة.

شعر هنري بالعزاء عندما أدرك، من خلال نبرة دوبروي، أنّ دوبروي لم يشكّ لحظة واحدة بأنّ سيزيناك يقول الحقيقة. يكفي أن يتلفّظ هنري بجملة مستخفّة بما يشاع عنه وهو يبتسم لكي تسوّى المسألة. لكنّه لم يستطع الاهتداء إلى هذه الجملة. نظر إليه دوبروي بشيء من الفضول:

ــ أكنت تعرف أنّه يكرهك إلى هذا الحدّ؟

قال هنري:

ــ لا يكرهني تحديدًا. ثمَّ أضاف فجأة: «الواقع أنّ القصّة التي رواها صحيحة».

ــ آه! غير معقول! صحيحة؟

ــ نعم.

شعر بالمهانة فجأة لدى تصوّره أنّه قادر على الكذب. وبما أنّه لا يخشى من الاعتراف بالحقيقة، فلا يجدر بالآخرين ان يتشدّدوا بلا سبب. ما هو جيّد بالنسبة له جيّد بالنسبة لهم أيضًا. وأردف في شيء من التحدّي: «قمت بشهادة زور لكي أنقذ جوزيت التي ضاجعت ألمانيًّا. أنت الذي كنت تعيب عليَّ دومًا أخلاقي المثاليّة، ها إنّك ترى بأنّي أحرز تقدّمًا».

سأل دوبروي:

ــ إذًا مرسييه كان مخبرًا، هذا صحيح؟

ــ صحيح، ويستحقّ أن يُعدم رميًا بالرصاص. ثم نظر إلى دوبروي: «تظنّ أنّي قمت بعمل حقير؟ أنت على صواب، لكنّي، لم أشأ أن أدمّر حياة جوزيت. لو أنّها فتحت قارورة الغاز وانتحرت لكنت ندمت ندمًا شديدًا. أمّا إذا كان هناك مرسييه بالناقص أم بالزائد على وجه الأرض، فيجدر بي الاعتراف بأنّ هذا لا يقضّ مضجعي!».

تردّد دوبروي ثم قال:

ــ لكن من الأفضل أن يكون هناك نذل بالناقص!

قال هنري:

ــ بالتأكيد. لكنّي واثق من أنّ جوزيت ستنتحر. ثم سأل باحتداد: «هل يمكنني أن أتسبّب بموتها»؟

ـ لا. بدا حائرًا: «لا بدَّ أنّك مررت بظرف عصيب!».

ـ اتّخذت قراري في الحال. هزّ كتفيه: «لا أدّعي بأنّني فخور بما فعلته».

قال دوبروي بحيويّة مفاجئة:

ـ هل تعرف ماذا تثبت هذه القصّة؟ بأنّ الأخلاقيّة الشخصيّة الخاصّة لا وجود لها. إنّها أيضًا واحد من تلك الأوهام التي آمنّا بها ولم يعد لها أيّ معنى!

قال هنري:

ـ أوَتظنّ ذلك؟ بالطبع، لا يعجبه هذا النوع من العزاء الذي كان دوبروي يمنحه إيّاه اليوم. ثم أردف: «وجدتني في غاية الإحراج وهذا الأمر صحيح؛ وفي تلك اللحظة لم يكن لديَّ الخيار. لكنَّ شيئًا لم يكن ليحدث لو لم أكن على علاقة بجوزيت. هنا بالذات تكمن غلطتي».

قال دوبروي بنفاد صبر:

ـ آه، لا يمكننا الامتناع عن كلّ شيء. الزهد جيّد إذا كان عفويًا. وفي ما عدا ذلك، يجب السعي إلى الحصول على ملذّات إيجابيّة. سأقول لك شيئًا: لو لم تضاجع جوزيت لكنت واجهت ندامات جعلتك ترتكب حماقات أخرى.

قال هنري:

ـ ممكن جدًّا.

ـ لا يمكن رسم خطّ مستقيم على محيط دائري ولا مكان للاستقامة في مجتمع أعوج. سيتلقّفنا دومًا أمر من هذه الجهة أو من تلك. واختتم بقوله: «هذا وفي جميع الأحوال وهم إضافيّ يجب التخلّص منه. ليس هناك خلاص شخصيّ ممكن».

نظر هنري إلى دوبروي بحيرة:

ـ إذًا ماذا يتبقّى لنا؟

قال دوبروي:

ـ لا يتبقّى لنا الكثير على ما أظنّ.

خيّم صمت طويل. لم يشعر هنري أنّه راض بهذا التساهل المعمّم. قال:

ـ أريد أن أعرف ماذا كنت ستفعل لو كنت مكاني؟

قال دوبروي:

ـ لا أستطيع أن أقول لك، لأنّي لست مكانك. عليك أن تخبرني كل شيء بالتفصيل.

ـ سأفعل.

الفصل العاشر

قطعت الطائرة المسافة من غاندر إلى باريس دون توقّف. ووصلت أبكر بساعتين. تركت حقائبي في محطة ليزانفاليد واستقللت الباص. كان صباحًا رماديًّا مقفرًا، وكان وصولي السرّي فيما كان يُظنّ أنني ما زلت أسبح بين الغيوم، أقرب إلى التطفّل. كان رجل يكنّس الرصيف أمام باب العربات الذي لا زال مقفلاً، وسلاّت النفايات لم تُفرغ بعد. وصلت قبل أن تكتمل أعمال الديكور ويتبرّج الممثّلون. بالطبع لا يعتبر المرء دخيلاً حين يعود إلى حياته بالذات. ومع ذلك فتحت باب الشقة وأغلقتها على مهل لئلا أوقظ نادين. كانت حركاتي المختلسة تجعلني أشعر على نحو غامض بالذنب والخطر. لا ضجّة في مكتب روبير. أدرت مقبض الباب الخزفي، وفي الحال رفع رأسه ثم نهض عن الكنبة وأحاطني بذارعيه وهو يبتسم لي:

– يا حيوانتي الصغيرة! هكذا أتيت وحدك! كنت ذاهبًا لإحضارك.

– وصلت الطائرة قبل موعدها بساعتين.

قبّلت خدّيه الحليقتين بشكل سيّئ. كان مرتديًا المبذل وشعره مشعّث وعيناه منفتختان بسبب الأرق.

– عملت طيلة الليل؟ هذا سيّئ جدًّا.

ـ أردت إنهاء عمل بدأته، قبل أن تعودي. هل كانت رحلتك جيّدة؟ ألست تعبة؟

ـ نمت طيلة الوقت. وأنت؟ عندما لا تكون مراقبًا فإنّك تتحوّل إلى صبيّ طائش.

تحدّثنا ببشاشة. لكن عندما ذهب روبير إلى الحمّام، استعدت هذا الصمت الذي كاد يخنقني عندما فتحت الباب ورأيته مخفضًا رأسه منصرفًا إلى الكتابة، بعيدًا، بعيدًا جدًّا عنّي. كنت غائبة، لكنّ المكتب في غيابي كان ممتلئًا! هواؤه مشبع بالدخان والعمل. كانت هناك فكرة كلّيّة القدرة وتستدعي على هواها إلى هنا الماضي والمستقبل والعالم بأكمله. كلّ شيء حاضر: لا غياب، فوق أحد الرفوف صورتي وأنا أبتسم، صورة قديمة لن تشيخ أبدًا. لا تزال في مكانها. وأنا لا. لا بدَّ أنّ روبير سهر الليل بطوله لكي يفرد لي مكانًا في يوميّاته المترعة حتى الجمام. وثمّة عمل لم ينجزه لأنّني عدت باكرًا جدًّا. في يومي الرحيل والعودة، نحرز اكتشافات ليست حقيقيّة، ليس بأكثر من الحقيقة اليوميّة، أعرف. وعبثًا نعرف، عبثًا نحاذر أن نقع في الأفخاخ لكنّنا نعود فنسقط فيها ببلاهة. لكن لا يكفي أن أعترف لنفسي بذلك حتى أنجو من الأفخاخ: لن أتفاداها. كم كانت غرفتي فارغة! وبقيت فارغة عندما أخذت أهيم بحيرة بين النافذة والديوان. كانت هناك رسائل على الطاولة. أناس يسألونني متى سأفتح عيادتي من جديد. بول خرجت من المصحّ وتدعوني لرؤيتها. لاحظت أنّ خطّها كان أقلّ طفوليّة من السابق. وأنّها لم تعد ترتكب أخطاء إملائيّة. رسالة صغيرة من ماردروس يقول لي

فيها إنّها شُفيت. ذهبت لأقبّل نادين التي استقبلتني ببشاشة. لديها ألف قصّة تريد أن ترويها لي ووعدتها بمنحها أمسية كاملة لسماعها. هناك روبير ونادين والأصدقاء والعمل. ومع ذلك بقيت جامدة عند المدخل وأنا أتساءل بذهول: «ماذا أفعل هنا؟».

قال روبير:

ـ هل كنت في انتظاري؟ ها قد جهزت. كنت مسرورة لمغادرتي هذه الشقة والتجوّل في شوارع غير مزدحمة بالسير والعابرين وغير فارغة أيضًا. مشينا طويلاً على الأرصفة وفي غوبلين وساحة إيطاليا، متوقفين هنا وهناك عند أرصفة المقاهي، ثم تناولنا الغداء في حديقة مونسوري.

كان روبير يشعر أن لا رغبة لي في الكلام. أمّا هو فلديه أشياء كثيرة أراد أن يحدّثني عنها. وراح يقصّها لي. بدا بهجًا أكثر ممّا كان قبل رحيلي، ليس لأنّ الوضع العالمي ممتاز بل لأنّه استعاد حبّه للحياة. لقد تصالح مع هنري، وكانت هذه المصالحة تعني له الكثير. كما أنّ كتابه أثار أصداء إيجابيّة، حتى إنّه، خلافًا لكلّ منطق، تشجّع وشرع في إعداد كتاب جديد. لا يزال العمل السياسي مستعصيًا، لكنّه لم يتخلّ عن التفكير بالسياسة. لا بل كان لديه الانطباع بأنّه قد بدأ يرى بوضوح ما يحدث حوله من أمور. استمعت إليه. وكان حيًّا مفعمًا بالحياة بحيث إنّه فرض عليَّ هذا الماضي الذي يحدّثني عنه: إنّه ماضيَّ أنا أيضًا ولا ماضي لي سواه. ولا مستقبل لي إلاّ ذلك الذي يبشّرني به. عمّا قريب سأرى هنري وسأكون سعيدة أنا أيضًا. وعمّا قريب سأقرأ معه الرسائل

التي تلقاها روبير بشأن كتابه، وسأكون مستمتعة أو متأثرة بها مثله. وعمّا قريب سأبتهج أيضًا مثله بالرحيل إلى إيطاليا.

سألني:

ـ ألا يزعجك أن تسافري أيضًا بعد كلّ هذه الأسفار؟

ـ لا إطلاقًا. لا رغبة لي في البقاء في باريس.

كنت أنظر إلى المرجات والبحيرة والبجع. ذات يوم سأحبّ باريس مجدّدًا. ستكون لديَّ هموم وملذّات وأفضليّات. ستنبثق حياتي من الضباب، حياتي التي هنا، حياتي الحقيقيّة وستشغلني بكلّيّتي. بادرت فجأة إلى الكلام. كان عليَّ أن أؤكّد أنّ هذا العالم الذي يفصلني عنه محيط وليل هو أيضًا حقيقي. أخبرته عن أسبوعي الأخير. لكنّ الأمر كان أسوأ من التزامي الصمت. وكما في السنة السابقة، شعرت أنّني مذنبة، وبشكل مشين. كان روبير يفهم كل شيء وعلى أتمّ وجه. هناك يستيقظ لويس في غرفة منكوبة جرّاء غيابي. صامتًا. وحيدًا في سريره وبين ذراعيه جسدي الغائب. لا شيء يعوّض عن أسى هذا الصباح. والألم الذي أتسبّب له به لا يُغتفر.

عندما عدت في المساء، قالت لي نادين:

ـ اتّصلت بول لكي تعرف إن كنت هنا.

ـ إنّها المرّة الثالثة التي تتّصل، قال روبير. يجب أن تذهبي لرؤيتها.

قلت:

ـ سأذهب غدًا. ماردروس يؤكّد أنّها شُفيت. لكن، ألم تعرفا شيئًا عن أحوالها جدّيًّا؟ ألم يرها هنري من جديد؟

ـ لا، قالت نادين.

قال روبير:

ـ لن يدعها ماردروس تخرج لو لم تُشفَ نهائيًّا.

قلت:

ـ هناك درجات مختلفة من الشفاء.

قبل أن أخلد للنوم، تحدّثت طويلاً إلى نادين. عادت تخرج من جديد برفقة هنري وكانت راضية تمامًا عن علاقتها. أمطرتني بالأسئلة. في صباح اليوم التالي اتّصلت ببول لكي أعلمها بمجيئي. كان كلامها مقتضبًا وصوتها هادئًا. ذهبت في الساعة العاشرة مساءً إلى هذا الشارع الذي كان يبدو لي مأسويًّا الشتاء الماضي، وفوجئت بمظهره المطمئنّ. كانت النوافذ مشرّعة على عذوبة المساء، وكان الناس يتنادون من منزل إلى آخر. فتاة صغيرة تقفز على الحبل. تحت لافتة «شقق مفروشة» ضغطت على الجرس ففتح الباب، كالعادة. بطريقة طبيعيّة جدًّا. ما جدوى هذه الهذيانات إذًا وهذه الاستقبالات العدائيّة ما دام كلّ شيء عاد إلى سابق عهده، وما دام العقل والرتابة قد انتصرا؟ ما جدوى هذه الندامات الحارقة التي تقضّ مضجعي ما دمت سأستيقظ ذات يوم في اللامبالاة؟ رغبت في رؤية بول عند عتبة الاستوديو في مظهرها السابق، عدائيّة وتائهة.

لكن امرأة باسمة وسمينة استقبلتني. كانت ترتدي ثوبًا أسود أنيقًا. بادرتني بقبلة لا حماسة فيها ولا تحفّظ أيضًا. الغرفة مرتّبة بشكل كامل. والمرايا استُبدلت. ولأوّل مرّة، ومنذ سنوات، كانت النوافذ مشرّعة على مصاريعها.

ــ كيف حالك؟ قمت بسفرة طويلة. جميلة بلوزتك: هل اشتريتها هناك؟

ــ نعم. في مكسيكو. ستعجبك هذه البلدان. وضعت رزمة بين ذراعيها: «خذي! جلبت لك أقمشة».

ــ كم أنت لطيفة! نزعت رباط الرزمة، وفتحت الكرتونة: «ما أروع هذه الألوان!».

وفيما كانت تخرج الأقمشة المطرّزة، اقتربت من النافذة. تُلمح كالعادة، كنيسة نوتردام وحدائقها. تصاعدت موسيقى عربيّة من المقهى المقابل. كلب ينبح، وبول شُفيت. كان مساء قديمًا جدًّا. حيث لا مجال للقاء لويس أو الاشتياق إليه.

قالت بول:

ــ يجب أن تحدّثيني عن هذه البلدان. ستخبرينني كلّ شيء. لكن، لنرحل من هنا: سأصطحبك إلى حانة توفّر لنا كلّ أسباب التسلية: L’Ange Noir، افتُتحت منذ فترة قصيرة ونلتقي فيها بالجميع.

ــ من تقصدين بالجميع؟ سألت بشيء من الخشية.

كرّرت بول:

ـ الجميع. ليست بعيدة. سنذهب إليها مشيًا على الأقدام.

ـ حسنًا.

قالت بول ونحن ننزل الدرج.

ـ أرأيت لو سألتني هذا السؤال منذ ستّة أشهر، لكنت تساءلت في الحال: لماذا قالت لي «من تقصدين»؟ ولوجدت أجوبة كثيرة.

ابتسمت بقليل من الجهد: «هل أنت نادمة؟».

ـ لو قلت نادمة لبالغت. لكن لا تستطيعين أن تتخيّلي كم كان العالم غنيًّا في ذلك الوقت. كان الجميع يحتجبون وراء أقنعتهم ويتلوّنون بألف لون. ولكنت تساءلت عن أحمر تنّورتك. أو، انظري، هذا المتشرّد، كنت خلته عشرين شخصًا في آن معًا.

لمست شيئًا من الحنين في صوتها.

ـ إذًا، هل يبدو لك العالم الآن مسطّحًا؟

قالت بنبرة قاطعة:

ـ أوه، لا إطلاقًا! أنا راضية لأنني طرحت هذه التجربة ورائي. هذا كلّ شيء. لكنّي أعدك أنّ وجودي لن يكون مسطّحًا. لا بل إنّ حياتي حافلة بالمشاريع.

ـ أخبريني، أيّ مشاريع؟

ـ أوّلًا أريد أن أغادر هذا الاستوديو فهو يضجرني. اقترحت عليَّ كلودي أن أقيم عندها ووافقت، وقرّرت أن أسعى وراء الشهرة. أريد أن أخرج وأسافر وأتعرّف إلى الناس. أريد أن أبلغ

المجد وأسعى وراء الحبّ. أريد أن أعيش. تفوّهت بالكلمات الأخيرة بنبرة احتفاليّة وكأنّها تعبّر عن كلّ أمانيها.

سألتها:

ـ هل تفكّرين في الغناء أو في الكتابة؟

ـ أفكّر في الكتابة. لكن ليس من صنف تلك التفاهات التي أطلعتك عليها. تأليف كتاب حقيقيّ أتكلّم فيه عنّي. سبق أن فكّرت فيه طويلاً. لن يكون ممتعًا لكنّي أظنّ أنّه سيحدث صدىً واسعًا.

ـ نعم. لديك أشياء كثيرة تقولينها، يجب قولها!

تكلّمت بحرارة. لكنّي كنت مرتابة. بول شُفيت. ما من شكّ في ذلك. لكنّ صوتها وإيماءاتها كانت تشعرني بالانزعاج نفسه الذي نشعر به أمام تلك الوجوه التي تحاول استعادة شبابها الضائع ونضارتها، على الرّغم من تقدّم السنّ. لكنَّ إصرارها على ممارسة هذا الدور لن يجعلها صادقة في أقوالها.

قالت بول:

ـ الحانة هنا.

نزلنا إلى قبو دافئ ورطب مثل غابة شيشن ـ إيتزا. كان المكان يضجّ بأصوات الروّاد ودخان السجائر يتصاعد. كان الفتيان والفتيات في أثوابهم الرياضيّة، ينتمون إلى جيل مختلف تمامًا عن جيلنا. اختارت بول طاولة بالقرب من الفرقة الموسيقيّة، معرّضة لكلّ الأنظار. وأمرت بلهجة حازمة بإحضار كأسين مزدوجتين من

الويسكي. لم يكن يبدو عليها أنّها تشعر بأنّنا كنّا تمامًا في المكان غير المناسب.

قالت:

ـ لا أريد معاودة الغناء. ليس لأنّي أعاني من عقدة نقص. أعرف أنّه، على صعيد الشكل الخارجي، لم أعد أملك المؤهّلات التي كانت لي فيما مضى. لكنّي أعرف أنّ لديّ مؤهّلات أخرى. إلاّ أنّ المشكلة هي أنّ مهنة المغنّية تجعلك ملحقة بأناس كثيرين. نظرت إليّ ببشاشة: «كنت على صواب بالنسبة لهذه النقطة. التبعيّة شيء تشمئزّ منه النفس. أريد نشاطًا ذكوريًّا».

هززت رأسي موافقة. برأيي، لم تعد تملك أيًّا من المزايا الضروريّة التي تجعلها تأسر الجمهور. من الأفضل أن تبحث عن وسيلة أخرى للشهرة.

سألتها:

ـ هل تنوين إعطاء شكل رواية لقصّتك أم سردها كما هي؟

ـ أبحث في الوقت الراهن عن شكل، شكل جديد. وهذا ما لم ينجح هنري قطّ في بلوغه. رواياته كلاسيكيّة إلى حدّ مملّ.

أفرغت كأسها دفعة واحدة: «كانت هذه الأزمة التي مررت بها قاسية لكن، لو تعرفين الفرصة التي أتيحت لي حين قرّرت أن أستعيد ذاتي أخيرًا».

وددت أن أقول لها شيئًا لطيفًا، كأن أقول لها أيضًا إنّي سعيدة لرؤيتها مقبلة على الحياة، أو أيّ كلام أخرق من هذا القبيل، لكنّ

الكلمات جمدت. جمّدني صوتها الحازم وهذا الوجه الخالي من أيّ تعبير. بدت لي بول في شفائها أكثر غرابة منها في جنونها. قلت بحرج: «لا بدَّ أنّك اجتزت لحظات عصيبة فعلاً».

ــ بإمكانك قول ذلك! نظرت من حولها بشيء من الدهشة: «في بعض الأيّام، كل شيء كان يبدو لي مضحكًا! فأضحك حتى أكاد أنهار. وفي أحيان أخرى، كان الأمر مرعبًا واضطرّوا إلى إلباسي قميص المجانين».

ــ هل خضعت لصدمات كهربائيّة؟

ــ نعم، كنت في حالة من الغرابة بحيث لم أخف من تلقي الصدمات، لكن، في ليلة ليست ببعيدة، حلمت أنّ أحدًا يصوّب طلقة مسدّس نحو صدغي وشعرت بألم لا يطاق. قال لي ماردروس إنّها ذكرى ذلك العلاج ولا شكّ.

قلت بنبرة غير أكيدة:

ــ ماردروس جيّد، أليس كذلك؟

قالت بول بحماسة:

ــ ماردروس! رجل عظيم! عجيب كيف وجد بكلّ ثقة الوسيلة الصائبة لعلاجي. يمكنك القول إنّي تجاوبت حالاً مع العلاج ولم أقاوم كثيرًا.

ــ وهل انتهت مرحلة التحليل النفسي؟

ــ ليس تمامًا، لكنّه استطاع أن يضع يده على أساس المشكلة.

لم أجرؤ على طرح الأسئلة، لكنّها أكملت من تلقاء نفسها: «لم أحدّثك قطّ عن أخي، أليس كذلك؟».

ـ لا، إطلاقًا، لا أعرف أنّ لديك أخًا.

ـ توفّي في شهره الخامس عشر. وكنت في الرابعة من عمري. يسهل إذًا أن يُفهم لماذا اتّخذ حبّي لهنري على الفور طابعًا مرضيًّا.

قلت:

ـ هنري أصغر منك سنًّا بسنتين أو ثلاث.

ـ بالضبط، إنّ غيرتي الطفوليّة ولّدت في نفسي عند وفاة أخي شعورًا بالذنب يفسّر مازوشيّتي حيال هنري. جعلت نفسي عبدة ذلك الرجل. ووافقت على أن أتخلّى كرمى له عن كلّ طموح شخصي. اخترت الانكفاء والتبعيّة. ولكي أكفّر عن ذنبي ولكي يوافق أخي أخيرًا، عبر هنري، على أن يصفح عنّي. ثمّ أخذت تضحك: «حين أفكّر أنّني جعلت منه بطلاً وقدّيسًا! لا يسعني إلاّ أن أضحك في سرّي».

ـ هل رأيته ثانية؟

ـ آه، لا! ولن أراه. قالت ذلك باندفاعة. لقد استغلّ الحالة النفسيّة التي وصلت إليها.

لاذت لفترة بالصمت. أعرف تمامًا نوع التفسيرات التي لجأ إليها ماردروس. وأستخدمها أنا أيضًا عند لزوم الحال. وأقدّرها حقّ قدرها. نعم، لكي يحرّر ماردروس بول، توجّب عليه تدمير حبّها

بما فيه ماضي هذا الحبّ. لكنّي فكّرت بتلك الجراثيم التي لا يمكن القضاء عليها إلاّ من خلال القضاء على الجسم الذي يحتويها. مات هنري بالنسبة لبول، لكنّها ماتت هي أيضًا. وكانت غريبة عنّي هذه المرأة السمينة ذات الجبين الذي يندى عرقًا، والعينين الجاحظتين كعيني البقر، التي تعبّ الويسكي بالقرب منّي.

حدّقت إليّ شاخصة وقالت:

ــ وأنت؟

ــ أنا؟

ــ ماذا فعلت في أميركا؟

تردّدت ثم قلت:

ــ لا أعرف إذا كنت تذكرين. قلت لك إنّي أقمت علاقة عاطفيّة هناك.

ــ أذكر. مع كاتب أميركي. هل رأيته من جديد؟

ــ أمضيت معه ثلاثة أشهر.

ــ هل تحبّينه؟

ــ نعم.

ــ وماذا ستفعلين؟

ــ سأعود لرؤيته في الصيف المقبل.

ــ ومن ثم؟

هززت كتفيّ. بأيّ حقّ تطرح عليَّ هذه الأسئلة التي كنت أتمنّى تجاهل أجوبتها لفرط ما تبعث في نفسي اليأس؟ أسندت ذقنها إلى قبضتها المقفلة وصارت نظراتها أكثر إلحاحًا.

ــ لماذا لا تبدئين حياتك معه من جديد؟

قلت:

ــ ليس لديَّ أيّ رغبة لكي أعاود حياتي معه.

ــ ومع ذلك فأنت مغرمة به؟

ــ نعم. لكنّ حياتي هنا.

ــ أنت من تقرّرين ذلك. لا شيء يمنعك من البدء من جديد في مكان آخر.

قلت على مضض:

ــ تعرفين من يكون روبير بالنسبة لي.

ــ أعرف أنّك تتصوّرين أنّه لا يمكنك الاستغناء عنه. لكنّي أجهل ما مصدر سطوته عليك: وأنت تجهلين ذلك أيضًا. تابعت تتفحّصني: «ألم تفكّري قطّ في أن تخضعي من جديد للتحليل النفسي؟».

ــ لا.

ــ هل أ نت خائفة؟

هززت كتفي:

ــ لا، إطلاقًا. لكن ماذا يجدي ذلك؟

لا شكّ أنّ التحليل النفسي سيجعلني أعرف عن نفسي أشياء كثيرة غير ذات بال. ولكنّي لم أكن أتبيّن الأثر الإيجابي الذي يمكن أن يحدثه في حياتي. ولو توجّب عليَّ الذهاب أبعد لانتفضت، فأحاسيسي ليست أمراضًا.

قالت بول بنبرة شاردة:

ــ لديك عقد كثيرة.

ــ ربّما، لكن ما دامت لا تزعجني...

ــ لن تسلمي أبدًا أنّها تزعجك: فهذا يشكّل جزءًا من عقدك بالضبط. إنّ تبعيّتك العمياء لروبير نابعة من عقدة. أنا واثقة من أنّ التحليل سيعتقك منها.

أخذت أضحك:

ــ لماذا تريدينني أن أترك روبير؟

وضع الخادم أمامنا كاسين أخريين من الويسكي، وأفرغت بول كأسها حتى النصف:

ــ ليس هناك ما هو أكثر أذيّة من العيش في ظلّ مجد الآخرين، لأنّنا نذبل والحالة هذه. يجب أن تجدّي أنت أيضًا لتستعيدي ذاتك. ما من رجل يستحقّ العبادة التي يتطلّبها منّا، ولا أيّ رجل! أنت أيضًا ضحيّة. أعطي روبير ورقًا ووقتًا ليكتب. وسترين أن لا شيء ينقصه.

كانت تتحدّث بصوت عالٍ بسبب الضجّة التي تحدثها قرقعة آلات الفرقة الموسيقيّة، وبدا لي أنّ الأنظار تتّجه نحونا بدهشة. لحسن الحظّ، كان معظم الزبائن يرقصون تائهين كالمجانين.

همست بغضب:

ــ لا أبقى مع روبير بدافع الإخلاص.

ــ وإذا كان بقاؤك معه بدافع العادة فهذا ليس بأفضل. لا زلنا شبابًا على الخنوع. تحمّس صوتها وصارت عيناها رطبتين وقالت: «أريد أن آخذ بثأري. لا يمكنك أن تتخيّلي كم أشعر بالسعادة».

حفرت الدموع أثلامًا عميقة على خدّيها الرطبين. لم تكن تلحظها ربّما لأنّها سكبت الغزير منها، فأصبح جلدها لا يشعر بها. شعرت بالرغبة في مشاركتها البكاء على هذا الحبّ الضائع الذي استمرّ طيلة عشر سنوات وكان مفخرة لها وجوهرًا لحياتها. والذي تحوّل إلى ورم معيب. احتسيت جرعة ويسكي وشددت على كأسي بيدي وكأنّه طلسم، وقلت في نفسي: «أفضل لي أن أتعذّب حتى الموت من أن أنثر في الهواء رماد ماضيَّ وأنا أضحك».

اصطدمت كأسي بعنف بالصحن الصغير. فكّرت: «أنا أيضًا ستكون نهايتي مماثلة! نهزأ بماضينا قليلاً أو كثيرًا، لكنّنا ننتهي دومًا على هذا النحو، لا ننقذ أبدًا الماضي كلّه، أريد أن أكون وفيّة لروبير. إذًا لويس هو الذي ستخونه ذاكرتي ذات يوم. سيقتلني الغياب عن قلبه وسأدفنه في عمق ذاكرتي». واصلت بول الكلام ولم أعد أسمع كلمة ممّا تقوله: «لماذا حكمت على لويس

بالموت؟». لكن لماذا؟ قالت لي بول:« أعطي روبير ورقًا ووقتًا ولن ينقصه شيء». استعدت في ذاكرتي من جديد هذا المكتب، الممتلئ جدًّا في غيابي. السنة الفائتة، على سبيل المثال، أردت أن أبرز أهمِّيَّتي. ولكنّي أدركت عندئذٍ أنّه في مواجهة مشاكله الحقيقيّة بقي وحيدًا ولم أستطع تقديم العون له بشيء. أمّا هناك فيوجد رجل متشوّقٌ لوجودي. ومكاني بين ذراعيه، مكاني الذي بقي فارغًا. لكن لماذا؟ كنت متعلقة بروبير بكلّ جوارحي. كنت لأعطيه حياتي لكنّه لم يطلب منّي ذلك، وفي الواقع لم يطلب منّي شيئًا. البهجة التي يمدّني بها حضوره لا تعنيني إلاّ أنا. أن أبقى معه أو أتركه، فإنّ قراري لا يتعلّق إلاّ بي. أفرغت كأسي. الإقامة في شيكاغو، المجيء إلى هنا من وقت لآخر، لم يكن ذلك مستحيلاً إلى الحدّ الذي تصوّرته. كلّ مرّة أصل فيها إلى باريس يبادرني روبير بالابتسام وكأنّنا لم نفترق أبدًا. وبالكاد يلاحظ أنّني لم أعد أتنفس الهواء نفسه الذي يتنفّسه. أيّ طعم للحياة من دونه؟ هذا، يصعب تخيّله. لكنّي أعرف جيّدًا طعم أيّامي الآتية فإذا أمضيتها هنا إلى جانبه سيكون طعم ندم وعبث، طعمًا لا مثيل لمرارته.

عدت في وقت متأخّر جدًّا. شربت كثيرًا ونمت بشكل سيّئ. وفيما كنّا نتناول إفطارنا، نظر إليَّ روبير نظرة صارمة:

ــ سحنتك متغيّرة!

ــ نمت بشكل سيّئ وشربت كثيرًا.

توجّه نحوي من وراء كرسيّي ووضع يديه فوق كتفيّ:

ـ هل أنت نادمة أنّك عدت؟

ـ لا أعرف، أحيانًا يبدو لي محالاً ألاّ أكون في المكان الذي يحتاج إليّ فيه أحد. حاجة حقيقيّة كما لم يحتج إليّ أحد من قبل. ومع ذلك فلست موجودة فيه.

ـ أوَتظنّين أنّه بإمكانك العيش هناك بعيدًا جدًّا عن كلّ شيء؟ أتعتقدين أنّك ستكونين سعيدة؟

ـ لو لم تكن موجودًا لحاولت، لحاولت بكلّ تأكيد.

نزع روبير يديه عن كتفيّ. قام ببعض الخطوات ونظر إليّ بحيرة: «لن تعود لديك مهنة ولا أصدقاء. ستكونين محاطة بأناس لا تربطك بهم علاقة سابقة ولا يتحدّثون اللغة نفسها. وبذلك تنقطعين عن ماضيك كلّه وعن كلّ ظروف حياتك السابقة. لا أظنّ أنّك ستتحمّلين هذا الوضع لوقت طويل.

ـ ربّما لا.

نعم، حياتي بالقرب من لويس محدودة جدًّا، غريبة، مجهولة، لن يكون بإمكاني أن أكوّن لنفسي حياة شخصيّة، ولا الاختلاط بكلّ هذه البلاد الكبيرة التي لن تكون بلادي أبدًا. لن أكون إلاّ عاشقة ملتصقة بذلك الذي أحبّه. لا أشعر البتّة بأنّي قادرة على العيش حصريًّا من أجل الحبّ. لكنّي أعيا حين أجد نفسي مرغمة كلّ صباح على القيام بأعباء نهار لا أحد يحتاجني فيه. لم يجبني روبير بأنّه محتاج إليّ. لم يقل لي ذلك قطّ، كلّ ما في الأمر أنّ أيّ مسألة لم تطرح من قبل. لم تكن حياتي لا ضروريّة ولا مجّانيّة: كانت

حياتي بكلّ بساطة. أمّا الآن فيسألني لويس: «لماذا لا تبقين دومًا؟ لماذا؟» وأنا التي عاهدت نفسي بألاّ أخيّب أمله أبدًا، أجيبه: «لا». يجدر بي تبرير هذا الرفض ولم أكن أجد تبريرًا. لماذا؟ لماذا؟ صوته يطاردني. وبلمحة خاطفة فكّرت: «لكن لم يفت الأوان بعد!» لا يزال لويس حيًّا يرزق، وأنا أيضًا. بإمكاننا التحدّث عبر المحيط. وعدني بأن يبادر هو إلى الكتابة لي أوّلاً، من الآن وحتى أسبوع. إذا كان في رسالته ما يزال يدعوني. إذا كانت لحسراته نبرة نداء، فسأجد القوّة لكي أتخلّى عن الأمان القديم. وسأجيب: «نعم أنا آتية. سآتي لأبقى معك قدر ما تريد الاحتفاظ بي».

نظّمنا أنا وروبير خطط أسفارنا، قمت بحسابات دقيقة، ثم أبرقت إلى لويس لكي يبعث برسالته إلى شبّاك البريد في أمالفي: لمدّة اثني عشر يومًا سيظلّ مصيري معلّقًا. في غضون اثني عشر يومًا سآتخذ القرار ربّما بالمجازفة بمستقبل مجهول، حتى الجنون. أو أغرق من جديد في الغياب والانتظار. الآن، لم أكن هنا ولا هناك، لا أنا ولا امراة أخرى. تحوّلت إلى آلة لقتل الوقت، الوقت الذي يموت عادة سريعًا جدًّا والذي لا نهاية لفترة احتضاره. استقللنا طائرة وباصات ومراكب. رأيت نابولي من جديد وكابري وبومبي. واكتشفنا هركولانوم وإيشيا. تبعت روبير. يجعلني أهتمّ بما يهتمّ به وكنت أتذكّر ذكرياته. لكن ما إن يتركني وحدي فأيّ ذهول يصيبني! بالكاد كنت أتظاهر بقراءة أو مراقبة الديكور المرتسم أمامي. أحيانًا أستعيد بدقّة مصاب بانفصام في الشخصيّة

وصولي إلى شيكاغو وليلة شيشيكاستننغو وفراقنا. وفي أغلب الأحيان أنام نومًا عميقًا لم أعهده من قبل.

أحبّ روبير إيشيا وتريّثنا فيها. ووصلنا إلى أمالفي بعد ثلاثة أيّام من الموعد المقرّر. قلت في نفسي وأنا أنظر من الباص: «على الأقلّ، أنا مطمئنّة، الرسالة هنا»، أوقفت روبير وحقائبنا في الساحة ومشيت نحو مركز البريد محاولة عدم الركض. وككلّ مراكز البريد، كانت تفوح من المركز رائحة الغبار والغراء والضجر. لم يكن المكان مضيئًا ولا قاتمًا. وكان الموظّفون يتحرّكون ببطء شديد داخل أقفاصهم. إنّه فعلاً من تلك الأمكنة التي تتكرّر فيها الأيّام طوال السنة والحركات طوال النهار، دون أن يحدث شيء أبدًا. لم أفهم كيف استطاع قلبي أن يخفق حتى يتقطّع فيما كنت أقف في الصفّ أمام أحد شبابيك التسليم. فضَّت امرأة شابة ظرفًا، وللحال ارتسمت على وجهها ابتسامة واسعة وهذا ما شجعّني. أظهرت جواز سفري وأنا أتعمّد الظهور بمظهر جذّاب. لم يأبه الموظّف بالخزائن ذات العيون بل انتزع من خزانة رزمة تفحّصها وناولني ظرفًا: رسالة من نادين.

قلت:

ــ ثمّة رسالة أخرى.

كانت رسالة نادين تثبت أنّ البريد يعمل وأنّ الرسائل تصل عندما تُرسل.

أصررت:

ـ هناك واحدة أخرى، أنا واثقة.

وبابتسامة إيطاليّة لطيفة، وضع الموظّف الرزمة أمامي: «انظري بنفسك».

دينال، دولانكور، ديلير، ديبو... عدت إلى الوراء وتفحّصت الرزمة من أوّلها إلى آخرها. ما أكثر هذه الرسائل! هناك منها ما ينتظر منذ أسابيع ولا أحد يطالب بها: لماذا لا يمكن القيام بأيّ تبادل؟ لماذا يتعذّر استبدال الرسالة بأخرى؟

قلت بيأس:

ـ وفي الخزانة رقم «د» أليست هناك رسالة باسمي؟

ـ جميع رسائل الأجانب موجودة في هذه الرزمة.

ـ ألق نظرة في جميع الأحوال.

نظر ثم هزّ رأسه نفيًا:

ـ لا، لا شيء.

خرجت من مركز البريد وبقيت على الرصيف وبداي مرتخيتان. أيّ مواراة فظيعة هذه! لم أعد واثقة من أنّ الأرض ثابتة تحت قدمي، ولا من الروزنامة، ولا من اسمي بالذات. لقد كتب لويس الرسالة، والرسائل تصل وعلى رسالته أن تصل هي أيضًا لكنّها ليست موجودة. كان الوقت مبكّرًا جدًّا لإرسال برقيّة: «لا أخبار، أنا قلقة»، مبكرًا جدًّا لكي أنهار باكية. ربّما لم يكن الأمر متعلّقًا إلاّ بتأخير عاديّ. لن يُترك لي المنهل حيث أغرف اليأس الغزير. لم أدقّق في حساباتي كما يجب. هذا كل شيء: خطأ

في الحساب. ويندر أن نموت بسبب ذلك. مع ذلك، وفيما كنت أتناول العشاء مع روبير فوق سطيحة مزهرة تشرف على البحر، لم أكن حيّة بشكل أكيد. حدّثني عن نادين التي كانت تخرج باستمرار مع هنري وأجبت وشربنا خمرة رافيلو، وفوق ملصق الزجاجة رجل ذو شاربين يبتسم. كانت مصابيح قوارب الصيّادين تلمع فوق صفحة البحر. من حولنا، فاحت الرائحة النفّاذة للنباتات العاشقة. ولا شيء ناقص، ولا في أيّ مكان، إلاّ ورقة صفراء وعليها رموز سوداء. وكان بإمكان هذه الرموز أن تعني الغياب، غياب الغياب: هذا لا شيء. لكنّها التهمت كلّ شيء.

وصلت الرسالة في اليوم التالي. كان لويس يكتب لي من نيويورك. أقامت دار النشر «حفلة ساهرة» جامعة على شرف كتابه. كان يلتقي بأناس كثيرين ويستمتع بوقته للغاية. أوه! لم ينسني، كان بهجًا وحنونًا. لكن من المتعذّر قراءة أيّ دعوة موجّهة إليّ بين السطور. جلست على شرفة مقهى قبالة البريد، على ضفّة الماء. فتيات صغيرات في مرايل زرقاء، معتمرات قبّعات مستديرة يلهون على الشاطئ نظرت إليهنّ طويلاً وأنا شاردة الذهن. لمدّة خمسة عشر يومًا، تصرّفت بلويس على هواي، كان وجهه متردّدًا بين العتب والحبّ. كان يشدّني إليه ويقول: «لم أحبّك بهذا القدر». ويقول: «عودي». وكان أيضًا في نيويورك، وجهه مجهول، ابتساماته لا تتوجّه إليّ، حقيقيًّا كالرجل الذي مرّ من أمامي. ولا يطلب منّي أن أعود. أما يزال يتمنّى عودتي؟ يكفي هذا الشكّ

لتنتزع منّي قوّة رغبتي فيه. سأنتظر، كما في العام الفائت، إلاّ أنّني لم أعد أعرف لماذا حكم عليّ بعقوبة الانتظار.

بعث لي برسالة أخرى إلى باليرما وسيراكوزا. رسالة في الأسبوع كما كان يفعل في السابق وتنتهي كلّها بعبارة: «أحبّك»، التي تقول كل شيء ولا تعني شيئًا. هل هي عبارة حبّ أم عبارة مبتذلة تتردّد على ألسنة الجميع!؟ كان حنان لويس من التحفّظ بحيث لا أعرف مدى ما تحمل هذه الكلمة من المعاني. فيما مضى، عندما كنت أقرأ الجمل التي يختلقها لي، كنت أستعيد ذراعيه وفمه. هل هي غلطته أم غلطتي إذا كفّت كلماته عن بعث الدفء في قلبي؟ شمس صقلية تكوي جلدي بحرارتها، لكنّ تحت جلدي بردًا مستديمًا. أجلس عند شرفتي، أو أضطجع فوق الرمل وأنظر إلى السماء الحارقة، لكنّي أرتجف بردًا. أحيانًا أكره البحر برتابته، بامتداده اللامتناهي كالغياب. مياهه من الزرقة بحيث بدت لي حلوة المذاق. أغمض عينيّ أو ألوذ بمكان آخر.

عندما عدت إلى باريس، إلى بيتي، ولديّ أعمال أقوم بها، فكّرت: «يجب أن أستعيد ذاتي»، استعادة الذات كمن يحاول استدراك صلصة مصلت: وهذا يمكن إنجازه. نأخذ مسافة من همومنا ومشاكلنا وننظر إليها نظرة هواة. سأجلس قرب روبير ونتحدّث، أو أحتسي الويسكي مع بول ونتصارح. على أيّ حال، كنت قادرة على أن أعظ نفسي بنفسي. لم يكن لويس في حياتي إلاّ مرحلة جعلتني الظروف أعلّق عليها أهمّيّة قصوى. بعد سنوات من الزهد، وقعت في حبّ جديد وسعيت إلى هذا الحبّ عن سابق قصد

وتصميم. غاليت في تأجيجه لأنّني كنت عالمة بأنّ حياتي كامرأة أوشكت على نهايتها. لكنّي في العمق، أستطيع الاستغناء عنه. إذا افترق لويس عنّي، أعود بسهولة إلى صرامتي القديمة أو أبحث عن عشّاق آخرين. الجميع يقولون إنّ من يبحث يجد. خطئي يكمن في أنّي بالغت كثيرًا في الرهان على جسدي: أنا بحاجة إلى تحليل نفسيّ يعلّمني أن أكون أكثر جسارة مع جسدي.

آه! لا يمكن للمرء أن يبلغ مرحلة العذاب ما لم يكن اقترف خيانة أو ذنبًا. لمرّة أو مرّتين، حاولت أن أردّد في قرارة نفسي: «ذات يوم ستنتهي هذه القصّة متحوّلة إلى ذكرى جميلة باتت ورائي، فمن الأفضل إذًا أن أتّخذ قراري بشأنها». لكنّي انتفضت. ما أسخف الادّعاء بأنّي أمسك بقصّتنا بين يديّ وحدي. هذا يعني أنّي أستبدل لويس بصورة وأتحوّل أنا نفسي إلى شبح، ويتحوّل ماضينا إلى ذكريات لا حياة فيها. حبّنا ليس نادرة أستطيع استئصالها من حياتي لأرويها، إنّه موجود خارجي، وأنا ولويس نحمله معًا. لا يكفي أن نغمض أعيننا لكي نلغي الشمس: التنكّر لهذا الحبّ يعني فقط أن أفقد بصيرتي. لا، أرفض الحذر والوحدة الزائفة وتعزياتها البغيضة. وأعرف أنّ هذا الرفض هو أيضًا كذبة: ففي الحقيقة، لا يسعني التصرّف بقلبي. كنت عاجزة أمام هذا القلق الذي يستولي عليّ في كلّ مرّة أفضّ الختم عن رسائل لويس. وأفكاري المتعقلة لا تملأ هذا الفراغ داخلي. لقد وصلت إلى حائط مسدود.

يا للانتظار الطويل! أحد عشر شهرًا، تسعة أشهر، وبيننا اليابسة والمياه نفسها. والشكّ نفسه أيضًا. أعقب الخريف فصل الصيف. قالت لي نادين ذات يوم من تشرين الأول:

ـ لديّ خبر أعلمك به.

في عينيها كان التحدّي يمتزج بالحيرة.

ـ ماذا هنالك؟

ـ أنا حبلى.

ـ هل أنت متأكدة؟

ـ كلّ التأكيد. زرت طبيبًا.

تفرّست في نادين. كانت تعرف كيف تحمي نفسها، ورأيت شرارة ماكرة في نظرتها. قلت:

ـ هل تعمّدت ذلك؟

ـ وماذا بعد؟ هل من جريمة أن ترغب المرأة بإنجاب طفل؟

ـ هل أنت حبلى من هنري؟

قالت وهي تضحك:

ـ أفترض ذلك. لأنني أضاجعه هو.

ـ وهل هو موافق؟

ـ لا يعرف شيئًا عن الموضوع.

أصررت:

ــ لكن هل يرغب بإنجاب طفل؟

تردّدت:

ــ لم أسأله.

خيّم الصمت، ثم قلت:

ــ إذًا ما الذي تنوين فعله؟

ــ وماذا نفعل بطفل؟ هل نصنع منه فطائر صغيرة؟

ــ أقصد القول: هل ستتزوّجين من هنري؟

ــ هذا متعلّق به.

ــ لكن لديك رأيك أيضًا بالموضوع.

ــ أرغب في إنجاب طفل، أمّا من حيث العواقب فلا أطلب شيئًا من أحد.

لم تحدّثني نادين قطّ عن هذه الرغبة في الأمومة. هل هو سوء النيّة من قبلي الذي أوحى لي أنّها سعت خصوصًا، من خلال هذه المناورة، إلى إرغام هنري على الزواج منها؟

ــ ستضطرّين لسؤاله. لفترة من الزمن، يجب أن يكون أبوك أو هنري هما اللذين يتحمّلان هذه المسؤوليّة.

أخذت تضحك بهيئة يمتزج فيها التعجرف المتسامح بالمزاح:

ــ هيّا، بماذا تنصحينني. أرى جيّدًا أنّك تتشوّقين لإسداء النصح إليّ.

ــ ستلومينني على ذلك لوقت طويل.

ـ قوليها مع ذلك.

ـ لا تقترحي على هنري الزواج منك قبل أن تكوني واثقة من أنّه يرغب حقًّا في ذلك. أقصد هذه الرغبة الأنانيّة التي تدفعه للزواج من أجله هو وليس فقط من أجلك ومن أجل الطفل، وإلاّ فسيكون هذا الزواج كارثة.

قالت بصوتها الأكثر حدّة:

ـ لن أقترح شيئًا عليه. لكن من ذا الذي قال لك إنّه لا رغبة لديه في ذلك؟ بالطبع، إذا سألت رجلاً عمّا إذا كان يرغب بإنجاب طفل، فسيصاب بالجزع. لكن حين يولد الطفل، تنسيه البهجة خوفه. أنا أجد أنّ الزواج يلائم هنري تمامًا، ويلائمه أيضًا أن تكون لديه أسرة؛ فالحياة البوهيميّة لم تعد رائجة في هذه الأيّام.

توقفت عن الكلام مبهورة الأنفاس.

ـ سألتني نصيحة وأعطيتها لك. إذا كنت تعتقدين بكلّ صدق أنّ الزواج لن يثقل عليك ولا على هنري فتزوّجا.

كنت أشكّ في أنّ نادين بإمكانها أن تنعم بالسعادة داخل حياة عائليّة. تخيّلتها منصرفة بشكل سيّئ إلى لعب دور الزوجة والأمّ المتفانية. ماذا لو تزوّجها هنري بدافع الواجب. ألن يضمر لها ضغينة جرّاء ذلك؟ لا أجرؤ على طرح السؤال عليه. كان هو الذي أثار حديثًا بيني وبينه. ذات مساء، بدل أن يدخل كالعادة إلى مكتب روبير، جاء ليدقّ على باب غرفتي.

ـ هل أزعجك؟

ـ بالطبع لا.

جلس على الديوان وسألني بلهجة مازحة:

ـ هل تعملين هنا؟

ـ نعم، هل تريد أن تجرّب؟

ـ من يدري؟ سأكون بحاجة لأن تشرحي لي لماذا أشعر بأنّني طبيعي إلى حدّ يبعث على اليأس. هذا مريب أليس كذلك؟

قلت باندفاعة كبيرة بحيث إنّه نظر إليّ متفاجئًا قليلاً:

ـ ليس هناك ما يبعث على الريبة أكثر من ذلك!

قال ببشاشة:

ـ إذًا، عليّ أن أتعالج لكنّي لم آتِ لأكلّمك عن هذا. ابتسم: «جئت لأطلب منك يد ابنتك». ابتسمت أنا أيضًا: «هل ستكون زوجًا صالحًا»؟

ـ سأبذل جهدي. هل تسيئين الظنّ بي؟

تردّدت ثم قلت بصراحة: «إذا كنت تتزوّج فقط نزولاً عند رغبة نادين، أسيء الظنّ بك قليلاً».

ـ أفهم قصدك. لا تخافي. قصّتي مع بول كانت عبرة لي. لا، أنا متمسّك بنادين. ومن ثمَّ، سأفاجئك ربّما، لكنّي أعتقد أنّ لديّ رغبة في أن أصبح ربّ عائلة.

ـ لا تفاجئني كثيرًا.

ـ لكنّ ما أقوله صحيح. هذا فاجأني أنا نفسي. عندما قالت لي نادين إنّها حبلى شعرت بخفقان في القلب، ولا أعرف كيف أشرح لك ذلك. نشقى لكي نؤلّف كتبًا ينتقدها الجميع أو مسرحيّات تصدم الناس. ومن ثمَّ، وببساطة، وتلبية لرغبة جسديّة صنعت شيئًا حيًّا. لا أقصد مخلوقًا من ورق، بل طفلاً حقيقيًّا من لحم ودم. وبسهولة كلّيّة...

ـ سأتهيّأ منذ الآن لأكون جدّة، ولكن هل ستتزوّجان قريبًا؟ كيف ستنظّمان أمور حياتكما؟ يجب أن تبحثا عن شقة ملائمة.

قال هنري:

ـ لا نرغب في البقاء في باريس. لا بل أودّ مغادرة فرنسا لبعض الوقت. يبدو أنّه في بعض نواحي إيطاليا، بالإمكان العثور على منازل للإيجار بكلفة معقولة.

ـ وفي غضون ذلك؟

ـ كما تعرفين، لم يتسنَّ لنا الوقت للقيام بمشاريع كثيرة.

ـ بإمكانكما الإقامة في سان ـ مارتان. البيت واسع بما يكفي.

لم تستهجن نادين الفكرة. لم تشأ السكن في المقصورة لأنَّ لديها هناك ذكريات سيّئة، على ما أفترض. لذا سعت إلى تأهيل غرفتين واسعتين في الطابق الثاني. تخلّت عن مهنتها كسكرتيرة، وأخذت تبحث عن الكتب التي تتحدّث عن العناية بالأطفال، وتحيك جهازًا للوليد بألوان فاقعة، وتقلب كل التقاليد في هذا المضمار. كانت تستمتع كثيرًا بمشاغلها في هذه الفترة الميمونة. اغتبط هنري لأنّه

استطاع التفلّت من هموم السياسة ومشاغلها. ولم يبدُ على روبير أنّه نادم عليها كثيرًا. أعلنت بول أنّها سعيدة بحياتها الجديدة. كانت تسكن حاليًّا في فندق بلزنس حيث تمارس مهامّها الغامضة كسكرتيرة. كانت كلودي تعيرها أثوابًا وتصطحبها إلى كلّ مكان. وأخذت تخبرني بنهم عن سهراتها وعشّاقها. وأرادت جذبي إلى عالم أمجادها.

قالت:

ـ خيطي لنفسك فستان سهرة. ألا ترغبين في التأنّق، وإظهار أنوثتك.

ـ إظهار نفسي لمن؟

ـ في جميع الأحوال، أنت بحاجة لفستان لفترة بعد الظهر. ذاك القماش الهندي العجيب ماذا فعلت به؟

ـ لا أعرف، إنّه في أحد أدراج خزانتي.

ـ عليك أن تعثري عليه.

وبصورة تدعو للهزء، راحت تبحث في خزانتي عن القميص العتيق الشبيه بلباس الأميرات الذي كان يستر، في الطرف الآخر من العالم ومن الزمن، كتفَيْ هنديّة عجوز.

ـ وجدته! يمكن أن تخاط منه بلوزة مدهشة.

لمست بزهو القماش الذي تشبه ألوانه الزجاجيّات والفسيفساء. ذات يوم، في مدينة بعيدة يتصاعد منها دخان بخور، رمى رجل بهذا القميص بين ذراعيّ: كيف استطاع أن يبرز إلى الوجود في

ذلك اليوم بالذات؟ من ذاك الحلم القديم إلى حياتي الواقعيّة، ليس هناك معبر. ومع ذلك فالقميص هنا. وفجأة لم أعد أعرف أين كنت أنا، حقًّا: هل كنت هنا فريسة ذكريات هانية؟ أم في مكان آخر، أحلم أنّني هنا، لكن على حافّة اليقظة التي تعيدني إلى الأسواق الهنديّة وذراعي لويس. قالت بول:

ـ اعهدي لي به. ستأخذه كلودي إلى أحد الخيّاطين. وسأتدبّر أمري لكي أعيده لك قبل يوم الخميس. هل تأتين الخميس، هل هذا وعد؟

ـ لا يسلّيني أن أذهب إلى هناك.

ـ وعدت كلودي بأن أصطحبك. أودّ فعلاً أن أردّ لها قليلاً من المعروف الذي صنعته لأجلي! كان صوت بول مأسويًّا كما لو كانت تتوسّل إليّ أن أصالحها مع هنري.

قلت:

ـ سآتي لفترة قصيرة.

لكي تعيد كلودي إلى سهراتها يوم الخميس ألقًا جديدًا، ابتكرت أن تموّل جائزة أدبيّة تقدّمها لجنة حكم مؤلّفة من نساء، وتتولّى هي رئاستها، بطبيعة الحال. كانت متلهّفة لإعلان هذا الحدث الكبير على الملأ. ومع أنّ المشروع كان لا يزال غامضًا، إلاّ أنّها دعت في الخميس التالي الصحافيّين وناس المجتمع الراقي في باريس. ظننتها تجاهلتني، لكنّ رسالة صغيرة من بول تلحّ عليّ فيها بالمجيء شُكَّت إلى الكرتونة التي استلمتها مساء الأربعاء حيث

وضع القميص الهندي وقد ازداد رونقًا وبهاء متحوّلاً إلى بلوزة على الموضة. وعندما ارتديته، عبقت منه رائحة ماضٍ مفقود، وشعرت أنّ شيئًا ما يشبه الأمل تسرّب إلى دمي. اكتشفت بملامستي إيّاه الدليل المبين على أنّ هناك معبرًا بين سعادتي المفقودة والذهول الذي يعتريني الآن. إذًا العودة ممكنة.

في المرآة، كانت صورتي التي استعادت شيئًا من نضارتها جرّاء زيّي الجديد، رحومة، من الآنِ وحتى ستّة أشهر لن أشيخ كثيرًا. وحين دخلت إلى صالون كلودي، خطر لي أن أفكّر «في نهاية المطاف، لا أزال شابّة!».

قالت بول:

ـ انتابني خوف شديد حين فكرّت أنّك قد تتخلّفين عن الحضور. اجتذبتني إلى عمق الرواق وقالت بلهجة قلقة وجدّيّة: «عليَّ أن أكلمك. أريدك أن تقومي بشيء كرمى لي».

ـ أيّ شيء؟

ـ كلودي حريصة جدًّا على أن تكوني من بين أعضاء لجنة الحكم.

ـ لكنّي لست جديرة بذلك. ثم ليس لديَّ الوقت.

ـ لن تفعلي شيئًا.

قلت وأنا أضحك:

ـ إذًا، لماذا تحرص على أن أكون عضوًا في اللجنة؟

ـ ولكن، بسبب الاسم.

ـ اسم روبير. اسمي ليس بهذه الأهمّيّة.

فسارعت بول إلى القول:

ـ لكنّه الاسم نفسه. ودفعتني للدخول إلى الصالون الصغير:

ـ أخشى أن أكون قد كلّمتك بشكل سيّئ عن هذا المشروع. لا يتعلّق الأمر بتسلية اجتماعيّة.

جلست راضخة. مذ شُفيت بول وهي لا تتكلّم إلاّ عن أشياء تافهة. ارتبكت لرؤيتها تتحمّس لهذه القضيّة البلهاء كما كانت تتحمّس فيما مضى لمصير هنري. تحدّثت معي طويلاً عن فضائل الرقم سبعة. انتفضت قليلاً قائلة: «لا، بول، لا شأن لي بهذه القصّة. لا».

قالت والقلق يبدو على وجهها.

ـ اسمعي، قولي على الأقلّ لكلودي إنّك ستفكّرين بالموضوع.

ـ إن شئت. لكن بالنسبة لموقفي فهو محسوم.

نهضت مواصلة كلامها بصوت أكثر رقة: «هل صحيح ما يُروى عن أنّ هنري سيتزوّج من نادين؟».

ـ صحيح.

ـ أخذت تضحك: «كم هذا مضحك!» ثم استعادت جدّيّتها: «من جهة هنري، هذا أمر ظريف: لكنّي أرثي لحال نادين. عليك أن تتدخّلي».

قلت.

ـ هي تفعل ما تشاء كما تعرفين.

ـ لمرّة واحدة، استعملي سلطتك. سيدمّرها كما أراد تدميري. ثم أضافت بلهجة حالمة: «بالطبع، بالنسبة لها هنري بديل عن روبير».

ـ محتمل جدًّا.

ـ وأخيرًا، أغسل يديّ من هذه القصّة. مشت نحو الباب. ثم قالت باضطراب مفاجئ: «يجب ألاّ أستأثر بك، تعالي بسرعة!».

كان الصالون مزدحمًا بالمدعوّين. فرقة موسيقيّة صغيرة تعزف دون حماس ألحان جاز. بعض الكوبلات يرقصون، ومعظم المدعوّين منشغلون بالشرب والأكل. كلودي تراقص شاعرًا شابًّا يرتدي بنطلونًا من المخمل بلون الخزامى وسويتشر بيضاء، وفي إحدى أذنيه قرط ذهبي. يجدر القول إنّ منظره يفاجئ قليلاً. لا شكّ في أنّ هناك الكثير من الشبّان ممّن هم مرشّحون للجائزة الأدبيّة الجديدة، وجميعهم يصطنعون الظهور بمظهر غريب وكأنّهم ملحقون ثقافيّون بسفارة ما. سررت لكوني تعرّفت على أحد الوجوه: جوليان. كان متأنّقا هو أيضًا ولا يبدو عليه السكر. ابتسمت له فانحنى احترامًا لي:

ـ هل أستطيع دعوتك للرقص؟

ـ آه، لا!

ـ لماذا؟

ـ أنا عجوز مسنّة.

ـ ليس أكثر من الأخريات، قال وهو يغمز ناحية كلودي.

قلت وأنا أضحك.

ـ لا، لكن تقريبًا مثلها.

ضحك هو أيضًا. لكن بول قالت بلهجة جدّيَّة:

ـ آن كتلة من العقد النفسيّة! ثم نظرت إلى جوليان بدلع: «أمّا أنا فلا».

قال جوليان وهو يبتعد:

ـ ما أروع حظك!

قالت لي بول بنبرة مستاءة:

ـ كيف خطرت لك فكرة أن تقولي «عجوز مسنّة»! بحياتي لم أشعر أنّني بهذه الفتوّة.

قلت:

ـ نشعر كما يحلو لنا.

هذه المشاعر التي أعادتني إلى مرحلة الشباب لفترة قصيرة سرعان ما تبدّدت نشوتها. إنّ المرايا الزجاجيّة متسامحة كثيرًا: أمّا المرآة الحقيقيّة فهي وجوه هؤلاء النساء أترابي ذوات البشرات المتراخية، والملامح المشوّشة، والشفاه الذابلة، والأجساد المحدودبة تحت أحزمتها المشدودة. فكّرت: «أجساد قديمة العهد كالجسد الذي أحمله». توقفت الفرقة الموسيقيّة عن العزف وانقضّت كلودي عليّ:

ـ لطف منك أن تأتي. يبدو أنّك مهتمّة كثيرًا بمشاريعنا أليس كذلك؟ أنا سعيدة جدًّا بأن تنضمّي إلينا.

ـ وأنا أيضًا. لكنّي منشغلة كثيرًا هذه الأيّام!

ـ هذا واضح. يبدو أنّك على طريق أن تصبحي المحلّلة النفسيّة الأشهر. دعيني أقدّم لك بعض الذين أرعاهم.

كنت مسرورة لكنّي ارتبكت بعض الشيء لأنّها لم تلحّ في طلبها أكثر: لا يبدو أنّها مصرّة على انضمامي إلى اللجنة. لقد توهّمت بول أشياء وأشياء. صافحت العديد من الحاضرين. شبّانًا وآخرين أقلّ شبابًا. أحضروا لي كؤوسًا من الشمبانيا وقطعًا صغيرة من الحلوى. سارعوا للتحلّق حولي، وبعضهم استخدموا أساليب المجاملة للتعبير عن مشاعرهم. وجميعهم أسرّوا إليّ خلال فاصل ابتسامتين عن رغبتهم في إجراء مقابلة صحافيّة مع روبير، أو في نشر مقال منه من أجل مجلّة صادرة حديثًا أو توصية منه لدى موفان، أو مقال نقديّ يمتدحون فيه أعماله الأدبيّة لتنشر في *Vigilance*، وكانوا يأملون أيضًا في قراءة أسمائهم مطبوعة فيها. وآخرون، أكثر براءة أو أكثر تخابثًا، طلبوا منّي بعض النصائح ليتّبعوها والتي من شأنها أن تقودهم إلى النجاح والحصول على الجوائز. كانوا يظنّون أنّني أعرف المكائد والأساليب الملتوية لبلوغ الشهرة. كنت أشكّ بمستقبلهم. بالطبع، لا نستطيع بلمحة بصر أن نكشف مواهب الناس. لكن ليس من العسير معرفة ما إذا كان الإنسان يملك ما يكفي من الموهبة الحقيقيّة للكتابة أم لا: كلّ روّاد الصالونات هؤلاء لا يكتبون إلاّ لأنّهم لا يستطيعون القيام بشيء

آخر، لا سيّما أنّهم عقدوا العزم على الانخراط في النشاط الأدبي. لكنّ أحدًا منهم لم يكن يدرك خطورة هذا اللقاء الحميم بينه وبين الورقة البيضاء. كانوا يرغبون في إحراز النجاح بشكله الأكثر إبهامًا، وبالرّغم من كلّ هذا، لم يهتدوا إلى الوسيلة الفضلى لإحرازه. كنت أجدهم عقيمين كطموحهم. وأحدهم قال لي تقريبًا: «أنا مستعدّ لأدفع مالاً في سبيل الشهرة. وكان بينهم الكثيرون ممّن تدفعهم كلودي في سلوك هذا السبيل. كانت مشرقة حين راحت تتحدّث إلى الصحافيّين، وسط حلقة من المعجبين في مقتبل العمر. كانت بول تستفيد من النعمة بشكل سيّئ. وقع اختيارها على جوليان. جلست بالقرب منه مصالبة ساقيها، ساقيها اللتين لا تزالان جميلتين جدًّا. استجمعت كل روحها في عينيها وأخذت تتكلّم حتى انقطعت أنفاسها. لو أنَّ شابًّا قليل الخبرة سمع مثل هذا الكلام لكان أسكره ولكان شقّ عليه أن يرفض العرض المقدّم. ولكن جوليان يمتلك الكثير من الخبرة والتجربة ولا يمكن أن يعلق في شباكها. ثمّ استمعت إلى الصوت الملحّ لعجوز طويل القامة أصلع الرأس تحاكي صورته التقليديّة صورة العباقرة. في تلك اللحظة عاهدت نفسي على أشياء كثيرة: إذا فقدت لويس يومًا أو عندما سأفقده، سأتخلّى في الحال وإلى الأبد عن اعتبار نفسي امرأة: لا أريد أن أتشبّه بهؤلاء الناس أبدًا.

قال العجوز:

ـ كما ترين يا سيّدة دوبروي. ليست المسألة مسألة طموح شخصي، لكنَّ الأشياء التي أرغب في قولها يجب أن تكون

مسموعة إذ لا أحد يجرؤ على قولها: يجب أن يكون هناك مجنون عجوز مثلي لكي يجازف بقولها. وليس هناك إلاّ رجل يتحلّى بالشجاعة الكافية لنشرها: زوجك.

قلت:

ــ سيكون مهتمًّا جدًّا بكلّ تأكيد.

قال باحتداد:

ــ لكن يجب أن يكون اهتمامه ملموسًا! يقول أصحاب دور النشر: ما تكتبه لافت ومشوّق! وعندما يصل الأمر بهم إلى حدّ نشره، يصابون بالجزع. إذا كان روبير دوبروي يدرك أهمّيّة هذا العمل الذي كرّست له، أستطيع القول ودون كذب، سنوات طويلة من حياتي، فعليه والحالة هذه أن يأخذ المبادرة. ويكفي أن يقدّم له.

قلت:

ــ سأكلّمه في الموضوع.

أثار هذا العجوز غيظي، لكنّي أشفقت عليه، عند النجاح، تتكدّس المشاكل، وعند الإخفاق أيضًا. من غير المجدي الكلام والكلام دون أن يوقظ الكاتب في نفوسنا مشاعر القبول. كان العجوز قد نشر كتابين أو ثلاثة لم تلق رواجًا. والكتاب الأخير يشكّل بالنسة له فرصته الأخيرة، وخشيت أن يكون الكتاب الأخير شبيهًا بما سبقه. كنت أسيء الظنّ بكلّ الناس الذين كانوا هناك، فتسلّلت وسط الضجّة المنبعثة وأمسكت ذراع بول.

ــ أظنّ أنّني قمت بواجبي كاملاً. أنا سأغادر. اتّصلي بي.

ـ هل تؤجّلين العودة لبعض الوقت؟ أمسكت بذراعي وقد بدت على وجهها دلائل مؤامرة تدبّرها: «يجب أن أطلب منك نصيحة بخصوص كتابي. لقد عذّبني طيلة هذه الليالي كلّها. هل ترين أنّه من المستحسن أن أنشر الفصل الأوّل منه في *Vigilance*»؟

قلت:

ـ هذا رهن بالفصل الذي تريدين نشره وبموضوع الكتاب.

قالت بول:

ـ لا شكّ أنّ الكتاب مكتوب لكي ينهال على القارئ دفعة واحدة، فينهل منه دون توقّف أو دون أن يتسنّى له الوقت لكي يستعيد أنفاسه. لكن من جهة أخرى، إذا نشر منه فصل في *Vigilance* سيكون ذلك دلالة على قيمته الأدبيّة. لا أريد أن ينظر إليَّ كما ينظر إلى امرأة تقدّم أعمالاً من ذلك النوع الذي تقدّمه سيّدات المجتمع الراقي...

قلت:

ـ أرسلي لي المخطوطة. سيعطيك روبير رأيه.

قالت:

ـ سأرسل نسخة إليك غدًا صباحًا. تركتني وهرولت باتّجاه جوليان: «هل أنت راحل أيضًا؟».

ـ أنا آسف، عليّ الرحيل.

ـ ألن تنسى الاتّصال بي؟

ـ لا أنسى شيئًا أبدًا.

اصطحبني جوليان على الدرج في الوقت الذي غادرت فيه المكان، وقال لي بصوته المهذّب: «بول ماروي، امرأة ساحرة، إلاّ أنّها تهوى أقضبة الرجال كثيرًا. انتبهي: إنّ قضيب الرجل بحدّ ذاته ليس شيئًا سيّئًا، لكن هاويات الجمع يزعجنني».

ـ يبدو لي أنّك أنت أيضًا لديك تشكيلتك!

ـ لا! إنّ الذي يميّز هاوي الجمع هو حيازته على كاتالوغ. لم أستخدم كاتالوغًا أبدًا في حياتي.

كان مزاجي سيّئًا عندما فارقت جوليان: آلمني أن يجري الكلام على بول بهذه النبرة، ولكن حين خلعت ملابسي الاحتفاليّة وارتديت مبذلاً تساءلت: «لكن لماذا أنا سيّئة المزاج؟ بول لا تهتمّ بما يقال عنها وهي على صواب دون شكّ». كنت أرغب في أن أكون مختلفة عن هاتيك النساء الشرّيرات المتصابيات أكثر ممّا ينبغي: وفي الحقيقة كانت لديّ حيلي التي لا تختلف كثيرًا عن حيلهنّ. سارعت للقول: أنا انتهيت، أنا عجوز. وبهذه الطريقة ألغي هذه السنوات الثلاثين أو الأربعين التي سأعيشها عجوزًا شمطاء متحسّرة على الماضي المفقود. وهكذا لن أحرم من شيء إذ سبق لي أن تخلّيت عن كلّ شيء؛ فالصرامة التي أبديها هي حذر أكثر منها مكابرة. إنّني أعمد إلى إخفاء كذبتي المفضوحة. أنكر بلوغ سنّ الشيخوخة حين أرفض مساوماتها. وتحت جلدي الذي فقد نضارته أصرّ على البقاءِ امرأة شابّة لا زالت متطلّباتها سليمة لم تُمسّ، وعصيّة على كلّ أنواع التنازلات، وتحتقر الأجساد

الأربعينيّة الحزينة. لكنّها لم تعد موجودة ولن تولد ثانية، ولا حتى بفعل قبلات لويس.

في اليوم التالي. قرأت مخطوطة بول: عشر صفحات فارغة وكامدة كنصّ في Confidences[١]. غير مجدٍ أن أتأثر لسخف ما قرأته: ففي العمق، ليست بول متعلقة بالكتابة إلى هذا الحدّ، وبالتالي، لن يكون فشلها ها هنا مأسويًا. لقد تحصّنت مرّة واحدة ضدّ المأسويّ واتّخذت قرارها النهائي بعدم معايشته. لكنّي لم أكن أقنع بسهولة بخضوعها. لا بل كنت حزينة لخنوعها هذا، لدرجة أنّني شعرت باستياء متزايد لدى ممارستي لمهنتي. غالبًا ما شعرت بالرغبة في أن أقول لمرضاي: «لا تسعوا إلى الشفاء لأنّنا نشفى دومًا بما يكفي». كان لديّ الكثير من الزبائن، وبالضبط في هذا الشتاء نجحت في معالجة بعض الحالات الصعبة. لكنّ كلّ رغبة فارقتني. لم أعد أفهم لماذا يُستساغ أن ينام الناس في الليل وأن يمارسوا الحبّ بسهولة وأن يكونوا قادرين على الفعل والاختيار والنسيان والعيش. فيما مضى، بدا لي ملحًّا أن أحرّرهم من عقدهم، أن أحرّر كل هؤلاء الممسوسين المحتبسين داخل جدران تعاستهم الضيّقة، فيما العالم واسع ورحب. الآن، كلّ ما أفعله هو الانصياع لإرشادات قديمة فيما كنت أحاول أن أنتزعهم من هواجسهم: ها قد بدأت أشبههم! لا يزال العالم واسعًا كما من قبل: لكنّه لم يعد يعني لي شيئًا».

---

(١) Les Confidences: كتاب للشاعر الفرنسي لامارتين يروي فيه سيرته الذاتيّة.

«هذا معيب!»، هكذا قلت في نفسي ذلك المساء. كانوا يتناقشون في مكتب روبير، يتحدّثون عن خطّة مارشال ومستقبل أوروبّا، عن المستقبل كلّه. كانوا يقولون إنّ مخاطر الحرب تتعاظم، وكانت نادين تصغي إليهم مذعورة. الحرب، تعنينا جميعًا، لم أكن أستخفّ بهذه الأصوات القلقة. ومع ذلك لم أكن أفكّر إلاّ بهذه الرسالة بسطر واحد من هذه الرسالة: «محيط بيننا، ما يبرّد حرارة الشوق الأكثر اضطرامًا». لماذا كتب لي لويس هذه الكلمات المجافية وهو يعترف لي بمغامرات عابرة؟ لم أسأله أن يكون وفيًّا لي، فالأمر سخيف خلف هذه البحار المزبدة التي تفصل بيننا. لا شكّ أنّه حاقد عليّ بسبب غيابي: هل سيغفر لي غيابي؟ لا أظنّ. هل سأستعيد يومًا ما ابتسامته الحقيقيّة؟ كان من حولي يتساءلون عن المصير الذي يتهدّد ملايين البشر، كأنّه هذا أيضًا مصيري. لا تشغل بالي إلاّ ابتسامة واحدة، ابتسامة لن توقف القنابل الذرّيّة، ولا حيل لها ولا تغيّر شيئًا ولا أحدًا: بل كانت تحجب عنّي كلّ شيء. ردّدت: «هذا معيب». بالفعل، لم أعد أفهم شيئًا، وفي نهاية المطاف، أن أكون محبوبة، فهذا الأمر ليس غاية الوجود ولا علّته، وهذا لا يغيّر شيئًا ولا يؤدّي إلى شيء. حتى على المستوى الشخصي لا يوصلني هذا الحبّ إلى أيّ مكان. أنا هنا. روبير يتحدّث إلى هنري. ما يفكّر به لويس هناك، بم يمكنه أن يمسّني؟ أن أجعل مصيري متعلّقًا بقلب ليس إلاّ مجرّد قلب بين ملايين القلوب، فهذا يعني أنّني فقدت رشدي! حاولت أن أصغي إلى الحديث الذي يدور من حولي، لكن عبثًا. قلت في نفسي: ذراعاي باردتان. ثم فكّرت «تكفي اختلاجة

قلب ليس إلاّ، مجرّد قلب بين ملايين القلوب لأستعيض بها عن هذا العالم بكلّ رحابته واتّساعه. إنّ مقياس حياتي هو بالمقدار نفسه ابتسامة واحدة كما هو العالم بأجمعه. أن أختار بين الابتسامة أو العالم فهذا اعتباطيّ بالمقدار نفسه». على أيّ حال، لم يكن الخيار بين يديّ.

بعثت بجواب للويس. ولا بدّ أنّني وجدت الكلمات الملائمة لأنَّ نبرته في رسالته التالية كانت هادئة وواثقة. من الآن فصاعدًا كان يطلعني على مجريات حياته بنبرة صداقة متواطئة. باع كتابه لهوليود وبات ثريًّا. استأجر منزلاً على ضفّة بحيرة ميشيغان. بدا سعيدًا. كان الربيع قد حلّ. نادين وهنري تزوّجا. كانا سعيدين هما أيضًا. ولِمَ لا أكون سعيدة أنا أيضًا؟ استجمعت كل شجاعتي وكتبت: «أودّ أن أرى منزل البحيرة» بإمكانه أن يتجاهل هذه الجملة أو أن يقول لي: «السنة المقبلة، سترين المنزل». أو «لا أعتقد أنّك سترينه ذات يوم». عندما أمسكت بيديّ الظرف الذي كان يحتوي على جوابه، تصلّبت وكأنّني أواجه فرقة تنفيذ حكم الإعدام. قلت في نفسي: «كفى أوهامًا. إذا لم يقل شيئًا فهذا لأنّه لا يريد رؤيتي من جديد». بسطت الورقة الصفراء وقفزت الكلمات في الحال إلى عيني: «تعالي في آخر شهر تمّوز. سيكون المنزل قد أصبح جاهزًا». تهاويت على الديوان: في آخر لحظة مُنحت العفو. خفت كثيرًا قبل قراءتي ذلك لدرجة أنّ ذلك لم يبعث فيَّ أيّ بهجة.

ومن ثمَّ، أحسست يدي لويس على جلدي بكلّ قوّتهما، اختنقت: «لويس!» جالسة قربه في الغرفة في نيويورك، سألته: «هل

سنتقابل من جديد؟» فأجابني «تعالي». بين هذين الجوابين، لم يحدث شيء. وهذه السنة الموهومة اضمحلّت واستعدت جسدي الحيّ، أيّ معجزة! احتفلت بجسدي كما يُحتفل بعودة الابن الضالّ. أنا التي لا آبه بجسدي عادةً، طيلة شهر عشقته. أردته ملمّعًا، مصقولاً، مزيّنًا. أوصيت على فساتين للبحر والحمّامات الشمسيّة. ومن خلال الأقمشة القطنيّة المزدانة بالأزهار، باتت «البحيرة الزرقاء» في متناول يدي منذ اللحظة. كانت تطالعنا في واجهات المحالّ في تلك السنة تنانير طويلة حريريّة غريبة. اشتريت منها، ووافقت على أن تهديني بول أنفس عطر في باريس. هذه المرّة، استعدت ثقتي بوكالات السفر وبجواز السفر وبتأشيرة الدخول وبالخطوط الجويّة. بدت لي الطائرة، عندما دخلت إليها، آمنة مثل قطار الضواحي.

تدبّر روبير أمره لكي أحصل على الدولارات في نيويورك. عدت إلى الفندق الذي نزلت فيه خلال أوّل رحلة لي وخُصّصت لي الغرفة نفسها ولكن أعلى ببضعة طوابق. في الأروقة ذات الرائحة المفعمة، حيث يشعّ مصباح أحمر باهت اللون، استعدت الصمت نفسه كما في ذلك الزمان حين كان الفضول شغفي الوحيد. ولبضع ساعات، شعرت من جديد بلامبالاة. لم تعد باريس موجودة ولا شيكاغو بعد. مشيت في شوارع نيويورك دون أن ألوي على شيء. في صباح اليوم التالي انشغلت بهدوء في المكاتب والمصارف ومن ثمَّ صعدت إلى غرفتي من جديد لكي آتي بحقيبتي. نظرت في المرآة إلى المرأة التي سيضمّها لويس بين ذراعيه هذا المساء.

سيشعّث شعري بأصابعه. وسأخلع، بفعل قبلاته، البلوزة المخاطة من القميص الهنديّ. علقت على صدري الوردة التي ستُسحق بعد قليل وضمّخت عنقي بالعطر الذي أهدتني إيّاه بول. شعرت على نحو غامض بأنّني أحضّر ضحيّة ستُهرق على مذبح ذلك الرجل. وهذه الضحيّة ليست أنا. مرّة أخيرة حدّقت بالمرآة فوجدت أنّ طيف هذه المرأة يمكن أن يكون محبوبًا إذا كنت أنا ذاتي محبوبة.

حطّت الطائرة بي في شيكاغو بعد أربع ساعات. استقلّيت تاكسي. هذه المرّة عثرت على المنزل دون أيّ صعوبة. كان الديكور منصوبًا بدقة، اللافتة SCHILTZ تتوهّج قبالة المصلق الكبير. كان لويس جالسًا على الشرفة أمام طاولته منصرفًا إلى القراءة. أخذني بين ذراعيه وقال الكلمات المتوقّعة: «ها قد رجعت أخيرًا!». ربّما كان المشهد يجري بأمانة متوقعة للغاية. لم يكن يبدو حقيقيًّا فعلاً، لكأنّه نسخة مشوّشة قليلاً عن السنة الماضية. أو ربّما كنت فقط مربكة بفراغ الغرفة: «ما من رسمة فيها أو كتاب».

ــ ما هذا الفراغ!

ــ أرسلت كل شيء إلى باركر.

ــ هل المنزل جاهز؟ كيف هو؟

سترينه، سترينه عمّا قريب. عانقني وهو يهدهدني. ثمَّ قال وهو يبتسم ابتسامة صغيرة متفاجئة: «رائحتك غريبة. هل هي الوردة؟».

ــ لا، إنّها رائحتي أنا.

ـ لكن لم تكن رائحتك هكذا فيما مضى!

وفجأة، خجلت من العطر الأنفس في باريس، من القصّة المدروسة لقميصي وتنّورتي الحريريّة: ما جدوى كلّ هذه الزينة؟ لا يحتاج إليها لكي يشتهيني. تحرّيت فمه. لم أكن راغبة فعلاً في ممارسة الجنس لكنّي أردت التأكّد من أنّه لا يزال يشتهيني حقًّا. دعكت يداه حرير التنّورة. سقطت الوردة أرضًا وبلوزتي أيضًا. وتوقفت عن طرح الأسئلة.

نمت طويلاً. عندما استيقظت، كان وقت الظهيرة قد ولّى. وفيما كنت أتناول غدائي، حدّثني لويس عن جيراننا في باركر ومن بينهم دوروثي، وهي صديقة قديمة انفصلت عن زوجها إثر زواج تعيس فاشل. كانت تعيش مع ولديها الاثنين عند أختها وصهرها، على بعد ميلين أو ثلاثة من بيتنا. لم أهتمّ كثيرًا بدوروثي وربّما شعر بذلك لأنّه سألني فجأة:

ـ هل يزعجك أن أستمع إلى مباراة بايسبول على الراديو؟

ـ لا، إطلاقًا، سأقرأ الصحف.

قال لويس على عجلة من أمره.

ـ احتفظت لك بكلّ أعداد النيويوركرز. وأشرت إلى المقالات المهمّة الواردة فيها.

وضع على طاولة السرير كدسة من المجلات وأدار جهاز الراديو. تمدّدنا على السرير وبدأت أتصفّح أعداد النيويوركرز. لكنّي كنت مستاءة. غالبًا ما كنّا في السنوات السابقة نقرأ ونستمع

إلى الراديو جنبًا إلى جنب دون كلام. لكن اليوم، وصلت لتوّي ووجدت غريبًا ألاّ يفكّر لويس إلاّ في البايسبول عندما اضطجعت قربه. السنة الفائتة أمضينا النهار الأوّل بطوله نمارس الحبّ. قلبت الصفحة الأولى للصحيفة، لكنّي لم أستطع القراءة. هذه الليلة، قبل أن يلجني، أطفأ لويس النور ولم يمنحني ابتسامة من شفتيه ولم يتلفّظ باسمي. لماذا؟ نمت دون أن أطرح سؤالاً. لكنّ نسيان سؤال لا يعني الإجابة عليه. فكّرت: «لم يستعدني تمامًا بعد. هذا صعب. صبرًا. سيستعيدني». بدأت قراءة مقال ثم توقفت وحلقي منقبض. لا آبه بكتاب فوكنر الأخير وبكلّ الباقي. كان عليَّ أن أكون بين ذراعي لويس ولم أكن: لماذا؟ هذه المباراة في البايسبول لا تنتهي. ساعات مرّت ولويس لا يزال يستمع. ليتني استطعت على الأقلّ النوم، لكنّي كنت مترعة من كثرة النوم.

اتّخذت قراري، قلت ببشاشة:

ـ لويس، هل تعرف؟ أنا جائعة. وأنت؟

قال لويس:

ـ انتظري عشر دقائق. راهنت بثلاث زجاجات ويسكي على فريق الـ Géants. ثلاث زجاجات سكوتش مهمّة. أليس ذلك؟

ـ مهمّة جدًّا.

تعرّفت على ابتسامة لويس. أعرفها. وأعرف هذا الصوت الساخر والحنون. كلّ ذلك كان ليبدو طبيعيًّا في يوم آخر. في نهاية

المطاف، من الطبيعيّ أن يشبه اليوم كلّ الأيّام الأخرى. لكن، في الواقع بدت لي هذه الدقائق الأخيرة لامتناهية على نحو فظيع.

قال لويس بسعادة:

ــ ربحت. نهض وأطفأ الجهاز «أيّتها الجائعة الصغيرة المسكينة، سنطعمك!».

نهضت أنا أيضًا وسرّحت شعري:

ــ إلى أين تصطحبني؟

ــ ما رأيك بالمطعم الألماني القديم؟

ــ فكرة جيّدة.

كنت أحبّ هذا المطعم ولديّ فيه الكثير من الذكريات الطيّبة. تحدّثنا ببشاشة ونحن نتناول نقانق بالملفوف الأحمر. حدّثني لويس عن الأيّام التي أمضاها في هوليوود. وبعدئذٍ، اصطحبني إلى حانة المتشرّدين، ومن ثمّ إلى المرقص الأسود حيث كان يعرف بيغ بيللي فيما مضى. كان يضحك وكنت أضحك، بُعث الماضي من جديد.

وفجأة فكّرت: «ما أشبه اليوم بالأمس، ولكن... ». لماذا أشعر أنّ هناك عطبًا ما؟ ما الذي لا يسير على ما يرام؟ لكن، لا شيء، لا شيء إطلاقًا. قد أكون أنا التي أتوهّم. السفر في الطائرة أتعبني. كذلك انفعالي ساعة الوصول. بالطبع، كنت أهذي. قال لي لويس قبل ذلك بسنة: «لن أحاول مجدّدًا ألاّ أحبّك. لم يسبق لي أن أحببتك بهذا القدر». قال لي ذلك. كان ذلك بالأمس وكنت أنا وكان هو. في

سيّارة التاكسي التي أقلّتنا إلى سريرنا. ركنت إلى ذراعيه. كان هو فعلاً. كنت أعرف الدفء المنبعث من كتفه الخشنة. لم أستعد فمه. لم يقبّلني وفوق رأسي، سمعت تثاؤبًا.

لم أتحرّك. لكن، شعرتني أغرق في عمق الليل. فكّرت: «لا بدَّ أنَّ هذا هو الجنون». نوران مبهران مزّقا الظلمات. حقيقتان كلاهما أكيدتان ولا يمكنهما أن تكونا حقيقيّتين معًا: لويس يحبّني، وعندما يحتضنني بين ذراعيه يتثاءب. صعدت الدرج، خلعت ثيابي. يجب أن أطرح سؤالاً على لويس. سؤالاً بسيطًا جدًّا. وهذ السؤال يمزّق حلقي مسبقًا، لكن كلّ شيء أفضل من هذا الرعب المبهم. نمت. نام بقربي وتدثّر بالشراشف:

ــ ليلة سعيدة.

وما لبث أن أدار لي ظهره، تشبّثت به:

ــ لويس، ما الأمر؟

ــ لا شيء، أنا متعب.

ــ أقصد طيلة النهار، ما بك؟ ألم تستعدني؟

ــ استعدتك.

ــ إذًا لم تعد تحبّني.

خيّم صمت حاسم وبقيت منذهلة. طيلة السهرة، خفت. لكنّي لم أكن على يقين بأنّ لخوفي ما يبرّره. وفجأة لم يعد هناك مجال للشكّ فكرّرت: «ألم تعد تحبّني؟».

قال لويس بلهجة حالمة:

ـ أنا متعلّق بك كثيرًا، كثيرًا. لديَّ كثير من العاطفة تجاهك. لكن لم يعد ذلك حبًّا.

ها قد قالها بصراحة. سمعت هذه الكلمات بأذني ولا شيء بإمكانه محوها، لا شيء. لذت بالصمت. لم أعد أعرف، كيف ينبغي عليّ أن أتصرّف. أنا لا زلت كما أنا بالضبط والماضي، والمستقبل والحاضر، كلّ شيء انهار. بدا لي أنّ صوتي بالذات بات غريبًا عنّي.

ـ كنت أعرف ذلك. كنت أعرف أنّني سأفقدك لا مفرّ. منذ اليوم الأوّل عرفت ذلك. في نادي ديليز. لهذا السبب بكيت. كنت أعرف. والآن حدث ما خشيته. لكن كيف؟

ـ لم يحدث شيء بالأحرى. انتظرتك دون نفاد صبر هذه السنة. لا شكّ أنّ وجود امرأة إلى جانبي شيء ممتع. نتحدّث ونمارس الحبّ ومن ثمّ ترحل من جديد: ليس هناك ما يفقد الرشد. لكنّي قلت في نفسي ربَّما سيحدث شيء بيننا إذا رأيتك من جديد.

قلت بلهجة خافتة:

ـ فهمت. وشيء ما لم يحدث.

ـ لا!

فكّرت وأنا شاردة الذهن: «ربّما بسبب هذه الرائحة الغريبة وهذه الحرائر. عليَّ أن أستعيد صورتي الأولى. سأرتدي التايور نفسه الذي ارتديته السنوات الماضية! لكن بالطبع لا دخل لتنّورتي بذلك. سمعت صوتي من مكان بعيد جدًّا يقول:

ـ إذًا ماذا سنفعل؟

ـ لكن آمل فعلاً أن نمضي صيفًا رائعًا. ألم نمضِ نهارًا طيّبًا؟

ـ نهارًا كالجحيم!

ـ أحقًّا؟ قال والأسى بادٍ على وجهه: «كنت أظنّ أنّك لم تلاحظي شيئًا؟».

ـ لاحظت كلّ شيء.

فارقني صوتي. لم يعد باستطاعتي الكلام وعلى أيّ حال، ما جدوى الكلام!؟

السنة الفائتة، عندما حاول لويس أن يتخلّى عن حبّي شعرت عبر ضغينته وأمزجته السيّئة أنّه سيتوصّل إلى ذلك بشكل سيّئ: لكنّي عللت نفسي بالآمال. هذه السنة لم يعد يشعر بالإحراج تجاهي: لم يعد يحبّني. هذا واضح للعيان. لماذا؟ كيف؟ منذ متى؟ لا يهمّ. كلّ الأسئلة كانت غير مجدية. أن نواجه الواقع أمر ضروريّ ولكن قبل أن ينقطع الأمل، أمّا الآن فكنت واثقة أنْ لا رجاء يُرجى.

تمتمت:

ـ حسنًا، ليلة سعيدة.

للحظة، شدّني إليه: «لا أريد أن تكوني تعيسة» داعب شعري: «الأمر لا يستحقّ هذا العناء».

ـ لا تقلق من أجلي. أريد أن أنام.

قال:

ـ نامي، نامي جيّدًا.

أغمضت عينيّ. نعم بالتأكيد سأنام. شعرت أنّني أكثر إنهاكًا من النهار الذي يلي ليلة من الحمّى. فكّرت ببرودة: «لم يحدث أيّ أمر خطير! وإنّما ما حدث أمر طبيعيّ. اللاطبيعيّ هو أن يحدث شيء غير معلوم في المستقبل القريب... ماذا؟ لماذا؟».

في العمق، لم أفهم: الحبّ دومًا غير مستحقّ. أحبّني لويس دون سبب واضح. لم أفاجأ بذلك. الآن، لم يعد يحبّني. وهذا الأمر لا يفاجئني، لا بل إنّ هذا طبيعيّ جدًّا. فجأة انفجرت الكلمات في رأسي: «لم يعد يحبّني». أنا المعنيّة بهذا الحبّ ولم يعد يحبّني. كان عليّ أن أزعق حتى الموت. رحت أبكي. كلّ صباح، كان يقول: «لماذا تضحكين؟ لماذا أنت متورّدة هكذا، دافئة هكذا؟». لم أعد أضحك. كان يقول: «آن!». أبدًا لن يقولها بهذه النبرة. أبدًا لن أرى وجهه المنتشي والحنون. فكّرت عبر نحيبي: «يجب التعويض عن كلّ شيء. كلّ ما أعطي لي دون أن أطلبه، يجب أن أدفع مقابل سعادتي أضعاف ثمنها من دموعي. دوّت صفّارة في البعيد، قطارات تصفر. كنت أبكي. كان جسدي يفرغ ما به بارتعاشات قويّة حارّة. وأصبحت باردة ورخوة مثل جثّة عفنة. ليتني أستطيع أن ألغي نفسي تمامًا. على الأقلّ، ما دمت أبكي، فهذا يعني أنّه لم يعد هناك مستقبل لي، وأنّ رأسي فارغ. بدا لي أنّني أستطيع الانتحاب دون انزعاج حتى نهاية العالم.

كان الليل هو الذي أنهك أوّلاً. اصفرّ ستار المطبخ وارتسم ظلّ كثيف بخطوط واضحة. عمّا قريب، يجب أن أقف وأتلقظ كلمات وأواجه رجلاً نام دون دموع. لو أنّني أستطيع على الأقلّ أن ألومه على شيء لكانت الملامة قرّبتنا. لكن لا: كان فقط رجلاً لم يحدث له شيء. نهضت. في المطبخ، كان الصباح صامتًا وأليفًا، شبيهًا بصباحات كثيرة أخرى. سكبت كأسًا من الويسكي وجرعتها مع قرص من البنزيدرين.

قال لويس:

ـ هل نمت؟

ـ ليس كثيرًا.

ـ أنت مخطئة في ذلك.

راح ينهمك بأعماله في المطبخ. كان يدير ظهره وهذا ساعدني على التحدّث إليه:

ـ هناك شيء لم أفهمه. لماذا دعوتني إلى المجيء؟ كان عليك إبلاغي بأنّك غير راغب في حضوري.

قال لويس بحيويّة:

ـ لكنّي كنت بحاجة لأن أراك. التفت ثم ابتسم ببراءة: «أنا سعيد لأنّك هنا، سعيد لأنّني سأمضي الصيف معك».

ـ لكنّك نسيت أمرًا. وهو أنّني أحبّك. ما أصعب أن تعيش بالقرب من أحد تحبّه ولا يحبّك.

قال لويس بنبرة مستخفّة:

ـ لن تحبّيني دومًا.

ـ ربّما. ولكنّي الآن أحبّك.

ابتسم: «لديك من الحسّ السليم ما يكفي بحيث لن يدوم هذا طويلاً». ثم أضاف: «أقول لك بجدّيّة إنّه لكي نحبّ أحدًا حبًّا حقيقيًّا، يجب أن يكون الحبّ جامحًا. عندما يلعب الاثنان اللعبة، فإنّ الأمر يستحقّ العناء. لكن، عندما يكون الحبّ من طرف واحد، فالأمر يصبح سخيفًا».

نظرت إليه بحيرة. هل كان فعلاً غير واعٍ لحبّي أم أنّه يتظاهر بذلك؟ ربّما كان يتكلّم بصدق: ربّما فقد الحبّ كلّ أهمّيّة في نظره منذ توقف عن حبّي. على أيّ حال، سواء كانت أنانيّته متعمّدة أم غير واعية، فإنّها تثبت لي أنّي لم أعد أملأ حياته كما كنت في السابق. تمدّدت على السرير. كنت أشعر بألم في الرأس. أخذ لويس يرتّب الكتب في الصناديق، وتنبّهت فجأة إلى أنّني لم أتحرّ عن الأسباب. كنت مضطجعة على الغطاء المكسيكيّ وأنظر إلى الستار الأصفر والجدران. لم أعد محبوبة لكنّي لا أزال أشعر أنّي في دياري. ربّما كل هذا ينتمي إلى امرأة أخرى. ربّما كان لويس مغرمًا بامرأة أخرى. كانت هناك نساء في حياته. هذه السنة حدّثني عنهنّ. إنّ أيًّا منهنّ لم تبدُ لي مقلقة. لكنّه ربّما التقى إحداهنّ، واحدة لم يحدّثني عنها. ناديته:

ـ لويس!

رفع رأسه:

ـ نعم!

ـ يجب أن أطرح عليك سؤالاً: هل هناك امرأة أخرى في حياتك؟

قال باندفاعة:

ـ أوه، يا لله! لا! لن أعشق امرأة أخرى أبدًا!

تنهّدت: لقد نجوت من الأسوأ! هذا الوجه الذي لن أعود لرؤيته، وهذا الصوت الذي لن أسمعه، لن تتمتّع بهما امرأة أخرى غيري.

سألت:

ـ لماذا تقول هذا؟ من يدري فقد تُغرم.

هزّ لويس رأسه وقال بصوت متردّد قليلاً: «أظنّ أنني لم أُخلق للحبّ. قبل أن ألتقيك، لم تترك أيّ امرأة أثرًا في حياتي. قابلتك في اللحظة التي بدت لي فيها حياتي فارغة جدًّا: من أجل هذا لبَّيت طوعًا نداء هذا الحبّ بهذه اللهفة اللجوجة، ومن ثمَّ أفضى الأمر إلى حيث تعرفين». تفرّس بصمت وأضاف: «ومع ذلك إذا كان هناك من أحد وُجد من أجلي فهو أنت. بعدك لن أغرم بأيّ امرأة».

ـ أعرف.

كان صوته المتودّد يدفعني إلى الشعور بمزيد من اليأس. لو كان عدائيًّا وظالمًا لحاولت دون شكّ أن أدافع عن نفسي. لكن لا، بدا أسيانَ مثلي لما يحصل بيننا. زاد الألم في رأسي وتخلّيت عن طرح مزيد من الأسئلة عليه. السؤال الحاسم الوحيد: «لويس لو

أنّني بقيت، هل كنت استمررت في حبّي؟» لكنّ هذا السؤال غير مجدٍ لأنّني بالتحديد لن أبقى إلى ما لا نهاية معه.

ذهب لويس ليشتري أقراصًا منوّمة فابتلعت قرصين ونمت. استيقظت مذعورة. وقلت على الفور: «ضاع الحبّ من يدي!». جلست قرب النافذة. خلفي لويس يرتّب صحونًا. كان الطقس حارًّا جدًّا. أولاد يلعبون بالكرة بين نباتات القرّاص. فتاة صغيرة تتمايل فوق درّاجة ثلاثيّة، عضضت شفتي كي لا أنهار باكية. تابعت بنظراتي سيّارة فخمة طويلة حاذت الرصيف وأدرت رأسي: المنظر نفسه، الغرفة نفسها، فوق الستار الأصفر ارتسم ظلٌّ أسود. ولويس يرتدي أحد سراويله القديمة المرقعة. كان يصفّر. بات الماضي يحزنني ولم يعد بإمكاني تحمّله. نهضت:

ـ سأقوم بجولة.

استقلّيت سيّارة تاكسي وذهبت حتّى «لوب» ومشيت طويلاً. السير كالبكاء، يطلق العنان للأفكار. بدت لي الشوارع معادية. أحببت هذه البلاد لكنّ الأشياء تغيّرت في غضون سنتين وحبّ لويس لم يعد يحميني. الآن، أميركا تعني لي القنبلة الذرّيّة وخطر الحرب الداهم والفاشيّة الصاعدة. كان معظم الناس الذين التقيت بهم أعداء: وكنت وحيدة، محتقرة، ضائعة. تساءلت: «ماذا أفعل هنا؟» قبل حلول المساء وجدتني في أسفل لافتة Schiltz. وفي الطريق المسدود، كان الدخان يتصاعد من مستوعبات النفايات ممتزجًا برائحة الخريف اللذيذة. صعدت الدرج الخشبيّ ونظرت شاخصة إلى رقعة الداما الحمراء والبيضاء التي تموّه خزّان الغاز. مرّ قطار

في البعيد واهتزّت الشرفة. كان هذا بالضبط اليوم الأوّل والأيّام القادمة ستكون الأيّام الأخرى. «من الأفضل أن أعود إلى باريس»، هكذا، قلت في نفسي. أشرفت على زاوية الشارع حيث رحت، منذ الآن، أتهيّأ للرحيل. والتاكسي التي ستقلّني تسير في مكان ما من المدينة. سيوقفها لويس بحركة من يده أعرفها. سيصطفق باب السيّارة. وقد اصطفق من قبل مرّة ومرّتين وثلاثًا: وهذه المرّة ستكون نهائيّة. ما جدوى قضاء ثلاثة أشهر أشبه باحتضار. «ما دمت أرى لويس، وما دام يبتسم لي فلن تكون لي الجرأة على وضع حدّ لهذا الحبّ الذي جمعنا. ذلك أنّ القتل عن مسافة بعيدة سهل للغاية والكلّ قادر عليه». تشبّثت بالدرابزين: «لا أريد أن أقتل حبّنا».

لا، لا أريد أن يموت لويس ذات يوم بالنسبة لي كما مات دييغو. قال لي لويس في صباح اليوم التالي:

ـ آمل أن يعجبك منزلنا الجديد قرب كثبان الرمل.

ـ أوه، سيعجبني بكلّ تأكيد.

كدّس الكتب والمعلّبات الأخيرة في صناديق. كنت مسرورة لمغادرتي شيكاغو. على الأقلّ في باركر لن تساهم الأشياء في اجترار الماضي. ستكون هناك حديقة وسيكون لنا سريران، وهذا أقلّ تضييقًا على الأنفاس. أخذت أرتّب حقيبتي. وضعت في قعرها القميص الهنديّ. أبدًا لن أرتديه. بدا لي أنّ هناك شيئًا مشؤومًا في تطريزاته. رحت أرمي بلامبالاة كل هذه التنانير والبلوزات

وملابس البحر التي اخترتها بعناية كبيرة داخل الحقيبة. أقفلت الحقيبة من جديد، وملأت كأسًا من الويسكي لأشربها.

قال لويس:

ـ لا يجدر بك أن تشربي كثيرًا!

ـ ولم لا؟

ابتلعت قرص بنزيدرين. كنت بحاجة لبعض العزم لكي أجتاز هذه الأيّام حين توجّب عليَّ أن أكتشف، ساعة بعد ساعة، أنّ لويس لم يعد يحبّني. واليوم، أتى أصدقاء لاصطحابنا في سيّارتهم. لن تتسنّى لي دقيقة واحدة لأذهب وأبكي بهدوء في إحدى الزوايا.

ـ آن، إفلين، نيد.

صافحتهم. ابتسمت. اجتازت السيّارة المدينة، ثم مرّت قرب حدائق عامّة وعبرت الضواحي. تحدّثت إليَّ إفلين وأجبتها. اجتزنا سهلاً شاسعًا تنتشر فيه أفران صهر حديد، ومساحات من الأرض وغابات محلوجة بشكل متقن، وتوقّفنا في نهاية طريق تقطعها نباتات باسقة. كان هناك ممرّ من الحصى يقود إلى منزل أبيض. أمام المنزل، مرجة تنحدر بنعومة باتّجاه بحيرة. تأمّلت بعناية الكثبان اللامعة، والمياه التي تطفو فوق سطحها أزهار النيلوفر، وسياج الأشجار الكثيفة. سأعيش هنا لمدّة شهرين كما لو أنّني في بيتي. ومن ثمَّ سأرحل إلى غير رجعة!

قال لويس:

ـ كيف ترين المكان؟

ـ بديع!

في نهاية المرجة، إلى جانب فرن يغطّيه القرميد ويتصاعد الدخان من مدخنته، كان هناك أناس جالسون. صرخوا ببشاشة: «أهلاً بالساكنين الجدد!».

صافحت أناسًا: دوروثي، أختها فرجينيا، صهرها ويلي الذي كان يعمل في معامل الحديد المجاورة، وبرت الضخم الذي كان مدرّسًا في شيكاغو. كانت هناك شرائح همبرغر تُشوى على الصفيح الأسود للفرن. تصاعدت رائحة البصل المشوي على نار الأحطاب، مثيرة للشهيّة. أحدهم قدّم لي كأس ويسكي فأفرغتها دفعة واحدة: كنت أشعر بظمأ لا حدود له. قالت دوروثي:

ـ أليس هذا البيت كنزًا؟ البحيرة هي بالضبط خلف الكثبان. هناك قارب صغير يجتاز البحيرة: وبأقلّ من خمس دقائق تستطيعين بلوغ الشاطئ.

دوروثي امرأة سمحاء، ذات وجهٍ قاسٍ، تتحدّث بحماس. كانت قد أغرمت بلويس. إلاّ أنّني لمحت دفئًا صادقًا في نظرتها.

قالت:

ـ في المساء، سيكون الأمر رائعًا بإعداد العشاء وتناوله في الهواء الطلق، الغابات مليئة بالأغصان اليابسة التي تستلزم فقط جمعها.

توجّه لويس إليّ ببشاشة قائلاً:

ـ سأشتري لك فأسًا صغيرة. وعندما لا تحسنين التصرّف، سأعاقبك بتقطيع الحطب. أمسكني من ذراعي: «تعالي لرؤية البيت». استرجعت على وجهه وهج اللهفة السعيدة، وتلك الابتسامة الفخورة التي أشرقت بها نظرته فيما مضى.

ـ قطع الأثاث الباقية تصل غدًا. هنا سنضع الأسرّة. والغرفة التي في العمق، ستكون المكتبة.

من يرنا يظنّنا عاشقين يحضّران عشّهما. عندما عدنا إلى الحديقة كنت ألمح في نظرات الجميع فضولاً متواطئًا. سألت فرجينيا: «هل احتفظتما بمكان إقامة في شيكاغو»؟

ـ نعم.

كانت نظراتهم تربكنا، وكنت أقول: «لويس وأنا»، كنت أقول «نحن» سنبقى هنا طيلة الصيف. لا، لا نملك سيّارة، نأمل فعلاً في أن يـأتوا لرؤيتنا. كان لويس يقول: «نحن»، هو أيضًا، ويتكلّم بحيويّة. لقد تحدّثنا قليلاً جدًّا منذ وصولي. وكانت هذه المرّة الأولى التي أراه فيها بهجًا. الآن، يحتاج إلى الآخرين ليكون مبتهجًا. كان الطقس أكثر برودةً من شيكاغو، ورائحة العشب تشعرني بالدوار. كنت بحاجة لأن ألقي عنّي هذا الثقل الذي يشدّ على صدري وأدخل إلى قلبي القليل من المسرّة.

ـ آن، هل تريدين القيام بجولة في المركب؟

ـ أوه! أودّ فعلاً.

كانت حباحب اللّيل تنشر أنوارها عند الغسق فيما نزلنا الدرج الصغير. جلست في القارب وابتعد به لويس عن الضفة. التفّت أعشاب جيلاتينيّة حول مجذافيه. على المستنقع، فوق الكثبان كانت اللّيلة ليلة ريفيّة حقيقيّة. ولكن فوق الجسر، السماء حمراء وبنفسجيّة، وكأنّها سماء مصطنعة تظلّل مدينة كبيرة، محروقة بالنيران المنبعثة من مصاهر الحديد. قلت: «المناخ هنا جميل على غرار مناخ المسيسيبّي».

ــ نعم، وفي بضعة أيّام، سيكون لدينا قمر مكتمل.

كانت هناك نار مخيّم تفرقع في سفح الكثبان. بين الفينة والأخرى التمعت نوافذ بين الأشجار. وإحداها نافذة بيتنا الجديد. وكما كلّ النوافذ التي تلتمع في اللّيل البعيد، كانت تعد بالسعادة.

قلت:

ــ دوروثي قريبة من القلب.

قال لويس:

ــ نعم، مسكينة دوروثي. تعمل في أحد المحلات في باركر ويقدّم لها زوجها دخلاً متواضعًا. لديها ولدان وعليها أن تحيا كلّ حياتها هنا، دون أن يكون لديها منزل خاصّ بها: هذا شاقّ.

كنّا نتحدّث عن الآخرين مع بعضنا البعض. والمياه القاتمة تعزلنا عن العالم. صوت لويس رقيق، وابتسامته أليفة. تساءلت فجأة: «هل فعلاً انتهى كلّ شيء؟» استسلمت حالاً لليأس بدافع الكبرياء، لكي لا أكون شبيهة بجميع النساء اللواتي يكذبن على

انفسهن، وأيضًا بدافع الحذر لكي أريح نفسي من الشكوك وطول الانتظار وخيبة الأمل: ربّما استعجلت أكثر ممّا ينبغي. إنّ جسارة لويس ومغالاته في الصراحة لم تكونا طبيعيّتين. في الواقع، لم يكن مستخفًّا ولا قاسيًا. ولم يكن ليعلن بهذه الفظاظة لامبالاته لو لم تكن صادرة عن قرار اتّخذه. لعلّه اتّخذ قرارًا بوضع حدّ لعلاقتنا. ليكن: إنّ اتّخاذ قرار شيء وتنفيذه شيء آخر.

قال لويس:

ــ يجب أن نعطي اسمًا لمركبنا الصغير. ما رأيك بأن نسمّيه آن؟

ــ سأكون فخورة بذلك!

ها هو ينظر إليّ بوجه من وجوهه السابقة. هو الذي اقترح عليّ نزهة العاشقين هذه. ربّما بدأ يسأم من الركون إلى حكمته الزائفة. ربَّما بدأ يتردّد في انتزاعي من قلبه. عدنا إلى اليابسة وما لبث ضيوفنا أن رحلوا. تمدّدنا في السرير الضيّق الموضوع موقتًا في آخر المكتبة، جنبًا إلى جنب. أطفأ لويس الضوء.

ــ هل تعتقدين أنّ المكان سيعجبك هنا؟

ــ دون شكّ سيعجبني المكان!

أسندت خدّي إلى كتفه العارية. داعب برفق ذراعي والتصقت به. شعرت بدفء ذراعيه وتذكّرت رائحته المعهودة ولم يعد لديّ لا كبرياء ولا حذر. استعدت طعم رضابه حتى كدت أذوب من اللذّة فيما راحت يدي تزحف إلى بطنه الدافئ. كان يبادلني تلك الرغبة

هو أيضًا. والرغبة بيننا حبّ. شيء ما عاد يجمعنا هذه الليلة. أنا متأكّدة. وفجأة تمدّد فوقي وولجني وامتكلني دون كلمة، ودون قبلة. حصل ذلك بسرعة كبيرة لدرجة أنّني بقيت منذهلة.

بادرت إلى القول:

ـ ليلة سعيدة.

قال لويس وهو يلتفت ناحية الجدار:

ـ ليلة سعيدة.

شعرت بغضب مسعور وتمتمت: «لا يحقّ له التصرّف على هذا النّحو». لم يمنحني حضوره لحظة واحدة، بل تعامل معي وكأنّني آلة لذّة. حتى لو لم يعد يحبّني لا يفترض به أن يتصرّف على هذا النّحو. نهضت. أكره دفئه. انتقلت إلى غرفة الجلوس لأستريح قليلاً وبكيت حتى جفّت مآقيّ من الدموع. لم أعد أفقه شيئًا. كيف عاد جسدانا غريبين إلى هذا الحدّ، جسدانا اللذان أغرم أحدهما بالآخر كثيرًا؟ كان يقول: «أنا سعيد جدًّا وفخور جدًّا». كان يقول «آن»، وبيديه وشفتيه وعضوه، وبكلّ جسده يمنحني قلبه: كان هذا بالأمس. كلّ هذه الليالي التي لا تزال ذكراها تحرقني: تحت الغطاء المكسيكي، على فراشنا الذي هدهده المسيسيبي، في ظلّ الناموسيّات، أمام نار تتصاعد منها رائحة الصمغ.. ألن تُبعث أبدًا تلك الليالي الدافئة؟

عندما عدت إلى السرير منهكة، استوى لويس مستندًا إلى كوعه وسألني: هل هذا برنامجك للصيف؟ تمضية نهارات سعيدة ومن ثمّ تمضية الليل بالبكاء والنحيب؟!».

قلت بعنف:

ـ آه، لا تتحدّث معي بتلك النبرة المتعالية! أبكي من الغضب. ممارسة الحبّ هكذا على البارد. هذا فظيع، لا يحقّ لك ذلك.

ـ لا أستطيع أن أبعث الدفء في جسد لا يبادلني بالدفء.

ـ إذًا لا يجدر بك أن تمارس الحبّ معي.

قال بهدوء:

ـ كنت راغبة في الأمر إلى حدّ بعيد. لم أشأ إلاّ أن أستجيب لرغبتك.

ـ كان من الأفضل لك أن ترفض. وأفضل أن نتّخذ القرار بعدم ممارسة الجنس.

ـ هذا بالطبع أفضل، لا سيّما إذا كنت ستمضين الليل في البكاء من بعدها. حاولي أن تنامي.

لم يكن هناك عداء في صوته. فقط لامبالاة. كان هدوؤه يربكني. بقيت مضطجعة على ظهري وعيناي شاخصتان. أسمع هدير أمواج البحيرة في البعيد ترافقها ضجّة المعامل. هل كان لويس يقول الحقيقة؟ هل كنت أنا المذنبة؟ نعم، دون أيّ شكّ. أنا المذنبة: ليس لأنّني استجديت مداعباته بل لأنّني عللت نفسي بالآمال الكاذبة. بالتأكيد، لويس لم يكن منسجمًا مع ذاته في السلوك الذي

يسلكه معي. هذا ما يفسّر مزاجه المتقلّب. لكن، بالنسبة لرجل مثله، ليس هناك مسافة بين رفض الحبّ وغيابه. والنتيجة هي أنّه لم يعد يحبّني. لقد مات الماضي وولّى إلى غير رجعة. إنّه أشبه بموت دون جثّة، كموت دييغو: وهذا ما يجعل تصديقه أمرًا صعبًا. ليتني أستطيع أن أبكي على قبر حتى أشعر ببعض العزاء.

قال لي لويس في صباح اليوم التالي وقد بدت على وجهه دلائل القلق:

ــ هذه العطلة تبدأ بشكل سيّئ.

قلت:

ــ لا، ليس هناك ما يدعو إلى القلق. اترك لي الوقت لأعتاد وكلّ شيء سيكون جيّدًا.

قال لويس:

ــ أودّ أن يسير كلّ شيء على ما يرام! يبدو لي أنّنا نستطيع أن نمضي وقتًا طيّبًا معًا. عندما لا تلجئين إلى البكاء أتفاهم جيّدًا معك.

كانت نظرته تتحرّاني. وكان هناك الكثير من سوء النيّة في تفاؤله. كان لويس يستخفّ بمشاعري. ومع ذلك فإنّ قلقه صادق. يؤسفه أن يسبّب لي ألمًا.

قلت:

ــ أنا واثقة من أنّنا سنمضي صيفًا جميلاً.

كان هذا شبيهًا بصيف جميل. كلّ صباح نجتاز المستنقع في القارب، المستنقع بأعشابه الجيلاتينيّة. انحدرنا على الكثبان الرمليّة

التي ألهبت خدّيّ. نحو الجهة اليمنى، كان الشاطئ المقفر يمتدّ إلى ما لانهاية ؛ يسارًا، كان الشاطئ ينتهي عند معامل صهر الحديد التي تنبعث منها شرارات اللهب. سبحنا وعرّضنا أجسادنا للشمس ونحن نراقب الطيور البيضاء الجاثمة على قوائمها الطويلة تنكش بمناقيرها الطويلة رمال الشاطئ. ثم عدنا إلى المنزل محمّلين كهنود بأغصان الأشجار اليابسة.

أمضيت الساعات وأنا أقرأ فوق المرجة قرب السناجب الرماديّة وطيور أبو زريق، وغيرها من الطيور ذات الصدور الحمراء. في البعيد، تُسمع طرطقة لويس على الآلة الكاتبة. في المساء، نشعل نارًا في فرن الآجرّ فأذوّب قطعة من الجليد في وعاء يحتوي على فرّوج مفكّك المفاصل. أو يقطّع لويس بمنشار لحم العجل المتجلّد. ثم نشوي على الجمر عرانيس الذرة المغلّفة بأوراق رطبة. كنّا نستمع جنبًا إلى جنب إلى الأسطوانات، أو نشاهد على شاشة التلفزيون فيلمًا قديمًا أو مباراة في الملاكمة. كانت سعادتنا تحاكي الأيّام الغابرة لدرجة أنّه بدا لي بين الفينة والأخرى أنّها ستصبح حقيقيّة.

وانطلت الخدعة على دوروثي، وبهرتها. تأتي غالبًا في المساء ممتطية درّاجتها الحمراء وتفوح منها رائحة الهمبرغر. تتنشّق رائحة عود الكرمة وتقول: «ما أروعها ليلة! هل ترون الحباحب، هل ترون النجوم ونيران المخيّمين فوق الكثبان؟». كانت تصف لي بنهم هذه الحياة التي لن تكون أبدًا حياتي. تغرقني بمجاملاتها ونصائحها وتأسرني بتفانيها. هي التي اهتمّت بأثاث المنزل وهي

التي تزوّدنا بالطعام، وتؤدّي لنا جملة من الخدمات البسيطة. وتصل دومًا محمّلة برسائل عجيبة: وصفة طعام، نوع جديد من الصابون، كرّاس يروّج لآخر أنواع الغسّالات، مقال نقدي يبشّر بكتاب سيُحدث صدًى. بإمكانها أن تحلم لأسابيع بالحسنات التي يقدّمها برّاد متقن الصنع مؤهّل للاحتفاظ بطنّ من القشدة الطازجة لمدّة ستّة أشهر. لا تملك سقفًا يحمي رأسها ومع ذلك فهي مشتركة في مجلّة ديكور، تتأمّل فيها بلذّة عارمة بيوت أصحاب المليارات الخرافيّة. استمعت بصبر إلى مشاريعها التي لن تبصر النور أبدًا، وإلى الصيحات المتحمّسة والثرثرة الهاذية لامرأة لم تعد تأمل من هذه الحياة شيئًا. غالبًا ما ينزعج لويس منها ويقول لي: «سوف يصعب عليّ العيش بجوارها!» لا، لم يكن باستطاعته أن يتزوّج من دوروثي، ولم يكن باستطاعتي أن أتزوّج منه. ولم يعد يحبّني. هذه الحديقة وهذا المنزل يوفّران السعادة لأيّ امرأة غيري وغيرها.

ذات يوم أحد، اجتذبتنا دوروثي إلى السوق الشعبيّة في باركر. كانت تعبد الرحلات الجماعيّة. جاء برت ليقلّنا في سيّارته واصطحبت دوروثي في سيّارتها القديمة فيرجينيا وويلي وإفلين. لم يستطع لويس رفض دعوتها لكنّه ذهب دون حماسة. أمّا أنا فأغاظني هذا المشروع: بعد الظهر هذا سيتخلّله الانشراح واللذّة ثم يستتبعه عشاء عند فيرجينيا... خشيت ألاّ أصمد حتى النهاية في لعب دور الزوجة السعيدة.

قال لويس وهو يدخل إلى مدينة الملاهي:

ــ يا مصيبتي! أيّ مكان هذا! ما هذا الغبار!

قالت دوروثي:

ــ أنت! أفّ منك! لا تبدأ في التذمّر. ثمّ التفتت نحوي: «عندما يخطر له أن يكون متجهّم المزاج، يحسن بالشمس أن تنطفئ».

أشرق وجهها بشيء من الأمل المجنون فيما راحت تهرول نحو مرمى السهام. انتقلت من كشك إلى كشك وكأنّها تتوقّع القيام باكتشافات خارقة. أمّا أنا فدأبت على الابتسام متأمّلة بكلّ الفضول الذي أتيح لي أن أستجمعه في داخلي، القرود الماهرة والراقصات العاريات والرجل القفمة والمرأة جذع الشجرة. آثرت الألعاب التي تقتضي الانتباه الكلي للجسد. قلّبت بشغف الأوتاد والمعلّبات، واقتدت سيّارات قزمة وطيّارات عبر سماوات مرسومة. كان لويس يراقبني بنظرات ماكرة. «غريب! ما أشدّ ما تأخذين الأمور على محمل الجدّ! تتصرّفين وكأنّ حياتك كلّها مرهونة بذلك!».

هل كان عليَّ أن أستشفّ عبر ابتسامته أشياء يضمرها؟ هل كان يعتقد أنّني حمّلت الحبّ الجدّيّة التافهة نفسها والحميّة الزائفة نفسها؟

قالت دوروثي بحيويّة: «هذا أفضل من أن يشعر المرء عند كل مناسبة بالسأم والملل». ثم أمسكت بذراعي بحزم. وعندما مررنا أمام منصّة مصوّر فوتوغرافي، داعبت بيدها الخشنة حرير ثوبي:

«خذي صورة لك مع لويس! ثوبك جميل جدًّا وهذه التسريحة تلائمك تمامًا».

قالت فيرجينيا:

ـ أوه! نعم. نودّ فعلاً أن نحتفظ لك بصورة! تردّدت. أمسكني لويس من ذراعي وقال ببشاشة: «تعالي نخلّدك في صورة. لأنّك جذّابة جدًّا على ما يبدو».

ففكّرت بحزن: «جذّابة في نظر الآخرين، أمّا بالنسبة له فأبدًا». جلست قربه أمام لوحة رُسم عليها مطار. وشقّ عليّ أن أبتسم. لم يلاحظ أثوابي. وبالنسبة له لم أعد أملك جسدًا وبالكاد أملك وجهًا. ليتني على الأقلّ أستطعت استيعاب أنّ كارثة حلّت بي وشوّهتني! لكن هذا أنا، أنا كما أحبّني ولم يعد يحبّني. واندفاعة دوروثي شاهدة على ذلك وهي التي أفقدتني توازني كلّه. صرت شخصًا ذائبًا، وتداعيت، فيما عليَّ أن أحافظ على تماسكي وأبتسم حتى منتصف الليل.

قالت دوروثي:

ـ لويس، يجب أن نلازم إفلين، فالشمس أتعبتها. تريد أن تجلس في الظلّ.

عندما تعود من المرحاض، قدّم لها كوب شراب فيما نحن سنذهب لمشاهدة تماثيل الشمع. قال لويس:

ـ آه، لا! لست أنا من يجب أن يلازمها.

ـ لكن يلزمها رجل ليهتمّ بها. فهي لا تعرف برت ولا يمكنها أن تتحمّل ويلي.

قال لويس:

ـ لكنّي لا أستطيع تحمّل إفلين.

قالت دوروثي بغضب:

ـ حسنًا سأبقى أنا معها.

هممت بالذهاب مكانها لكنّها قالت: «لا، آن، ليس أنت، اذهبي. اذهبي! ومن ثم نلتقي وتحدّثينني عمّا جرى».

عندما ابتعدنا، قلت للويس:

ـ لماذا لست لطيفًا مع دوروثي؟

ـ لكنّها هي التي دعت إفلين للمجيء. لم يطلب منها أحد دعوتها.

تخلّيت عن النقاش، ورحت أتأمّل تماثيل الشمع، أتأمّل القتلة مجمّدين في جريمتهم بالقرب من ضحاياهم المجمّدين في موتهم. جالسة على سرير نفساء، كانت فتاة مكسيكيّة صغيرة في الخامسة من عمرها تهدهد مولودًا. غورينغ[1] يحتضر فوق حمّالة

(١) غورينغ: مارشال ألماني، وليّ عهد هتلر، بطل حرب ١٩١٤. وفي الحزب النازي كان قائد القوّات الجويّة من ١٩٢٥ إلى ١٩٤٥. شجب هتلر تصرّفه، وحمكت عليه محكمة نورمبرغ بالموت فانتحر.

ومشنوقون في بزّات عسكريّة ألمانيّة يتأرجحون فوق المشانق. خلف أسلاك شائكة، جثث من الشمع تتكدّس مشكّلة مقبرة جماعيّة هائلة. تأمّلتها منذهلة. ها إنّ بوشنفالد وداشو يعودان بالذاكرة إلى عمق التاريخ، بعيدًا كالمسيحيّين الذين التهمتهم الأسود في متحف غريفان. عندما وجدتني في الخارج شعرت بدوار في الرأس من أشعّة الشمس، كانت أوروبّا بأكملها قد انسلّت خارجة من المتحف وغابت مضمحلّة في أقصى السماء. نظرت إلى النساء بأكتافهنّ العارية وإلى الرجال بقمصانهم المزهرة، وهم يلتهمون النقانق أو يلحسون البوظة: لا أحد يتكلّم لغتي. حتى أنا نسيتها. فقدت كلّ ذكرياتي وصورتي أيضًا: لم تكن في منزل لويس مرآة على مستوى نظري. كنت أتبرّج على عجلة من أمري في مرآة للجيب. بالكاد أذكر من أنا، ورحت أتساءل عمّا إذا كانت باريس لا تزال موجودة.

سمعت دوروثي تقول بصوت غاضب:

ـ تقرّر الذهاب ولا تطلب رأي آن. يبدو أنّهم سيعرضون في السابعة أفلامًا قديمة صامتة. وتحدّثوا لي عن مهرّج مذهل.

كان في صوتها توسّل. لكن الجميع لم يستجيبوا لرغبتها.

قال ويلي:

ـ آه، لنرجع! هناك مارتيني في انتظارنا، والجميع جائعون.

تمتمَت:

ـ الرجال أنانيّون جدًّا!

جلست بينها وبين ويلي في سيّارتها القديمة، كانت متذمّرة للغاية فلاذت بالصمت طيلة الطريق، وأنا أيضًا. عندما نزلنا من السيّارة، أمسكت بيدي وقالت بفظاظة: «لماذا لا تبقين هنا؟ عليك أن تبقي».

ـ لا أستطيع.

ـ يا للأسف الشديد! لكن لماذا؟

ـ لا أستطيع.

ـ لكن هل ستعودين؟ عودي في الربيع: الربيع هنا أحلى الفصول.

ـ سأحاول.

قلت في نفسي بغضب وأنا أدخل إلى المنزل: لكن، بأيّ حقّ تتحدّث إليّ هكذا؟ لماذا كلّ هذا اللّطف الذي لا نفع فيه، فيما لم يقل لي لويس مرّة واحدة: «هل ستعودين؟». سارعت إلى الإمساك بكأس المارتيني التي ناولني إيّاها ويلي. أحسست بانفعال شديد وتأمّلت بخيبة المائدة المزدحمة بالفطائر وأصناف السلطة والحلوى: سيطول الوقت قبل أن نفرغ منها! اختفت دوروثي. عادت وقد طلت وجهها ببودرة بيضاء، وارتدت فستانًا طويلاً مزدانًا بالأزهار، مثيرًا للشفقة. ووصل برت، وفيرجينيا وإفلين ولويس ضاحكين. كانوا يتكلّمون جميعهم معًا ولم أحاول أن أشارك أو أستمع إلى الحوار. نظرتِ إلى لويس الذي كان من جديد في ذروة البهجة، وتساءلت: «متى سأكون بمفردي معه؟». هكذا تحيّنت فيما

مضى رحيل تيدي ورحيل ماريّا. لكنّ نفاد صبري كان اليوم أشدّ. بعيدًا عن الآخرين، لن يكون لويس أقرب إليّ. وضع برت فوق ركبتيّ صحنًا من السندويشات. ابتسم لي وسمعته يسألني:

ـ هل كنت في باريس في ٢٤ آب ١٩٤٤؟

أجابه لويس بفخر:

ـ آن أمضت طيلة الحرب في باريس.

قال برت:

ـ ما أجمل ذلك النهار! كنّا نعتقد أنّنا سنجد مدينة يخيّم عليها شبح الموت، فيما شاهدنا في كلّ مكان نساء جميلات يرتدين أثوابًا زاهية الألوان، وسيقانهنّ الجميلة سمَّرتها الشمس، مختلفات تمامًا عن الفرنسيّات كما نتخيّلهنّ في أميركا!

قلت:

ـ نعم، فوجئ مراسلوكم عندما رأوا نساء فرنسا المتعافيات.

قال برت:

ـ أوه! إنّهم قلّة من الأغبياء! ما أسهل أن نفهم أنّ المرضى والعجائز لم يكونوا يتجولّون في الشوارع ولا المنفيّون ولا الموتى. أصبح وجهه العريض حالمًا: «ومع ذلك كان نهارًا رائعًا».

قال ويلي بأسى:

ـ عندما وصلت، ويا للأسف، لم يعد الفرنسيّون مرتاحين إلى وجودنا.

قال برت:

ـ نعم، سرعان ما أثرنا مشاعر الكراهية. تصرّفنا كالوحوش.

قال لويس:

ـ بطبيعة الحال!

ـ كان بالإمكان تفادي ذلك، كان يكفي القليل من الانضباط.

قال لويس باندفاع:

ـ هل تعتقد أنّنا لم نشنق ما يكفي من الناس؟ نزجّهم في أتون الحرب، ومن ثمَّ عند أوّل اغتصاب نشنقهم!

قال برت:

ـ حسنًا. شنقنا الكثيرين، لكنّ السبب هو بالضبط عدم أخذنا الإجراءات اللازمة منذ البداية.

قال ويلي:

ـ أيّ إجراءات؟

قالت دوروثي:

ـ «يا مصيبتي! إذا بدأوا يستعيدون أخبار الحرب فلن ننتهي أبدًا».

التمعت وجوه المحاربين الثلاثة حماسة. وأخذوا يتحدّثون بطلاقة عن تعاطفهم مع فرنسا الذي لا يرقى إليه الشكّ. لم تكن لديهم تجاه بلادهم أيّ مراعاة. ومع ذلك استمعت إليهم بانزعاج: كانوا يذكرون الأدوار التي لعبوها أثناء الحرب. تلك الحرب لم تكن

إلاّ ذريعة سخيفة. كانت وساوسهم حيالنا أشبه بوساوس رجل حيال امرأة ضعيفة أو بهيمة خاضعة. وها إنّهم يفبركون من تاريخنا خرافات من شمع. عندما صمتوا أخيرًا، سألتني إفلين بصوت سقيم:

ــ وكيف هي باريس الآن؟

قلت:

ــ يغزوها الأميركيّون.

قال لويس:

ــ لا يبدو أنّ هذا يسرّك. أيّ شعب ناكر للجميل! لقد أتخمناهم بالحليب المجفّف وأغرقناهم بالكوكا كولا والصهاريج، ولا يخرّون أمام أقدامنا ساجدين! أخذ يضحك: «اليونان، الصين، فرنسا، ساعدناهم، ونساعدهم، وسنساعدهم: نحن أمّة تبذل المساعدة كأفراد فرقة كشفيّة».

قالت دوروثي بصوت عدائيّ:

ــ وتجد ما تقوله ظريفًا. ما أروع حسّ الدعابة الذي تملكه! هزّت كتفيها: «عندما نفجّر القنابل النوويّة على أهل الأرض كلّها، سيتحفنا لويس ببعض الفكاهات السوداء».

نظر إليَّ لويس ببشاشة: «أليس فرنسيًّا من قال إنّه من الأفضل أن نضحك من الأشياء بدل أن نبكي عليها؟».

قالت دوروثي:

ــ ليست المسألة متعلقة بالبكاء ولا بالضحك بل بالفعل.

تبدّلت ملامح لويس:

ـ أصوّت لوالاس، وأؤيّد مواقفه، وأدعو له: ماذا تريدين أن أفعل أكثر؟

قالت دوروثي:

ـ تعرف رأيي بوالاس. لن يستطيع هذا الرجل تكوين حزب يساري حقيقي. إنّه فقط مجرّد شاهد زور لمن يرغب في شراء ضمائر الناس بسعر بخس.

قال ويلي:

ـ يا مصيبتي! إنّ حزبًا يساريًّا حقيقيًّا لن يكون لويس هو القادر على إنشائه، ولا أيّ واحد منّا..

قلت:

ـ ومع ذلك فأنتم كثر ويجمعكم تفكير مشترك مشابه: أليست هناك من وسيلة لتنخرطوا في مجموعة واحدة؟

قال لويس:

ـ بداية، عددنا يقلّ يومًا بعد يوم. ومن ثمَّ نحن معزولون.

قال دوروثي:

ـ ومع ذلك تلجأ إلى السخرية لأنّك عاجز عن القيام بأيّ عمل مفيد.

ـ أنا أيضًا، كانت السخرية المسالمة للويس تغيظني أحيانًا. كان نافذ البصيرة، ممتلكًا لحسّ نقديّ مرهف، وغالبًا ما كان

يستهجن ما يحدث. لكنّه يبرّر الأخطاء والعيوب التي ترتكبها الولايات المتّحدة بميل هو أشبه بصلة المريض الذي يتآلف مع مرضه أو المتشرّد مع الأوساخ التي تغطّي جسده. وهذا كافٍ ليبدو متواطئًا مع ما يجري. وقلت فجأة ما دمتُ لم أتبنّ بلاده، بالمقابل لا يريد الإقامة في بلادي. لذا كان موقفه ينمّ عن تبجّح فعليّ. احتججت في نفسي قائلة: «لن أصبح أميركيّة مهما حصل». وفيما كانوا يواصلون خصامهم، تساءلت بمتعة من أين أنجبت في داخلي كوليت بودوش[١] هذه المتعصّبة لبلادها.

أقلّنا برت من جديد بسيّارته إلى منزلنا. ضمّني لويس بين ذراعيه وهو يسألني:

ـ هل أمضيت نهارًا جيّدًا؟

كانت ابتسامته المتودّدة تملي عليَّ جوابي. أمّا حالاتي النفسيّة فلا تعني أحدًا.

قلت:

ـ نعم، جيّد جدًّا. ثم أضفت: «كم كانت دوروثي عدائيّة؟».

قال لويس:

---

(١) كوليت بودوش: شابّة من ميتز، الشخصيّة الرئيسيّة في روايى موريس باريّس التي يحمل عنوانها اسم البطلة نفسه. تحكي الرواية قصّة حبّ مستحيلة بين شابّ ألماني وابنة صاحب الشقّة حيث يسكن. تمجّد الرواية المشاعر القوميّة والوطنيّة المتحمّسة.

ـ ليست سعيدة. ثم أضاف بعد تفكير: «ولا فيرجينيا أيضًا ولا ويلي ولا إفلين. هذه فرصة طيّبة فعلاً أن يسود بيننا الرضى أنا وأنت».

ـ لست راضية.

ـ تمرّين بأوقات سيّئة كالجميع، لكنّها حالات عابرة. كان يتحدّث بثقة كبيرة ولم أجد جوابًا. ثم أردف: «إنّهم كالعبيد تقريبًا: هم أسرى أزواجهم وزوجاتهم وأولادهم. هذه هي مصيبتهم».

قلت:

ـ السنة الفائتة، قلت لي إنّك تتمنّى أن تتزوّج.

ـ أحيانًا أفكّر بالزواج. أخذ لويس يضحك: «لكن ما إن أسجن في منزل مع امرأة أو بمفردي حتى تخطر لي فكرة وحيدة: النجاة بنفسي».

أشعرني صوته البهج بثقة في النفس فسألته:

ـ لويس، أتظنّ أنّنا لن نلتقي أبدًا من جديد؟

فتجهّم وجهه في الحال وقال بلهجة مستخفّة:

ـ ولم لا؟

ـ لأنّ كلاً منّا يقطن في مكان بعيد جدًّا عن الآخر.

ـ نعم، نقطن في مكان بعيد.

وتوارى في غرفة الحمّام. هكذا هي الحال دومًا: ما إن أقترب منه حتى يتنصّل. لا شكّ أنّه يخشى أن أطالبه بدفء ما أو بأكاذيب

أو بوعود لا يستطيع تلبيتها لي. بدأت أخلع ثيابي. كنت أحدس بأنّ هذا الحديث المنفرد معه مواجهة سيكون مخيّبًا: ولم أكن أقلّ خيبة أنا نفسي. لحسن حظّي، كان جسدي يتلاءم مع جسد لويس، ما جعلني أتطابق مع لامبالاته دون مشقة، كنّا نرقد في سريرينا وتفصلنا هوّة سحيقة من جليد، ولم أعد أفهم معنى كلمة: رغبة.

وتمنّيت أن يكون قلبي بهذا التساهل. كان لويس يدّعي أنّه لكي يحبّ الإنسان، يجب أن يركب رأسه. سأفترض أنّني كففت عن ركوب رأسي؟ استسلم لويس للنوم ورحت أستمع إلى تنفّسه المنتظم. وللمرّة الأولى، حاولت أن أراه بعينين مغايرتين لعينيّ: بعيني دوروثي العدائيّتين. صحيح أنّه أنانيّ. قرّر أن يجني من حكايتنا أكبر قدر ممكن من المتعة وأقلّ قدر ممكن من الانزعاج. وما أشعر به من ناحيتي، لم يكن يأبه له. جعلني آتي إلى شيكاغو دون أن ينبّهني إلى شيء، لأنّ رؤيتي تجلب له المسرّة. وما إن أصبحت تحت رحمته حتى أعلن لي دون لباقة أنّه لم يعد يحبّني. ورغم ذلك فهو يفرض عليَّ أن أظهر أمامه بمظهر لائق: لا يهتمّ إلاّ بنفسه في الحقيقة. وباختصار، لماذا يدافع عن نفسه بهذه الحدّة لتفادي الحسرات والمشاعر الجامحة والآلام؟ هذا الحذر ليس نبيلاً ولا ينمّ عن شهامة. حاولت في صباح اليوم التالي أن أقوّي من عزيمتي وأن أعتمد معه أسلوب القسوة. نظرت إلى لويس يروي مرجة الحديقة بهيئة شاردة وقلت «إنّه رجل كغيره من الرجال. لماذا أصرّ إلى هذا الحدّ على اعتباره فريدًا؟». سمعت سيّارة البريد. انتزع الساعي العلم الأحمر الصغير الموضوع على علبة

الرسائل ورماه في داخلها مع بريد الرسائل. صعدت الممرّ المحصب. ما من رسائل بل كومة صحف ومجلات. سأقرأ الصحف ومن بعدها أختار كتابًا من المكتبة. ثم أذهب للسباحة، ومن بعدها أستمع إلى الأسطوانات بعد الظهر: بإمكاني أن أفعل الكثير من الأشياء الممتعة دون أن أعذّب فكري أو قلبي.

هتف لويس:

ـ آن! تعالي وانظري. أمسكت بقوس قزح. كان يروي المرجة وقوس قزح يتراقص في نافورة الماء. «تعالي بسرعة».

أعرف هذا الصوت الملحّ والأليف، هذا الوجه الفرح: وجه لا يشبه أيّ وجه آخر. إنّه لويس، هو فعلاً. كفّ عن حبّي لكنّه بقي هو نفسه. لماذا خطر لي فجأة أن أسيء الظنّ به؟ لا، لا أستطيع أن أتخلّى عن هذه العلاقة بأبخس الأثمان. في الحقيقة، كنت أفهمه. أنا أيضًا أكره الشقاء وأنفر من التضحيات: أدركت أنّه يرفض أن يتعذّب لأنّه سيخسرني يومًا. كان منصرفًا بكلّيّته لتصفية حساباته مع قلبه بالذات، وهذا ما جعله غير قادر على الاكتراث بالمشاعر التي تنتابني، والاهتمام بالتالي لما يجري في قلبي. ثمَّ تذكّرت نبرته عندما قال لي وهو يقبض على كتفي بقوّة: «أتزوجّك في الحال!» من هذه اللحظة طردت كلّ ضغينة من قلبي إلى الأبد. عندما نريد حقًّا أن نكفّ عن الحبّ، تتحقق رغبتنا: لكنّ هذه الرغبة ليست طوع إرادتنا.

تابعت إذًا حبّي للويس: لم يكن ذلك مريحًا. تكفي نبرة من صوته لكي أندفع وأستعيده بكلّيّته. وبعد دقيقة، أفقده مجدّدًا. عندما

ذهب لإمضاء يومين في شيكاغو عند نهاية الأسبوع، شعرت حقًّا بالعزاء: أربع وعشرون ساعة من الوحدة، سيكون ذلك بمثابة فترة استراحة. رافقته حتى محطة توقف الباص، وعدت ببطء إلى المنزل، على طول الطريق التي تحفّ بها الحدائق والدارات البديعة. جلست على المرجة ومعي كتب. كان الطقس حارًّا جدًّا. ما من ورقة تتحرّك. وفي البعيد، البحيرة صامتة. انتزعت من حقيبتي رسالة روبير الأخيرة. كان يقصّ عليّ فيها بالتفاصيل محاكمة مدغشقر. كتب هنري مقالاً سيصدر في العدد المقبل من *Vigilance* لكن هذا غير كافٍ البتّة. يجب أن يكون لديهما تحت تصرّفهما جريدة يوميّة أو مجلة أسبوعيّة واسعة الانتشار، للتأثير في الرأي العامّ. حاولوا إقامة مؤتمر لكنّ الوقت لا يسمح لهما. طويت الرسالة من جديد. واكبت بنظراتي طائرة عبرت السماء: طيلة الوقت تعبر الطائرات. بإمكان واحدة منها أن تقلّني إلى باريس. لكن ما جدوى ذلك؟ لو كنت بالقرب من روبير، لكان حدّثني بدل أن يكتب لي، ولا شيء أكثر من ذلك. لا يمكنني فعل شيء لأجله، ولم يكن يطالبني بشيء. ولا توجد أسباب موجبة للعودة. نظرت من حولي. العشب محلوج جيّدًا. السماء ملساء، والسناجب والعصافير كحيوانات أليفة. لكن ليس لديّ أيضًا أيّ سبب لأبقى هنا أيضًا. أخذت كتابًا: «الأدب في نيوإنغلند». لو عاد بي الزمن سنة إلى الوراء لكان هذا الكتاب أثار اهتمامي. لكن الآن، لم أعد أكترث بماضي لويس ولا ببلاده. كلّ هذه الكتب المكدّسة فوق المرجة بقيت خرساء. تمطّيت: ما العمل؟ ليس هناك ما يدعو إلى القيام بأيّ

عمل. بقيت متسمّرة هنا، صامدة، لوقت بدا لي طويلاً. وفجأة، أصبت بالذعر. أن أصبح مشلولة، عمياء، صمّاء وبوعي كامل هل ثمّة مصير أسوأ من ذلك؟ لكنّه مصيري. نهضت في نهاية المطاف وعدت إلى المنزل. أخذت حمّامًا. غسلت رأسي لكنّي لم أقدر على الاعتناء طويلاً بجسدي. فتحت البرّاد: إبريق من عصير البندورة، سلطات جاهزة، لحوم مبرّدة، حليب. يكفي أن أمدّ يدي لأتناول ما أريد. كانت الخزائن مليئة بالمعلّبات والمساحيق العجيبة. كان هناك أرزّ يكفي أن يغلي لدقيقة حتى ينضج. تناولت عشائي في ظرف ربع ساعة. لا شكّ أنّ هناك أساليب عديدة لقتل الوقت لكنّها غريبة عنّي. ما العمل؟ استمعت إلى بعض الأسطوانات، ومن ثمَّ أدرت جهاز التلفزيون وبدأت أتسلّى بالانتقال من قناة إلى أخرى، مازجة الأفلام بالمسرحيّات الكوميديّة والمغامرات ونشرات الأخبار، والقصص البوليسيّة بالحكايا الخرافيّة. لكن، في لحظة ما، حدث شيء ما هناك في العالم. عبثًا أدرت الزرّ، بقيت الشاشة بيضاء. فكّرت بالنوم. لكن للمرّة الأولى في حياتي، خفت من المتشرّدين والسارقين والمجانين الهاربين من المصحّات. خفت من النوم، من الأرق. البحيرة تهدر والبهائم تدوس بأرجلها الأغصان اليابسة. في البيت، الصمت خانق. حصّنت الأبواب كلّها وذهبت إلى غرفتي لآتي بغطاء ووسادة، ونمت بملابسي على الديوان تاركة النور مضاء. غفوت. عندئذٍ، دخل رجال عبر النوافذ المغلقة وصرعوني بضربة واحدة. عندما استيقظت، سمعت عصفورًا يغنّي وآخر يتنقّل على غصون الأشجار ويفحصها بنقدات من منقاره. فضلّت

كوابيسي على الحقيقة. أغمضت عينيّ من جديد لكنّ النهار كان طالعًا تحت أجفاني. نهضت. أيّ فراغ في هذا المنزل! كم يبدو المستقبل عاريًا من كلّ ألفة! كنت أنظر بانفعال إلى المبذل الأبيض الموضوع كيفما اتّفق على الكنبة، والخفّ العتيق المنسيّ تحت المكتب. الآن، لم أعد أعرف ماذا تعني هذه الأشياء. كانت تنتمي إلى لويس. نعم، كان لويس موجودًا دومًا: لكنّ الرجل الذي يحبّني اختفى دون أن يترك أثرًا. كان هذا لويس، هو بالذات، وكنت في منزله وكأنّني عند رجل غريب.

خرجت وصعدت الممرّ المحصب: اختفى علم صندوق البريد. مرَّ الساعي. أخذت الرسائل. كانت هناك رسالة لي. ميريام سافرت إلى المكسيك برفقة فيليب، ولدى رجوعهما، ينويان التوقّف في شيكاغو ويرجوان لقائي. لم ألتقِ بهما منذ ١٩٤٦، مع أنّ نانسي أتت إلى باريس في شهر أيّار الماضي، وأعطيتها عنواني في أميركا. ليس عجيبًا أن تراسلني ميريام، لكنّي نظرت إلى الرسالة بذهول. ذكّرتني بزمن لم يكن لويس فيه موجودًا بالنسبة لي. كيف أصبح غيابه هذا الفراغ المفترس؟ فراغ يلتهم كلّ شيء. كانت الحديقة ميتة والذكريات أيضًا. من المستحيل أن أهتمّ لحظة واحدة بميريام أو بفيليب أو بأيّ شيء. وحده هذا الرجل الذي أنتظره يملأ كياني ويحلو في عيني. ولم أعد أعرف حتى من يكون. ولم أعد أعرف من أكون أنا نفسي. درت في الحديقة ومشيت طولاً وعرضًا في المنزل. ناديت: «لويس! عد! أنقذني!». اجترعت الويسكي والبنزيدرين: عبثًا. هذا الفراغ الذي لا يطاق يخيّم عليّ. جلست

بالقرب من الواجهة الزجاجيّة مترصّدة مجيئه. «لويس»! كانت الساعة الثانية عندما سمعت خطواته على الحصى. اندفعت للقائه. كانت ذراعاه محمّلتين بالرزم: كتب وأسطوانات وشاي من الصين وزجاجة كيانتي. لكأنّها هدايا. لكأنّ هذا اليوم يوم عيد. أخذت الزجاجات من يده.

ــ كيانتي؟ فكرة حسنة! هل تمتّعت بوقتك؟ هل ربحت في البوكر؟ ماذا تريد أن تأكل: شريحة لحم؟ دجاج؟

قال لويس:

ــ تناولت الغداء. وضع رزمه جانبًا. خلع حذاءه وانتعل خفّه.

ــ شعرت بالذعر طيلة الليل من دونك: حلمت أنّ متشرّدين تسللوا إلى المنزل وحاولوا أن يقتلوني.

ــ أعتقد أنك شربت الكثير من الويسكي.

ذهب للجلوس على الكنبة بالقرب من الواجهة الزجاجيّة، وجلست على الديوان: «أخبرني عن رحلتك».

ــ لا شيء يفوق الوصف.

استقبلته بالتعاسة التي تستقبل بها النساء اللواتي لم يعد أزواجهنّ يحبّونهنّ: أي بالكثير من الحماس، والكثير من الأسئلة، والكثير من الورع. روى لي ما جرى معه من طرف شفتيه. نعم، لعب بالبوكر. لم يربح ولم يخسر. دخل تيدي إلى السجن للأسباب نفسها. لا، لم يرَ مارتا. رأى برتِ لكنّهما لم يتكلّما عن شيء خاصّ. كان يبدو عليه الاستياء حين أطلب منه تفصيلاً. واختتامًا للحديث أخذ

جريدة وفتحت كتابًا، ورحت أتظاهر بقراءته. لم أتناول غدائي، ولكن لا رغبة لي في تناول الطعام.

تساءلت: «لكن ما الذي أتوقّعه بعد اليوم؟». فقدت كلّ أمل باستعادة الماضي. إذًا، ماذا أتوقع؟ صداقة قادرة على الحلول مكان الحبّ المفقود؟ لكنّ هذا لن يكون أمرًا عظيمًا. لا شيء يمكنه أن يقوم مقام الحبّ. كانت تلك النهاية أشبه بالموت. ومن جديد، فكّرت: «لو أنّه يتبقى لي جثّة بين ذراعيّ!». أردت الاقتراب من لويس، أن أضع يدي على كتفه وأسأله: «كيف أنّ مثل هذا الحبّ تبخّر؟ اشرح لي!»، لكنّه سيجيبني: «ليس هناك ما يستحقّ الشرح».

اقترحت:

ـــ ألا تريد القيام بجولة على الشاطئ؟

قال دون أن يرفع بصره:

ـــ لا، لا رغبة لي في ذلك.

ساعتان فقط مرّتا. كان أمامي طيلة بعد الظهر لنمضيها معًا، ومن ثم السهرة والليل ويوم آخر وأيّام أخرى... كيف السبيل إلى قتل الوقت؟ لو أنّ هناك سينما في الجوار؟ أو لو أنّ هناك ريفًا حقيقيًّا تحيط به الغابات والبراري، لأسير فيه حتى تُنهك قواي لكانت الأمور أهون عليّ. لكنّ هذه الطرقات المستقيمة المحفوفة بالأشجار أشبه بساحة سجن. ملأت كأسي. كانت الشمس، تلمع ومع ذلك فالنور ليس من القوّة بحيث يُبقي الأشياء على مسافة منّي، بل

كانت تسحقني. كانت أحرف كتابي تلتصق بعينيّ وتعمي بصيرتي. لا مجال لقراءتها. حاولت التفكير بباريس وروما وبالماضي والمستقبل. مستحيل. كنت محتبسةً في سجن هذه اللحظة، موثقة اليدين والغلّ يطوّق عنقي. وزني يسحقني وأنفاسي تسمّم الهواء: أردت أن أنعتق من نفسي، وهذا بالضبط ما لا أستطيع فعله. فكّرت: «وددت فعلاً أن أتخلّى عن ممارسة الحبّ، أن أرتدي ملابس سيّدة عجوز، وأن ينتشر الشيب في رأسي: لكنّي لا أقدر على الافتراق عن ذاتي فأيّ عذاب هذا». لامست يدي الزجاجة ثم تركتها. منذ زمن دأبت على تناول الكحول. كانت الكحول تتلف معدتي دون أن تسكرني أو تدفئني. ما الذي سيحدث؟ يجب أن يحدث شيء ما: لا يمكن لهذا العذاب الجامد أن يستمرّ إلى ما لا نهاية. لويس لا يزال يقرأ وخطر لي إلهام مفاجئ: «ليس هو الرجل نفسه!» الرجل الذي كان يحبّني اختفى واختفى معه لويس. كيف استطعت أن أنخدع! لويس! أذكره تمامًا! كان يقول: «لديك جمجمة صغيرة جميلة، مستديرة كليًّا.. هل تعرفين كم أحبّك؟» كان يعطيني زهرة ويسألني: «هل يأكلون الأزهار في فرنسا؟» ما الذي صار بحاله ومن الذي حكم عليَّ بهذه المواجهة المشؤومة مع رجل زائف؟ وفجأة، سمعت صدى ذكرى كريهة: ذكرى تثاؤب.

قلت ودموعي تنهال:

ـــ آه، لا تتثاءب!

قال:

ـــ آه، لا تبكي!

وارتميت بطولي على الديوان كأنّما سقطت من شاهق. تراءت أسطوانات برتقاليّة أمام عينيّ، وسقطت في الظلمات.

قال لويس بغضب:

ـ عندما تبدئين بالبكاء، أشعر برغبة في الرحيل وعدم العودة.

سمعته يترك الغرفة. كنت أغيظه وأزيد في المسافة التي تفصلني عنه. كان عليَّ أن أتوقّف. للحظة، قاومت، ثم غرقت في الهاوية بعيدًا جدًّا. سمعت خطوات. كان لويس يسير في الطابق الأرضي. سقى أزهار الحديقة ثمّ عاد إلى البيت. تابعت البكاء:

ـ ألم تنتهي بعد من البكاء؟

لم أجب. كنت مرهقة لكنّي واصلت البكاء. غريب! ما أغزر الدموع في عيني المرأة! توجّه لويس ليجلس أمام مكتبه وأخذ يضرب على آلته الكاتبة. فكّرت: «إنّه رقيق القلب لا يحتمل رؤية كلب يتعذّب. أنا أبكي بسببه، وعلى الرّغم من ذلك فإنّه يراني ولا يقوم بأيّ بادرة تجاهي». عضضت على أسناني وأخذت عهدًا على نفسي بألاّ أكرهه، هذا الرجل الذي فتح لي قلبه دون تحفّظ. كرّرت: «لكنّه لم يعد هو نفسه!» اصطكّت أسناني. كنت على شفا أن أصاب بنوبة عصبيّة. قمت بجهد مزّق جسدي من رأسي حتى أخمص قدميّ. فتحت عينيّ وشخصت إلى الحائط. صرخت:

ـ ماذا تريدني أن أفعل؟ أنا هنا، محتبسة، محتبسة معك، ولا أستطيع الذهاب لأرقد في حفرة.

قال بلهجة أكثر دفئًا بقليل:

ـ يا إلهي! كم تتسبّبين بالعذاب لنفسك بلا طائل!

قلت:

ـ أنت من يعذّبني، ولا تحاول حتى أن تساعدني.

ـ ماذا بإمكاننا أن نفعل في مواجهة امرأة تبكي؟

ـ لو كان أحد سواي بحاجة إلى مساعدتك لسارعت إلى مساعدته.

ـ أكره أن أراك تفقدين رشدك.

ـ أتظنّ أنّني أتعمّد ذلك؟ أوتظنّ أنّه من السهل أن تعيش مع أحد تحبّه ولا يبادلك هذا الحبّ؟

ظلّ جالسًا في كنبته. لم يعد يبحث عن الهرب. لكنّي أعرف أنّه لن يتفوّه بالكلمة التي كنّا بحاجة إليها لنختتم هذا المشهد. وكان عليَّ أنا أن أبحث عن خاتمة للحديث. تلقّطت صدفة بهذه الكلمات: «لست هنا إلاّ لأجلك! عندما أثقل عليك فماذا سيصير بحالي؟».

قال:

ـ ليس هناك ما يدعو للنحيب، فلا رغبة لي في التحدّث بكلّ ما ترغبين في سماعه. هل ينبغي عليّ تنفيذ كلّ ما تطلبين؟

ـ آه، لكم أنت ظالم. جففت دموعي ثم أضفت: «أنت الذي دعوتني لقضاء الصيف هنا، وقلت لي إنّك ستكون سعيدًا إذا حضرتُ إلى هنا. إذًا لا يفترض بك أن تكون لامباليًا إلى هذا الحدّ.

ـ لست لامباليًا. عندما تبدئين بالبكاء، أرغب في الرحيل، هذا كلّ شيء.

قلت:

ـ لا أبكي معظم الأحيان. فتلت منديلي بين يديّ: «ألم تتنبه للأمر؟ لكأنّني في بعض الأحيان عدوّتك، لكأنّك تسيء الظنّ بي، هذا أمر فظيع».

ابتسم لويس نصف ابتسامة:

ـ أسيء الظنّ قليلاً.

ـ ليس لك الحقّ. أعرف جيّدًا جدًّا أنّك لم تعد تحبّني. لن أطلب منك أبدًا أيّ شيء شبيهًا بالحبّ. وأبذل ما في وسعي لكي نكون على علاقة طيّبة.

قال لويس:

ـ نعم، أنت لطيفة جدًّا. ثم أضاف: «لكنْ لهذا السبب بالذات أسيء الظنّ بك». وعلا صوته: «لطفك هو السلاح الأخطر الذي تستخدمينه! بهذا اللطف غلبتني السنة الفائتة. لسنا بحاجة إلى أن ندافع عن أنفسنا في مواجهة أحد لا يهاجمنا، إذًا لا مبرّر للدفاع عن أنفسنا في هذه الحالة. لكن عندما أعود وحدي مجدّدًا، يصبح قلبي مشوّشًا، سقيمًا، متقلبًا. لا، لا أريد أن يتكرّر هذا».

نهضت، قمت ببعض الخطوات في محاولة منّي لتهدئة روعي. أن يأخذ عليّ لطفي. لا، هذا أمر غير محتمل.

قلت:

ـ لا، أستطيع أن أتعمّد أن أكون بغيضة! تصعّب عليَّ الأمور كثيرًا. إذا كان الأمر هكذا فلا أرى أمامي إلاّ حلاً واحدًا وهو أن أرحل.

ـ لكن لا أريدك أن ترحلي! هزَّ كتفيه: «لست في أفضل حال أنا أيضًا».

ـ أعرف.

لا شكّ أنّني لا أستطيع أن أغضب منه. تمنّى أن يبقيني قربه إلى الأبد. وأنا رفضت: إذا كان مزاجه اليوم على هذا التقلّب ورغباته بهذا التنافر، فلا يجب أن أتفاجأ. يقع المرء في تناقض مع نفسه بالضرورة عندما يضطرّ للقيام بأشياء أخرى غير التي يرغب فيها فعلاً.

قلت:

ـ لا أرغب في الرحيل. لكن عليك ألاّ تمعن في كرهي.

يبتسم:

ـ لم نصل إلى هذا الحدّ.

ـ لكن منذ قليل، أوشكت أن تتخلّى عنّي وتدعني أموت في مكاني دون أن تحرّك ساكنًا.

ـ هذا صحيح. لم أكن لأحرّك ساكنًا. لكن ليس الخطأ خطئي: كنت أشبه بمشلول.

اقتربت منه. ما دمنا بدأنا الكلام، أردت الاستفادة من الفرصة هذه.

قلت:

ـ أنت مخطئ إذ تسيء الظنّ بي. ثمّة أمر يجب أن تعرفه: لا أحقد عليك ولن أحقد عليك أبدًا، لأنك أقلعت عن حبّي. ليس هناك من سبب لكي تستاء من المشاعر التي أكنّها تجاهك. ما من شعور لديّ يستوجب نفورك منّي.

صمتُّ. نظر إليَّ بشيء من القلق. كان خائفًا من الكلمات. وأنا أيضًا. رأيت نسوة كثيرات يحاولن أن يسترن بالكلمات حسرات أجسادهنّ. أعرف منهنّ الكثيرات اللواتي استطعن أن يسقن إلى السرير رجلاً أسكرته الكلمات. إنّه أمر فظيع: حين تخاطب المرأة عقل الرجل من أجل أن تصل إلى غايتها الجسديّة منه. إلاّ أنّني أضفت:

ـ نحن صديقان، لويس. أليس كذلك؟

ـ بالطبع! أحاطني بذراعيه. وهمس: «آسف لأنّني كنت بهذه القسوة».

ـ آسفة لأنّني بهذه البلاهة.

ـ نعم! أيّ بلهاء أنت! ولكن خطرت لك فكرة جيّدة مع ذلك: لماذا لم تذهبي لترقدي في حفرة؟

ـ لأنك لن تأتي للبحث عني.

ضحك: «بعد ذلك بيوم، أبلغ الشرطة عن اختفائك».

قلت:

ـ ليس من العدل أن يكون الربح إلى جانبك في كلّ حين: لن أستطيع أبدًا أن أعذّب نفسي لمدّة يومين ولا أن أحاول تعذيبك ساعة واحدة.

ـ هذا صحيح! ليس هناك شرّ كبير في هذا القلب المسكين، ولا الكثير من الحكمة في هذا الرأس!

ـ لأجل هذا، يجب أن تكون لطيفًا معي.

قال وهو يضمّني ببشاشة إلى صدره:

ـ سأحاول.

منذ ذلك الوقت، راحت المسافة تتضاءل بيننا. عندما كنّا نتنزّه على الشاطئ. عندما كنّا نضطجع في الشمس، أو حين نستمع مساءً إلى الأسطوانات. كان لويس يحدّثني بعفويّة. بُعث تفاهمنا من جديد. لم يعد يخشى أن يعانقني ويقبّلني. لا بل مارسنا الحبّ مرّتين أو ثلاثًا. عندما أحسست فمه يبحث عن فمي، أخذ قلبي بالخفقان حتى الجنون: قبلات الرغبة تشبه فعلاً قُبل الحبّ! لكنّ جسدي ما لبث أن استعاد تماسكه. لكأنّها رغبة في وصال وجيز بين زوجين، أو لكأنّها ممارسة هي من السخف بحيث يصعب أن نفهم كيف يمكن أن تقترن هذه الممارسات بالأفكار المتّصلة بالشهوة والخطيئة.

مرّت النهارات دون كبير مشقّة. أمّا الليالي فكانت شاقة بالنسبة لي. أهدتني دوروثي ذخيرة من الأقراص الصغيرة الصفراء. كانت تمتلك مجموعة من الحبوب والأقراص والكبسولات لكافة

الاستعمالات. أبتلع دومًا قرصَيْ منوّم أو ثلاثة قبل أن أخلد للنوم. لكنّ نومي كان حافلاً بالكوابيس. ولاحقًا، أمضّني ألم جديد: ها إنّي في غضون شهر، أو خمسة عشر يومًا أو عشرة أيّام، سأرحل، فهل سأعود ذات يوم؟ هل سأرى لويس من جديد؟ لا شكّ أنّه هو نفسه لا يعرف الجواب وليس قلبه خير دليل للمستقبل.

قرّرنا أن نمضي الأسبوع الأخير في شيكاغو. ذات مساء اتّصلت بي ميريام من دنفر لكي تسألني عمّا إذا كنّا نستطيع أن نتلاقى. أجبتها بنعم، واتّفقنا أنا ولويس أن أسبقه إلى شيكاغو بيوم: سألتقي به في المنزل في اليوم التالي حوالى منتصف الليل. في تلك اللحظة، بدا لي الأمر سهلاً جدًّا. لكن، صبيحة الرحيل، شعرت بشجاعتي تخونني: تنزّهنا على طول الشاطئ. كانت البحيرة شديدة الاخضرار، كثيفة لدرجة خلنا أنّنا نستطيع السير على صفحة مياهها: فراشات ميتة مضطجعة على الرمل. البيوت الريفيّة جميعها مقفلة، ما عدا كوخ الصيّادين الذين كانوا يجفّفون شباكهم بالقرب من قارب أسود. فكّرت: «إنّها المرّة الأخيرة التي أرى فيها البحيرة. المرّة الأخيرة في حياتي». نظرت بملء عينيّ، ليرسخ المشهد في ذاكرتي. ولكي يبقى الماضي حيًّا، يجب أن نغذّيه بحسراتنا ودموعنا. كيف يمكن الاحتفاظ بهذه الذكريات؟ وكيف للقلب أن يتّقي عذابها؟ قلت فجأة: «سأتّصل بأصدقائي وأقول لهم إنّي غير آتية».

ــ لماذا؟ ماذا خطر ببالك؟

ــ أفضّل البقاء هنا يومًا إضافيًّا.

قال لويس معاتبًا إيّاي، وكأنّه لا يستغرب شيئًا في العالم كما يستغرب انقلابًا في المزاج:

ــ لكنّك كنت سعيدة جدًّا برؤيتهما.

ــ لم تعد لديّ رغبة بذلك.

هزّ كتفيه، وفي الواقع كان البقاء عبثيًا إذا ما اعتبره لويس كذلك. أن يفقدني يومًا واحدًا أو أن يراني يومًا إضافيًّا، هذا لا يعني له شيئًا. إذًا، ما الذي سأحظى به فيما لو تأخّرت يومًا إضافيًّا على هذا الشاطئ؟ ودّعت الجميع، قالت دوروثي: «هل ستعودين؟» وأجبتها: «نعم». هيّأت حقائبي وتركتها في عهدة لويس ولم أحمل معي إلاّ حقيبة صغيرة فيها ملابس النوم. عندما أغلق وراءنا باب المنزل سألني: «ألا تريدين أن تلقي نظرة صغيرة على البركة؟». هززت رأسي وسرت نحو محطّة توقف الباص. لو أنّه كان يحبّني كفاية لما كان رحيلي عنه فاجعًا. لكنّ الصقيع اجتاحني في الداخل: كنت بحاجة إلى حضوره لكي أشعر بالدفء. في هذا البيت جعلت لي عشًّا غير مريح، لكنّه مقرّ في النهاية وقد تأقلمت معه. خفت من أن أسير على غير هدى في الهواء الطلق ولا ملجأ آوي إليه.

توقف الباص. طبع لويس على خدّي قبلة رتيبة: «تسلّي واستمتعي بوقتك»، وأغلق باب الباص، ثم توارى. عمّا قريب باب آخر سيصطفق بوجهي ويختفي لويس إلى الأبد عن ناظري. كيف سيكون بإمكاني العيش بعيدًا عنه بعد هذه الحقيقة المرّة التي أواجهها؟ عندما جلست في القطار، كان المساء قد حلّ وبدت السماء بلون ورديّ شبيه بالشاي. ثمّ أدركت أنّه بالإمكان أن نغيب

عن الواقع بتنشّق رائحة الوردة. عَبَرَ القطار بنا البراري ومن ثمَّ دخل إلى شيكاغو، تعرّفت إلى الواجهات، بآجرّها الأسود المرتفع فوق الأدراج وشرفات الخشب. المنزل الذي احتضن حبّي لم يعد منزلي بل بات نسخة من آلاف النسخ.

نزلت في المحطّة المركزيّة. كانت نوافذ المباني مضاءة ولافتات النيون بدأت تلمع. المصابيح والواجهات المزيّنة وضجيج الشوارع الهائل... كل ذلك جعلني أشعر بدوار في الرأس. توقفت عند ضفّة النهر. كانت الجسور مرفوعة، وسفينة شحن ذات مداخن سوداء تخترق النهر بمهابة وتقسم المدينة الممتلئة إلى شطرين.

انحدرت ببطء إلى البحيرة بمحاذاة الضفة القاتمة حيث تتوهّج نيران حبيسة. هذه الحجارة الشقافة، هذه السماء المرسومة، هذه المياه التي تتصاعد منها أضواء مدينة غارقة في ضجيجها، ليست حلمًا حلَمَه أحد آخر غيري. كانت هذه المدينة مأهولة تعجّ بالحياة، وحقيقيّة. مدينة على هذه الأرض حيث كنت أمشي بشحمي ولحمي. ما أجملها تحت ديباجها الفضّي! نظرت إليها بكليّتي، وشيء ما دندن في قلبي بخجل. نخال أنّ الحبّ هو الذي يعطي للعالم كلّ بريقه. لكنّ العالم أيضًا يفيض بكنوزه وثرواته الغنيّة. كان الحبّ ميتًا. أمّا الحياة فلا تزال ثابتة في مكانها كما كانت عليه من قبل بأناشيدها الخفيّة، وروائحها وحنانها. شعرتُني منفعلة كما المتماثل إلى الشفاء الذي يكتشف أنّ الشمس لم تنطفئ فيما كان يرزح تحت وطأة الحمّى التي انتابته.

ميريام وفيليب لم يعرفا شيكاغو من قبل، لكنّهما تدبّرا أمرهما لنتلاقى في المطعم الأكثر تكلّفًا في المدينة. فيما كنت أجتاز القاعة المترفة، توقفت أمام المرآة. كانت هذه المرّة الأولى منذ أسابيع عدّة التي أرى فيها صورتي من قمّة رأسي إلى أخمص قدميّ في المرآة. سرّحت شعري وتبرّجت كسكّان المدن. أخرجت بلوزتي المخاطة من القماش الهنديّ من قبرها. كانت ألوانها نفيسة كما في شيشيكاستننغو. لم أشخ ولم أتشوّه. ولم تكن رؤية صورتي أمرًا مقيتًا. جلست في البار وتذكّرت بدهشة، وأنا أحتسي كأسًا من المارتيني، أنّ هناك فترات انتظار هانئة وأنّ بإمكان الوحدة أن تكون خفيفة.

ـــ آن العزيزة!

قبّلتني ميريام. بدت بشعرها الأسود والفضّي أكثر شبابًا وثقة بالنفس من أيّ وقت آخر. وحين صافحني فيليب شعرت بأنّ قبضته محمّلة بتضمينات لا تقال. لقد سمن قليلاً لكنّه لا يزال يحتفظ بسحر المراهقة، وأناقته المتحفظة. تحدّثنا كيفما اتّفق عن فرنسا، وزواج نانسي، والمكسيك. وذهبنا فورًا لنحجز طاولة في القاعة الكبيرة ذات السقف الذي يتدلّى منه الكريستال، والتي يديرها مدير فندق ينظر بازدراء إلى الضيوف القادمين. ولأسباب مجهولة أطلق أصحاب الفندق على غرفة الاستحمام اسم Pump - Room، حيث كان الإنكليز المتـــأنّقون في القرن الثامن عشر يأتون إليها للحصول على الماء. كان هناك خدم يلبسون أثواب المهراجات الهنود ويحملون على رماح قصيرة قطعًا من لحم الخروف

المشوي. وآخرون في أزياء خدم من القرن الثامن عشر يجولون حاملين أسماكًا عملاقة.

قلت:

ـ أيّ نفاق هذا!

قال فيليب وهو يبتسم ابتسامته المرهفة:

ـ أحبّ هذه الأمكنة الغريبة.

ثم وضعت تحت تصرّفنا الطاولة التي حجزها فيليب ونسّق بدقة وجبات الطعام. عندما بدأنا في الكلام، لاحظت بدهشة أنّنا لم نكن متّفقين على شيء تقريبًا. كانا قد قرآ كتاب لويس ولم يجداه مهمًّا بما فيه الكفاية. في مكسيكو، سباقات الثيران أشعرتهما بالغثيان. وبالمقابل فإنّ القرى الهنديّة في هندوراس وغواتيمالا بدت لهما شاعريّة.

قلت:

ـ شاعريّة للسائح! لكنّكما لم تريا كلّ هؤلاء الصبية العميان، وتينك النساء ببطونهنّ المنتفخة؟ جنّة غريبة!

قال فيليب:

ـ يجب ألاّ نحكم على هؤلاء الهنود من خلال مقاييسنا الذاتيّة.

ـ عندما يموت الناس جوعًا أو يكادون فكلّ شيء يصبح مبرّرًا.

رفع فيليب حاجبيه وقال: «أمر غريب: أوروبّا تتّهم الأميركيّين بأنّهم ماديُّون. لكنّكم تولون قيمة أكبر منّا للمظاهر الماديّة للحياة».

قالت ميريام:

ــ يجب أن يكون المرء قد تمتّع بالرفاهيّة الأميركيّة لكي يفهم إلى أيّ حدّ لا تساوي الرفاهيّة كثيرًا.

التهمت حصّتها من البطّ بالكرز بلامبالاة. كان ثوبها، بلونه الأزرق الكهربائي، يكشف عن كتفين جميلتين ناضجتين: وكانت قادرة ولا شكّ على النوم في مقطورة واتّباع نظام من الأكل يقتصر على الأغذية النباتيّة.

قلت باندفاع نسبيّ:

ــ لا يتعلّق الأمر بالرفاهيّة. أن يكون الإنسان محرومًا من الضروريّات فهذا غير مقبول. ولا شيء يفوقه أهمّيّة.

ابتسم لي فيليب:

ــ ما يبدو ضروريًّا للبعض قد لا يكون كذلك بالنسبة لآخرين. تعرفين أكثر منّي كم أنّ السعادة أمر ذاتيّ. ومن دون أن يترك لي المجال لأردّ عليه، أردف: «تجذبنا كثيرًا فكرة تمضية سنة أو سنتين في الهندوراس للعمل بسلام. أنا متأكّد من أنّ هذه الحضارات القديمة لديها الكثير ممّا تقدّمه لنا».

قلت:

ـ لا أرى بالضرورة أنّها يمكن أن تقدّم لنا شيئًا. وانطلاقا من مآخذك على ما يجري في أميركا الآن، من الأفضل السعي إلى القيام بشيء ما للتصدّي لذلك.

قال فيليب:

ـ أنتم أيضًا مصابون بهذا الذهان. العمل السياسي: إنّه هاجس جميع الكتّاب الفرنسيّين، وهذا يكشف عن عقد غريبة: فهم على يقين تمامًا بأنّهم لن يغيّروا أيّ شيء من سلوكهم.

قلت:

ـ جميع المفكّرين الأميركيّين يبرّرون عجزهم. هذا ما يبدو لي عقدة غريبة. يجب ألاّ نُفاجأ في المستقبل إذا أصبحت أميركا فاشيّة بشكل كامل وأعلنت الحرب على العالم.

أفلتت ميريام من شوكتها كبيبة الأرزّ المتوحّش فسقطت في الصحن، وقالت بجفاف: «تتكلّمين مثل الشيوعيّين».

قال فيليب وهو يحدّق إليّ بنظرة عتب:

ـ أميركا لا تريد الحرب يا آن. لا تنسي أن تقولي ذلك لأصدقائك الفرنسيّين. إذا كنّا نحضّر للحرب بشكل فاعل فهذا بالضبط كي نتفاداها. ولن نكون أبدًا فاشيّين.

ـ ليس هذا ما قلته من سنتين. كنت تعتبر أنّ الديموقراطيّة الأميركيّة مهدّدة بشكل جديّ.

ظهرت على وجه فيليب علامات الوقار بأبهى صورها. وقال: «منذ ذلك الوقت، أدركت أنّه من غير الممكن الدفاع عن

الديموقراطيّة بالوسائل الديموقراطيّة. إنّ تعصّب الاتّحاد السوفييتي يرغمنا على الردّ بموقف متصلّب مماثل. هذا يتسبّب بتجاوزات أنا أوّل من يتأسّف لها: لكن هذه التجاوزات لا تعني أنّنا اخترنا الفاشيّة، بل تعبّر عن الخوف العارم الذي يقضّ مضجع العالم المعاصر.

تفرّست به بذهول. كنّا نتفاهم بشكل جيّد قبل سنتين. وكان يؤمن باستقلاليّة الفكر ويدعو إلى التحلّي بها: وها إنّه يقتنع بكل سهولة بما تروّج له السياسة الرسميّة! كان لويس على صواب حين قال لي: «عديدنا يتناقص يومًا بعد يوم...».

قلت:

ــ أيْ بكلام آخر، يبدو لك أنّ سياسة الحكومة الأميركيّة يفرضها الوضع؟

قال برفق:

ــ آن، عزيزتي، حتّى لو كنّا نستطيع تخيّل سياسة مختلفة، فلست أنا من هو قادر على فرضها. لا، إذا كنّا نرغب في رفض كلّ تواطؤ مع هذه الحقبة المؤسفة فإنّ الحلّ الوحيد هو الانزواء في مكان ما منسيّ من هذا العالم، والعيش بمعزل عنه.

أرادا أن يواصلا دون همّ، حياتهما المريحة بصفتهما من متذوّقي الجمال. لذا فإنّ أيّ حجّة لن تؤثّر في إنسانيّتهما المميّزة. قرّرت تجاهل الموضوع وقلت:

ـ أعتقد أنّنا نستطيع مواصلة النقاش طيلة الليل دون الوصول إلى نتيجة. إنّه وقت ضائع. النقاشات لا تؤدّي إلى نتيجة.

قال فيليب مبتسمًا:

ـ لا سيّما أنّنا حُرمنا منك منذ وقت طويل، ونشعر بالسعادة لرؤيتك من جديد!

وراح يتكلّم عن شاعر أميركيّ جديد.

قال فيليب وهو يخرج من المطعم:

ـ آن، سلّمنا أمرنا إليك في هذه الليلة ونحن على ثقة بأنّك دليلة رائعة.

ركبنا السيّارة واصطحبتهما إلى ضفّة البحيرة. استحسن فيليب المنظر: إنّه أحد أجمل الشطآن في أميركا، أجمل من نيويورك. بالمقابل، الحانات التي تقدّم عروضًا في بوسطن أسعارها أدنى، وحانات المتشرّدين أقلّ جاذبيّة منها في سان فرنسيسكو. هذه المقارنات أدهشتني. بماذا يمكن أن نقارن هذه الأماكن التي أخرجها لويس ذات ليلة من العدم؟ هل لديها إذًا مكانها في جغرافيّتهم؟ الواقع أنّني أكتشف بسهولة في ذاكرتي الطرقات التي تؤدّي إليها. كان نادي ديليزا ينتمي إلى ماضٍ منصرم، ولا يوجد في أيّ مكان على الأرض: وها هو يظهر لي في زاوية الشارع الذي يتلاقى بشارع آخر، وكِلا الشارعين يحملان اسمًا مدوّنًا على الخرائط.

قال فيليب بلهجة تنمّ عن رضى:

ـ الجوّ ممتاز.

وفيما كنت أنظر إلى المشعوذين والراقصين والبهلوانيّين، وأتساءل بانزعاج ماذا كان حصل لو أنّ فيليب أجابني على الهاتف: «أنا آت إليك» بالتأكيد، كنّا سنحظى ببضع ليالٍ من الوصال. لكنّي ما كنت لأحبّه لوقت طويل، ما كنت لأحبّه أبدًا حبًّا حقيقيًّا. بدا لي ما دبّره القدر لي بهذا القدر من اليقين شديد الغرابة. لا شكّ أنّه لم يكن على سبيل الصدفة أن يؤثر فيليب عليَّ عطلة نهاية أسبوع في كاب كود، وإذا كان لم يوافني إلى غرفتي بدافع المراعاة لمشاعر أمّه. لو كان أكثر شغفًا وسخاء لكان فكّر، وأحسّ، وعاش بطريقة مختلفة ولكان هو نفسه مختلفًا. لا يمنع أنَّ الظروف لو اختلفت قليلاً، لكانت رمتني بين ذراعيه وحرمتني من لويس. أزعجتني هذه الفكرة. كلّفتني قصّتنا الكثير من الدموع، ومع ذلك لن أقبل أن أنتزعه من ماضيَّ، مهما يكن الثمن. وفجأة، بدا لي أنّ تفكيري نفسه بأنّ قصّتنا المنتهية التي حُكم عليها بالإعدام ستستيقظ من جديد في داخلي، بمثابة عزاء لي.

عندما خرجنا من النادي، اصطحبنا فيليب من جديد إلى البحيرة. كانت المباني العالية قد تبخّرت في ضباب الفجر. أوقف السيّارة بالقرب من القبّة الفلكيّة الاصطناعيّة. نزلنا المدرّجات المؤدّية من أنف الجبل باتّجاه الأسفل لنستمع على مسافة أقرب إلى المياه المزرقة التي يشبه هديرها استهلال الوليد: كم كانت تبدو صافية تحت السماء ذات الانعكاسات الأردوازيّة! قلت معلّلة نفسي بالآمال: «أنا أيضًا لعلّي مقبلة على مرحلة جديدة من حياتي. ستكون حقًّا حياة جديدة. حياتي أنا».

في صباح اليوم التالي، تنزّهت ميريام وفيليب عبر الحدائق والجادّات والأسواق التي تنتمي بدون شكّ إلى مدينة أرضيّة، حيث أعرف الاتّجاه فيها دون عناء أو مشقّة. إذا كنت قادرة على استعادة الماضي فإنَّ المستقبل لم يعد يبدو لي مستحيلاً تمامًا.

ومع ذلك، عندما انطلقت بنا السيّارة الحمراء إلى نيويورك، تردّدت في العودة: خفت من الغرفة المهجورة وتجدّد أحزان قلبي. جلست في إحدى صالات السينما ومن ثم مشيت في الشوارع. لم يسبق لي أن تجوّلت في شيكاغو ليلاً تحت غلالاتها الشفافة البرّاقة، فقدت المدينة هيئتها المعادية، لكنّي لا أعرف ماذا أفعل بها. كنت أدور حائرة في عيد لم أُدعَ إليه. واغرورقت عيناي بالدموع. شددت على شفتي. لا، لا أريد أن أبكي وقلت: أنا لا أبكي في الحقيقة. إنّها أضواء الليل التي ترتعش على صفحة قلبي، والتماعها يتكوّم نقاطًا مالحة على حافّة رموشي.

لأنّني هنا، لأنّني لن أعود، لأنّ العالم زاخر جدًّا، فقير جدًّا، لأنّ الماضي ثقيل الوطأة، خفيف كريشة، لأنّني لا أستطيع أن أصنع سعادة من هذه الآونة الرائعة، لأنّ حبّي مات وسأواصل حياتي وحيدة.

استقلّيت سيّارة تاكسي. ووجدتني عند زاوية الممرّ المزروع ببراميل النفايات. في البؤرة السوداء، اصطدمت بأوّل درجة في السلّم. حول خزّان الغاز التمع تاج أحمر وفي البعيد سُمع صفير قطار.

فتحت الباب. كانت الغرفة مضاءة. لكنّ لويس نائم. خلعت ثيابي وأطفأت الضوء. وانسللت في هذا السرير حيث بكيت طويلاً. من أين أتيت بكلّ هذه الدموع؟ لماذا؟ وفجأة، لم يعد هناك شيء يستحقّ شهقة واحدة، التصقت بالحائط. منذ زمن طويل، لم أستشعر الحرارة المنبعثة من جسد لويس، وبدا لي أنّ مجهولاً أخلى لي بدافع الشفقة مساحة من سريره. تحرّك، مدّ يده.

ـ هل عدت؟ كم الساعة الآن؟

ـ منتصف الليل. لم أشأ الوصول قبلك.

ـ أوه! أنا وصلت في العاشرة. كان صوته يظهر وكأنّه لا يزال مستيقظًا. «ما أوحش هذا المنزل، أليس كذلك»؟

ـ نعم، إنّه أشبه بقاعة جنائزيّة.

ـ قاعة جنائزيّة تغيّرت وجهة استعمالها. مليء بالأشباح: العاهرة الصغيرة المجنونة، نشّال الجيوب. كلّ هؤلاء الناس الذين لن أراهم بعد اليوم لن يأتوا إلى هناك: أحبّ كثيرًا منزل باركر لكنّه متعقّل جدًّا. هنا...

ـ هنا... كان سحر.

ـ سحر، لا أعرف. لكن على الأقلّ، كان يأتي إليه زائرون وأشياء تحدث.

مستلقيًا على ظهره في الظلمة، كان يراجع بصوت عالٍ الأيّام والليالي التي أمضاها في هذه الغرفة، وكان قلبي ينقبض. بدت لي حياته شاعريّة كما بدت حياة الهنود لفيليب. لكن بالنسبة له أيّ حياة

متقشّقة! كم من الأسابيع والأشهر التي أمضاها وحيدًا دون مغامرة، دون حضور يؤنسه! لا بدّ أنّه تمنّى أن يحظى بامرأة تكون له بكلّيّتها له! لوهلة اعتقد أنّه أفلت من الوحدة وجرؤ على تمنّي شيء آخر غير الأمان، وخاب أمله. تعذّب ثم ما لبث أن استعاد تماسكه. مرّرت يدي على وجهي. من الآن فصاعدًا ستبقى عيناي جافّتين. أفهم تمامًا أنّه لم يستطع أن يشعر في نفسه لذّة الندم ولا لذّة الانتظار. لا أريد أن أكون حجر عثرة في طريقه. ولا يحقّ لي أن أكون سببًا في آلامه. لم أعد راغبة في الاعتراض علىَ أيّ سلوك يسلكه أو موقف يبديه. ولم يتبقّ لي شيء ولا شكّ.

وفجأة، أشعل الضوء وابتسم لي.

ــ آن لم تمضي صيفًا سيّئًا جدًّا، أليس كذلك؟

تردّدت ثم قلت:

ــ لم يكن الأفضل في حياتي.

قال:

ــ أعرف، أعرف. وهناك أشياء كثيرة أندم عليها. جعلتك تتوهّمين أنّني أتصرّف معك بأسلوب متعال أو معادٍ. وهذا ليس صحيحًا البتّة. لكنّي، أحيانًا أشعر بأنّ عقدة تشدّ على صدري وأنّ بمقدوري أن أدع الناس يموتون وأموت معهم دون أن أحرّك ساكنًا!

ـ أعرف ذلك وأفترض أنّ هذا يرقى إلى عهد بعيد جدًّا. أو مردّه إلى مرحلة الشباب المُرّة التي مررت بها، وإلى طفولتك البائسة.

ـ آه، لن تخضعيني للتحليل النفسيّ! قال وهو يضحك لكنّه ظلّ مستنفرًا.

ـ لا، لن أخضعك، لا تخف. لكنّي، ومنذ سنتين عندما كنّا في نادي ديليز، وأردت أن أعيد لك الخاتم والرحيل إلى نيويورك، أذكر أنّك قلت لي فيما بعد: «لم أستطع التفوّه بكلمة واحدة...».

ـ حقًّا قلت هذا! لديك ذاكرة مدهشة!

ـ نعم. لديّ ذاكرة جيّدة. وهذا لا يغيّر شيًا. ألا تتذكّر أنّنا في ذلك المساء مارسنا الحبّ دون أن ننبس بكلمة، وظهرت على وجهك عدوانيّة مفاجئة بحيث لطمت رأسك بالحائط وأجبتني: «تحدّثينني عن الصداقة، لكنّي أحبّك!»، ولفظت هذه الجملة متعمّدة محاكاة صوته المتعجرف فانفجر لويس ضاحكًا:

ـ ألا يبدو هذا مضحكًا؟

ـ لقد قلته بهذه النبرة.

شخص بنظره إلى السقف وتمتم بنبرة خافتة:

ـ ربّما ما أزال أحبّك.

لو قال هذه العبارة قبل بضعة أسابيع لكنت عللت نفسي بالآمال العريضة. لكنّها في تلك الساعة لم تترك صداها الإيجابي في نفسي. كان طبيعيًّا أن يشغل لويس باله بحالته النفسيّة. ويمكن

للمرء أن يحمّل الكلام معاني عديدة، لكن، في جميع الأحوال، قصّتنا انتهت. وهو يعرف ذلك وأنا أيضًا.

لم نتحدّث لا عن الماضي ولا عن المستقبل ولا عن مشاعرنا خلال الأيّام الأخيرة. كان لويس هنا، وأنا قربه وهذا يكفي. بما أنّنا لم نكن نطلب شيئًا فإنّ شيئًا لم يُمنع عنّا. حتى لاستطعنا أن نعتقد أنّنا في أوجّ علاقتنا. ربَّما كنّا كذلك.

ليلة رحيلي قلت:

ـ لويس، لا أعرف ما إذا كنت سأكفّ عن حبّك، لكنّي أعرف أنّك ستظلّ في قلبي طيلة حياتي.

ضمّني إليه: «وأنت أيضًا طيلة حياتي».

هل سنلتقي من جديد يومًا؟ لم يعد بإمكاني التساؤل. رافقني لويس حتى المطار. فارقني أمام شبّاك التذاكر على قبلة عابرة غرقت بعدها في فراغ داخلي. وبالضبط قبل أن أصعد إلى الطائرة. سلّمني أحد الموظّفين علبة كرتون تحتجب في داخلها، تحت كفن من الورق الحريريّ زهرة أوركيديا هائلة. عندما وصلت إلى باريس، لم تكن قد ذبلت بعد.

الفصل الحادي عشر

راحت نحلة تطنّ حول المنفضة. رفع هنري رأسه وتنشّق العبير السكّري لأزهار نبتة القبس. ومن جديد انزلقت يده على الورقة وأنجز إعادة كتابة الصفحة المليئة بالتشطيبات. كان يعشق هذه الصباحات في ظلّ شجرة الزيزفون. ربّما لأنّه لم يكن يقوم بشيء آخر سوى الكتابة: بدا له هذا الأمر مهمًّا من جديد: كتابة رواية. ثم إنّه كان سعيدًا لأنّ دوبروي أعجب بروايته. ولا شكّ أنّ هذه القصّة القصيرة ستعجبه أيضًا. شعر هنري أنّه لمرّة واحدة، فعل بالضبط ما عقد النيّة على فعله، وأنّه شعر بالاعتزاز لأنّه أنجز ما ينبغي عليه إنجازه. وفجأة تراءى رأس نادين عند النافذة بين المصراعين الأزرقين:

ــ كم تبدو مجتهدًا! لكأنّك تلميذ ينجز فروض العطلة.

ابتسم هنري: شعر أنّ تشبيهه بالتلميذ النشيط هو تشبيه ينطبق عليه إلى حدّ بعيد.

سأل:

ــ هل استيقظت ماريّا؟

ــ نعم، نزلنا للتوّ.

أعاد ترتيب أوراقه. إنّها الظهيرة. حان وقت الرحيل فيما لو أراد تجنّب اللقاء بشارلييه وميريكو. كانا سيحاولان من جديد

التباحث مع دوبروي بشأن هذه المجلّة الأسبوعيّة. وكان هنري قد ملّ من ترداد عبارة: «لا أريد التورّط بذلك».

قالت نادين:

ــ ها نحن انتهينا!

كانت تحمل في إحدى يديها حقيبة وضعت فيها المؤونة، وفي اليد الأخرى آلة كانت فخورة بها جدًّا وهي عبارة عن سرير لطفلها يشبه الحقيبة إلى حدّ بعيد. أمسك هنري بها.

قالت نادين:

ــ انتبه! لا تقلبها.

ابتسم هنري لماريّا. كان متفاجئًا تمامًا لكونه أنجب من العدم طفلة صغيرة، فتاة صغيرة ذات عينين زرقاوين وشعر أسود. فتاة تحمل اسمه. نظرت إلى الفراغ وهي على ثقة بأنّه سيضعها في المكان المخصّص لها على المقعد الخلفيّ للسيارة.

قال:

ــ لنهرب بسرعة!

جلست نادين أمام المقود. تعشق القيادة.

ــ سأمرّ أوّلا بالمحطّة لأشتري الصحف.

ــ هل أنت مصرّة على هذا الأمر؟

ــ بالطبع مصرّة، خصوصًا أنّ اليوم الخميس.

في نهار الخميس، تصدر *L'enclume* و *L'Espoir Magazine* التي اندمجت بـ *Les Beaux Jours*، ولا تريد نادين أن تفوّت مثل هذه الفرص الرائعة لتعبّر عن سخطها. اشتريا مجموعة من الصحف والمجلات واتّجها إلى الغابة. نادين لا تتكلّم حين تقود بل تستغرق كليًّا في ما تقوم به. نظر هنري بمودّة إلى بروفيلها العنيد. كان يجدها مؤثّرة عندما تنكبّ على عمل بهذه الجدّيّة الشغوفة. قالت له في أوّل يوم: «هل تعرف، لقد تغيّرت». لكنّها أدركت أنّ شيئًا ما في داخلها لا يجري على ما يرام، وأنّها في طريقها إلى تقويم شخصيّتها: أراد مساعدتها. قال في نفسه إنّه إذا جعلها سعيدةً فسيعتقها من هذه الضغينة المشوّشة التي تسمّم عليها حياتها. لأنّها أرادت فعلاً أن يتزوّج منها فقد قرّر الزواج منها. كان متعلقًا بها ما دفعه إلى القيام بالمغامرة. فتاة غريبة! مصرّة دومًا على النضال المستميت لتنتزع منك ما أنت مستعدّ تمامًا لإعطائها إيّاه. هنري متأكّد من أنّها خطّطت جيّدًا لتتمّ عمليّة الحمل بارتكابها خطأ متعمّدًا في حساب التواريخ التي يحصل فيها اللقاح، بغية وضعه أمام الأمر الواقع، ظنًّا منها بأنّها تساعده على إدراك رغباته الحقيقيّة. تفرّس بها بحيرة. تملك الكثير من النوايا السيّئة، لكن في الوقت نفسه الكثير من نفاذ البصيرة وبالطبع، في عمق كيانها، ترتاب بأنّه تصرّف من تلقاء نفسه راضيًا.

ربّما وإلى حدّ كبير، بسبب هذا الارتياب لم يفلح في جعلها سعيدة حقًّا: كانت تقول في نفسها إنّه لا يحبّها حبًّا حقيقيًّا ولذا تحقد عليه. فكّر هنري: «ربّما من الأفضل أن أشرح لها أنّني كنت أشعر

على الدوام بأنّني حرّ وأنّني لم أنخدع». لكن هذا سيهين نادين بشكل أليم، اي أن تدرك أنَّ خططها أحبطت. ستقتنع أنّ هنري يكرهها وأنّه أشفق عليها. وهذا الأمر سيسبّب لها جرحًا عميقًا. تكره أن نطلق أحكامًا عليها وأيضًا أن نغرقها بالهدايا، لا، لن يفيدها بشيء إذا قال الحقيقة.

أوقفت نادين السيّارة على ضفة البحيرة:

ــ إنّه فعلاً ركن جميل. في بحر الأسبوع، لا نجد أحدًا.

ــ سيكون جيّدًا أن نسبح قليلاً.

سوّت نادين وضعيّة ماريا. وخلعا ثيابهما. تحت ثوبها الخام، كانت نادين ترتدي بيكيني أخضر اللون، صغيرًا جدًّا. كانت ساقاها أكثر رشاقة من ذي قبل ونهداها على فتوّتهما. قال ببشاشة:

ــ أنت عاهرة جميلة!

قالت وهي تضحك:

ــ آه، أنت أيضًا لا بأس بك.

هرولا نحو البحيرة. كانت تسبح على بطنها وتجعل رأسها مستقيمًا بمهابة فوق الماء. لكأنّها تحمله فوق طبق. كان يعشق وجهها، قال في نفسه: «أنا متعلّق بها. لا بل أنا متعلّق كثيرًا: لماذا لا يكون ما أشعر به هو الحبّ؟» شيء ما كان يجعله يرتاب في أمر نادين: سوء ظنّها، ضغائنها، نيّتها السيّئة، سلوكها العدائي الذي تصرّ على ممارسته، ويجعلها تركن إلى الوحدة. لكن ربّما لو أحبّها

أكثر لأصبحت أكثر انفتاحًا ونضجًا وودًّا. ثمّة ما يشبه الحلقة المفقودة. الحبّ لا يُفرض فرضًا والثقة لا تُنتزع انتزاعًا.

سبحا طويلاً وتمدّدا في الشمس. أخرجت نادين من حقيبة المؤونة رزمة من السندويشات. أخذ هنري أحدها.

قال بعد وهلة:

ــ هل تعرفين؟ فكّرت من جديد بما قلته البارحة عن سيزيناك. لا أصدّق ذلك، هل الأمر متعلّق فعلاً بسيزيناك؟ هل فنسان متأكّد ممّا يقول؟

قالت نادين:

ــ كل التأكيد. استغرق الأمر مع فنسان سنة ليقف على حقيقة الأمر. إلى أن توصّل أخيرًا للالتقاء بناس وحملهم على الكلام. سيزيناك سلّم أعدادًا كبيرة من اليهود إلى الألمان. إنّه هو فعلاً.

قال هنري:

ــ لكنْ لماذا؟

استعاد في ذاكرته صوت شلنسيل المتحمّس يقول له: «آتيك بصديقي المفضّل»، والوجه القاسي والبريء الذي يوحي بالثقة على الفور...

قالت نادين:

ــ لأجل المال على ما أظنّ. لا أحد كان يشكّ بذلك. لكن من المحتمل أن يكون قد أقدم منذ ذلك الحين على تعاطي المخدّرات.

ـ لكن لماذا يتعاطى المخدّرات؟

ـ لا أعرف شيئًا عن ذلك.

ـ وأين هو الآن؟

ـ يودّ فنسان معرفة ذلك فعلاً! طرده من بيته السنة الفائتة عندما عرف أنّه شرطيّ. ومنذ ذلك الحين لم يظهر له أثر. لكنّه سيجده آجلاً أم عاجلاً.

قضم هنري قضمة من سندويشه. لم يكن يتمنّى أن يتمّ القبض على سيزيناك. وعده دوبروي أنّه في حال اقتضى الأمر فسيقسم إنّه عرف مرسييه جيّدًا. لكن من الأفضل أن تظلّ هذا المسألة طيّ الكتمان.

قالت نادين:

ـ بمن تفكّر؟

ـ في سيزيناك.

لم يخبر نادين عن قضيّة مرسييه. بالطبع، لا يمكن أن تفشي سرًّا لكنّها لا تشجّع على أن يعهد لها الإنسان بأسراره: تظهر الكثير من الفضول والقليل جدًّا من التعاطف. يجب أن يكون لديها الكثير من التعاطف للسكوت عن هذه القصّة: وبالرغم من تسامح دوبروي وآن، كان هنري يفكّر بها مستاء. وأخيرًا، نال ما كان يريده. لم تنتحر جوزيت، أصبحت نجمة مشهورة، وكان الجميع يتحدّثون عنها. وفي كلّ أسبوع، كنّا نرى صورتها في هذه المجلة أو تلك.

ردّدت نادين:

ـ سيتمّ العثور على سيزيناك.

طوت الجريدة. وأمسك هنري واحدة أخرى هو أيضًا. ما دام في فرنسا فلن يستطيع تجنّب النظر إلى الصحف، ومع ذلك كان ليتسغني عنها طوعًا. كان في العناوين: وضع يد أميركا على أوروبّا. نجاح الــ R.P.F. عودة انتشار المتعاونين بأعداد كبيرة. تصرّف الشيوعيّين الأخرق... إنّها أخبار تدعو إلى الإحباط. وفي برلين، لم تكن الأمور تنتظم، ويمكن أن تندلع الحرب في أيّ يوم. تهاوى هنري على ظهره وأغمض عينيه. في بورتو فينيري، لن يتسنّى له قراءة جريدة، ثم ما جدوى ذلك؟ ما دمنا لا نستطيع أن نحول دون وقوع شيء، فالأفضل إذًا الإفادة من آخر لحظاتنا بتهاون كلّي. فكّر هنري: «هذا الموقف يروّع دوبروي: لكن، أليس من الحكمة أن نحيا حياتنا وكأنّنا سنعيش أبدًا. فماذا يجدينا أن نضع فكرة الموت نصب أعيننا. التحضّر للموت؟ في جميع الأحوال لن نكون بانتظار تلك اللحظة مع أنّ فكرة الموت لا تبارح تفكيرنا».

قالت نادين:

ـ ما أغرب هذا النجاح الذي ينسبونه لهذا الكتاب التافه الذي ألّفه فولانج!

ـ أمر بديهي! ففي الوقت الحاضر، جميع الصحافة اصطفّت يمينًا.

ـ لكن ليس كلّ أهل اليمين أغبياء!

ـ لكنّهم بحاجة ماسّة إلى تحفة أدبيّة تساند وجهة نظرهم.

كان كتاب فولانج في غاية التفاهة. لكنّه أطلق شعارًا عبقريًّا: «تمثّل الشرّ». أن يكون المرء متعاونًا مع العدوّ النازيّ، فهذا يعني الارتواء من ينابيع الخطأ الخصيبة. إنّ إعدامًا دون محاكمة في ميسوري كان الخطيئة أي الفداء. مباركة أميركا للجرائم التي ارتكبتها وليَحْيَ مشروع مارشال. حضارتنا مذنبة: إذًا هذا عنوان مجدها الأكثر رفعة. أمّا إرادة خلق عالم أكثر عدالة، فأيّ فظاظة هذه!

قالت نادين:

ـ قل لي، يا مسكيني: عندما ستصدر روايتك فأيّ انتقادات سيوجّهونها إليك!

قال هنري:

ـ يحدّثني قلبي بذلك! تثاءب ثم أضاف: «آه! لا غرابة في الأمر! يمكنني من الآن معرفة المقال الذي سيكتبه فولانج أو لونوار. أمّا هؤلاء الذين يدّعون أنّهم على الحياد، فأعرف مسبقًا وجهة نظرهم».

ـ ماذا؟

ـ سيأخذون عليّ أنّني لم أؤلّف كتابًا بمستوى «الحرب والسلم» أو «أميرة كليف». ثم أضاف ببشاشة: «لاحظي أنَّ المكتبات ضاقت بكلّ الكتب التي لم أكتبها. لكنّهم يذكّرونني دومًا بهذين الكتابين».

ـ متى ينوي موفان نشر كتابك؟

ـ في غضون شهرين، أي في أواخر أيلول.

قالت نادين:

ـ لن نكون بعيدين عن موعد انطلاقتنا. تمطّت: «أريد منذ الآن أن أكون هناك».

ـ أنا أيضًا.

لن يكون لطيفًا أن يتركا دوبروي وحده. كان متفهّمًا موقف نادين التي حرصت على انتظار عودة والدتها لكي تولّي هاربة. من جهة أخرى، هنري مرتاح في سان ـ مارتان. لكنّه سيُسرّ أكثر في إيطاليا. هذا البيت على شاطئ البحر بين الصخور وفي ظلال أشجار الصنوبر، كان بالضبط المكان الذي حلم به غالبًا. دون أن يصدّق أنّ حلمه سيتحقق، عندما كان يقول فيما مضى: التخلّي عن كلّ شيء، الرحيل إلى الجنوب، الكتابة...

قالت نادين:

ـ سنأخذ معنا فونوغرافًا جيّدًا والكثير من الأسطوانات.

قال هنري:

ـ وأيضًا الكثير من الكتب. سنسعى إلى تمضية عطلة سعيدة كما ستلاحظين.

استوت نادين على كوعها: «أمر ظريف! سنسكن في منزل بيتنا. لانغستون لم يعد يريد أن يطأ أرض أميركا».

قال هنري:

ـ نحن الثلاثة نواجه الوضع نفسه. كتّاب عملوا في السياسة وسئموا منها. السفر إلى الخارج هو الطريقة المثلى لقطع الجسور مع الواقع المرير.

قالت نادين وقد ظهرت على وجهها علامات الرضى:

ـ أنا التي خطرت لي فكرة هذا البيت.

تجهّم وجه نادين. لبرهة قصيرة نظرت إلى الأفق بهيئة قاسية ونهضت فجأة: «حان وقت إعطاء الرضّاعة لماريّا».

تبعها هنري بنظراته. ماذا فكّرت بالضبط؟ الأمر الأكيد هو أنّها ليست راضية بممارسة دور الأمّ وحسب. جلست على أحد جذوع الأشجار، ممسكة ماريّا بين ذراعيها، وأعطتها رضّاعة الحليب بحزم، وبصبر. كانت تعلّق أهمّيّة كبيرة على أن تكون أمًّا كفوءة، فقد اكتسبت ثقافة عالية في ميدان تربية الأطفال، وجملة من الأمور المتعلقة بالنظافة. لكنّ هنري لم يستطع قطّ أن يتبيّن حنانًا حقيقيًّا نابعًا من القلب في نظراتها عندما كانت تهتمّ بماريّا. أجل، هذا ما كان يجعلها صعبة في أن تُحبّ: فهي وعلى الرغم من كونها أمًّا، فإنّها تُبقي مسافة فاصلة بينها وبين طفلتها. وتظلّ منهمكة بمشاعرها الداخليّة الدفينة.

سألت:

ـ هل تريد العودة إلى الماء من جديد.

ـ هيّا.

سبحا لوهلة وجففا جسديهما، ثم لبسا ثيابهما من جديد، وجلست نادين أمام المقود لتقود السيّارة.

عندما توقفت السيّارة أمام البوّابة الكبيرة قال هنري:

ــ آمل أن يكونا قد ذهبا.

ــ سأتحقق من ذلك، قالت نادين.

كانت ماريّا نائمة. حملها هنري إلى البيت ووضعها على سطح الخزانة في الرواق. ألصقت نادين أذنها إلى باب المكتب مرهفة السمع.

فتحت الباب وقالت:

ــ هل أنت وحدك؟

هتف دوبروي:

ــ نعم، ادخلي. ادخلي.

ــ سأصعد لأضع الصغيرة في السرير.

دخل هنري إلى المكتب وابتسم:

ــ للأسف لم تستطع المجيء معنا. كانت المياه منعشة.

ــ سأذهب في يوم قريب. أمسك من على مكتبه ورقة: «أريد منك خدمة: هناك شخص يُدعى جان باتورو، وهو شقيق المحامي الذي تعرفه، اتّصل وطلب أن تتّصل به لأنّ الأمر طارئ. لقد أتاه أخوه من مدغشقر بمعلومات ويريد أن يطلعك عليها».

قال هنري:

ـ لماذا يريد رؤيتي أنا بالذات؟

ـ بسبب أحد مقالاتك في العام الفائت، على ما أعتقد. أنت الوحيد الذي كشفت حقيقة ما يجري هناك. ناول دوبروي الورقة لهنري: «إذا كان هذا الشخص سيمدّك بتفاصيل ما يحدث هناك، فلديك الوقت الكافي لتكتب مقالة لـ *Vigilance*، عن طرق تأخير إصدار العدد لبعض الوقت».

قال هنري:

ـ سأتصل به.

قال دوبروي:

ـ كان ميريكو يقول لي إنّ ما يجري هناك لا سابقة له: لقد أنشأوا محاكم ميدانيّة تطلق أحكامها وتنفذها فورًا.

جلس هنري:

ـ هل مرَّ الغداء على خير؟

ـ شارلييه هذا المسكين أحواله تسوء أكثر فأكثر. الشيخوخة أمر محزن.

ـ هل أعادوا الحديث عن المجلة الأسبوعيّة.

ـ لهذه الغاية أتوا. يبدو أنّ مانهايم يريد أن يراني على وجه السرعة.

قال هنري:

ـ في الأمر ما يضحك. عندما احتجنا إلى المال، لم نستطع قطّ أن نجده. والآن، فيما لا نطلب شيئًا من أحد، ها إنّ البعض يبحثون عنّا ليعرضوا علينا المال من دون مقابل.

كان مانهايم ابن صرّاف كبير توفي في المعتقل النازيّ. واعتُقل هو نفسه وأمضى ثلاث سنوات في سويسرا في أحد المصحّات. وهناك، كتب كتابًا لا قيمة له من الناحية الأدبيّة لكنّه ينمّ عن حسن نيّة كاتبه. وها هو يسعى إلى إصدار مجلّة أسبوعيّة يساريّة ويرغب في أن يكون دوبروي رئيس تحريرها.

قال دوبروي

ـ سأذهب لرؤيته.

سأل هنري:

ـ ماذا ستقول له؟ ابتسم: «ها قد بدأت الفكرة تستميلك، أليس كذلك»؟

ـ عليك الاعتراف بأنّ هذا الأمر يغري. بغضّ النظر عن الصحف الشيوعيّة، لا توجد مجلّة يساريّة. إذا كنّا نستطيع حقًّا أن نحظى بمجلّة واسعة الانتشار مرفقة بالصور والتحقيقات، إلخ، فإنّ الأمر يستحقّ عناء المحاولة.

هزّ هنري كتفيه: «هل تعي مقدار الجهد الذي ينبغي أن نبذله في سبيل إصدار مجلّة تلاقي رواجًا لدى لجمهور. هذا لا علاقة له بـ *Vigilance*. عليك الانصراف كليًّا لها والسهر لأجل إنجاحها، وخصوصًا في السنة الأولى.

قال دوبروي: «أعرف» نظر إلى هنري مباشرة: «لهذا السبب لا أتصوّر الموافقة دون أن أضمن موافقتك المسبقة أنت أيضًا».

قال هنري بشيء من نفاد الصبر:

ـ تعرف تمامًا أنّني ذاهب إلى إيطاليا. لكن إذا كانت هذه القصّة تهمّك بشكل خاصّ، فلن يصعب عليك أن تجد أشخاصًا ذوي خبرة جديرين بالتعاون معك.

هزّ دوبروي رأسه: «ليس لديَّ أيّ تجربة في الصحافة. إذا كانت هذه المجلّة سيُكتب لها النجاح، فأنا بحاجة إلى صحافيّ اختصاصي يظلّ واقفًا إلى جانبي. وأنت تعرف كيف تجري الأمور: من الناحية العمليّة، هو الذي سيشرف على كلّ شيء. ويجب أن تكون ثقتي به شبيهة بثقتي بنفسي: ليس هناك إلاّ أنت.

ـ حتى لو لم أكن على أهبّة السفر، لا أستطيع أن أتحمّل مثل هذه المسؤوليّة الكبرى.

قال دوبري بعتب:

ـ هذا شيء مؤسف لأنّ هذا النوع من العمل يلائمك إلى حدّ بعيد، ونستطيع بالتعاون المخلص أن نبلغ به أعلى قدر ممكن من النجاح.

قال هنري:

ـ وماذا بعد؟ سنكون مقيّدين أكثر من السنة الفائتة. وما هو العمل الذي يمكن أن نقوم به؟ لا شيء.

ـ على أيّ حال، هناك بعض الأشياء التي تتعلّق بنا. أميركا تريد أن تسلّح أوروبّا: تلك هي نقطة نستطيع أن ننطلق منها لمواجهة المشروع الأميركي. لذا تبقى الجريدة ذات فائدة كبيرة.

بدأ هنري يضحك:

ـ في الحقيقة، إنّك تسعى جاهدًا لاقتناص أيّ فرصة تعيدك من جديد إلى مجال العمل السياسي، يا للعافية التي تتمتّع بها!

سألت نادين وهي تدخل إلى المكتب:

ـ عن أي عافية تتحدّثان؟

ـ عافية أبيك: لم يشمئزّ بعد من السياسة. يريد أن يلقي كامل المسؤوليّة على كاهلي.

قالت نادين:

ـ عليك الاهتمام بذلك، كما يجب.

جثت على ركبيتها أمام خزانة الأسطوانات وأخذت تقلّبها تباعًا. فكّر هنري: «دوبروي ضجر، لذلك يرغب في أن يتحرّك».

قال هنري:

ـ لم يسبق لي أن أحسست بهذه السعادة إلاّ حين تركت السياسة. لن أنخرط في الشأن السياسيّ من جديد مهما بلغت الإغراءات.

قال دوبروي:

ـ إلاّ أنّ هذا الجمود شنيع. اليسار مبعثر ومشتّت تمامًا، الحزب الشيوعي معزول؛ يجب المبادرة والسعي إلى جمع الشمل من جديد.

سأل هنري بصوت غير مصدّق:

ـ هل تفكّر بخلق *S.R.L* جديدة؟

قال دوبروي:

ـ لا، خصوصًا هذا! هزّ كتفيه: «لم أفكّر بشيء محدّد. أرى أنّنا في ورطة وأتمنّى أن نخرج منها».

خيّم صمت طويل. تذكّر هنري مشهدًا مشابهًا كليًّا. كان دوبروي يضغط عليه، وكان هو الذي يتمنّع وفكّر أنّه عمّا قريب سيكون بعيدًا عن باريس. في مكان آخر. لكن في ذلك الوقت كان يظنّ أنّ هناك واجبات مترتّبة عليه. أمّا اليوم فكان مقتنعًا تمامًا بعجزه. أن أقول نعم، أن أقول لا، فالأمر لا يتعلّق بمصير البشريّة. فقط يتعلّق الأمر بالطريقة التي أربط فيها مصيري بمصير البشريّة. دوبروي حريص على المزج بين الأمرين. هذا شأنه. لكن ليس شأني. على أيّ حال، الأمر يتعلّق بي وبه، ولا شيء آخر يدخل في اللعبة.

قالت نادين:

ـ هل أستطيع أن أستمع إلى أسطوانة؟

قال دوبروي:

ـ بالطبع.

نهض هنري:

ــ أنا سأذهب للعمل.

قال دوبروي:

ــ لا تنس الاتّصال بهذا الشخص.

قال هنري:

ــ لن أنسى.

اجتاز القاعة وأمسك سمّاعة الهاتف. كان الصوت في الجهة الأخرى من السمّاعة ينمّ عن خجل واضطراب صاحبه لأهمّيّة الموضوع الذي يتحدّث عنه. يُخيّل إلى سامعه أنّ صاحب الاتّصال تلقى من العالم الآخر رسالة ملحّة وعليه نقلها حالاً، وبأيّ ثمن إلى المستمع. قال بلهجة مفخّمة: «راسلني أخي. قال إنّ لا أحد يحرّك ساكنًا، لكنّي واثق أنَّ هنري بيرون سيقوم بشيء ما». وفكّر هنري: «لن أبخل عليهم بمقال». أعطى موعدًا لباتورو في اليوم التالي في باريس، وعاد للجلوس تحت شجرة الزيزفون. هذا هو السبب في أنّه مستعجل للذهاب إلى إيطاليا. هنا سيتلقى العديد من الرسائل والزيارات والمخابرات الهاتفيّة. بسط أوراقه أمامه. كانت هناك معزوفة رباعيّة لفرنك على الفونوغراف. ونادين تستمع إليها جالسة على حافة النافذة المفتوحة. النحلات تطنّ حول أجمة القبس. مرّت عجلة موثوقة إلى عجول على الطريق محدثة ضجّة كأنّها من زمن غابر. فكّر هنري: «أيّ سلام هذا!». لماذا يرغمونه على الاهتمام بما يجري في تناناريف. أشياء فظيعة تحدث دومًا على

الكرة الأرضيّة: لكنّنا لا نستطيع مواكبة كلّ ما يجري على سطحها. إمعان التفكير طيلة الوقت في مآسٍ بعيدة لا يمكننا معالجتها بتلذّذ كئيب: «هنا أعيش وهنا سلام». نظر إلى نادين. كانت تبدو مستغرقة في تأمّلاتها وهذا ليس دأبها. هي التي كان يصعب عليها أن تنتهي من قراءة كتاب، كان يمكنها أن تستمع طويلاً إلى موسيقى تحبّها، وفي هذه اللحظات يشعر أنّ صمتًا ما يترنّق في داخلها، أقرب ما يكون إلى السعادة. فكّر: «يجب أن أجعلها سعيدة. يجب على هذه الحلقة المفرغة أن تنكسر». أن نجعل أحدًا سعيدًا، هذا أمر ملحّ وضروري ويستغرق من وقتك زمنًا طويلاً إذا كان اهتمامك نابعًا من القلب، كالاهتمام بنادين، وتربية ماريّا، وتأليف الكتب: ليست هذه الحياة التي تمنّاها فيما مضى. فيما مضى، ظنّ أنّ السعادة طريقة في امتلاك العالم فيما كانت بالأحرى طريقة للاحتماء منه. لكن أن تستمع إلى هذه الموسيقى وتنظر إلى البيت والزيزفون والأوراق المكتوبة على الطاولة وأنت تردّد: «أنا سعيد»... ليس هذا بالشيء القليل.

صدر مقال هنري عن مدغشقر في ١٠ آب. كتبه بشغف. إعدام الشاهد الرئيسي بطريقة وحشيّة مدبّرة. الاعتداءات على المحامين. العذابات التي لحقت بالمتّهمين لكي تُنتزع منهم اعترافات زائفة... الحقيقة أشدّ فظاعة ممّا تخيّل. وهذه الأمور لا تحدث فقط في تناناريف. بل هنا في فرنسا، الجميع متواطئ. متواطئة المجالس التي صوّتت لرفع الحصانة، متواطئتان الحكومة ومحكمة التمييز،

ومتواطئ رئيس الجمهوريّة، ومتواطئة الصحف التي سكتت عمّا يجري وأيضًا ملايين المواطنين الذين لزموا الصمت.

قال في نفسه عندما استلم عدد الـ *Vigilance* في يديه: «الآن على الأقلّ، بضعة آلاف من الناس باتوا على علم بما يحصل». ثم فكّر بندم: «ليس هذا بالأمر المهمّ». كان قد درس هذه القضيّة عن كثب وعُنِيَ بها عناية خاصّة بحيث باتت تمسّه شخصيًّا. كلّ صباح، كان يبحث في الصحف عن المقالات الصغيرة التي سردت وقائع المحاكمة ويحاول طيلة النهار أن يخرج منها بأدلّة كافية. شقّ عليه أن ينهي قصّته القصيرة. وحين كان يكتب في ظلّ شجرة الزيزفون، لم يعد لرائحة القبس ودمدمات القرية المعنى نفسه الذي كان لها في السابق.

كان مسترسلاً في العمل في ذلك الصباح، بهيئة شاردة، عندما قرع أحدهم على جرس البوّابة. اجتاز الحديقة ليعرف هويّة الطارق ويفتح البوابة: كان لاشوم.

ــ أنت!

ــ نعم، أودّ أن أكلمك. لا تبدو سعيدًا لرؤيتي لكن دعني أدخل على الأقلّ. لديّ شيء أريد أن أقوله وهو يهمّك.

شاخ لاشوم خلال هذه الأشهر الثمانية عشر، وارتسمت هالات حول عينيه.

ــ عمّ تريد أن تحدّثني؟

ــ عن قضيّة مدغشقر.

فتح هنري الباب:

ـ وماذا جئت لتفعل مع هذا الفاشيّ القذر؟

قال لاشوم:

ـ أوه! دعك من هذا! تعرف ما هي السياسة. عندما كتبت هذا المقال، كان عليَّ أن أقضي عليك. قديمة هذه القصّة.

قال هنري:

ـ لديّ ذاكرة جيّدة.

نظر إليه لاشوم بألم: «لا بأس إذ كنت لا تزال تشعر بالحقد حيالي. ثم قال متنهّدًا: «مع أنّك يجب أن تتفهّم ما حصل! لكنّ الأمر لا يتعلّق الآن لا بي ولا بك: هناك حيوات إنسانيّة يجب إنقاذها. إذًا أصغِ إليَّ لفترة خمس دقائق».

قال هنري وهو يشير إلى إحدى الكنبات المصنوعة من عيدان الصفصاف الشبيهة بخشب الخيزران: «أسمعك». في الحقيقة لم يعد يضمر أيّ غضب ضدّ لاشوم: كلّ هذا الماضي ضرب عنه صفحًا.

قال لاشوم بحزم:

ـ كتبت لتوك مقالاً جميلاً جدًّا، لا بل يجدر بي القول إنّه مقال مؤثّر.

هزّ هنري كتفيه:

ـ لسوء الحظّ لم يؤثّر في أناس كثيرين.

ـ نعم وهنا المصيبة. تحرّى هنري بنظراته: «أعتقد أنّه لو عرضت عليك إمكانيّة تحرّك أوسع فلن ترفضها؟ أليس كذلك؟».

ـ عمَّ تتحدّث؟

ـ باختصار، نحن بصدد تأليف لجنة دفاع عن أبناء مدغشقر. من الأفضل أن يضطلع آخرون غيرنا بهذه المبادرة. لكنّ المثاليّين من صغار البورجوازيّين لا يوبّخهم عذاب الضمير. هم قادرون على تحمّل الضربات دون تذمّر. الواقع أن لا أحد يعترض.

قال هنري:

ـ لغاية الآن لم تقوموا بالشيء الكثير أنتم أيضًا!

قال لاشوم باندفاع:

ـ ليس الأمر في يدنا. كلّ هذه القضيّة أثيرت لتصفية الـ M.D.R؛ من خلال النوّاب المدغشقريّين، يستهدفون الحزب. إذا دافعنا عنهم جهارًا فهذا سينقلب ضدّهم.

قال هنري:

ـ مفهوم، وعندئذٍ؟

ـ عندئذٍ خطرت لي فكرة إنشاء لجنة تضمّ في صفوفها بضعة شيوعيّين أو أكثريّة من غير الشيوعيّين. عندما قرأت مقالك، قلت في نفسي إنّ لا أحد مخوّل مثلك لترؤّسها. تحرّى لاشوم هنري بنظراته: «الرفاق لا يعارضون ذلك. لكن قبل أن يعرضوا عليك ترؤّسها رسميًّا، يريد لافوري أن يقف مسبقًا على مدى استعدادك لتولّي هذه المهمّة».

لزم هنري الصمت: فاشي، عميل، نذل، جاسوس.. كانوا قد ألصقوا به جميع أنواع التّهم الممكنة، وفجأة يأتون إليه صاغرين وأيديهم ممدودة. منحه هذا الأمر شعورًا ضئيلاً بالانتصار لكنّه شعور لا يخلو من العذوبة.

سأل:

ـ من ستتضمّن بالضبط هذه اللجنة؟

ـ جميع الأشخاص الذين يبدون رغبة في الانضمام إليها. ليسوا جحفلاً. هزّ كتفيه: «يتملكهم خوف كبير من التورّط في هذه المسألة من دون مشاركتك، وهم لا يحرّكون ساكنًا للدفاع عن عشرين بريئًا يعذّبون حتى الموت إذا تُركوا لوحدهم». وأضاف بلهجة ملحّة «إذا كنت تأخذ القضيّة على عاتقك فهذا سيغيّر كلّ شيء».

تردّد هنري ثم قال:

ـ لماذ لا تطلبون ذلك بالأحرى من دوبروي؟ لاسمه وزن أكبر من اسمي، وسيكون مستعدًّا للانضام إلى صفوفكم.

قال لاشوم:

ـ سيكون جيّدًا أن نحظى أيضًا بدوبروي. لكنّ اسمك أنت يجب وضعه في المقدّمة. دوبروي قريب جدًّا منّا. يجب، بوجه خاصّ، ألا يظهر أنّ للشيوعيّين اليد الطولى في إنشاء هذه اللجنة. وإلا فكلّ شيء يضيع. انضمامك إلينا يضمن نجاح عمل اللجنة.

قال هنري بجفاف:

ـ فهمت، بمقدار ما أكون خائنًا للقضيّة، أكون لكم نافعًا.

قال لاشوم غاضبًا:

ـ تكون مفيدًا لنا؟ أنت مفيد للمهتّمين، ماذا دهاك! ما الذي لدينا لنربحه من هذه القضية؟ نظر إلى هنري بعتب وأردف: «ألا تعي ذلك؟ كلّ يوم وهذا الصباح بالذات، تلقينا من مدغشقر رسائل وأخبارًا عاجلة تمزّق القلب: «تحدّثوا عنّا! حرّكوا الرأي العامّ إلى جانبنا أبلغوا سكّان العاصمة عن الذي يحدث هنا». أمّا نحن فمشلولو الحركة! بتنا عاجزين عن القيام بأيّ عمل ولم يبقَ لنا من أمل إلاّ العمل بطرق غير مباشرة».

ابتسم هنري. أثّر فيه احتداد لاشوم. كان صحيحًا أنّه قادر على القيام بمهامّ حقيرة لكنّه لا يرضى بأن يُعذّب الأبرياء ويُقتلوا على هذا النّحو دون أن يحرّك ساكنًا.

قال هنري بلهجة مصالحة:

ـ ماذا تريد! كلّ الأمور مختلطة في ذهنك: الأكاذيب السياسيّة والمشاعر الحقيقيّة، فيصعب علينا الوصول إلى قواسم مشتركة معكم.

ـ إذا لم تبدأ حالاً باتّهامنا بالميكافيليّة فستجد نقاطًا مشتركة. كنت تظنّ دومًا، على ما يبدو، أنّ الحزب لا يعمل إلاّ لنفسه! هل تذكر عندما تدخّلنا، عام ١٩٤٩ لصالح كريستينو غارسيا. عندئذٍ أخذوا علينا أنّنا تسبّبنا بإعدامه. اليوم لا نبادر إلى رفع الصوت عاليًا. وعندئذٍ تقول لي: «لا تقومون بالشيء الكثير».

قال هنري:

ـ لا تغضب. يبدو لي أنّك أصبحت سريع الانفعال إلى درجة عالية.

ـ هل تعلم، كلّ هذه اللامبالاة التي نصادفها في كلّ مكان تدفعك في النهاية لتستاء!

رغب هنري في أن يجيبه: «لكنّ هذا خطأكم». لكنّه لم يقل شيئًا وبات يشعر أنّه من غير الجائز أن يتعالى على صديقه. والحقّ يقال، لم يعد حاقدًا على لاشوم. قال له لاشوم ذات يوم في «البار روج»: «أتحمّل أيّ شيء إلاّ أن أترك الحزب». كان يعتبر أنّ شخصه بالذات لا أهمّيّة له قياسًا إلى المهمّات الخطيرة التي تستدعي المعالجة: فلمَ والحالة هذه سيولي أهمّيّة أكبر بشخص هنري؟ بالطبع، الصداقة في مثل هذه الظروف لم تعد ممكنة. لكن لا شيء يمنع من العمل معًا.

ـ اسمع. أنا لا أطلب أكثر من أن أتـــعاون معك. لا أظنّ أنّ فرصنا في النجاح كثيرة، لكنّنا سنحاول في نهاية المطاف.

أشرق وجه لاشوم: «هل أستطيع إبلاغ لافوري بأنّك وافقت؟».

ـ نعم، لكن أوضح لي قليلاً ما تنوون فعله.

ـ سنتباحث في الأمر معًا.

فكّر هنري: «هاكم ما يحدث وفي كلّ مرة! كلّ عمل صادق نقوم به يرتّب علينا أعباء جديدة». افتتاحيّاته في العام ١٩٤٧

أوصلته إلى كتابة المقال في *Vigilance*، الأمر الذي دفعه إلى تنظيم هذه اللجنة. كان متلققا من جديد، «لكن ليس لوقت طويل».

قالت نادين بصوت غاضب:

ــ عليك الذهاب للنوم. تبدين مرهقة.

قالت آن بنبرة اعتذار:

ــ إنّه السفر بالطائرة هو الذي أتعبني ومن ثمَّ هذا الفارق في الساعات. نمت بشكل سيّئ الليلة الفائتة.

كان المكتب يبدو في عيد. آن عادت البارحة. وقطفت نادين كلّ أزهار الحديقة لتزيّن بها البيت. لكنّ أحدًا لم يكن مسرورًا فعلاً. شاخت آن فجأة وراحت تحتسي الكثير من الويسكي. ودوبروي الذي كان قد تنشّط في الفترة الأخيرة، بدا مهمومًا، ربَّما بسبب آن. ونادين تحيك كنزة حمراء، والحَرَد بادٍ على وجهها. وما رواه هنري عكّر أجواء السهرة أيضًا فأيضًا.

سألت آن:

ــ ما الأمر؟ هل قُضي عليهم؟ ألم يعد هناك أيّ أمل بإنقاذ هؤلاء الأشخاص؟

قال هنري:

ــ ولا أيّ أمل.

قال دوبروي:

ـ كان معروفًا أنّ مجلس النوّاب سيسكت عن الموضوع.

قال هنري:

ـ لو شاركت في الجلسة لفوجئت مع ذلك، ظننت أنّني في منأى عن مثل هذه الرغبات: لكن في بعض الأحيان، أشعر برغبة في القتل.

قال دوبروي:

ـ نعم، أبدوا قوّة ومناعة!

قالت آن:

ـ الساسة لا يفاجئونني. ما لا أفهمه هو كيف أنّ مجموع الناس لم يظهروا أي ردّة فعل إلاّ في ما ندر.

قال هنري:

ـ هذا هو السبب في أنّهم لن يظهروا ردّة فعل حيال ما يحدث.

جاء جيرار باتورو والمحامون الآخرون إلى باريس، وهم عازمون على تحريك الرأي إلى أقصى حدّ ممكن. آزرتهم اللجنة قدر ما تستطيع. لكنّهم اصطدموا باللامبالاة العامّة.

نظرت آن إلى دوبروي:

ـ ألا تجد هذا مثبّطًا للعزيمة؟

قال:

ـ لكن لا. كلّ ما يثبته هذا هو أنّ العمل السياسيّ لا يُرتجل. انطلقنا من الصفر، إذًا، وبطبيعة الحال.

دخل دوبروي إلى اللجنة لكنّه لم يهتمّ بها البتّة. الأمر الذي أثار اهتمامه في هذه القصّة هو أنّه أعاد علاقاته بالسياسة. انضمّ إلى حركة «مناضلون من أجل الحرّيّة». وشارك في أحد مؤتمراتها وسيستمرّ في المشاركة لبضعة أيّام. لم يصرّ على هنري لكي يحذو حذوه ولم يعد يحدّثه من جديد عن المجلّة الأسبوعيّة لكنّه، بين الفينة والفينة، لا يكفّ عن إبداء عتبه المضمر إلى حدّ ما.

قال هنري:

ــ سواء كان العمل مرتجلاً أم لا فإنّه لن يوصل إلى أيّ نتيجة في الوقت الراهن.

قال دوبروي:

ــ أنت قلتها. لو توحّدت جهودنا من خلال فريق منظّم منذ البداية وكانت لنا صحيفة ونمتلك المال الضروري لكنّا نجحنا في التأثير في الرأي العام.

قال هنري:

ــ ليس هذا أكيدًا.

ــ على أيّ حال، قلْ بالأحرى حتى لو توافرت لمحاولتنا فرص أكبر للنجاح وكانت الفرصة سانحة لتوجّب علينا بذل المزيد من التخطيط والدرس.

قال هنري:

ــ بالنسبة لي لن تكونِ الفرصة سانحة.

قال دوبروي:

ـ هيّا كفى! تضحكني عندما تقول إنّك تخلّيت عن السياسة. أنت مثلي. فعلت الكثير ولن تتخلّى عن الفعل مجدّدًا، ستجد نفسك مأخوذًا مرّة ثانية.

قال هنري ببشاشة:

ـ لا. أريد أن أكون بمنأى عنها.

برقت عينا دوبروي: «أراهن أنّك لن تبقى سنة واحدة في إيطاليا».

قالت نادين بحيويّة:

ـ أقبل الرهان. ثم التفتت إلى والدتها: «وأنت ما رأيك؟».

ـ لا أعرف. هذا رهن بإعجابكما بالمكان.

ـ كيف تريدين ألا يعجبنا؟ هل رأيت المنزل في الصورة: أليس جميلاً؟

قالت آن:

ـ يبدو جميلاً جدًّا. ثم نهضت فجأة: «أعتذر. سأسقط أرضًا لفرط ما أشعر بالنعاس».

قال دوبروي: «أصعد معك».

قالت نادين وهي تقبّل أمّها: «حاولي أن تنامي الليلة. أقسم لك إنّ السقم بادٍ عليك».

قالت آن:

ـ سأنام.

عندما أغلقت الباب، تحرّى هنري نادين بنظراته: «صحيح أنّ آن تبدو متعبة».

قالت نادين بضغينة:

ـ متعبة وحزينة. إذا كانت متحسّرة إلى هذا الحدّ على مغادرة أميركا، فما كان عليها إلاّ أن تبقى هناك.

ـ ألم تحدّثك شيئًا عن رحلتها إلى هناك؟

ـ وهل تظنّ أنّها تحدّثني! إنّها متكتّمة جدًّا حول حياتها. على أيّ حال، أنا، لا أحد يخبرني شيئًا.

تفرّس هنري بها بفضول:

ـ لديك علاقة غريبة بأمّك.

قالت نادين وقد بدا عليها وكأنّها لُدغت:

ـ ولماذا تقول إنّها غريبة. أحبّها كثيرًا لكنّها غالبًا ما تغيظني. وأعتقد أنّ الأمر مماثل بالنسبة لها. الأمر ليس غريبًا. هكذا هي العلاقات العائليّة.

لم يصرّ هنري. لكنّ هذا صدمه دومًا: هاتان المرأتان بمقدور الواحدة منهما أن تضحّي بحياتها من أجل الأخرى ومع ذلك فإنّ سوء التفاهم هو السمة التي تتميّز بها علاقتهما. تصبح نادين أكثر عدائيّة وعنادًا بكثير حين تكون أمّها موجودة. في الأيّام التالية بذلت آن جهودًا لكي تبدو سعيدة، وانبسطت أسارير نادين. لكن كان هناك شعور بأنّ عاصفة بإمكانها أن تهبّ بين لحظة وأخرى.

في ذلك الصباح، راقبهما هنري من غرفته تخرجان إلى الحديقة. كانت كل واحدة منهما تتأبّط ذراع الأخرى وتضحكان. وبعد ساعتين عندما اجتازتا المرجة من جديد شاهد آن تحمل تحت ذراعها رغيفًا من الخبز مستطيل الشكل ونادين كدسة من الصحف وقد لاحظ أنّ خصامًا حصل بينهما. حان وقت الغداء. رتّب هنري أوراقه. غسل يديه ونزل إلى غرفة الجلوس. كانت آن جالسة على حافة الكرسي في حالة من الغياب. دوبروي يقرأ *l'Espoir – Magazine* ونادين واقفة قربه، تراقبه.

قال هنري مبتسمًا للجميع:

ــ مرحبًا؟ هل من جديد؟

قالت نادين وهي تشير إلى الجريدة.

ــ هذا جديد! وأضافت بلهجة جاقة: «أرى أنه يتوجّب عليك من الساعة تهشيم وجه لامبير».

قال هنري مبتسمًا:

ــ آه! هل يريد لامبير أن يمرّغ جبيني بالوحول؟

قال دوبروي وهو يناول الجريدة لهنري:

ــ خذ واقرأ بنفسك.

كان عنوان المقال: «هم، كما يرون أنفسهم». مرّة أخرى بدأ لامبير يركّز على التأثير السيّئ الذي يمارسه دوبروي. وعن هنري يقول إنّه بعد انطلاقة لامعة وصل إلى طريق مسدود وفقد كلّ موهبة. ثمّ اختصر لامبير رواية هنري من خلال استشهادات

مجتزأة وموصولة بطريقة مضحكة. وبغية مساعدة القارئ على الاهتداء إلى مفاصل الكتاب الأساسيّة، التي لا وجود لها بنظر لامبير، أطلّ على حياة هنري الخاصّة، وكذلك حياة دوبروي وآن ونادين من خلال تفاصيل مجتزأة ومختارة انطلاقًا من تصوّر مسبق تجعل هؤلاء الأشخاص منغمسين في أمور سيّئة ومدعاة للسخرية في آن.

قال هنري:

ـ يا له من نذل. لا زلت أذكر حوارًا جرى بيني وبينه عن العلاقة التي تربطنا بالمال. وها قد استخلص منها هذا المقطع القذر عن «خبث أصحاب الامتيازات من أهل اليسار». يا له من نذل!

قالت نادين:

ـ هل ستقف مكتوف الأيدي إزاء ما حصل؟

تحرّى هنري دوبروي بنظراته: «أودّ فعلاً أن أهشّم وجهه. ولن يكون الأمر صعبًا. لكن ماذا سأجني من ذلك؟ فضيحة وأصداء في كلّ الصحف ومقال جديد أسوأ من هذا».

قالت نادين:

ـ إنّ لكمة قويّة قد تعيده إلى رشده ويلزم الصمت.

قال دوبروي:

ـ بالتأكيد لا. فكل ما يتمنّاه أن يفتح سجالاً مع هنري في وسائل الإعلام: عندئذٍ سينتهز الفرصة. وختم قائلاً: «أنا مع أن يسكت هنري عن القضيّة ويمتنع عن الردّ».

قالت نادين:

ـ لكن، حين يعنّ على باله، ما الذي سيمنعه ذات يوم من أن يكتب مقالاً جديدًا ويستمرّ في غيّه؟ لا سيّما إذا أيقن أنّ ليس لديه ما يخشاه.

قال هنري:

ـ الأمر هكذا حين يتعاطى المرء الكتابة. يعتقد الجميع أنّ له الحقّ في إطلاق التّهم جزافًا عليه. لا بل إنّ الكثيرين يتطلّعون إلى ذلك على أنّه واجب.

قالت نادين:

ـ أنا لا أكتب. لذا لا يحقّ لأحد أن يتوجّه إليّ بالنقد.

قالت آن:

ـ نعم، في البداية هذا يثير الاستهجان. لكن سرعان ما نتأقلم مع الأمر. نهضت: «ماذا لو نتناول الغداء؟».

جلسوا حول الطاولة بصمت. غرزت نادين شوكتها في قطعة الخبز المستديرة، وانفرجت أسارير وجهها ثم قالت بنبرة حائرة: «يزعجني أن أفكر بأنّه سينتصر دون أن يردّ أحد عليه».

قال هنري:

ـ لا ينتظر دون أن يردّ أحد عليه.

قال هنري:

ـ ليس منتصرًا بالقدر الذي تتصوّرينه. كان يحرص على كتابة قصص وروايات بغضّ النظر عن المقالات التي يكتبها. لم ينشر له فولانج شيئًا، منذ تلك القصّة القصيرة الشهيرة التي كانت سيّئة للغاية.

التفتت نادين ناحية آن:

ـ هل قالوا لك ما الذي تجرّأ على كتابته الأسبوع الفائت؟

ـ لا.

ـ أعلن أنّ أنصار بيتان أحبّوا فرنسا على طريقتهم وأنّهم أقرب إلى الديغوليّين من مقاوم منشقّ. لم يذهب أحد إلى ما ذهب إليه! قالت نادين بهيئة راضية. ثم أضافت: «آه! انقلبوا تمامًا، هؤلاء الزملاء القدامى. هل قرأت ما قاله جوليان عن كتاب فولانج؟».

قالت آن:

ـ أطلعني روبير عليه. جوليان! من كان سيصدّق هذا!

قال دوبروي:

ـ ليس هذا بالمفاجئ إلى هذا الحدّ. ماذا تريدين أن يصير بحال فوضويّ اليوم؟ إنّ الممارسات السيّئة التي يمارسها اليساريّون لم تعد تسلّي أحدًا...

قالت نادين:

ـ لا أرى موجبًا أن يتحوّل كلّ فوضوي إلى جماعة R.P.F بالضرورة.

كانت تنظر إلى كل تفسير على أنّه عذر مقدّم وغالبًا ما ترفض أن تفهم لكي لا تفسد لذّة الاستهجان. ثم خيَّم صمت قصير. لم تكن حوارات هؤلاء الأشخاص الأربعة سهلة حين يدور النقاش بينهم. أخذ هنري يتحدّث إلى آن عن رواية جاءت بها من أميركا وقد قرأها لتوّه. كان دوبروي يفكّر في أمر آخر، ونادين أيضًا. الجميع ارتاحوا عند انتهاء الغداء.

سألت نادين بعدما أنهت غداءها:

ـ هل أستطيع أن آخذ السيّارة؟ إذا شاء أحدهم الاعتناء بماريّا فسأذهب للقيام بجولة.

قالت آن:

ـ أنا سأهتمّ بماريّا.

قال هنري مبتسمًا:

ـ ألن تصطحبيني معك؟

ـ بداية، ليست لديك أيّ رغبة. ثمَّ أضافت وهي تبتسم: «ومن ثمّ أريد أن أكون وحيدة، أفضّل ذلك».

قال هنري:

ـ لا بأس. لن أصرّ! قبّلها وقال: «تنزّهي جيّدًا. وكوني حذرة!».

لم يكن راغبًا في الذهاب للتنزّه ولا أيضًا في العمل. كان دوبروي يؤكّد أنّ قصّته القصيرة الأولى جيّدة. والقصّة التي يريد كتابتها الآن يُعنى بها عناية خاصّة. لكنّه كان يشعر بحيرة بالغة في هذه الأيّام. لا يشعر أنّه موجود في فرنسا ولم يذهب بعد إلى إيطاليا. محاكمة تناناريف انتهت دون أن تنتهي لأنّ المتّهمين رفضوا الدفاع عن أنفسهم، ولأنّ الحكم الصادر كان متوقعًا مسبقًا. كانت نشاطات دوبروي تزعجه ومع ذلك حسده على نحو مبهم على الملذّات التي كان يتمتّع بها. أخذ كتابًا. لحسن الحظّ لم تعد الساعات والأيّام محصاة ولم يعد مضطرًّا على إرغام نفسه على فعل شيء. كان ينتظر أن يرحل إلى بورتو فينيري لكي يبدأ قصّة جديدة.

حوالى الساعة السابعة، نادته آن لتناول المقبّل وفقًا لعادة جعلته يألفها. كان دوبروي يواصل الكتابة عندما دخل هنري إلى المكتب. أبعد أوراقه.

ــ هذا شيء جيّد قمت به.

ــ ما هو؟ سأل هنري.

ــ الكلمة التي سأتلوها نهار الجمعة في ليون.

ابتسم هنري: «لديك الشجاعة حقًّا: نانسي، ليون يا للمدن المشؤومة!».

قال دوبروي:

ـــ نعم إنّها مشؤومة. إلاّ أنّني أحتفظ بذكرى طيّبة عن هذه السهرة.

قال هنري:

ـــ أشكّ في أنّك فاسد إلى حدّ ما.

ـــ ربّما. ابتسم دوبروي: «لن يكون بإمكاني أن أشرح لك ذلك. بعد المؤتمر، ذهبنا إلى حانة لنتناول الكرنب اللفتي ونحتسي البيرة. لم يكن للمكان ما يميّزه وبالكاد أعرف الأشخاص الذين كانوا معي. ولم نتبادل أطراف الحديث. لكنّا فعلنا شيئًا معًا، شيئًا سُررنا به وهذا جيّد».

قال هنري:

ـــ أعرف. خبرت هذا.

خلال الحرب، إبّان المقاومة، في الجريدة خلال السنة الأولى، مرّ بهذه اللحظات.

ثمّ أضاف، «هذا لم يحدث لي في الـــ *S.R.L*».

ـــ ولا أنا أيضًا. أخذ من يد آن كأسًا من المارتيني وشربه دفعة واحدة: «لم نكن متواضعين كفاية. لكي نحظى بهذه المسرّات الصغيرة، يجب العمل في الحالة الحاضرة».

قال هنري:

ـــ ما قولك. ولا يبدو لي تواضعًا كبيرًا أن تسعى إلى إيقاف الحرب!

ـ هذا تواضع لأنّنا لا ننطلق من أفكار معلومة مسبقًا نرغب في فرضها على الناس. كان لدى الـ *S.R.L* برنامج بنّاء ومن الطبيعي أنّه كان طوباويًّا. ما أفعله الآن يشبه ما فعلته عام ١٩٣٦. نحاول أن نتصدّى لخطرٍ ما من خلال استعمال الوسائل المتاحة. هذا أكثر واقعيّة.

ـ يجب ان يقترن الواقعي بالقدرة على بلوغ النتيجة المتوخّاة.

ـ وإنّه لكذلك.

خيّم على المكان صمت قصير. تساءل هنري: «ما الذي يدور بالضبط في رأس دوبروي؟» استصوب بسهولة وجهة نظر نادين التي رأت أنّ تحرّكه ينمّ عن ضجر. ظلّ على موقفه المتحايل لوقت قصير. تعلّم ألاّ يأخذ دوبروي على محمل الجدّ دون تبصّر: لكنّ هذا لا يبيح له أن ينظر إليه بصفته طائشًا.

قال هنري:

ـ هناك شيء لا أفهمه. كنت تقول في السنة الفائتة إنّك شخصيًّا لا تستيطع أن تتحمّل ما أسميته «الإنسانويّة الجديدة». وها إنّك تماشي في الحقيقة الشيوعيّين. هل ما كان يزعجك من قبل لم يعد سببًا في إزعاجك الآن؟

قال دوبروي:

ـ هذه الإنسانويّة، كما تعرف، هي الوجهة التي يتّجه نحوها العالم اليوم. لا يمكننا رفضها لأنّنا بذلك نرفض العالم. كل ما يمكننا فعله هو أن نتّخذ موقفًا مغايرًا.

فكّر هنري: «هذا هو رأيه فيَّ. أستنكف عن المشاركة». حتى آخر لحظة من حياته، سيواصل دوبروي هذا الترقع على ماضيه وماضي الآخرين. فكّر هنري: «لكن أنا في النهاية من سعى في أثره». أراد أن يقف على وجهة نظره وليس ليدافع عن نفسه حياله. كان يعرف أنّه في أمان».

ابتسم:

ــ لماذا توقفت أنت عن المقاطعة؟

ــ لأنّي شعرت ذات يوم أنّني سأعود إلى الانخراط من جديد في السياسة. أوه! هذا سهل جدًّا. السنة الماضية، قلت في نفسي: «كل شيء سيّئ. حتى الشرّ الأقلّ يصعب تقبّله ولا يمكن أن أنظر إليه بمثابة خير». إلاّ أنّ الوضع ازداد خطورة. الشرّ الأسوأ أصبح من الخطورة بحيث إنّ تحفظاتي حيال الاتّحاد السوفييتي والشيوعيّة بدت لي ثانويّة. نظر دوبروي إلى هنري: «ما يفاجئني هو أنّك لا تنظر من المنظار الذي أنظر فيه».

هزَّ هنري كتفيه: «عانيت من الشيوعيّين ما يكفي في هذا الشهر. عملت مع لاشوم. أفهم جيّدًا وجهة نظرهم. لكن لا أنسجم ولن أتّفق أبدًا».

قال دوبروي:

ــ لا يتعلّق الأمر بالانتساب إلى الحزب. لكن لا حاجة لتكون متّفقًا معهم على كلّ شيء لكي تناضلوا معًا ضدّ أميركا وضدّ الحرب.

ـ أنت أكثر تفانيًا منّي. لن أضحّي بحياتي التي أرغب في عيشها من أجل قضيّة لا أؤمن بها إلاّ جزئيًّا.

ـ آه، لا تبادرني بهذا النوع من الحجج! هذا يذكّرني بفولانج عندما قال: «لا يستحقّ الإنسان أن نهتمّ به».

قال هنري بحماس:

ـ الأمر ليس مشابهًا إطلاقا.

ـ بل مشابه أكثر ممّا تظنّ. تحرّى دوبروي هنري بنظراته: «هل أنت مقتنع أنّه بين الاتّحاد السوفييتي وأميركا، يجب اختيار الاتّحاد السوفييتي؟».

ـ بالطبع.

قال دوبروي بحميّة:

ـ إذًا هذا كافٍ. إلاّ أنّ ثمّة شيئًا عليك الاقتناع به وهو أنّ معاينة الواقع تفرض علينا الخيار، وكل حبّ يؤدّي إلى الإيثار. إذا كان لا بدّ من الالتزام لبلوغ الكمال المطلق فلن نحبّ أحدًا ولن نفعل شيئًا.

ـ لكن بإمكاننا، ومن دون أن نسعى إلى الكمال، أن نجد أنّ الأشياء قبيحة وليست لدينا رغبة في التورّط بها.

ـ قبيحة بالنسبة لأيّ شيءٍ؟

ـ بالنسبة لما يجب أن تكون.

ـ أي بالنسبة لأفكار صغتها. هزّ كتفيه: «الاتّحاد السوفييتي كما يجب أن يكون، والثورة دون سفك دماء أو سفح دموع، كل هذه أفكار مجرّدة، أي صفر. وبالطبع، عندما تنتقل من الفكرة إلى التطبيق أي من المثال إلى الواقع ستشعر حتمًا بالمرارة. ما إن تتجسّد الفكرة حتى تتشوّه. إلاّ أنّ تفوّق الاتّحاد السوفييتي على كلّ الاشتراكيّات الأخرى يكمن في أنّه موجود.

ساءل هنري دوبروي بنظراته:

ـ إذا كان كلّ ما هو موجود هو الصواب بعينه فلا يبقى لدينا والحالة هذه إلاّ أن نقف مكتوفي الأيدي.

ـ لا إطلاقًا. الواقع ليس جامدًا. إنّه صيرورة حتميّة باتّجاه المستقبل ويحمل في طيّاته كلّ الاحتمالات. لكن، حتّى نفهم الواقع ونؤثّر في مجرى الأحداث يجب أن ننخرط فيه، ولا نتلهّى بأحلام سخيفة.

قال هنري:

ـ أنت تعرف أنّني لا أحلم البتّة.

ـ عندما نقول: «الأشياء قبيحة» أو كما في السنة الفائتة: «كلّ شيء سيّئ. فهذا لأنّنا نسعى صادقين إلى الخير المطلق. نظر إلى هنري في عينيه مواجهة: يجب أن نتنبّه للأمر، وأن نتخلّى عن الأنانيّة ونتناسى أمورنا الخاصّة ونتواضع بعض الشيء ونعترف بأنّه يتوجّب علينا الخيار بين الواقع واللاشيء. لا أعرف خطأ أسوأ من أن نفضّل الفراغ على الامتلاء.

التفت هنري ناحية آن التي كانت تحتسي بصمت كأسها الثانية من المارتيني: «ما قولك؟».

ـ شخصيًّا، صعب عليَّ دومًا أن أحسب أنّ شرًّا أقلّ هو خير. لكن مردّ ذلك هو أنّني آمنت لفترة طويلة بالله. أعتقد أنّ روبير على صواب.

ـ لعلّه على صواب! قال هنري:

ثم قال دوبروي:

ـ أتكلم عن خبرة. أنا أيضًا حاولت أن أبرّر بعض نزواتي على اعتبار أنّ أمور هذا العالم لا تستحقّ أن يتوقف المرء عندها.

ملأ هنري كأسه من جديد. ألم يكن دوبروي يبرّر بالضبط نزواته من خلال النظريّات؟ «لكن، إذا أخذنا هذا الأمر بعين الاعتبار فأنا أيضًا سأحاول أن أقلل من أهمّيّة ما يقول لي بدافع مزاجي». قرّر أن يشاركه الرأي حتى نهاية الحوارعلى الأقلّ.

قال:

ـ على أيّ حال، تبدو طريقتك في رؤية الأشياء متشائمة بالأحرى.

قال دوبروي:

ـ هنا أيضًا، التشاؤم يجب أن ُينظر إليه بالنسبة إلى الأفكار التي تبنّيتها فيما مضى. أفكار متفائلة أكثر ممّا ينبغي. التاريخ ليس تعاقب أحداث سارّة. لكنْ، بما أنّه لا توجد أيّ وسيلة للتخلّص منه،

يجب البحث عن الطريقة الفضلى لمعايشته. وهذه الطريقة ليست بنظري التمنّع عن المشاركة فيه.

ودّ هنري أن يطرح أسئلة أخرى، لكن سُمع في القاعة وقع أقدام.

دفعت نادين الباب وقالت ببشاشة:

ـ السلام عليكم يا عصابة السكارى! بإمكانكم أن تشربوا وتدعوا لي بالصحّة. أستحقّ أن تشربوا نخبًا على شرفي! نظرت إليهم والظفر يلتمع في عينيها: «احزروا ماذا فعلت؟».

قال هنري:

ـ ماذا هنالك؟

ـ كنت في باريس. وانتقمت لكم: صفعت لامبير.

ساد صمت وجيز.

سأل هنري:

ـ أين التقيته؟ كيف حصل الأمر؟

قالت نادين بفخر:

ـ حسنًا، صعدت إلى مبنى الجريدة وذهبت إلى غرفة التحرير. كانوا جميعًا هناك: سامازيل وفولانج ولامبير مع مجموعة من الناس ذوي الوجوه المشؤومة التي تبعث في نفس المشاهد التقزّز والسخرية. أخذت نادين تضحك: «بدا لامبير مبهورًا وأخذ يغمغم كلمات لكنّي لم أدعه يتكلّم». قلت له: «أنا مدينة لك من زمن طويل

وسعيدة لأنك منحتني الفرصة لأعوّض عليك». وصفعته بكل قواي.

قال هنري:

ـ وماذا فعل؟

ـ أوه، تظاهر بالتصرّف بكرامة واستعلى على الموقف أمّا أنا فاستعجلت الرحيل.

قال هنري:

ـ ألم يقل إنّه كان باستطاعتي أن أقوم بالمهمّة بنفسي؟ هذا ما كنت لأقوله لو كنت مكانه. لم يشأ تأنيب نادين لكنّه شعر باستياء شديد.

قالت نادين:

ـ لم أستمع إلى ما قاله. نظرت إليهم مداورة بشيء من التحدّي: «ما الأمر؟ ألن تهنّئوني؟».

قال هنري:

ـ لا أجد ما فعلته يدلّ على ذكاء فعلاً.

قالت نادين:

ـ أنا أجد ذلك في غاية الذكاء. وأضافت بنبرة حاقدة: «التقيت فنسان وأنا خارجة من هناكِ وقال لي إنّني شجاعة».

قال دوبروي:

ـ إذا كنت تسعين إلى الدعاية فقد نلت مرادك، الصحف ستتحدّث عن ذلك بصدر مفتوح.

ـ لا أبالي بالصحف.

ـ الواقع هو أنك تبالين.

تبادلا النظرات بعدائيّة.

قالت نادين بغضب:

ـ إذا كان يسرّكم أن ينالوا منكم فتبًّا لكم. لكن هذا لا يسرّني. التفتت إلى هنري وقالت فجأة: «الخطأ خطأك. لماذا أخبرت الجميع عن قصصنا؟».

ـ هيّا، لم أتحدّث عنّا. تعرفين جيّدًا أنّ كلّ الشخصيّات مختلقة.

ـ هيّا كفى! هناك جملة من الأمور في روايتك تنطبق على أبي أو عليك، وتعرّفت على ثلاث جمل قلتها لك.

قال هنري:

ـ قالها أناس لا علاقة لهم بك لا من قريب ولا من بعيد. بطبيعة الحال، أظهرت شخصيّات تنتمي إلى الزمن الحاضر وهم يعيشون تقريبًا في ظروف مشابهة لظروفنا: لكنّ هناك الآلاف منهم. ولا أتحدّث لا عن أبيك ولا عنّي بشكل خاصّ. بل خلافًا لذلك، بما يتعلّق بأكثريّة النقاط، شخصيّاتي لا يشبهوننا بشيء.

قالت نادين بلهجة حادّة:

ـ لم أعترض لأنه، كا يقال، يحلو لي أن أختلق القصص، أو تعتقد أن الأمر مسلٍّ؟ أتكلم معك باطمئنان وأظنّ من الندّ للندّ، وطيلة الوقت تراقب وتأخذ الملاحظات في سرّك، وفجأة نجد الكلمات التي قلناها مطبوعة في كتاب، الكلمات التي وردت على ألسنتنا وخلناها دُفنت إلى الأبد. وكذلك الإشارات التي لا قيمة لها. هذا ما أسمّيه إساءة الأمانة!

قال هنري:

ـ لا يمكن كتابة رواية دون أن نختلس أشياء من حولنا.

قالت نادين بغضب مسعور.

ـ ربّما. لكن، والحالة هذه يجب عدم معاشرة الأدباء.

ابتسم لها هنري:

ـ أخذت حصّة لا يستهان لها.

قالت وقد احمرّ وجهها بشدّة:

ـ اسخر منّي الآن على قدر ما يحلو لك.

ـ لا أسخر منك. وأحاط بذراعه كتفي نادين: «لا تعظّمي الأمور».

ـ أنتم الذين تعظّمون الأمور آه! كم أنتم مسروررون هكذا أنتم الثلاثة وأنتم تنظرون إليَّ. كما تنظرون إلى الواقف في قفص الاتّهام.

قالت آن بلهجة مصالحة:

ـ هيّا! لا أحد يقاضيك. تحرّت نظرات دوبروي وأضافت: «إنّه لشيء يبعث على الارتياح التفكير أنّ لامبير تلقى صفعة قويّة».

لم يجب دوبروي. حاول هنري أن يقطع هذا الصمت الطويل فقال:

ـ هل رأيت فنسان؟ ماذا صار بحاله؟

قالت بنبرة متعجرفة:

ـ وماذا تريد أن يصير بحاله؟

ـ ألا يزال يعمل في الإذاعة؟

ـ نعم. تردّدت نادين ثم قالت: «كنت أريد أن أخبركم شيئًا هامًّا لكن لم تعد لديّ رغبة».

قال هنري:

ـ هيّا! أخبرينا!

قالت نادين:

ـ فنسان عثر على سيزيناك في فندق صغير لجهة باتينيول وحين اهتدى إلى العنوان، ذهب ليدقّ على باب سيزيناك. كان يرغب في أن يقول له طريقته في التفكير. رفض سيزيناك أن يواجهه. تمركز فنسان أمام الفندق لكنّ سيزيناك استطاع الفرار عبر أحد مخارج النجاة. ومنذ ثلاثة أيّام لم يظهر من جديد، لا في الفندق ولا في المطعم ولا في البارات حيث يستحصل باستمرار على المخدّرات. لكن لم يجده في أيّ مكان. ثم أضافت بلهجة

ظافرة: «ألا يعدّ تصرّفه اعترافًا بأنّه مذنب؟ لو كان ضميره مرتاحًا لما احتجب عن الأنظار».

قال هنري:

ـ هذا رهن بما قاله فنسان عبر الباب. حتى لو كان بريئًا، يمكن أن يخاف.

قالت نادين:

ـ لكن لا، لو كان بريئًا لسعى لأن يشرح موقفه. التفتت إلى أمّها وقالت بنبرة معادية: «لا يبدو أنّ الأمر يهمّك. ومع ذلك فقد عرفت سيزيناك».

قالت آن:

ـ نعم، بدا لي أنّه من قدامى المدمنين. وعندما يصل المرء إلى هذه المرحلة، فإنّه يجيز لنفسه القيام بأيّ عمل محظور.

ساد صمت ثقيل. فكّر هنري بقلق: «سيعثر فنسان على سيزيناك. وعندئذٍ؟ إذا تكلّم سيزيناك أو إذا كان لامبير غاضبًا عليه لدرجة تحمله على تأكيد أقوال سيزيناك، فما الذي سيحدث؟».

كان دوبروي وآن يتساءلان السؤال نفسه:

قالت نادين باحتقار:

ـ حسنًا، إذا كانت هذه ردّة فعلكم على ما أخبرتكم إيّاه فكان من الأفضل أن أحتفظ بهذا السرّ لنفسي.

ـ لكن لا! إنّها قصّة غريبة. لذا نتأمّل في معانيها.

ـ لا تكلّف نفسك عناء أن تكون مهذبًا معي. أنتم أناس كبار ولست إلاّ طفلة. ما يسلّيني لا يسلّيكم، هذا طبيعيّ. اتّجهت إلى الباب: «سأصعد لتفقد ماريّا».

ظلّت حردة طيلة السهرة، فكّر هنري: «هذه الحياة مع أربعة أشخاص لا تعني لها شيئًا. في إيطاليا سيتحسّن الوضع». ثم فكّر بقليل من القلق: «لن يطول الأمر أكثر من عشرة أيّام: كلّ شيء نُظّم: نادين وماريّا ستنطلقان في القطار وهو سيسبقهما في سيّارته. من حين لآخر كان يستشعر على صفحة وجهه الهواء الدافئ المفعم برائحة الملح الممزوج برائحة صمغ الصنوبر وفي لحظات أخرى، كان يشعر بندم يشبه الضغينة: وكأنّ أحدًا ينفيه إلى ذلك المكان رغمًا عنه.

طيلة اليوم التالي، فكّر هنري من جديد بالحوار الذي أجراه مع دوبروي والذي امتدّ حتى وقت متأخّر في الليل. المسألة الوحيدة كما أكدّ دوبروي هي أن نحسم خيارنا المتعلّق بالأشياء التي نؤثرها انطلاقًا من الواقع الراهن ومن قناعاتنا ومن رغباتنا. لا يتعلّق الأمر بالخضوع، فالخضوع يعني أن نتقبّل، بين أمرين، الأمر الذي يساوي أهمّيّة أقلّ. أجل، في بعض النقاط، كان هنري، موافقًا، إيثار الفارغ على الملآن، هذا ما كان يعيبه على بول: كانت تتشبّث بخرافات قديمة. بدل أن تأخذ الأمور على حقيقتها. خلافًا لذلك، لم يبحث لدى نادين عن المرأة «المثاليّة». اختار أن يعيش معها على علاّتها على الرّغم من معرفة كلّ عيوبها. بدا له أنّ موقف

دوبروي مبرّر بشكل خاصّ لدى تفكيره بالأدب والأعمال الفنّيّة. لا نكتب أبدًا الكتب التي نريدها، ويمكن الادّعاء بأنّ كلّ تحفة فنّيّة إخفاق. ومع ذلك، لا يسعنا أن نؤمن بفنّ غايته أبعد من الإنسان. الأعمال التي نفضّلها، نحبّها حبًّا مطلقًا. على الصعيد السياسيّ، أحسّ هنري أنّه أقلّ اقتناعًا: لأنّ الشرّ هنا يفعل فعله على أرض الواقع وهو ليس خيرًا أقلّ. إنّه مطلق الشقاء والموت. إلاّ أنّنا إذا كنّا نعلّق أهمّيّة على الشقاء والموت والبشر فردًا فردًا، لا يكفي أن نقول: «التاريخ تعيس في جميع الأحوال» لكي نشعر أنّه مباح لنا أن نتخلّى عن القيام بمسؤوليّاتنا. أمر مهمّ أن يكون التاريخ أكثر أو أقلّ تعاسة. كان هنري يراجع أفكاره في ظلّ الزيزفونة عند حلول المساء حين ظهرت آن في أعلى سفرة الدرج.

ـ هنري!

نادته بصوت هادئ ولكن ملحّ وفكّر بانزعاج: «لا بدّ أنّها قصّة جديدة مع نادين». مشى نحو البيت.

ـ ماذا هنالك؟

كان دوبروي جالسًا بالقرب من المدفأة ونادين واقفة قبالته ويداها مندسّتان في جيوب بنطالها ويبدو عليها العناد.

قالت آن:

ـ سيزيناك هنا.

ـ سيزيناك؟

ـ يدّعي بأنّهم يجدّون في طلبه لقتله. يختبئ منذ خمسة أيّام، لكنّه لم يعد يستطيع الصمود. خمسة أيّام دون مخدّرات، إنّه على آخر رمق. أشارت إلى باب غرفة الطعام «إنّه هناك، مضطجع على الديوان كالكلب المريض. سأعطيه حقنة».

أمسكت إبرة في يدها وكانت هناك علبة صيدليّة على الطاولة.

قالت نادين بلهجة قاسية:

ـ ستحقنينه عندما يتكلّم. كان يأمل بأن تكون أمّي من السذاجة بحيث تساعده دون أن تطرح عليه أسئلة. لكن، لا مجال فأنا هنا.

سأل هنري:

ـ هل تكلّم؟

ـ سيتكلّم. مشت باندفاع إلى الباب وفتحته. وبصوت يشوبه التودّد، نادت:

ـ سيزيناك!

جمد هنري على العتبة بالقرب من آن فيما اقتربت نادين من الديوان. لم يتحرّك سيزيناك، كان مضطجعًا على ظهره، ينتحب ويداه تنفتحان وتنقبضان بحركة تشنّجيّة.

قال: «بسرعة! بسرعة!».

قالت نادين:

ـ ستنال حقنتك! أمّي أحضرت لك المورفين، انظر.

أدار سيزيناك رأسه، والعرق يتصبّب من جبينه.

قالت نادين:

ـ قبل كلّ شيء، عليك أن تجيبني: في أيّ سنة بدأت العمل مع الغستابو؟

قال سيزيناك:

ـ ساموت. أخذت الدموع تسيل على وجنتيه وراح يرفس الفراغ. كان المنظر صعب الاحتمال وودّ هنري لو أنّ آن وضعت حدًّا لذلك على الفور. لكنّها بدت مشلولة. اقتربت نادين من الديوان وقالت:

ـ أجب وعندئذٍ تنال حقنتك. انحنت نحو سيزيناك «أجب وإلاّ ازدادت الأمور سوءًا. في أيّ سنة؟».

تمتم سيزيناك وهو يلهث:

ـ لم يحصل هذا قطّ. رفس أيضًا رفسة أخرى وتهاوى على السرير جامدًا بلا حراك. كان الزبد الأبيض يسيل من أطراف شفتيه.

قام هنري بخطوة نحو نادين:

ـ اتركيه.

قالت بعنف:

ـ لا، أريد أن يتكلّم، إمّا يتكلّم وإمّا يُقضى عليه هل سمعت؟

أردفت وهي تعود إلى سيزيناك:

ـ إذا لم تتكلّم فسنتركك تلقى حتفك.

بقيت آن ودوبروي متسمّرين في مكانيهما. الواقع هو أنّه إذا كان هناك ما يُراد معرفته حقًّا عن سيزيناك، فالفرصة سانحة ولن تتكرّر بعد اليوم، ولا بدّ من معرفة الحقيقة.

أمسكت نادين سيزيناك بشعره: «تعرف أنك سلّمت يهودًا، جحفلاً من اليهود: متى بدأت؟ قل». هزّت رأسه فانتحب قائلاً:

ــ تؤلمينني.

قالت نادين:

ــ قل، كم من اليهود سلّمت؟

أطلق صرخة ألم خافتة وقال: «كنت أساعدهم: أساعدهم لكي يمرّوا».

أرخت نادين قبضتها: «لم تكن تساعدهم، كنت تسلّمهم. كم سلّمت منهم؟».

أخذ سيزيناك ينتحب على الوسادة.

قالت نادين:

ــ كنت تسلّمهم، اعترف!

قال سيزيناك:

ــ واحد من وقت لآخر. كان يتوّجب عليّ تسليم واحد لأنقذ الآخرين.

نهض ونظر من حوله بهيئة شاردة: «أنتم ظالمون! لقد خلّصت الكثيرين منهم. خلّصت الكثيرين».

قالت نادين:

ـ العكس هو ما حصل. كنت تخلّص واحدًا من عشرين لكي يبعث لك بزبائن وتسلّم الآخرين. كم سلّمت منهم؟

ـ لا أعرف. وفجأة صرخ: «لا تتركوني أموت!!».

قالت آن متّجهة إلى الديوان:

ـ أوه، هذا يكفي! انحنت صوب سيزيناك وشمرّت كمّها. عادت نادين إلى هنري: «هل اقتنعت؟».

قال:

ـ نعم، ومع ذلك لا أتوصّل إلى تصديق ما يحصل. غالبًا ما رأى سيزيناك كابي العينين، رطب اليدين والآن يراه مسجّى على هذا الديوان. لكن كلّ هذا لم يستطع محو صورة البطل الشابّ الذي يرتدي ربطة عنق حمراء ويتجوّل من متراس إلى متراس متأبّطًا بندقيّة كبيرة فوق كتفه. عادوا للجلوس في المكتب وسأل هنري:

ـ والآن، ماذا سنفعل؟

قالت نادين بحماس:

ـ لا مجال للسؤال. يستحقّ رصاصة في رأسه.

قال دوبروي:

ـ هل أنت من سيطلقها؟

قالت نادين وقد مدّت يدها إلى السمّاعة:

ـ لا، لكنّي سأتّصل بالبوليس.

قال دوبروي:

ـ البوليس! هل تعني ما تقولينه!

قال هنري:

ـ ستسلّمين شخصًا إلى الشرطة!

قالت نادين:

ـ تبًّا! إنّه رجل سلّم عشرات اليهود إلى الغستابو، ليس في هذا ما يزعجني!

قال دوبروي بنفاد صبر:

ـ اتركي السمّاعة واجلسي. ليست المسألة استدعاء الشرطة. الآن، وقد قيل هذا، يجب اتّخاذ قرار: لا يمكن الاعتناء به ولا إيذاؤه ولا ردّه إلى مهنته الجليلة القدر بكلّ طمأنينة.

قالت نادين:

ـ هذا سيكون منطقيًّا! اتكأت إلى الجدار ونظرت إلى الآخرين نظرات قاتمة.

ساد الصمت. لو حصل الأمر منذ أربع سنوات لكان في غاية البساطة. عندما يكون العمل حقيقة حيّة، عندما نؤمن بأهداف، عندئذٍ يصبح لكلمة عدالة معنى. الخائن يُقتل. لكن ما العمل بخائن قديم عندما لا نعود نأمل شيئًا من تنفيذ حكم العدالة بحقه؟

قالت آن:

ـ لنحتفظ به هنا ليومين أو ثلاثة حتى يتعافى. إنّه مريض حقًّا. ومن ثمَّ نرسله إلى مستعمرة ما بعيدة إلى A.O.F. مثلاً. نعرف أناسًا هناك: لن يعود أبدًا. هو خائف جدًّا من أن يُقتل.

قال دوبروي:

ـ وماذا سيصير بحاله؟ لن نعطيه رسالة توصية!

قالت نادين:

ـ ولم لا، خصّصوا له معاشًا في غضون ذلك.

كان صوتها يرتعش من شدّة الانفعال.

قالت آن:

ـ كما تعرفين، لن يشفى من الإدمان، إنّه مجرّد خرقة بالية. على أيّ حال، الحياة التي تنتظره مرعبة فعلاً.

ـ لطمت نادين الأرض بقدميها: «لن ينجو من فعلته هكذا!».

قال هنري:

ـ هناك آخرون نجوا بفعلتهم.

ـ ليست هذه حجّة. نظرت إلى هنري بارتياب: «أو تكون خائفًا منه على سبيل الصدفة؟».

ـ أنا؟

قال دوبروي:

ـ يعتقد أنّ هنري ينتمي إلى عصابة فنسان.

قالت نادين:

ـ لكن لا. سمعته. قال لي: «إذا تكلّمت فسيجازف زوجك بأن يواجه المتاعب نفسها التي واجهتها أنا».

ابتسم هنري:

ـ أتظنّين أنّني كنت عميلاً مزدوجًا؟

ـ لا، أنا لا أظنّ بشيء أجهله. لن يتحدّث أحد إليّ بهذا الأمر ولا أسعى إلى معرفة شيء. احتفظوا بأسراركم قدر ما تشاؤون. لكن أريد أن يدفع سيزيناك ثمن أخطائه! هل تعون ماذا فعل؟ أم لا؟

قالت آن:

ـ ندرك ماذا فعل. لكن بمَ يفيدك أن تجعليه يدفع ثمن ذلك؟ لا يمكن بعث الموتى.

ـ تتكلمين مثل لامبير! لا نبعثهم أحياء ولكن ليس هذا سببًا لنسيانهم. لأنّنا ما نزال على قيد الحياة ينبغي أن نفكّر بهم على الدوام، وأن نقتصّ ممّن أقدم على قتلهم.

قالت آن بصوت قوي:

ـ لكنّنا نسيناهم. ربّما ليس هذا خطأنا. ولكن، وبأيّ صفة نعطي لأنفسنا حقوقًا على الماضي.

قالت نادين:

ـ لم أنسَ شيئًا. لست أنا من ينسى.

ـ أنتِ كما الآخرون، لديك حياتك، وابنة صغيرة. لقد نسيت وإذا كنت تصرّين إلى هذا الحدّ على معاقبة سيزيناك، فهذا لكي تثبتي لنفسك العكس. لكنّ هذا ينمّ عن سوء نيّة.

قالت نادين:

ـ أنا أرفض الدخول في مكائدكم الصغيرة. هذا هو سوء النيّة! مشت نحو الباب ـ النافذة ثم صرخت بأعلى صوتها.

ـ حسنًا وساوسكم أسمّيها في قاموسي الجبن!

وصفقت الباب خلفها.

قالت آن:

ـ أفهمها. عندما أفكّر في دييغو، أفهم موقفها. نهضت: «سأحضّر له سريرًا في المقصورة إنّه ينام وليس عليكم إلاّ نقله...». خرجت فجأة، وشعر هنري أنّها كانت على شفير البكاء.

قال هنري:

ـ فيما مضى كنت قادرًا على قتله بنفسي. أمّا اليوم، فليس لهذا معنى. ومع ذلك فمن المعيب محاولة إنقاذ حياة إنسان من هذا النوع.

قال دوبروي:

ـ نعم، كلّ حلّ سيكون بالضرورة سيّئًا. نظر إلى سيزيناك: «اللحظة الوحيدة التي يبدو فيها حلّ المشاكل سهلاً هي عندما لا تُطرح على بساط البحث. لو كنّا متورّطين لما كانت هناك مشكلة.

لكن الآن بتنا خارج المسألة. لذا سيكون قرارنا اعتباطيًّا بالتأكيد».
نهض واقفًا وقال:

ـ كان سيزيناك نائمًا، وجهه هادئ، عيناه مغمضتان، مستعيدًا القليل من جماله القديم. لم يكن وزنه ثقيلاً. نقلاه حتى المقصورة ومدّداه على السرير. وضعت آن الغطاء على ساقيه ثمّ همست:

ـ النائم يبدو غير مؤذٍ.

قال هنري:

ـ لا تصدّقي كثيرًا انطباعك. ليس غير مؤذٍ إلى هذا الحدّ. لا شكّ أنّه يعرف أشياء كثيرة عن فنسان ورفاقه. يسهل عليهم القضاء على متعاونين قدامى.

قالت آن:

ـ ألا تعتقد أنّه لو كان يعرف شيئًا لكان فنسان واجه المتاعب منذ زمن طويل؟

قال دوبروي:

ـ اسمعي لدى اعتنائك به، حاولي أن تحمليه على الاعتراف. المدمنون يتكلّمون بسهولة. نعرف عندئذٍ ماذا يخفي من أسرار. ثم قال بعد تفكير طويل: «أعتقد أنّه من الأفضل تسفيره في جميع الأحوال».

قالت آن:

ـ لماذا جاء إلى هنا؟

بدت مضطربة جدًّا فشعر هنري أنّه يجب أن يتركها وحدها مع دوبروي. صعد إلى غرفته وهو يقول إنّ شهيّته مقطوعة وإنّه سيتناول بعض الطعام مع نادين.

اتّكأ إلى النافذة. لمح في البعيد الكتلة القاتمة لإحدى التلال وعلى مسافة قرب المقصورة حيث يرقد سيزيناك. هكذا كان يضطجع في استوديو بول في ليلة من ليالي الميلاد الهنيئة. كانوا يضحكون لبعضهم البعض ويهنّئون أنفسهم بالنصر ويهتفون مع بريستون: «تحيا أميركا»، ويشربون نخب الاتّحاد السوفييتي. وكان سيزيناك خائنًا. وأميركا المنقذة تتهيّأ لاستعباد أوروبّا. أمّا بشأن ما حصل في الاتّحاد السوفييتي، فمن الأفضل النظر إليه عن كثب. متخليًا عن الوعود التي لم يكشف عنها قطّ، لم يعد الماضي إلاّ مغامرة طائشة. في التلّة القاتمة، حفرت مصابيح سيّارة خطًّا عريضًا لامعًا. لوقت طويل، بقي هنري يتأمّل جامدًا الخطّ المضيء ينساب كالأفعى في ظلام الليل. كان سيزيناك نائمًا، وتنام معه جرائمه. نادين تجوب الريف. لم يكن يرغب بأيّ تفسير. خلد للنوم دون أن ينتظر رجوعها.

عبر حلم مشوّش، ظنّ هنري أنّه يسمع فجأة ضجّة غريبة، هي ضجّة حبّات برد. فتح عينيه. خيط من الضوء انسلّ من تحت الباب: نادين عادت وقد زالت عن وجهها ملامح الغضب. لكنّ الضجّة لا تأتي من ناحية غرفتها. كأنّه وابل من الحصى الصغيرة انهالت على الزجاج. فكّر هنري وهو يقفز من سريره: «إنّه

سيزيناك». فتح النافذة وصوّب نظره نحو الأسفل! إنّه فنسان. لبس هنري على عجل ملابسه ونزل إلى الحديقة.

ـ ماذا تفعل هنا؟

كان فنسان جالسًا على مقعد من الخشب الأخضر، متّكئًا إلى جدار المنزل. كان وجهه هادئًا لكنّ قدمه اليسرى تضرب الأرض بحركة تشنّجيّة وساق بنطاله ترتعش.

ـ أحتاج إليك. هل لديك سيّارتك؟

ـ نعم، لماذا؟

ـ قتلت سيزيناك لتوّي: يجب نقله من هنا.

نظر هنري إلى فنسان بذهول:

ـ قتلته؟

ـ لم يكن هناك من خيار آخر. كان نائمًا، استخدمت مسدّسي كاتم الصوت. وهذا لم يحدث أيّ ضجة. كان يتكلّم بلهجة واضحة وسريعة. أضاف: «إلاّ أنّ هذا النذل لم يشأ أن يحترق».

ـ يحترق؟

ـ سرقنا صفائح فوسفور من الألمان أثناء المقاومة. في ذلك الوقت، كان مفعولها جيّدًا. لكن ربّما بانت قديمة جدًّا. إلاّ أنّني عنيت بها وحفظتها في مكان جافّ. انتظرت ثلاث ساعات ولم تحترق جثّته. بدأ الوقت يداهمنا وينبغي نقله في سيّارة إلى مكان مجهول.

همس هنري:

ـ لماذا فعلت هذا! جلس فوق المقعد. كان يعرف أنّ فنسان كان قادرًا على القتل، وأنّه قتل. لكنّ هذه المعرفة ظلّت فكرة مجرّدة. إلى حدّ اليوم، كان مجرمًا دون ضحيّة تثبت إجرامه. وعاداته السيّئة في الشراب والإدمان لا تسيء إلاّ إليه. وها قد دخل إلى المقصورة والمسدّس في قبضته، ووضع فوهته على صدغ ضحيّته وها هو سيزيناك يفارق الحياة. لمدّة ثلاث ساعات ظلّ فنسان وجهًا لوجه مع زميل قتله ويحاول إحراق جثّته: «كنّا سنبعثه إلى دغل لن يعود منه أبدًا».

قال فنسان:

ـ لن يعود أبدًا!

هدأ ألم ساقه لكنّ كلماته تنمّ عن عدم ثقته بنفسه.

ثم أردف:

ـ سيزيناكّ واش! أتعي حقيقة الأمر! يا لغدره بنا! كان شانسيل يقول: «إنّه أخي الصغير!» وأنا المغفّل المسكين! لو لم أسئ به الظنّ بسبب إدمانه على المخدّرات، لكان سلّمني إلى الشرطة. وفعلت من أجله ما لم أفعله لأحد. حتى لو كنت متأكّدًا من أنّ هذا سيكلّفني حياتي، كنت سأهبه إيّاها.

ـ كيف علمت أنّه هنا؟

قال فنسان بنبرة غامضة: «اقتفيت آثاره». ثم أضاف: «أتيت على الدرّاجة. كنت سأضع الأشلاء في كيس وأوثق حجرًا بالكيس

وأرمي بكلّ ذلك في الساقية. كنت سأتدبّر أمري وحدي. لا أفهم لماذا لم يحترق!» ردّد بنبرة حائرة. ظلّ صامتًا لفترة طويلة ثم نهض وقال:

ـ من الأفضل أن نسرع.

ـ ماذا تريد أن تفعل؟

ـ سنأخذه ليستحمّ حمّامًا صغيرًا أبديًا. عاينت مكانًا ممتازًا.

لم يتحرّك هنري، بدا له أنّه يطلب منه أن يقتل سيزيناك بيديه الاثنتين.

قال فنسان:

ـ ماذا دهاك؟ لا يمكن أن نتركه هنا، أليس كذلك؟ الآن، إذا كنت غير راغب في مساعدتي لا بأس؛ أعرني فقط سيّارتك وسأسعى إلى التخلّص منه من دون مشاركتك.

قال هنري:

ـ سأساعدك لكن أريد منك شيئًا بالمقابل: عدني بأن تترك هذه العصابة.

قال فنسان:

ـ ما فعلته للتوّ هنا عمل منفرد. وبالنسبة للعصابة، أكرّر ما فعلته لك فيما مضى: ليس لديك أفضل من ذلك تقدّمه لي. كل هؤلاء الأوغاد الذين يعودون، ماذا تفعل في مواجهتهم؟ لا شيء. إذًا دعنا ندافع عن أنفسنا.

ـ ليست هذه طريقة في الدفاع عن النفس.

ـ ليست لديك طريقة أفضل تقترحها عليّ. تعال معي أو دعني. لكن قرّر.

ـ لا بأس. سآتي.

ـ ليس هذا وقتًا ملائمًا للنقاش على أيّ حال، لم يكن يعرف ما يتكلم. لا شيء بدا له حقيقيًا. كانت هناك ريح خفيفة تداعب أغصان الزيزفون ورائحة الورود الذابلة تصعد نحو البيت ذي المصاريع الزرقاء. ليلة كغيرها من الليالي، حيث لا شيء يحدث. لحق هنري فنسان إلى داخل المقصورة، وهوى هذا العالم اليومي في العدم. كانت الرائحة لا تُطاق: كثيفة، ظافرة، كالرائحة التي تملأ المطابخ عندما تحترق أرياش الفرّوج. نظر هنري إلى السرير منذهلاً: أمامه زنجي؛ كان وجه الرجل المضطجع على الشرشف الأبيض أسود تمامًا.

قال فنسان:

ـ إنّه الفوسفور. رفس الشرشف جانبًا: «انظر إلى هذا!» كان الثقب الصغير في الصدغ مسدودًا بقطنة، ولا أيّ أثر للدم. كان فنسان دقيقًا في تنفيذ عمله. كان للجسد ذي الأضلع النافرة لون الخبز المحروق وقد حفر الفوسفور في وسط البطن ثغرة عميقة: لم يكن هناك أيّ علاقة بين سيزيناك وهذا الراقد الأسحم.

ـ أين الملابس؟ قال هنري.

ـ أحملها في جعبي. ساتولى أمرها. أمسك الجثّة من تحت ذراعيها: «انتبه لئلا تنشطر الجثّة إلى قسمين. وهذا سيزيد الطّين بلّة»، قال بلهجة الممرّض الكفء. أمسك هنري الجثّة من القدمين، ونقلاها إلى المرآب.

قال فنسان:

ـ انتظر حتى آخذ عدّتي.

أخفى درّاجته خلف إحدى الجنبات وجلب منها حبلاً وكيسًا متقلاً بحجارة.

قال فنسان:

ـ لن يظلّ في الكيس. لكن سأتدبّر الأمر. أوثق بعناية إلى بطن سيزيناك الحجارة الموجودة في الحقيبة وربطها بعقدة ملتفّة حول الجسد ثم قال برضى: «وهكذا من المؤكّد أنّه سيغرق حتى الأعماق».

وضعا الكيس على المقعد الخلفي وغطّياه بمعطف. بدا أنّ أهل البيت نيام. وحدها نافذة نادين بقيت مضاءة. هل كانت ترتاب في أمر ما؟ دفعا السيّارة حتى الطريق وجهد هنري لأن يُقلع بصمت. بدت القرية نائمة هي أيضًا لكنّ لا بدّ أنّ هناك أناسًا مؤرّقين يترصّدون كل ضجّة.

ساله هنري:

ـ هل سلّم الكثير من اليهود؟ لم تكن العدالة تهتمّ كثيرًا بمعرفة هذه الأمور لكنّه كان راغبًا في معرفة الجرائم التي ارتكبها.

ـ مئات منهم، كان عملاً ضخمًا. لقد اجتاز النذل الحدود الفاصلة بين المعسكرين لتنفيذ المهمّات الدنيئة. عندما أفكّر بأنّه أوشك أن يفلت منّي. إنّها غلطتي. قمت بعمل أخرق. عندما عثرت على آثاره، ارتكبت حماقة وسارعت للذهاب إلى الفندق الذي ينزل فيه. كان عليَّ أن أقتله في غرفته ولم يكن هذا العمل ليكون ذكيًّا. رفض أن يفتح لي وانسلّ من بين أصابعي. ومع ذلك فقد نلت منه.

كان يتكلّم بصوت مرتعش قليلاً فيما كانت السيّارة تجري على الطريق الخالية من الناس الذين يغطّون في نوم عميق. تحت هذه السماء الصامتة، يصعب علينا أن نصدّق أنّ هناك رجالاً في كلّ مكان يموتون ويُقتلون، وأنّ هذه القصّة حقيقيّة.

سأل هنري:

ـ لماذا كان يعمل مع الغستابو؟

ـ لأجل المال. ظننت أنّه بدأ يتناول المخدّرات منذ وفاة شانسيل، منذ أصبح كل شيء قذرًا. لكن لا، المسألة ترقى إلى زمن بعيد. مسكين شانسيل، كان يقول إنّ سيزيناك يهوى الحياة الحافلة بالمغامرات الخطيرة. وكان هذا يعجبه. لم يكن يعرف أنّ هذا يعني المخدّرات والمال بأيّ ثمن.

ـ لكن لماذا كان يتناول المخدّرات؟ كان شابًّا بورجوازيًّا وقد تلقى تربية جيّدة.

قال فنسان بهيئة صارمة:

ـ كان فاسدًا وأصبح نذلاً. صمت وبعد لحظة، أشار إلى المكان.

ـ هنا الجسر.

بقيت الطريق مقفرة والنهر بقي مقفرًا على ضفتيه. بلمحة عين واحدة رميا من فوق الدرابزين الكيس الذي كان يحتوي على جثّة سيزيناك. اصطفق الماء، وأحدث بعض الارتدادات، والتموّجات، ومن جديد عاد النهر هادئًا بريئًا. طريق مقفرة، سماء، وصمت. «أبدًا لن يعرف أحد ما هو الشيء الذي غاص إلى الأعماق»، فكّر هنري وهذه الفكرة أزعجته كما لو أنّه يدين على الأقلّ لسيزيناك بخطبة جنائزيّة.

قال فنسان عندما قاما بنصف انعطافة:

ـ شكرًا.

ـ لا داعي للشكر. ساعدتك لأنّ الأمر يستدعي ذلك. لست مطمئنًّا إلى ما حدث وأصرّ كل الإصرار على هذا الموقف.

قال فنسان:

ـ نذل بالناقص هو نذل بالناقص.

ـ سيزيناك، أفهم أنك حرصت على تصفية حسابك معه. لكنّ أشخاصًا لا تعرفهم، لا تحاول إقناعي أنّ لديك أسبابك الوجيهة لتقتلهم. هذا السلوك لا يختلف كثيرًا عن إدمان المخدّرات وقد ألفت هذه العادة المستهجنة.

قال فنسان بحيويّة:

ـ أنت مخطئ. لا أحبّ القتل. لست ساديًّا، أكره الدم. كان هناك أشخاص في المقاومة يشكّل قتل الجنود لذّة حقيقيّة لهم: كانوا يقطّعونهم إربًا ويمزّقون أجسادهم. أمّا أنا فأرتعب من هذا. أنا شخص طبيعيّ، تعرف ذلك جيّدًا.

ـ يجب أن يكون هناك خلل ما. ليس طبيعيًّا أن نقتل لأجل القتل.

ـ لا أقتل لأجل القتل بل لأريح الناس من بعض الأنذال.

ـ لماذا أنت حريص على القضاء عليهم؟

ـ من الطبيعي أن تتمنّى الموت لشخص تكرهه كرهًا شديدًا. وإن لم تكن أمنيتك أن تتخلص منه فأنت مجنون. هزّ كتفيه: «كلّ هذه القصص التي تقول إنّ القتلة مهووسون جنسيّون أضاليل وأكاذيب. لا أقصد أنك لا تصادف في العصابة مجنونًا أو مجنونين، لكنّ الأكثر تفانيًا هم آباء جيّدون ولديهم عائلات ويمارسون الجنس قدر ما يشاؤون ودون مشاكل».

سارا لوهلة صامتين.

قال فنسان:

ـ تفهم قصدي: يجب أن نحدّد الجهة التي ننتمي إليها.

قال هنري:

ـ لا حاجة لنقتل من أجل ذلك.

ـ التورّط واجب علينا.

ــ عندما يدافع جيرار باتورو عن المدغشقريّين مجازفًا بحياته، فهو يتورّط ولهذا التورّط معنى. تدبّر أمرك للتورّط من أجل قضيّة مفيدة.

ــ وأيّ عمل نافع تريد القيام به فيما سنلقى حتفنا جميعًا في الحرب المقبلة؟ يمكننا أن نصفّي حساباتنا. هذا كلّ شيء.

ــ ربّما لن تقع الحرب.

قال فنسان:

ــ كلام بكلام! نحن كالجراذين!

وصلا إلى الحديقة وأضاف فنسان:

ــ اسمع، لو رشح عن القضيّة شيء ما فأنت لم تعرف ولم ترَ ولم تسمع شيئًا. اختفى سيزيناك واعتقدت أنّه انتحر. إذا أخبروك أنّني اعترفت فكن أكيدًا وواثقًا أنّها خدعة. أنكر كل شيء.

ــ إذا حدثت مشكلة فلن أدعك تقع في الفخّ. أمّا الآن فعليك أن تولّي بالفرار من هنا.

ــ في الحال.

أدخل هنري السيّارة إلى المرآب. وعندما خرج من جديد، اختفى فنسان. في الواقع يمكن الافتراض أنّ سيزيناك تبخّر، وأنّ فنسان لم يطأ أرض سان ــ مارتان، وأنّ شيئًا لم يحدث.

لكنّ شيئًا ما حدث. في ضباب الصباح الطالع، كانوا ثلاثتهم في وسط غرفة الجلوس. آن ودوبروي متدثّرين بمبذلي النوم ونادين

مرتدية كامل ثيابها. كانت تبكي. رفعت رأسها وقالت بصوت مذهول:

ـ من أين أنت أتٍ؟

جلس بالقرب منها وأحاط بذراعه كتفيها:

ـ لماذا تبكين؟

قالت نادين وهي تنتحب:

ـ إنّها غلطتي.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أنا التي اتّصلت بفنسان من المقهى. آمل ألاّ يكون أحد سمع شيئًا.

قالت آن بحيويّة:

ـ كانت تريد أن يسلّم فنسان سيزيناك إلى الشرطة.

قالت نادين:

ـ رجوته ألاّ يأتي. لكن عبثًا! انتظرته على الطريق. خفت. أقسم لي إنّه كان يريد التحدّث إلى سيزيناك. وأرسلني إلى غرفتي. بعد فترة طويلة، رمى حصى على نافذتي وسألني أيّها غرفتك. فما الذي حصل؟ سألت بصوت مرتعب.

ـ سيزيناك في قعر البحيرة. وحجارة ضخمة معلّقة في عنقه. لن يُعثر عليه في وقت قريب.

ـ أوه! يا إلهي! أخذت نادين تشهق بالبكاء وكلّ جسدها يرتجف بقوّة.

قال دوبروي:

ـ كان سيزيناك يستحقّ رصاصة في جسده. هكذا قلت أنت نفسك. وأعتقد فعلاً أنّ هذا أفضل ما يمكن أن يحصل له.

قالت نادين:

ـ كان حيًّا، والآن مات! هذا مرعب فعلاً!

تركاها لفترة طويلة تبكي دون أن يقولوا شيئًا. رفعت رأسها: «ما الذي سيحصل الآن؟».

ـ لا شيء.

ـ وإذا عُثر عليه؟

ـ لن يعثروا عليه، قال هنري.

ـ سيلاحظون اختفاءه ويرتابون للأمر. من يدري ما إذا كان قد قال لأصدقائه إنّه أتى إلى هنا؟ تُرى هل شاهدك أحد أبناء القرية أثناء ذهابك أو عودتك برفقة فنسان؟ ماذا لو كان أحد رفاق فنسان على علم بما جرى ويبوح بالسرّ آجلاً أو عاجلاً؟

ـ لا تضطربي. إذا حصل الأسوأ. فسأدافع عن نفسي.

ـ أنت شريك في جريمة.

قال هنري:

ـ أنا واثق أنّه بوجود محامٍ جيّد سأحصل على براءتي.

ــ لا، هذا ليس أكيدًا.

ــ كانت تبكي بألم ومرارة بكاء صادقا. أثّر بكاؤها في هنري. بدافع الضغينة، على أهلها وعلى نفسها، دخلت إلى حجرة الهاتف واتّصلت بفنسان. هل كان يستحيل عليها فعلاً أن تقتلع منها الشعور المعاند بالضغينة. وهي ضحيّته الأولى؟ كم كانت تتسبّب لنفسها بالتعاسة!

قالت:

ــ سنودعك السجن لسنوات.

قال هنري:

ــ لكن، لا!

أمسك نادين من ذراعها: «تعالي واستلقي. لم تنامي أثناء الليل».

ــ لن أستطيع النوم.

ــ ستحاولين. وأنا أيضًا.

صعدا الدرج ودخلا إلى غرفة هنري. مسحت نادين دموعها وتمخّطت محدثة ضجّة: «تكرهني، أليس كذلك؟».

قال هنري:

ــ أنت معتوهة. ثم أضاف: هل تعرفين بماذا أفكر؟ أنك أنت تكرهين قليلاً الجميع. أن تكرهي الآخرين، فهذا لا يعنيني. لكن عليك ألاّ تكرهيني أنا، لأنني أنا أحبك، اقتنعي بهذا.

قالت نادين:

ــ لكن لا، لا تحبّني. وأنت على صواب. لست أهلاً للحبّ.

قال هنري:

ــ اجلسي هنا.

جلس هنري قربها، ووضع يده على يدها. شعر بالرغبة ليكون وحيدًا لكنّه لا يستطيع أن يترك نادين لنداماتها. وكان نادمًا هو نفسه لأنّه لم ينجح في كسب ثقتها.

ــ انظري إليّ.

أدارت نحوه وجهًا تعيسًا بعينين منهكتين، وأحسّ باندفاعة كبيرة نحوها. نعم، ما نؤثره على كلّ شيء، نحبّه. كان متعلّقًا بها أكثر من أيّ كان: كان يحبّها ويجب أن يقنعها بذلك.

ــ هل تظنّين فعلاً أنّني لا أحبّك؟ هل هذا شعور صادق؟

هزّت نادين كتفيها: «ولماذا ستحبّني؟ ما الذي أقدّمه لك؟ لست قادرة على توفير أيّ حاجة من حاجاتك. لست جميلة بما فيه الكفاية.

ــ آه، تخلّي عن هذه العقد البلهاء. تعجبينني كما أنت. وما تقدّمينه لي هو أنت. هذا كلّ ما أطلبه منك لأنّني أحبّك.

نظرت إليه نادين بأسى: «أودّ فعلاً أن أصدّقك».

ــ حاولي.

ــ لا، أعرف نفسي جيّدًا.

ـ أعرفك أنا أيضًا، كما تعرفين.

ـ بالضبط.

ـ أعرفك ولا أظنّ بك إلاّ كلّ ما هو جيّد: وماذا بعد؟

ـ هذا لأنّك تعرفني بشكل سيّئ.

أخذ هنري يضحك: «هذه حجّة فظيعة!».

قالت نادين:

ـ أنا سيّئة. طيلة الوقت أقوم بأشياء سيّئة.

ـ لكن لا، هذا المساء كنت غاضبة وهذا مفهوم. لم تتوقّعي ما سيحصل. كفّي عن الإساءة إلى نفسك.

قالت نادين:

ـ أنت لطيف. لكنّي لا أستحقّ لطفك. وأخذت تبكي من جديد: «لماذا أنا هكذا. أشمئزّ من نفسي».

قال هنري بحنان:

ـ أنت مخطئة فعلاً.

ـ أشمئزّ من نفسي.

ـ يجب ألاّ تفعلي ذلك يا عزيزتي. تعرفين، كل شيء سيسير نحو الأفضل لو أنّك لم تقرّري سلفًا أن لا أحد يحبّك. تأخذين على الناس لامبالاتهم المزعومة إذًا من وقت لآخر تكذبين عليهم وتداجين، وهذا على سبيل الانتقام. لكن تصرّفاتك لا تذهب أبعد من ذلك ولا تنطلق من روح مطبوعة على الشرّ.

هزّت نادين رأسها:

ــ لا تعرف ما أنا قادرة عليه.

ابتسم هنري:

ــ أعرف جيّدًا.

ــ لا.

قالتها بلهجة بائسة لدرجة أنّ هنري احتضنها بين ذراعيه.

قال:

ــ اسمعي، إذا كان ثمّة شيء يثقل على قلبكِ، فمن الأفضل أن تقوليه لي لأنّ الصراحة في هذا المجال تريحك وتخفف عن كاهلك كلّ الأثقال.

قالت نادين:

ــ لا أستطيع. ما فعلته في منتهى السوء.

ــ لا تقوليه إذا كنت لا تريدين. لكن إذا كان الأمر كما أفكّر فيه، فهذا ليس بالخطير.

نظرت إليه نادين بقلق: ماذا تعتقد؟

ــ هل الأمر يتعلّق بشيء يعنينا نحن الاثنين؟

ــ نعم، قالت دون أن تفارقه بنظراتها. ارتعشت شفتاها.

ــ تعمّدت أن تحبلي منّي. هل هذا ما يعذّبك؟

أخفضت نادين رأسها:

ـ كيف عرفت؟

ـ يجب أن تكوني قد غششت. هذا هو التفسير الوحيد.

ـ عرفت ذلك! لا تقل إنّي لا أشعرك بالقرف!

ـ ولكن يا نادين، لن توافقي أبدًا على أن أتزوّج منك غصبًا عنّي، ولم تبتزّني! كلّ ما قمت به لعبة صغيرة لعبتها مع نفسك.

رفعت عينيها نحوه بهيئة متوسّلة:

ـ لا، لا يعقل أن أبتزّك.

ـ أعرف ذلك جيّدًا. لا بدَّ أنّك أصبت بنوبة عداء ضدّي، لسبب أو لآخر. لذا دبّرت هذه القصّة. يمتعك أن تفرضي عليَّ وضعًا لم أرده لكنّك كنت تجازفين أكثر منّي لأنّك، بجدّ، لم يخطر ببالك قطّ أن ترغميني على فعل شيء.

ـ لكن كان هذا مقرفًا!

ـ لا، لا! كان ضروريًّا: عاجلاً أم آجلاً كنّا سنتزوّج وننجب ولدًا.

ـ هل هذا صحيح؟

ـ بالطبع، تزوّجنا لأنّ ذلك يسرّنا كلينا. كنت أشعر بأنّ لا واجبات لي تجاهك لا سيّما أنّ قلبي حدّثني بأنّك أردت ما يحدث لك.

تردّدت نادين ثم قالت:

ـ افترضت أنّه لو كان يمقتك أن تعيش معي لما فعلت ذلك.

قال هنري ببشاشة:

ــ ابذلي جهدًا إضافيًا. واعرفي أنّه بما أنّ ذلك لا يمقتني، فهذا يعني أنّني أحبّك.

ــ هذا أمر آخر. يمكن أن نسرّ برفقة أحد دون أن نحبّه.

ــ ليس أنا. وأخيرًا لماذا لا تريدين أن تصدّقي أنّني أحبّك؟

أضاف بشيء من نفاد الصبر:

قالت نادين وهي تتنهّد:

ــ ليس هذا خطئي. أنا سيّئة الظنّ.

ــ لم تكوني كذلك على الدوام. مع دييغو. لم تكوني كذلك.

قالت نادين بنبرة متصلّبة: «هذا أمر مختلف».

ــ على أيّ صعيد؟

ــ كان دييغو ملكًا لي.

قال هنري باندفاع:

ــ ليس بأكثر منّي، الفارق هو أنّه كان طفلاً لكنّه كان سيتقدّم في السنّ، وإذا لم تتّخذي قرارًا مسبقًا بأنّ كل رجل ناضج أشبه بقاض يصدر الأحكام وبالتالي عدوّ فإنّ عمري لن يزعجك.

قالت نادين بحزم:

ــ لن يكون الأمر معك مماثلاً لما كان مع دييغو.

ــ لا أحبّ التشبّه بالآخر. لكن لمَ المقارنة؟ بالطبع، إذا كنت تفتّشين في قصّتنا عن شيء آخر غير ذلك، فلن تجديه.

ـ لن أنسى أبدًا دييغو.

ـ لا تنسيه. لكن لا تستخدمي ذكرياتك ضدّي. لأنّ هذا ما تفعلينه. لجملة من الأسباب تتخلّين عن حياتك الحاضرة وتحنّين إلى الماضي. وباسم الماضي، تتعالين على كلّ ما يحدث لك.

نظرت إليه نادين بهيئة متردّدة قليلاً: «نعم، أنا متشبّثة بماضيّ».

ـ أفهمك تمامًا إلاّ أنّه يجب أن تأخذي بعين الاعتبار أمرًا ما: ليس لأنّ لديك ذكريات قويّة جدًّا، تسمّمين حياتك بسوء النيّة. بل العكس هو الصحيح. تستخدمين ذكرياتك لتبرّري تصرّفاتك.

لاذت نادين لوهلة بالصمت وهي تعضّ على شفتها السفلى وتراجع أفكارها: «لكن لماذا تقول إنّي سيّئة النيّة؟».

ـ بدافع الضغينة والارتياب. وهذه حلقة مفرغة. تشكّين بحبّي فتحقدين عليّ ولكي تعاقبيني ترتابين فيّ وتحردين. ثم أضاف بلهجة ملحّة: «لكن فكّري: إذا كنت أحبّك فهذا يعني أنّني أستحقّ ثقتك. وإذا لم تمنحيني إيّاها فأنت ظالمة».

هزّت نادين كتفيها بأسى: «إذا كان الأمر أشبه بحلقة مفرغة فلا سبيل إذًا للخروج منها!».

قال هنري:

ـ تستطيعين. لو أردت استطعت. ضمّها إليه: «قرّري أن تمنحيني ثقتك حتّى دون أن تكوني واثقة من أنّي أستحقّها. إنّ الظن

بأنك مخدوعة يرعبك: لكن هذا أفضل من أن تكوني ظالمة، وسترين أنّي أستحقها».

ــ هل تجدني ظالمة بحقك؟

ــ نعم، أنت ظالمة حين تعتقدين أنّي لست دييغو. ظالمة حين تنظرين إليّ كقاضٍ فيما أنا رجل يحبّك.

قالت نادين بلهجة قلقة:

ــ لا أريد، لا أريد أن أكون ظالمة.

ابتسم هنري، ثم قال وهو يقبّلها:

ــ حسنًا تفعلين. إذا تسلّحت بالقليل من النوايا الطيبّة فسينتهي الأمر بي إلى إقناعك.

طوّقته بذراعيها وقالت:

ــ أطلب منك الغفران.

ــ لم تفعلي شيئًا لأغفر لك. تعالي. الآن ستحاولين النوم وسنتكلّم عن ذلك غدًا.

ساعدها في النوم ووضعها في السرير. واتّجه إلى غرفته. لم يتحدّث قطّ بهذه الصراحة مع نادين وبدا له أنّ شيئًا ما أدخل الطمأنينة إلى نفسها. يجب المتابعة. تنهّد. وماذا بعد؟ لكي يجعلها سعيدة، يجب أن يكون سعيدًا هو نفسه. هذا الصباح، لم يعد يعرف ماذا تعني هذه الكلمة.

بعد يومين، لم تشر الصحف إلى اختفاء سيزيناك. خُيّل لهنري أنّه لا يزال يشتمّ حول المقصورة رائحة لحم محروق. لم تُمحَ صورة الوجه المنتفخ والبطن المشقوق من باله. لكنّ هذا الكابوس كان مغلّفًا بقلق آخر: الدول العظمى الثلاث قطعت مع موسكو، وكانت الحال على أشدّ توتّرها بين الشرق والغرب بحيث بدت الحرب وشيكة الوقوع. أقلّ هنري ونادين دوبروي في سيّارتهما إلى محطّة ليون بعد ظهيرة هذا النهار. كان متجهّمًا كما الكثير من الناس. رآه هنري من بعيد يصافح أناسًا في قاعة المحطّة: لا بدَّ أنّه يفكّر أنّه من السخف الذهاب اليوم بالضبط للدعوة إلى السلام من خلال الخطب. ومع ذلك، فقد قرّر السير إلى أرصفة المحطّة برفقة ثلاثة أشخاص آخرين. شيّعهم هنري بنظراته بشيء من الحسرة. وشعر بأنّه كالمنفيّ.

سألت نادين:

ـ نحن ماذا سنفعل؟

ـ أوّلاً لنأتِ لك ببطاقتك وإجازة المرور.

ـ هل سنسافر مع ذلك؟

ـ نعم. إذا رأينا أنّ الحالة تزداد خطورة فسنرجئ رحيلنا ولكن ربّما سيكون هناك تحسّن في العلاقات. حدّدنا موعدًا: وحتى الآن، نلتزم به.

قاما ببعض المشتريات. اشتريا أسطوانات ومرّ بـ *Vigilance* ومن ثم بـ *L'Eenclume* لرؤية لاشوم: كان الشيوعيّون قد قرّروا أن يأخذوا رسميًّا القضيّة المدغشقريّة على عاتقهم فور صدور حكم المحكمة، سيذيع المكتب السياسي بيانًا ويوزّع عرائض وينظّم مؤتمرات. كان لاشوم على درجة عالية من التفاؤل، لكنّه يعرف تمامًا أنّ هذه الأساليب لن توصلهم إلى مطالبهم. وفيما يتعلّق بالوضع العالميّ، لم يكن أيضًا مرتاحًا. اصطحب هنري نادين إلى السينما. ولدى عودتهما حين كانا يسيران على الطريق العامّ وقد شهدت فترة الغسق مطرًا خفيفًا، انهالت عليه بالأسئلة التي لم يعرف كيف يجيب عليها: «إذا أرادوا استدراجك للمشاركة معهم فماذا ستفعل؟ ما الذي سيحصل فيما لو احتلّ الروس باريس؟ ماذا سيصير بحالنا إذا ربحت أميركا؟». كان العشاء كئيبًا وبعده مباشرة صعدت آن إلى غرفتها. بقي هنري في المكتب مع نادين. انتشلت من حقيبتها ظرفين منتفخين. وبطاقتها في القطار الليلي.

ــ هل تريد بريدك؟

ــ نعم، أعطنيه.

أعطته نادين أحد الظروف. تفحّصت بطاقتها: «هل تنبّهت للأمر! سأسافر في قطار الليل: أنا خجلة من ذلك».

ــ ألست سعيدة؟ فيما مضى، كنت تتشوّقين للنوم في المقطورة الليليّة.

ـ عندما كنت أسافر في الدرجة الثالثة، كنت أحسد الناس الذين يسافرون في قطار الليل. لكنّي اليوم لا أحبّ أن يحسدني الناس لأنّني أسافر في قطار الليل. وضعت نادين القسيمة في حقيبتها: «مذ حصلت على هذه البطاقة يبدو لي هذا الرحيل المحتوم أمرًا مخيفًا».

ـ لماذا قلت عن الرحيل إنّه مخيف؟

ـ الرحيل مخيف دومًا بشكل ما. أليس كذلك؟

ـ بالنسبة لي ما يزعجني هو الشكّ. أودّ أن أكون واثقا من أنّ بإمكاننا الرحيل.

ـ كان بإمكاننا إرجاء الموعد المقرّر للسفر. ألا يزعجك ألاّ تشارك في هذا المؤتمر الذي تحدّث عنه لاشوم؟

ـ بما أنّ الشيوعيّين قرّروا المضيّ حتى النهاية، فهم لم يعودوا بحاجة إليّ. وإذا بدأنا بإرجاء هذا السفر فلن تكون الفرصة سانحة مرّة أخرى. في الرابع عشر من الشهر الجاري، ستبدأ محاكمة جديدة. وعندما تنجلي مسألة مدغشقر ستحدث أشياء أخرى. يجب أن نحسم الموقف.

قالت نادين:

ـ أوه! هذا يعنيك.

أخذت تقلّب نشرة المعلومات الخاصّة وبسطت رسالة: رسالة رجل شابّ فيها الكثير من التودّد. كان هناك الكثير من الرسائل المشابهة. هذه الرسائل تدعو الى الارتياح عادة. لكنّ هذه الليلة،

ومن دون أن يعرف السبب، أغاظه أن يفكّر أنّه كان بالنسبة لبعض الناس تجسيدًا حيًّا للمشاعر الإنسانيّة. دقت الساعة العاشرة. غالبًا ما قال في نفسه: «الحرب هي كالموت، لا ينبغي على الإنسان أن يتجنّبها أو أن يتداركها قدر الإمكان. لكن حين تهوي الطائرة إلى الأرض فمن واجبه أن يسعى لإعادتها الى خطّها المستقيم وأن ينزل محتفظًا بوعيه لأنّ الرعب قد يؤدي إلى كارثة. حتى ولو كان الكلام أفضل للمرء من انتظار الكارثة وهو قابع في ركن داره ويده على قلبه من شدّة الخوف. تخيّل هنري الغرفة مليئة بالناس والوجوه مشدودة الى دوبروي، ودوبروي مشدود نحوهم، يوجّه إليهم الكلام: لا مكان فيهم للخوف والقلق. كانت دلائل الارتياح بادية على وجوههم. لن يكون لدى أحد شيء عظيم ليقوله للآخرين لكنّهم سيشعرون بأنّهم في حالة جيّدة. أشعل هنري سيجارة. لا توقف حربًا بالكلمات. لكن الكلمة لا تدّعي بالضرورة تغيير التاريخ: إنّها أيضًا طريقة ما في عيشه وفي صمت هذا المكتب، متروكًا لكوابيسه الحميميّة. شعر هنري بأنّه يعيش التاريخ بشكل سيّئ.

قالت نادين:

ـ العدد الأخير لاقى رواجًا جيّدًا. وردت فيه تعليقات جيدّة عن قصّتك القصيرة.

قال هنري بلامبالاة:

ـ هذه المجلّة متماسكة ذات مستوى رفيع.

قالت نادين:

ـ عيبها الوحيد هو أنّها مجلّة. وبالطبع فيما يخصّ الأحداث الراهنة كان الأمر مختلفًا لو كانت لدينا مجلّة أسبوعيّة.

ـ لماذا لا يعقد أبوك النيّة على الانخراط في العمل السياسي بشكل حاسم؟ إنّه يتحرّق شوقا لذلك. أعضاء حركته سيغتبطون لذلك والشيوعيّون ينظرون للمشروع نظرة جيّدة جدًّا. ما الذي يوقفه؟

ـ تعرف جيّدًا. لا يريد التورّط من دونك.

قال هنري:

ـ هذا الموقف غير معقول! سيجد كلّ المتعاونين الذين يريدهم.

قالت نادين بحيوية:

ـ ليس هذا مماثلاً. إنّه بحاجة إلى أحد يستطيع الاعتماد عليه وهو مطمئنّ البال. لقد تغيّر، كما تعرف وهذا بسبب العمر. لم يعد يظنّ أنّه قادر على أيّ شيء.

ـ أظنّ أنّه سينتهي به الأمر إلى التصميم وحسم أمره. الجميع يشجّعونه.

تحرّت نادين هنري بنظرتها «لو أننّا لم ننطلق إلى إيطاليا لكان سرّك أن تهتمّ بذلك؟».

ـ لكنّنا ننطلق بالضبط لكي نتفادى هذا النوع من المهمّات.

ـ ليس أنا، أنا أرحل لأعيش في بلد مشمس وفي مكان جميل.

ـ لا شكّ أنّ الأمر سيرافقنا إلى هناك.

مدّت نادين يدها نحو الرسائل:

ـ هل أستطيع القراءة؟

ـ إذا كان هذا يسلّيك.

أخذ يتصفّح النشرة المختصرة ولكن لم يقتنع بما ورد فيها. لن يعود للاهتمام بـ *Vigilance*. كلّ هذا لم يعد يعنيه.

قالت نادين:

ـ لطيفة الرسالة التي أرسلها الطالب الفتيّ.

أخذ هنري يضحك:

ـ هذا الذي يقول إنّ حياتي بمثابة مثل له؟

قالت نادين والابتسامة على شفتيها:

ـ نختار النماذج التي نريد. وجدّيًا، لقد توصّل إلى فهم بعض مضامين القصّة التي نشرتها.

ـ نعم، لكنّ فكرة الرجل الشامل هذه بلهاء. في الواقع، أنا كاتب بورجوازيّ صغير يتدبّر أمره تقريبًا وبالأحرى بشكل سيّئ ليوازن بين واجباته وميوله: ولا شيء أكثر.

تجهّم وجه نادين:

ـ أنا من أكون؟

هزّ كتفيه: «الحقيقة هي أنّه يجب ألا نهتمّ بمن نكون. وإلاّ لما استطعنا، على هذا الصعيد بالذات، أن نتفادى المأزق».

نظرت إليه نادين بحيرة:

ـ على أيّ صعيد تريدني أن أضع نفسي؟

لم يجب هنري. وهو أيضًا: على أيّ صعيد يجب أن يضع نفسه عندما سيصبح في إيطاليا؟ سيعاود شغفه بالكتابة ولن تشغله مجدّدًا مسألة أن يضع عمله ككاتب موضع سؤال. لكن أن يكون المرء كاتبًا فهذا لا يعفيه من المسؤوليّات الأخرى.

قال بلهجة متكاسلة:

ـ لديك مسؤوليّات تجاه ذاتك وتجاه ماريّا.

قالت نادين:

ـ لديّ أيضًا الكثير من الوقت. في بورتو فينيري، سيكون لدينا المتّسع من الوقت.

تفرّس هنري في نادين:

ـ هل يخيفك هذا؟

ـ لا أعرف. وقبل أن أحصل على هذه البطاقة في جيبي لم أكن قد صدّقت أنّ هذه الرّحلة ستتمّ. وأنت، ما رأيك، هل تصدّق؟

ـ بالطبع.

قالت نادين بصوت عدائي قليلاً:

ـ ليس الأمر بهذه البداهة. نتكلّم، نتبادل الرسائل، نقوم بالتحضيرات: لكن ما دمنا لم نركب القطار فالرحلة لم تبدأ بعد! أضافت: «هل أنت واثق فعلاً من أنّك ترغب في الرحيل؟».

ـ لماذا تسألين عن ذلك؟

ـ مجرّد انطباع.

ـ تظنّين أنّني خائف من أن أشعر بالملل معك؟

قالت بصوت رزين:

ـ لا، قلت لي عشرين مرّة إنّني لا أحجز لك حرّيّتك وقرّرت أن أصدّقك. أفكّر في المسألة بمجملها.

ـ ماذا تقصدين؟

اغتاظ قليلاً، هذه فعلاً نادين: تريد الحصول على أشياء كثيرة، أكثر من أيّ كان؛ وعندما تحصل عليها، يصيبها الذعر. هي التي خطرت لها فكرة هذا البيت. وبدت متشبّثة بهذا المشروع لدرجة أنّ هنري لم يخطر بباله لحظة واحدة أن يضعه على بساط البحث. وفجأة تركته وحيدًا أمام مستقبل بات مبهمًا.

ـ تقول إنّك لن تعود أبدًا لقراءة الصحف. لكنّك ستقرأها. سيكون ظريفًا عندما نتلقّى *Vigilance* أو تلك المجلّة الأسبوعيّة لو صدرت ذات يوم.

ـ اسمعي: عندما نرحل هكذا لوقت طويل، سنمرّ بأوقات سيّئة لا محال ويجب تمضيتها. لكن هذه ليست حجّة لتغيير كلّ المشاريع فجأة.

قالت نادين بلهجة رزينة:

ـ سنكون بلهاء إذا قرّرنا الرحيل فقط لأنّنا لا نريد تغيير مشاريعنا.

ـ هل سمعت ما قاله أبوك في يوم ليس ببعيد؟ إذا بقيت فكلّ شيء سيعود إلى سابق عهده كما حين كنت تلومينني على عدم إيلائي وقتًا كافيًا للعيش.

قالت نادين:

ـ قلت الكثير من الحماقات فيما مضى.

ـ هذه السنة، كان لديّ متّسع من الوقت للعيش وكنت سعيدًا. أرحل إلى إيطاليا لكي يستمرّ هذا.

نظرت إليه نادين بهيئة حائرة:

ـ إذا كنت تفكّر أنّك فعلاً ستكون سعيدًا هناك...

لم يجب هنري. سعيد: الواقع أنّ هذه الكلمة لم يعد لها معنى. لا نملك كلّ شيء. في بورتو فينيري كما في باريس، الأرض كلّها ستكون حاضرة حوله بأحزانها وجرائمها ومظالمها. يمكنه فعلاً تمضية بقيّة حياته في الهرب، ولن يكون مع ذلك أبدًا بمنأى عن العالم. سيقرأ الجرائد ويستمع إلى الراديو ويتلقى الرسائل. كلّ ما سيجنيه هو أنّه سيقول في نفسه: «لا أستطيع فعل شيء حيال ذلك. وفجأة، انفجر شيء في صدره. لا. الوحدة التي كانت تخنقه هذا المساء، هذا العجز الأبكم لم يكن هذا ما أراده. لن يقبل أن يقول إلى الأبد: «كلّ شيء يجري من دوني». نادين رأت الوضع بوضوح: لم يختر هذا المنفى لحظة واحدة. أدرك فجأة أنّه منذ أيّام وفكرة العزلة عن العالم تقضّ مضجعه.

ـ هل ستكونين أنت سعيدة ؟ إذا بقينا هنا؟

قالت باندفاع:

ـ سأكون سعيدة حيثما تكون سعيدًا.

ـ كنت ترغبين في العيش في بلد مشمس وفي مكان جميل..

ـ نعم.

تردّدت نادين ثم قالت:

ـ أنت تعرف، الناس الذين يحلمون بالجنّة، عندما نضعهم أمام الأمر الواقع يصبحون غير مستعجلين في الذهاب إليها.

ـ وبكلام آخر. أنت نادمة إذًا على الرحيل ؟

نظرت إليه نادين نظرة جدِّيَّة: «أطلب منك شيئًا: قم بما ترغب فيه أنت. أعتقد أنّني أنانيّة كما في السابق لكنّي أقلّ طيشًا. إذا فكّرت أنّني أكرهك على القيام بعمل معيّن فهذا سيسمّم عليّ وجودي».

ـ لم أعد أعرف ما الذي أرغب فيه. نهض ووضع على صينيّة الفونوغراف إحدى الأسطوانات التي اشتراها لتوّه. إذا لم يرحل فلن يجد غالبًا الوقت لسماعها. نظر من حوله. إذا لم يرحل فهو يعرف ماذا ينتظره. هذه المرّة، كان محتاطًا للأمر: «على الأقلّ، سأتجنّب الوقوع في بعض الأفخاخ» ثم فكّر مذعنًا: «وسأقع في أخرى».

قال:

ـ هل ترغبين في الاستماع إلى القليل من الموسيقى؟ لا حاجة بنا لنأخذ القرار الحاسم في أيّ شأن هذا المساء.

لكنّه كان يعرف أنّ كلّ شيء كان مقرّرًا.

الفصل الثاني عشر

هل كنت أستشعر أصلاً أنّني سأصل إلى هنا؟ عندما اختلست هذه القارورة الصغيرة من حقيبة بول، كنت أنوي رميها. وأخفيتها في عمق علبة القفازات. يكفي أن أصعد إلى غرفتي. حركة واحدة وينتهي كلّ شيء. أشعر بالاطمئنان لدى تفكيري على هذا النّحو. أسند خدّي إلى العشب الدافئ وأقول بصوت خفيض: «أريد أن أموت». يختفي انقباض حلقي وأشعر فجأة أنّني هادئة جدًّا.

ليس لويس هو السبب. منذ خمسة عشر يومًا ذبلت الأوركيديا ورميتها. القضيّة منتهية. منذ وجودي في شيكاغو، بدأت أشفى. وسأشفى، هذا محتّم عليّ. ليس السبب هؤلاء الناس الذين يُقتلون في كلّ مكان، ولا الحرب التي يخيّم شبحها فوق رؤوسنا: أن يُقتل الإنسان أو يموت، فالفارق ليس كبيرًا والجميع يموتون، في الأربعين تقريبًا. كلّ شيء من ذلك لا يمسّني. لو كانت الأشياء تمسّني لشعرت أنّني حيّة ولتمنّيت مواصلة حياتي. لكن من جديد، وكما في ذلك النهار حين كنت في الخامسة عشرة حين صرخت من شدّة هلعي، الموت يطاردني. لم أعد في الخامسة عشرة. لم أعد أملك القدرة على الهرب. هربًا من بضعة أيّام انتظار، يشنق المحكوم بالإعدام نفسه في زنزانته: ويريدون أن أصبر سنوات! ما جدوى ذلك؟ أنا متعبة. يبدو الموت أقلّ رعبًا. عندما نكون متعبين. إذا كنت أستطيع أن أموت رغبة في الموت، فلأنتهز الفرصة.

منذ خمسة عشر يومًا وهذا يدوم: منذ اللحظة التي حطّت بي الطائرة في باريس. كان روبير ينتظرني في محطّة ليزانفاليد. لم يرني في الحال. كان يمشي على طول الرصيف بخطى قصيرة كرجل عجوز وفكّرت بلمحة برق: «إنّه عجوز!» ابتسم لي، كانت نظرته شابّة كما من قبل لكنّ وجهه بدأ يتفكّك وسيمتثل حتى اليوم الذي سيتحلل فيه. منذ ذلك الحين ولا أكفّ عن التفكير: «سيعيش لعشر أو خمس عشرة سنة أو عشرين سنة، عشرين سنة فترة قصيرة ربّما! ومن ثم سيموت. سيموت قبلي». في الليل أفيق مذعورة وأفكّر: «سيموت قبلي». كان يتحدّث إلى هنري في ذلك الصباح وكانا يقولان إنّه يفترض بهما أن يبدآ من جديد وإنّنا نبدأ دومًا من جديد، ولا نستطيع أن نفعل شيئًا آخر. كانا يخطّطان لمشاريع ويتناقشان حولها. وأنا أنظر إلى أسنانه. الأسنان هي وحدها المستقيمة في جسد الإنسان: «الأسنان تظهر بوضوح حين يكشف الهيكل العظمي عن نفسه. نظرت إلى هيكل روبير وقلت في نفسي: «ينتظر أن تحين ساعته». وستحين ساعته. نترك على فراش الموت لفترة طويلة تقريباً لكن ليس هناك سبيل للنجاة. رأيت روبير مسجّى فوق سرير، سحنته بلون الشمع وعلى شفتيه ابتسامة زائفة. سأكون وحيدة أمام جثّته. التماثيل الحجريّة للراقدين الهانئين الذين ينامون جنبًا إلى جنب في المدافن، وهؤلاء الأزواج المتعانقون فوق جرارهم الجنائزيّة، أيّ كذبة هذه! بالإمكان مزج رفات موتانا: لكنّهم لن يلتبسوا علينا. اعتقدت أنّنا لمدّة عشرين سنة معًا. لكن لا، كلٌّ وحده، محتبس في جسده، الذي يتلقى الدم عبر

شرايينه التي تتصلّب تحت الجلد الذي يجفّ، مع كبده وكليتيه اللتين تتلفان ودمه الذي يصفرّ شيئًا فشيئًا وموته الذي يصبح كالثمرة اليانعة التي حان موعد قطافها ثم يرحل تاركًا الجميع.

أعرف ماذا سيقول روبير لي. وقد قاله لي سلفًا: «لست ميتًا مع وقف التنفيذ. أنا حيّ». أقنعني. لكنّه والحالة هذه يتحدّث إلى امرأة حيّة والحياة حقيقة الأحياء. كنت ألهو بفكرة الموت: مع الفكرة فقط. فأنا لا زلت من هذا العالم. اليوم، الأمر مختلف لم أعد ألهو. الموت هنا. الموت يحجب أزرق السماء. ويلتهم الماضي ويفترس المستقبل. الأرض متجلّدة والعدم استعدادها. ثمّة حلم سيّئ لا يزال يعوم عبر الأبديّة: مجرّد فقاعة، سافقأها.

اتّكأت إلى كوعي: نظرت إلى البيت والزيزفون والمهد حيث تنام ماريّا. يوم كالأيّام الأخرى، وفي الظاهر، السماء زرقاء. لكن أيّ صحراء! كلّ شيء صامت. ربّما كان هذا الصمت هو فقط صمت قلبي. لم يعد هناك حبّ فيّ، لأيّ أحد ولأيّ شيء. كنت أفكّر: «العالم شاسع، لا ينضب، ليس لدينا ما يكفي من الحياة لنرتوي منه وننال مرامنا!» ونظرت إليه بلامبالاة. لم يعد إلاّ منفى هائلاً. ما همّني من المجرّات البعيدة ومليارات البشر الذين سيجهلونني إلى الأبد! ليس لديّ إلاّ حياتي، وحدها لها أهمّيّة ولم يعد لها بالضبط. لا أجد ما يمكن عمله على هذه الأرض. مهنتي! يا للمزحة! كيف أجرؤ على منع امراة من البكاء أو أجبر رجلاً على أن ينام؟ نادين تحبّ هنري، لم أعد أساوي شيئًا بالنسبة لها. روبير كان سعيدًا معي كما كان بإمكانه أن يكون سعيدًا مع أيّ

امرأة أخرى أو وحيدًا. «أعطه أوراقا ووقتاً ولن ينقصه شيء». ربما سيتحسّر عليّ! بالطبع، لكنّه ليس موهوبًا في الحسرات. وعلى أيّ حال سيكون عمّا قريب تحت التّراب هو أيضًا: كان لويس بحاجة إليّ. فكّرت: «فات الوقت على البدء، فات الوقت كثيرًا على البدء من جديد». تذرّعت بأسباب عديدة ولم تعد هذه الذرائع تقنعه الآن. لم يعد بحاجة إليّ. أرهف السمع: ما من نداء ولا في أيّ مكان. لا شيء يقيني من هذه القارورة الصغيرة التي تنتظرني داخل علبة القفازات.

استويت في جلستي. نظرت إلى ماريّا. على وجهها الصغير المقلق، كان هذا موتي الذي ألمحه. ذات يوم، ستبلغ عمري، وأنا بعيدة عن هذا العالم. إنّها نائمة، تتنفّس، حقيقيّة فعلاً: إنّها واقع المستقبل والنسيان. سيأتي الخريف. ستتجوّل في هذا البستان ربّما، أو في مكان آخر. إذا تلفظت على سبيل الصدفة باسمي فلا أحد سيجيبها: وسيضيع صمتي في الصمت الكونيّ. لكنّها لن تتلفظ باسمي. سيكون غيابي من الكمال بحيث إنّ الجميع سيتجاهله. هذا الفراغ يبعث على الدوار.

ومع ذلك فأنا أذكر. كانت الحياة أحيانًا جميلة كعيد شعبيّ، وكان النوم ناعمًا مثل ابتسامة. في «غاو»، كنّا ننام على شرفة الفندق. وعند الفجر، كان النسيم يتغلغل في الناموسيّة، والسرير يتأرجح مثل قارب. كان ذلك على جسر سفينة تتصاعد منها رائحة القطران. ارتفع قمر ضخم برتقالي خلف إيجين. امتزجت السماء والأرض في مياه المسيسيبي والأرجوحة تمايلت في الباحة حيث

تنقنق الضفادع، ورأيت الكواكب تتدحرج فوق رأسي. نمت في رمل الكثبان، وفي شعير الأهراءات، وفوق الخزّ، وإبر الصنوبر، وتحت الخيم، وفي مدرج دلفي، ومسرح إيبيدور والسماء غطائي، وفوق أرضيّة غرف الانتظار، وعلى مقاعد خشبيّة، وفي أسرّة عتيقة ذات قبّة، أسرّة ريفيّة كبيرة محشوّة بالريش، وعلى شرفات، وعلى مقاعد، وعلى سطوح، ونمت أيضًا بين ذراعيه. كفى! كلّ ذكرى توقظ فيَّ الرغبة في الاحتضار. كم من الموتى أحمل في داخلي! ماتت الفتاة الصغيرة التي تؤمن بالجنّة. ماتت الصبيّة التي تعتقد الكتب خالدة وخالدة أيضًا لأفكار وخالدين الرجال الذين أحبّتهم. ماتت المرأة الشابّة التي كانت تتجوّل هانئة في عالم منذور للسعادة. وماتت العاشقة التي كانت تستيقظ ضاحكة بين ذراعي لويس. ماتت هذه النساء فيَّ كما توفي دييغو وتلاشى حبّ لويس. اضمحللن جميعهنّ ولم يعثرن على قبر يحضنهنّ والراحة التي يمنحها الجحيم ممتنعة عليهنّ. لا يزلن يذكرن، بوهن، ويبحثن عن نوم هادئ وهنّ ينتحبن. رفقًا بهنّ فلندفنهنّ جميعًا في الوقت نفسه.

سرت نحو المنزل. مررت دون ضجّة أمام نافذة روبير. هو جالس إلى طاولته يعمل. ما أقربه منّي وما أبعده عنّي! يكفي أن أناديه ليبتسم لي: وماذا بعد؟ سيبتسم لي من مسافة لا يمكن اجتيازها. من حياته إلى موته ما من ممرّ. صعدت إلى غرفتي. فتحت علبة القفازات وأخذت القارورة. الموت الذي أبحث عنه أقبض عليه بأصابع يدي: بالضبط قارورة صغيرة بنّيّة اللون. وفجأة لم تعد هذه القارورة تهدّد حياتي باتت حلمًا أرتجيه.

اضطجعت فوق سريري وأغمضت عينيّ. أحسست بالبرد ومع ذلك كنت أتصبّب عرقًا. خفت. أحدهم سيدسّ السمّ لي. كنت أنا من يفعل هذا. لم أعد أنا. الظلمة قاتمة وكلّ شيء صار نائيًا. أمسكت القارورة. خفت، لكن، بكلّ العزم الذي أمتلكه، أردت أن أهزم الخوف. سأهزمه. سأتجرّع السمّ. وإلاّ فإنّي سأغرق في الواقع الأليم من جديد. لا أريد. كلّ شيء سيعاود. سأستعيد أفكاري منتظمة، دومًا في النظام نفسه. وأيضًا الأشياء والناس. ماريّا في سريرها، دييغو في لا مكان، روبير في مسيره الهانئ نحو موته، لويس نحو النسيان. وأنا إلى رشدي، الرشد الذي يحافظ على النظام. بات الماضي ورائي والمستقبل أمامي غير مرئيّ. انفصل النور عن الظلمة. هذا العالم المنبثق بظفر من العدم وقلبي الذي يخفق بالضبط حيث هو، لا في شيكاغو ولا بالقرب من جثّة روبير، بل في قفصه، بين أضلعي. كلّ شيء يعاود من جديد. قلت في نفسي: «مررت بنوبة انهيار عصبي». البداهة التي تسمّرني على هذا السرير. سأفسّرها بردّها إلى الانهيار العصبيّ. لا! أنكرت ما يكفي. نسيت ما يكفي، هربت ما يكفي. لمرّة، لمرّة واحدة، وإلى الأبد أريد أن أجعل الحقيقة تنتصر. الموت انتصر: إنّه حقيقة الوجود الآن، تكفي حركة واحدة وتصبح هذه الحقيقة أبديّة.

فتحت عينيّ. النهار طالع. لكن لم يعد هناك من فرق بين الليل والنهار. كنت أعوم فوق ذاتي في هذا الصمت الرهيب: صمت مهيب متخشّع كما حين كنت أنام فوق لحافي الريشي منتظرة أن يخطفني الملاك. صمت في الحديقة، صمت في الغرفة. أنا أيضًا لم

أعد خائفة. كلّ شيء يشهد على موتي. وأنا أشهد عليه. لم يعد قلبي يخفق من أجل أحد: كما لو أنّه لم يعد يخفق قطّ، كما لو أنّ جميع الناس الآخرين تلاشوا من جديد وأصبحوا هباء.

تصاعدت إليّ أصوات من الحديقة: خطوات، أصوات. لكنّها لم تشوّش على الصمت. كنت أرى وكنت عمياء. كنت أسمع وكنت صمّاء. قالت نادين بصوت عالٍ جدًّا وغاضب: «لم يكن يفترض بأمّي أن تترك ماريّا وحدها». عبرت الكلمات من فوق رأسي دون أن تلمسني. لم يعد بإمكان كلماتهم أن تبلغني. وفجأة، اعتمل في داخلي صدى خافت: ضجّة صغيرة قارصة: «هل حصل شيء ما؟» ماريّا وحدها على المرجة: يمكن لقطّة أن تخدشها أو لكلب أن يعضّها. لا: أسمع ضحكًا في الحديقة. لكنّ الصمت لم ينغلق من جديد. الصدى تكرّر: «لم يكن يفترض بي». وتخيّلت صوت نادين الهائل والمستنكر: «لم يكن يفترض بك! لا يحقّ لك!». تصاعد الدم إلى وجهي وشيء ما فيه حياة حرق قلبي: «لا يحقّ لي!» الحريق أيقظني. استويت من جديد. نظرت إلى الجدران بذهول. كنت أمسك القارورة بيد. الغرفة فارغة لكنّي لست وحدي. سيدخلون إلى الغرفة. لن أرى شيئًا لكنّهم سيرونني. كيف لم أفكّر بذلك؟ لا أستطيع أن أفرض عليهم جثّتي وكلّ ما يستتبع ذلك من مشاعر الحزن في قلوبهم: أستطيع أن أتخيّل روبير منحنيًا فوق هذا السرير، لويس في منزل باركر والكلمات تتراقص في عينيه، نادين تنتحب انتحابًا مسعورًا. لا أستطيع. نهضت. قمت ببعض الخطوات

وسقطت جالسة أمام منضدة الزينة. أمر غريب. سأموت وحدي. ومع ذلك فموتي سيعيشه الآخرون.

لوقت طويل بقيت أمام المرآة أنظر إلى وجهي الأشبه بوجه عائدة من الموت. ستصبح الشفتان زرقاوين والمنخران مزمومين، لكن ليس لي: بل لهم. لا ينتمي موتي إليّ. القارورة لا تزال هنا، في متناول يدي. الموت حاضر دومًا لكنّ الأحياء حاضرون أكثر: على الأقلّ ما دام روبير حيًّا فلن أستطيع التخلص منهم. أرجعت القارورة إلى مكانها. محكومة بالموت لكن أيضًا محكومة بالحياة. لكم من الوقت؟ عشر سنوات؟ عشرين سنة؟ قلت: عشرون سنة وقت قصير. أمّا الآن فتبدو لي عشر سنوت لامتناهية وكأنّها نفق طويل أسود.

ــ ألن تنزلي؟

قرعت نادين. دخلت. وقفت بالقرب منّي. شعرتني شاحبة. كانت ستدخل وكانت ستراني فوق السرير، والجسد يختلج اختلاجته الأخيرة: يا للفظاعة!

قالت لي بصوت قلق:

ــ ما بالك ؟ هل أنت مريضة؟

ــ شعرت بألم في الرأس. وصعدت لتناول الأسبيرين.

خرج صوتي دون جهد من فمي وبدا لي طبيعيًّا.

قالت نادين بصوت معاتب:

ــ وتركت ماريّا وحدها.

ـ كنت سأنزل في الحال لكنّي سمعتك. عندئذٍ بقيت لأرتاح قليلاً. ثم أضفت: أنا الآن أحسن حالاً.

نظرت إليّ نادين بارتياب. لكن كلّ ما ترتاب به هو أنّ لديّ مشاكل عاطفيّة.

ـ هل هذا صحيح؟ هل تشعرين بتحسّن؟

ـ الأسبيرين جعلني أشعر بالارتياح. نهضت لكي أهرب من هذه النظرات المتحرّية: «لننزل».

ناولني هنري كأس ويسكي. كان ينظر إلى بعض الأوراق مع روبير الذي أخذ يشرح لي أشياء والبشاشة تعلو وجهه. تساءلت بذهول: «كيف أمكنني أن أكون بهذا الطيش؟ كيف لم أفكّر بالندامات التي لا تنتهي التي كنت أحضّرها له؟» لا، لم يكن هذا طيشًا. لوهلة عبرت حقًّا إلى الجهة الأخرى، هناك حيث لا شيء يستحقّ التوقف عنده، وحيث لا قيمة لأيّ شيء.

قال روبير:

ـ هل تسمعينني؟ ثم ابتسم: «أين كنت؟».

ـ هنا.

أنا هنا. هم يحيون. يكلّمونني. أنا حيّة. من جديد عدت إلى حياتي بقدمين واثقتين. الكلمات تدخل وتستعيد معانيها شيئًا فشيئًا. ها هي مقاييس المجلّة الأسبوعيّة والتصاميم المجسّمة التي يقترحها هنري.

هل أستطيع أن اقترح عنوانًا لها؟ حتى الآن، العناوين التي اقترحت غير مناسبة. بحثت عن عنوان، قلت في نفسي: بما أنّ لهم كانوا من القوّة ما يكفي بحيث انتشلوني من الموت، ربَّما سيستطيعون مساعدتي من جديد على الحياة. سيستطيعون حتمًا. إمّا نغرق في اللامبالاة، وإمّا تعود الأرض من جديد آهلة بسكّانها. لم أغرق. لأنّ قلبي يستمرّ في الخفقان. يجب أن يخفق من أجل شيء ما، من أجل شخص ما. وبما أنّني لست صمّاء سأسمعهم من جديد. من يدري؟ ربَّما ذات يوم. سأعود من جديد سعيدة. من يدري؟

المؤلفة:

لمحة عن سيمون دو بوفوار

لم تكن الكاتبة الفرنسية سيمون دو بوفوار (١٩٠٨ - ١٩٨٦) مجرد رفيقة للفيلسوف جان - پول سارتر، بل استطاعت بقوّة إنجازاتها الأدبية أن تصبح أحد الرموز النسائية والفكرية في القرن العشرين. عُرفتْ بمواهبها المتعدّدة كمؤلفة الجنس الثاني الذي يعتبر الكتاب الرائد في مجال تحرر المرأة. وككاتبة سيرة رسمتْ صورة للعصر وأرّخت له في ثلاثيتها الشهيرة: مذكرات فتاة رصينة ، ذروة الحياة وقوة الأشياء. ونالت، كروائيّة عن كتابها: المثقفون جائزة غونكور الأدبية عام ١٩٥٤.

بعد مرور مئة سنة على ولادتها لا تزال مؤلّفات سيمون دو بوفوار في قلب الحداثة، ومرآةً لقضايا الإنسان المعاصر.

المترجمة:

لمحة عن ماري طوق

مواليد لبنان عام ١٩٦٣. نالت درجة في الدراسات العليا في الأدب الفرنسي والترجمة، وتعمل أستاذة في الأدب الفرنسيّ.

تَرجمتْ روايات عالمية عديدة، منها: الجميلات النائمات لياسورناري كواباتا، والمرأة العسراء لپيتر هاندكه، والجبل الخامس لباولو كويلو.